الإرشاد

إلى صحيح الاعتقاد

والرد على أهل الشرك والإلحاد

الْمَوْقِعُ الرَّسْمِيُّ
أبو عبد الرحمن
عمرو بن هيمان بن نصر الدين بن محمد توفيق
المصري السلفي الأثري

جَمِيعُ الحُقُوقِ مَحْفُوظَة

الطَّبعَة الأولى

١٤٣٦هـ

دار ابن الجوزي

للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية: الدمام - طريق الملك فهد - ت: ٨٤٢٨١٤٦ - ٨٤٦٧٥٩٣، ص ب: ٢٩٥٧

الرمز البريدي: ٣١٤٦١ - الرقم الإضافي: ٨٤٠٦ - فاكس: ٨٤١٢١٠٠ - الرياض - تلفاكس: ٢١٠٧٢٢٨

جوّال: ٠٥٠٣٨٥٧٩٨٨ - الإحساء - ت: ٥٨٨٣١٢٢ - جدة - ت: ٦٨١٣٧٠٦ - ٠٥٦٣٤٧٦٣٨٨ - بيروت

هاتف: ٠٣/٨٦٩٦٠٠ - فاكس: ٠١/٦٤١٨٠١ - القاهرة - ج.م.ع - محمول: ٠١٠٠٦٨٢٣٧٣٨٨

تلفاكس: ٠٢٤٤٣٤٤٩٧٠ - الإسكندرية - ٠١٠٦٩٠٥٧٥٧٣ - البريد الإلكتروني:

aljawzi@hotmail.com - www.aljawzi.com

الإرشاد

إلى صحيح الاعتقاد

والرد على أهل الشرك والإلحاد

تأليف

فضيلة الشيخ

د. صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان

عضو اللجنة الدائمة للإفتاء وعضو هيئة كبار العلماء

نسخة مزيدة ومنقحة

اعتنى به وأعده للنشر

فهد بن إبراهيم الفعيم

دار ابن الجوزي

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، وبعد: فقد أذنت للشيخ فهد بن إبراهيم النفيسة بطباعة كتابي «الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد» رجاء الانتفاع به إن شاء الله. وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه

كتبه

صالح بن فوزان الفوزان

عضو هيئة كبار العلماء

في ٢٤/٦/١٤٢٥هـ

المقدمة

الحمد لله ربِّ العالمين، خلقنا لعبادته، وأمرنا بتوحيده وطاعته، وهو غني عنَّا ونحن المحتاجون، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝٥٧ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ۝٥٨﴾ [الذّاريَات: ٥٦ ـ ٥٨].

أرسل رسله دعاة إلى التوحيد وإخلاص الدين، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ۝٢٥﴾ [الأنبيَاء: ٢٥].

وأشهد أن لا إلـٰه إلا الله وحده لا شريك له، ولو كره المشركون، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله إلى الناس أجمعين، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه؛ الذين هاجروا وجاهدوا وصبروا، والذين آووا ونصروا، وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين.

أما بعد:

فلما كان توضيح العقيدة الصحيحة والدعوة إليها هو أهم الأمور وآكد الواجبات؛ لأنها الأساس الذي تنبني عليه صحة الأعمال وقبولها؛ كان اهتمام الرسل صلوات الله وسلامه عليهم، واهتمام أتباعهم بإصلاح العقيدة أولاً عما يُنَاقِضها أو يُنْقِصها، وكان نصيب هذا الجانب من سور القرآن وآياته النصيب الأوفر، وكان

نصيبه من دعوة الرسول ﷺ واهتمامه النصيب الأكبر؛ فقد مكث ﷺ في مكة ثلاث عشرة سنة يدعو إلى التوحيد وإصلاح العقيدة، ولما فتح الله عليه مكة كان أول ما بدأ به هدم الأصنام والقضاء عليها، والأمر بإخلاص العبادة لله وحده لا شريك له.

وقد أولى علماء هذه الأمة هذا الجانب قدراً كبيراً من جهودهم وجهادهم وتعليمهم وتأليفهم؛ حتى شغلت كتب العقيدة حيزاً كبيراً من المكتبة الإسلامية، وصار لها الصدارة بين محتوياتها.

وقد أحببت أن أسهم بجهدي القليل في هذا العمل الجليل، فكتبت هذه الكلمات التي أقدمها للقارئ، وأرجو من الله أن ينفع بها مؤلفها وقارئها؛ وهي لم تأت بشيء جديد، وإنما هي تقريب لبعض المعلومات، وقد يكون فيها ربط لواقع الناس اليوم وممارساتهم بتلك المعلومات؛ حتى يتضح حكمها، ويتبين خطأ أصحاب تلك الممارسات لعلهم يرجعون، ونصيحةٌ لغيرهم لعلهم يحذرون.

وقد اقتبست هذه الكلمات من كتب أئمة الدين، وعلماء المسلمين؛ ككتب شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم وتلميذه الحافظ ابن كثير، ومن كتب شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب وتلاميذه أئمة الدعوة الإصلاحية ـ رحم الله الجميع ـ، خصوصاً كتاب «فتح المجيد» للشيخ العلامة عبد الرحمٰن بن حسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ولا أدعي أنني أتيت بجديد، وإنما أرجو أن أكون قربت بعض المعلومات، وربطتها بواقع الناس كلما سنحت فرصة وعرضت مناسبة.

وأصل هذا الكتاب حلقات أذيعت من (إذاعة القرآن الكريم) في المملكة العربية السعودية، وما كان في نيتي أن تخرج في كتاب لولا تقدير الله سبحانه وإعانته، ثم إن بعض الإخوة الكرام اقترح عليَّ جمعها وتنسيقها وإخراجها في كتاب؛ ليبقى نفعها ـ إن شاء الله ـ، وأرجو أن يكون في ذلك الخير، وأن تكون إسهاماً ـ ولو ضئيلاً ـ في مجال الدعوة إلى الله سبحانه، في وقت جُهِلت فيه طريقة الدعوة الصحيحة، وصار كثير من الدعاة يهتمون بجوانب ضئيلة لا تُسْمِن ولا تغني من جوع بدون العقيدة، ويتركون جانب العقيدة، وهم يرون كثيراً من الناس متورِّطينَ في الشرك الأكبر حول الأضرحة والمزارات، ومتورِّطينَ في البدع والخرافات، ويرون دعاة الضلال قد استحوذوا على كثير من الجهلة والعوام، وساقوهم إلى مواقع الهلاك والضلال، واتخذوهم عبيداً لهم يتصرفون بعقولهم وأموالهم ويترأَّسون عليهم بالباطل وباسم العلم والولاية.

إن كثيراً من الدعاة اليوم ـ مع الأسف ـ لا يهتمون بجانب العقيدة وإصلاحها في قلوب الناس وأعمالهم، بل ربما يقول بعضهم: اتركوا الناس على عقائدهم، ولا تتعرَّضوا لها، اجمعوا ولا تُفَرِّقوا؛ لنجتمع على ما اتفقنا عليه، وليعذر بعضنا بعضاً فيما اختلفنا فيه!!؛ أو نحواً من هذه العبارات التي تخالف قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ٥٩﴾ [النِّساء: ٥٩].

إنه لا اجتماع ولا قوة إلا بالرجوع إلى كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ؛ وترك ما خالفهما، ولا سيما في مسائل العقيدة التي هي الأساس؛ قال تعالى: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ﴾ [آل عِمرَان: ١٠٣]، ولا يُصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها.

والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه.

۞ ۞ ۞

العقيدة الإسلامية

العقيدة الإسلامية: هي التي بعث الله بها رسله، وأنزل بها كتبه، وأوجبها على جميع خلقه الجن والإنس؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝٥٧﴾ [الذّاريَات: ٥٦ ـ ٥٧]، وقال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسرَاء: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النّحل: ٣٦].

فكل الرسل جاءوا بالدعوة إلى هذه العقيدة، وكل الكتب الإلـٰهية نزلت لبيانها وبيان ما يبطلها ويناقضها أو ينقصها، وكل المكلفين من الخلق أُمِرُوا بها، وإن ما كان هذا شأنه وأهميته لجدير بالعناية والبحث والتعرف عليه قبل كل شيء، خصوصاً وأن هذه العقيدة تتوقف عليها سعادة البشرية في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا﴾ [البَقَرَة: ٢٥٦].

ومعنى ذلك: أن من أفلت يده من هذه العقيدة؛ فإنه يكون متمسكاً بالأوهام والباطل؛ ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [يونس: ٣٢]، ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ۝٣٠﴾ [لقمَان: ٣٠]، ومن ثم يكون مصيره إلى النار وبئس القرار.

والعقيدة معناها: ما يصدقه العبد ويدين به؛ فإن كانت هذه العقيدة موافقة لما بعث الله به رسله وأنزل به كتبه؛ فهي عقيدة صحيحة سليمة؛ تحصل بها النجاة من عذاب الله، والسعادة في الدنيا والآخرة، وإن كانت هذه العقيدة مخالفة لما أرسل الله به رسله وأنزل به كتبه؛ فهي عقيدة توجب لأصحابها العذاب والشقاء في الدنيا والآخرة.

والعقيدة السليمة الصحيحة: تعصم الدم والمال في الدنيا وتحرّم الاعتداء عليهما وانتهاكهما بغير حق؛ كما قال النبي ﷺ: «**أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَمَنْ قَالَهَا فَقَدْ عَصَمَ مِنِّي مَالَهُ وَنَفْسَهُ إِلَّا بِحَقِّهِ وَحِسَابُهُ عَلَى اللهِ**»[(١)]، وقال ﷺ: «**مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَكَفَرَ بِمَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ حَرُمَ مَالُهُ وَدَمُهُ وَحِسَابُهُ عَلَى اللهِ**»[(٢)].

وهي أيضاً تنجي من عذاب الله يوم القيامة؛ فقد روى مسلم عن جابر رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «**مَنْ لَقِيَ اللهَ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ لَقِيَهُ يُشْرِكُ بِهِ دَخَلَ النَّارِ**»[(٣)]. وفي «الصحيحين» من حديث عتبان بن مالك رضي الله عنه: «**فَإِنَّ اللهَ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللهِ**»[(٤)].

والعقيدة الصحيحة السليمة: يُكفِّر الله بها الخطايا؛ فقد روى الترمذي وحسّنه عن أنس رضي الله عنه: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٩٩)، ومسلم (٢١).
(٢) أخرجه مسلم (٢٣).
(٣) أخرجه مسلم (٩٣).
(٤) أخرجه البخاري (٥٤٠١)، وبنحوه مسلم (٣٣).

«قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ... يَا بْنَ آدَمَ إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئاً لأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً»(١). وقراب الأرض: ملؤها أو ما يقارب ملأها؛ فشرط حصول هذه المغفرة سلامة العقيدة من الشرك؛ كثيرة وقليلة، صغيرة وكبيرة، ومن كان كذلك؛ فهو صاحب القلب السّليم الذي قال الله فيه: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشُّعَرَاء: ٨٨ ـ ٨٩].

قال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في معنى حديث عتبان: (ويعفى لأهل التوحيد المحض الذي لم يشوبوه بالشرك ما لا يعفى لمن ليس كذلك؛ فلو لقي الموحد الذي لم يشرك بالله شيئاً البتة ربه بقراب الأرض خطايا أتاه بقرابها مغفرة، ولا يحصل هذا لمن نقص توحيده وشابه بالشرك؛ فإن التوحيد الخالص الذي لا يشوبه شرك لا يبقى معه ذنب؛ فإنه يتضمن من محبة الله تعالى وإجلاله، وتعظيمه، وخوفه، ورجائه وحده ما يوجب غسل الذنوب، ولو كانت قراب الأرض؛ فالنجاسة عارضة، والدافع لها قوي...)(٢) انتهى.

والعقيدة السليمة: تقبل معها الأعمال وتنفع صاحبها؛ قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النّحل: ٩٧]، وعلى العكس من ذلك؛ فالعقيدة الفاسدة تحبط جميع الأعمال؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ

(١) أخرجه الترمذي (٣٥٤٠).

(٢) إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان (١/ ٦٣ ـ ٦٤).

وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ [الزُّمَر: ٦٥]، وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنعَام: ٨٨].

والعقيدة الفاسدة بالشرك تحرم من الجنة والمغفرة، وتوجب العذاب والخلود في النار؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ﴾ [النِّسَاء: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾﴾ [المَائدة: ٧٢].

والعقيدة الفاسدة تهدر الدم، وتبيح المال الذي يملكه صاحب تلك العقيدة، قال تعالى: ﴿وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ﴾ [الأنفَال: ٣٩]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾﴾ [التّوبَة: ٥].

ومن ثم فالعقيدة السليمة لها آثار طيبة في القلوب والسلوك الاجتماعي والنظام العمراني، وقد وجد فريقان كل منهما بنى مسجداً في عهد رسول الله ﷺ؛ فريقٌ بنى مسجده بنيّة صالحة وعقيدة خالصة لله ﷻ، وفريق بنى مسجده لهدف سيئ وعقيدة فاسدة، فأمر الله نبيه أن يصلي في المسجد الذي أُسس على التقوى، ونهاه أن يصلي في المسجد الذي أُسس على الكفر والمقاصد السيئة؛ قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ

ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾ [التّوبة: ١٠٧ ـ ١٠٩].

وجوب معرفة العقيدة الإسلامية

اعلموا ـ وفقني الله وإياكم ـ أنه يجب على كل مسلم أن يتعلم العقيدة الإسلامية؛ ليعرف معناها وما تقوم عليه، ثم يعرف ما يضادها ويبطلها أو ينقصها من الشرك الأكبر والأصغر؛ قال الله تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ [محمَّد: ١٩].

قال الإمام البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «باب العلم قبل القول والعمل» واستشهد بهذه الآية الكريمة، ثم قال: (.. فبدأ بالعلم).

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (قَالَ ابْنُ الْمُنِيرِ: أَرَادَ بِهِ أَنَّ الْعِلْمَ شَرْطٌ فِي صِحَّةِ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ، فَلَا يُعْتَبَرَانِ إِلَّا بِهِ، فَهُوَ مُتَقَدِّمٌ عَلَيْهِمَا لِأَنَّهُ مُصَحِّحٌ لِلنِّيَّةِ الْمُصَحِّحَةِ لِلْعَمَلِ..)(١) انتهى.

ومن هنا اتجهت همم أهل العلم إلى تعلم أحكام العقيدة وتعليمها، واعتبروا ذلك من أوليات العلوم، وألّفوا فيها مؤلفات خاصة؛ فصّلوا فيها أحكامها وما يجب فيها، وبينوا ما يفسدها أو ينقصها من الشركيات والخرافات والبدع.

وهذا هو معنى لا إلـٰه إلا الله، فليست مجرد كلمة تقال باللسان، بل لها مدلول ومعنى ومقتضى؛ تجب معرفتها كلها والعمل

(١) فتح الباري (١/ ١٦٠).

بها ظاهراً وباطناً، ولها نواقض ونواقص، ولا يتضح ذلك إلا بالتعلم.

ولهذا يجب أن يكون لعلم العقيدة الصدارة بين المناهج المدرسية في مختلف المراحل، وأن تعطى من الحصص اليومية العدد الكافي، ويختار لها المدرسون الأكفاء، وأن يركز عليها في النجاح والرسوب، وهذا خلاف ما عليه غالب واقع الدراسات المنهجية اليوم؛ فإن علم العقيدة في الغالب لا يحظى بالاهتمام في تلك الدراسات؛ مما يخشى من ورائه أن ينشأ جيل يجهل العقيدة الصحيحة، فيستسيغ الشركيات والبدع والخرافات، ويعتبرها من العقيدة؛ لأنه وجد الناس عليها ولم يعرف بطلانها.

ولهذا قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (يوشك أن تنقض عرى الإسلام عروة عروة؛ إذا نشأ في الإسلام من لا يعرف الجاهلية).

هذا ويجب اختيار الكتب الصحيحة السليمة، التي ألفت على مذهب السلف الصالح وأهل السُّنَّة والجماعة، والمطابقة للكتاب والسُّنَّة، فتُقرر على الطلاب، وتستبعد الكتب المخالفة لمنهج السلف؛ ككتب الأشاعرة والمعتزلة والجهمية، وسائر الفرق الضالة عن منهج السلف.

وإلى جانب الدراسة النظامية يجب أن يكون هناك دروس تعقد في المساجد، تدرس فيها العقيدة السلفية في المقام الأول، وتقرأ فيها المتون والشروح؛ ليستفيد منها الطلاب وكل من حضر، ويكون

هناك مختصرات سهلة تُلقى على العامة، وبذلك تنتشر العقيدة الإسلامية الصافية، إلى جانب ما يذاع في البرامج الدينية بواسطة الإذاعة، ويكون هناك برامج مستمرة تذاع من خلالها أحكام العقيدة الإسلامية.

ثم يجب أن يوجد اهتمام خاص بالعقيدة من جانب الأفراد؛ فيكون للمسلم مطالعات في كتب العقيدة، والتعرف على ما أُلِّف فيها على منهج السلف، وما ألف على منهج المخالفين لهم، حتى يكون المسلم على بصيرة من أمره، وحتى يستطيع رد الشبه الموجهة إلى عقيدة أهل السُّنَّة.

أيها المسلم: إنك حينما تتأمل القرآن الكريم تجد فيه كثيراً من الآيات والسور تبين أحكام العقيدة وتوضحها، بل إن السور المكية تكاد تكون مختصة ببيان العقيدة الإسلامية ورد الشبهات الموجهة إليها.

خذ مثلاً سورة الفاتحة:

قال الإمام العلامة ابن القيم رحمه الله: (اعلم أن هذه السورة اشتملت على أمهات المطالب العالية أتم اشتمال وتضمنتها أكمل تضمن.

فاشتملت على التعريف بالمعبود ـ تبارك وتعالى ـ بثلاثة أسماء مرجع الأسماء الحسنى والصفات العليا إليها، ومدارها عليها، وهي: الله والربُّ والرحمٰن، وبنيت السورة على الإلـٰهية والربوبية والرحمة؛ فـ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفَاتِحَة: ٥] مبني على الإلـٰهية، ﴿وَإِيَّاكَ

نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾ [الفَاتِحَة: ٥] على الربوبية، وطلب الهداية إلى الصراط المستقيم [يتعلق] بصفة الرحمة، والحمد يتضمن الأمور الثلاثة: فهو المحمود في إلٰهيته، وربوبيته ورحمته، والثناء والمجد كمالان لجده.

وتضمنت إثبات المعاد، وجزاء العباد بأعمالهم؛ حسنها وسيئها؛ وتفرد الرب تبارك وتعالى بالحكم إذ ذاك بين الخلائق، وكون حكمه بالعدل، وكل هذا تحت قوله: ﴿مَـٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ [الفَاتِحَة: ٤] وتضمنت إثبات النبوات من جهات عديدة...)[(١)].

ثم ذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ ثمانية وجوه بكلام مطول مفيد إلى أن قال: (فالقرآن كله في التوحيد وحقوقه وجزائه، وفي شأن الشرك وأهله وجزائهم؛ فـ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَـٰلَمِينَ ۝٢﴾ [الفَاتِحَة: ٢]: توحيد، ﴿ٱلرَّحۡمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾ [الفَاتِحَة: ٣]: توحيد، ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ [الفَاتِحَة: ٦ ـ ٧]: توحيد متضمن لسؤال الهداية إلى طريق أهل التوحيد الذين أنعم الله عليهم، ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ [الفَاتِحَة: ٧]: الذين فارقوا التوحيد)[(٢)].

وقال: (وغالب سور القرآن بل كل سورة في القرآن فهي متضمنة لنوعي التوحيد... شاهدة به داعية إليه؛ فإن القرآن إما خبر عن الله وأسمائه وصفاته وأفعاله فهو التوحيد العلمي الخبري، وإما دعوة إلى عبادته وحده لا شريك له وخلع كل ما يعبد من دونه؛ فهو

(١) مدارج السالكين (١/٧).
(٢) مدارج السالكين (٣/٤٤٩ ـ ٤٥٠).

التوحيد الإرادي الطلبي، وإما أمر ونهي وإلزام بطاعته في نهيه وأمره؛ فهي حقوق التوحيد ومكملاته، وإما خبر عن كرامة الله لأهل توحيده وطاعته، وما فعل بهم في الدنيا وما يكرمهم به في الآخرة؛ فهو جزاء توحيده؛ وإما خبر عن أهل الشرك وما فعل بهم في الدنيا من النكال، وما يحل بهم في العقبى من العذاب؛ فهو خبر عمن خرج عن حكم التوحيد...)[١] انتهى.

ومع بيان القرآن وتفصيله شأن العقيدة الإسلامية؛ فإن أكثر الذين يقرؤونه لا يفهمون العقيدة فهماً صحيحاً، فصاروا يخلطون ويغلطون فيها؛ لأنهم يتبعون ما وجدوا عليه آباءهم، ولا يقرؤون القرآن بتدبر؛ فلا حول ولا قوة إلا بالله.

❁ ❁ ❁

(١) مدارج السالكين (٣/ ٤٥٠).

الدعوة إلى العقيدة الإسلامية

يجب على المسلم بعدما يمن الله عليه بمعرفة هذه العقيدة والتمسك بها أن يدعو الناس إليها؛ لإخراجهم بها من الظلمات إلى النور؛ كما قال تعالى: ﴿...فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾﴾ [البَقَرَة: ٢٥٦ ـ ٢٥٧].

والدعوة إلى العقيدة الإسلامية هي فاتحة دعوة الرسل جميعاً؛ فلم يكونوا يبدؤون بشيء قبلها؛ كما قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾ [النّحل: ٣٦]، وكل رسول كان يقول لقومه أول ما يدعوهم: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ [الأعرَاف: ٥٩]؛ كما قالها نوح وهود وصالح وشعيب وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد، وسائر الرسل عليهم صلوات الله وسلامه أجمعين.

فيجب على كل من عرف هذه العقيدة وعمل بها أن لا يقتصر على نفسه، بل يدعو الناس إليها بالحكمة والموعظة الحسنة؛ كما هو سبيل المرسلين وأتباعهم، وإن الدعوة إلى هذه العقيدة هو

الأساس والمنطلق؛ فلا يُدْعَا إلى شيء قبلها ـ من فعل الواجبات وترك المحرمات ـ حتى تقوم هذه العقيدة وتتحقق؛ لأنها هي الأساس المصحح لجميع الأعمال، وبدونها لا تصح الأعمال ولا تقبل ولا يثاب عليها، ومن المعلوم بداهة أن أي بناء لا يقوم ولا يستقيم إلا بعد إقامة أساسه؛ ولهذا كان الرسل يهتمون بها قبل كل شيء، وكان النبي ﷺ عندما يبعث الدعاة يوصيهم بالبداءة بالدعوة إلى تصحيح العقيدة.

فعن ابن عباس رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ لما بعث معاذاً إلى اليمن؛ قال له: «**إنك تأتي قوماً من أهل الكتاب؛ فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إلـه إلا الله**»، وفي رواية: «**إلى أن يوحدوا الله**»؛ «**فإن هم أطاعوك لذلك؛ فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة؛ فإن هم أطاعوك لذلك، فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم؛ فإن هم أطاعوك لذلك؛ فإياك وكرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم؛ فإنه ليس بينها وبين الله حجاب**»(١).

فمن هذا الحديث الشريف، ومن استقراء دعوة الرسل في القرآن، ومن استقراء سيرة الرسول ﷺ؛ يؤخذ منهج الدعوة إلى الله، وأن أول ما يُدْعا الناس إليه هو العقيدة المتمثلة بعبادة الله وحده لا شريك له وترك عبادة ما سواه؛ كما هو معنى لا إلـه إلا الله.

وقد مكث النبي ﷺ في مكة ثلاث عشرة سنة بعد البعثة يدعو

(١) رواه البخاري (٧٣٧٢)، ومسلم (١٩) واللفظ له.

الناس إلى تصحيح العقيدة بعبادة الله وحده، وترك عبادة الأصنام قبل أن يأمر الناس بالصلاة والزكاة والصوم والحج والجهاد، وترك المحرمات من الربا والزنى والخمر والميسر.

وهذا ما يدلنا دلالة واضحة على خطأ بعض الجماعات المعاصرة التي تنتمي للدعوة، وهي لا تهتم بالعقيدة، وإنما تركز على أمور جانبية خلقية وسلوكية، وهي ترى كثيراً من الناس يمارسون الشرك الأكبر حول الأضرحة المبنية على القبور في بعض ديار الإسلام، ولا تنكر ذلك ولا تنهى عنه لا في كلمة، ولا في محاضرة، ولا في مؤلَّف إلا قليلاً. بل قد يكون بين صفوف تلك الجماعات من يمارس الشرك والتصوف المنحرف، ولا ينهونه، ولا ينبهونه، مع أن البُداءة بدعوة هؤلاء إلى التوحيد الخالص، وإصلاح عقيدتهم أولى من دعوة الملاحدة والكفار المصرحين بكفرهم؛ لأن الكفار والملاحدة مصرحون بكفرهم، ومقرون أن ما هم عليه مخالف لما جاءت به الرسل، أما أولئك القبوريون والمتصوفة المنحرفون فيظنون أنهم مسلمون، وأن ما هم عليه هو الإسلام، فيغترون ويغرون غيرهم، والله ـ جلَّ وعلا ـ أمرنا بالبداءة بالكفار الأقربين في الدعوة وفي الجهاد، فقال تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [الشُّعَرَاء: ٢١٤]، وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ [التّوبَة: ١٢٣]؛ فما لم تُصَفَّ صفوف المسلمين من الدخيل؛ فإنهم لن يستطيعوا الصمود في وجه عدوهم الصريح.

ويحكى أن قبوريًّا رأى رجلاً يعبد صنماً أمامه، فأنكر عليه القبوري، فقال له عابد الصنم: أنت تعبد مخلوقاً غائباً عنك، وأنا أعبد مخلوقاً ماثلاً أمامي؛ فأينا أعجب؟! فخصم القبوري، هذا وإن كان كل منهما مشركاً ضالًّا؛ لأنه يعبد ما لا يملك ضرًّا ولا نفعاً، إلا أن القبوري أغرق في الضلال وأبلغ في طلب المحال.

فيجب على الدعاة إلى الله أن يركزوا على جانب العقيدة أكثر من غيرها، ويقبلوا على دراستها وتفهمها أولاً، ثم يعلموها لغيرهم، ويدعوا إليها من انحرف عنها أو أخل بها.

قال الله تعالى لنبيِّه ﷺ: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِىۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [يوسف: ١٠٨].

قال الإمام ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير هذه الآية الكريمة: (يقول تعالى ذكره لنبيِّه محمد ﷺ: ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿هَٰذِهِۦ﴾ الدعوة التي أدعو إليها والطريقة التي أنا عليها من الدعاء إلى توحيد الله وإخلاص العبادة له دون الآلهة والأوثان، والانتهاء إلى طاعته وترك معصيته، ﴿سَبِيلِىٓ﴾ وطريقتي ودعوتي ﴿أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ﴾: تعالى وحده لا شريك له، ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ بذلك ويقين وعلم مني ﴿أَنَا۠﴾؛ أي: ويدعو إليه على بصيرة أيضاً ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَنِىۖ﴾ وصدقني وآمن بي، ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ يقول له تعالى ذكره: وقل تنزيهاً لله تعالى وتعظيماً له من أن يكون له شريك في ملكه أو معبود سواه في سلطانه، ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ يقول: وأنا بريء من أهل الشرك به، لست منهم

ولا هم مني)[(١)] انتهى كلام ابن جرير.

فالآية الكريمة تدل على أهمية معرفة العقيدة الإسلامية والدعوة إليها، وأن أتباع الرسول ﷺ هم من اقتدى به في ذلك واتصف بالصفتين: العلم بالعقيدة، والدعوة إليها، وأن من لم يتعلم أحكام العقيدة ويهتم بها ويدعو إليها؛ فليس من أتباع الرسول على الحقيقة، وإن كان قد يعد نفسه من أتباعه على سبيل الانتساب والدعوى.

وقال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ **في معنى قوله تعالى:** ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [النّحل: ١٢٥]: (فذكر سبحانه مراتب الدعوة، وجعلها ثلاثة أقسام بحسب حال المدعو؛ فإنه: إما أن يكون طالباً للحق، راغباً فيه، محبًّا له، مؤثراً له على غيره إذا عرفه؛ فهذا يُدْعا بالحكمة ولا يحتاج إلى موعظة ولا جدال، وإما أن يكون معرضاً مشتغلاً بضد الحق، ولكن لو عرفه آثره واتبعه؛ فهذا يحتاج ـ مع الحكمة ـ إلى الموعظة بالترغيب والترهيب، وإما أن يكون معانداً معارضاً؛ فهذا يجادل بالتي هي أحسن؛ فإن رجع وإلا انتقل معه من الجدال إلى الجلاد إن أمكن...)[(٢)] انتهى كلام ابن القيم.

وبهذا تبين منهج الدعوة وما ينبغي فيها، وتبين خطأ ما تنتهجه بعض الجماعات المنتمية إلى الدعوة، وهي تخالف المنهاج السليم الذي بيَّنه الله ﷻ ورسوله ﷺ.

---

(١) تفسير ابن جرير، سورة يوسف، الآية رقم (١٠٨).

(٢) الصواعق المرسلة (٤/١٢٧٦).

بيان أصول العقيدة الإسلامية إجمالاً وأدلتها

- الأصل الأول: الإيمان بالله ﷻ.
- الأصل الثاني: الإيمان بالملائكة.
- الأصل الثالث: الإيمان بالكتب.
- الأصل الرابع: الإيمان بالرسل.
- الأصل الخامس: الإيمان باليوم الآخر.
- الأصل السادس: الإيمان بالقضاء والقدر.

ويتبع هذه الأصول الأساسية أصلان آخران هما تبعٌ لما تقدم:

- الموالاة والمعاداة على هذه الأصول.
- الحذر من البدع والابتداع القادح في شرط المتابعة.

تمهيد

اعلم أيها المسلم ـ وفقني الله وإياك ـ أن أصول العقيدة الإسلامية التي هي: عقيدة الفرقة الناجية أهل السُّنَّة والجماعة هي: الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والإيمان بالقدر خيره وشره، وهذه الأصول دلت عليها نصوص كثيرة من الكتاب والسُّنَّة، وأجمعت عليها الأمة، قال تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ [البَقَرَة: ١٧٧]، وقال تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ﴾ [البَقَرَة: ٢٨٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾﴾ [النِّسَاء: ١٣٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ [القَمَر: ٤٩].

وفي الحديث الصحيح عن النبي ﷺ: أنه قال: «**أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ**»(١).

وهذه الأصول العظيمة ـ وتسمى أركان الإيمان ـ قد اتفقت عليها الرسل والشرائع، ونزلت بها الكتب السماوية، ولم يجحدها

(١) أخرجه مسلم (٨).

أو شيئاً منها إلا من خرج عن دائرة الإيمان وصار من الكافرين؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ۝١٥٠ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ۝١٥١ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمۡ يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ أُوْلَٰٓئِكَ سَوۡفَ يُؤۡتِيهِمۡ أُجُورَهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ۝١٥٢﴾ [النِّسَاء: ١٥٠ ـ ١٥٢].

وهذه الأصول العظيمة والأركان القويمة تحتاج إلى شرح وبيان، وهو ما سنحاول ـ إن شاء الله ـ تقديم ما نستطيع منه في هذا الكتاب.

۞ ۞ ۞

الأصل الأول

الإيمان بالله عَزَّوَجَلَّ

وهو أساسها وأصلها، وهو يعني: الاعتقاد الجازم بأن الله رب كل شيء ومليكه، وأنه الخالق وحده المدبر للكون كله، وأنه هو الذي يستحق العبادة وحده لا شريك له، وأن كل معبود سواه فهو باطل، وعبادته باطلة، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ۝٦٢﴾ [الحَجّ: ٦٢]، وأنه سبحانه متصف بصفات الكمال ونعوت الجلال، منزه عن كل نقص وعيب.

وهذا هو التوحيد بأنواعه الثلاثة: توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات.

فالإيمان بالله تعالى يتضمن أنواع التوحيد الثلاثة؛ لأن معنى الإيمان بالله: الاعتقاد الجازم بوحدانية الله تعالى في الربوبية والألوهية وما له من الأسماء والصفات.

۞ ۞ ۞

المبحث الأول

توحيد الربوبية

فأما توحيد الربوبية: فإنه الإقرار بأن الله وحده هو الخالق للعالم، وهو المدبر، المحيي، المميت، وهو الرزاق، ذو القوة المتين، والإقرار بهذا النوع مركوز في الفطر، لا يكاد ينازع فيه أمة من الأمم: كما قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾﴾ [الزخرف: ٩]، وقال تعالى: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [المؤمنون: ٨٦ ـ ٨٧].

وهذا في القرآن كثير؛ يذكر الله عن المشركين أنهم يعترفون لله بالربوبية والانفراد بالخلق والرزق والإحياء والإماتة.

ولم ينكر توحيد الربوبية ويجحد الرب إلا شواذ من الأمم تظاهروا بإنكار الرب مع اعترافهم به في باطن أنفسهم وقرارة قلوبهم، وإنكارهم له إنما هو من باب المكابرة؛ كما ذكر الله عن فرعون أنه قال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨]، وقد خاطبه موسى عليه السلام بقوله: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ [الإسراء: ١٠٢]، وقال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤].

وهم لم يستندوا في جحودهم إلى حجة، وإنما ذلك مكابرة منهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الجاثية: ٢٤]؛ فهم لم ينكروا عن علم دلهم على إنكاره ولا سمع ولا عقل ولا فطرة.

ولما كان هذا الكون وما يجري فيه من الحوادث شاهداً على وحدانية الله وربوبيته؛ إذ المخلوق لا بد له من خالق، والحوادث لا بد لها من مُحدث؛ كما قال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الطُّور: ٣٥ ـ ٣٦].

وقال الشاعر:

وفي كل شيء له آية ... تدل على أنه واحد

لما كان لا بد من جواب على هذه الحقيقة، اضطرب هؤلاء المنكرون لوجود الخالق في أجوبتهم؛ فتارة يقولون: هذا العالم وجد نتيجة للطبيعة، التي هي عبارة عن ذات الأشياء من النبات والحيوان والجمادات؛ فهذه الكائنات عندهم هي الطبيعة، وهي التي أوجدت نفسها. أو يقولون: إن الطبيعة هي عبارة عن صفات الأشياء وخصائصها من حرارة وبرودة ورطوبة ويبوسة ونعومة وخشونة، وهذه القابليات من حركة وسكون ونمو وتزاوج وتوالد؛ هذه الصفات وهذه القابليات هي الطبيعة بزعمهم، وهي التي أوجدت الأشياء.

وهذا قول باطل على كلا الاعتبارين؛ لأن الطبيعة بالاعتبار الأول على حد قولهم تكون خالقة ومخلوقة؛ فالأرض خلقت الأرض، والسماء خلقت السماء وهكذا، وهذا مستحيل، وإذا كان

صدور الخلق عن الطبيعة بهذا الاعتبار مستحيلاً؛ فاستحالته بالاعتبار الثاني أشد استحالة؛ لأنه إذا عجزت ذات الشيء عن خلقه؛ فعجز صفته من باب أولى؛ لأن وجود الصفة مرتبط بالموصوف الذي تقوم به، فكيف تخلقه وهي مفتقرة إليه؟!.

وإذ ثبت بالبرهان حدوث الموصوف؛ لزم حدوث الصفة، وأيضاً فالطبيعة لا شعور لها؛ فهي آلة محضة، فكيف تصدر عنها الأفعال العظيمة التي هي في غاية الإبداع والإتقان، وفي نهاية الحكمة، وفي غاية الارتباط؟!.

وأيضاً فالطبيعة يعلم من لفظها بأنها مخلوقة لا خالقة؛ لأنها على وزن فعيلة فهي مطبوعة لا طابعة، كما تقول: قتيلة وذبيحة، بمعنى: مقتولة ومذبوحة.

ومن هؤلاء الملاحدة من يقول: إن هذه الكائنات تنشأ عن طريق المصادفة؛ بمعنى: أن تجمع الذرات والجزيئات عن طريق المصادفة يؤدي إلى ظهور الحياة بلا تدبير من خالق مدبر ولا حكمة؛ وهذا قول باطل ترده العقول والفِطَر؛ فإنك إذا نظرت إلى هذا الكون المنظم بأفلاكه وأرضه وسمائه وسير المخلوقات فيه بهذه الدقة والتنظيم العجيب المحكم؛ تبين لك أنه لا يمكن أن يصدر إلا عن خالق حكيم.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: (فسل الْمُعَطل الجاحد مَا تَقول فِي دولاب دائر على نهر قد أحكمت آلاته وَأحكم تركيبه، وقدرت أدواته أحسن تَقْدِير وأبلغه؛ بِحَيْثُ لَا يرى النَّاظر فِيهِ خللاً فِي مادته

وَلَا فِي صورته، وَقد جعل على حديقة عَظِيمَة فِيهَا من كل أنواع الثِّمَار والزروع يسقيها حَاجَتهَا، وَفِي تِلْكَ الحديقة من يلم شعثها وَيحسن مراعاتها وتعهدها وَالْقِيَام بِجَمِيع مصالحها فَلَا يخْتل مِنْهَا شَيْء وَلَا يتْلف ثمارها، ثمَّ يقسم قيمتهَا عِنْد الْجذاذ على سَائِر المخارج بِحَسب حاجاتهم وضروراتهم فَيقسم لكل صنف مِنْهُم مَا يَلِيق بِهِ، ويقسمه هَكَذَا على الدَّوَام؛ أترى هَذَا اتِّفَاقاً بِلَا صانع وَلَا مُخْتَار وَلَا مُدبر؛ بل اتّفق وجود ذَلِك الدولاب والحديقة وكل ذَلِك اتِّفَاقاً من غير فَاعل وَلَا قيّم وَلَا مُدبر؛ أفترى مَا يَقُول لَك عقلك فِي ذَلِك لَو كَانَ وَمَا الَّذِي يفتيك بِهِ، وَمَا الَّذِي يرشدك إليه؟! وَلَكِن من حِكْمَة الْعَزِيز الْحَكِيم أن خلق قلوباً عمياً لَا بصائر لَهَا فَلَا ترى هَذِه الآيات الباهرة إِلَّا رُؤْيَة الْحَيَوَانَات البهيمية، كَمَا خلق أعيناً لَا أبصار لَهَا)(١). انتهى كلامه رَحِمَهُ اللهُ.

❁ ❁ ❁

---

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ٢١٤).

المبحث الثاني

توحيد الألوهية

توحيد الألوهية: هو إفراد الله تعالى بجميع أنواع العبادة.

فالألوهية معناها: العبادة، والإلـه معناه: المعبود؛ ولهذا يسمى هذا النوع من التوحيد توحيد العبادة، ويسمى توحيد الإرادة والقصد، والتوحيد الطلبي.

والعبادة في اللغة: الذل، يقال: طريق معبد: إذا كان مذللاً قد وطأته الأقدام.

وأما معنى العبادة شرعاً: فقد اختلفت عبارات العلماء في ذلك مع اتفاقهم على المعنى:

فعرَّفها طائفة منهم بأنها: ما أُمِرَ به شرعاً من غير اطِّراد عرفي، ولا اقتضاء عقلي.

وعرَّفها بعضهم بأنها: كمال الحب مع كمال الخضوع.

وعرَّفها شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ **بأنها**: (اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة)[(١)].

وهذا التعريف أدق وأشمل؛ فالدين كله داخل في العبادة. ومن عرَّفها بالحب مع الخضوع؛ فلأن الحب التام مع الذل التام

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ١٤٩).

يتضمنان طاعة المحبوب والانقياد له؛ فالعبد هو الذي ذلّله الحب والخضوع لمحبوبه، فبحسب محبة العبد لربه وذله له تكون طاعته؛ فمحبة العبد لربه وذله له يتضمنان عبادته له وحده لا شريك له.

فالعبادة المأمور بها تتضمن معنى الذل ومعنى الحب، وهي تتضمن ثلاثة أركان هي: (المحبة والرجاء والخوف)، ولا بد من اجتماعها؛ فمن تعلق بواحد منها فقط لم يكن عابداً لله تمام العبادة؛ فعبادة الله بالحب فقط هي طريقة أكثر الصوفية، لا سيما الغلاة، وعبادته بالرجاء وحده طريقة غلاة المرجئة، وعبادته بالخوف فقط طريقة الخوارج.

والمحبة المنفردة عن الخضوع لا تكون عبادة؛ فمن أحب شيئاً ولم يخضع له لم يكن عابداً له؛ كما يحب الإنسان ولده وصديقه، وكذلك الخضوع المنفرد عن المحبة لا يكون عبادة؛ كمن يخضع لسلطان أو ظالم اتقاء لشره. ولهذا لا يكفي أحدهما عن الآخر في عبادة الله تعالى، بل يجب أن يكون الله أحب إلى العبد من كل شيء، وأن يكون الله عنده أعظم من كل شيء، والخوف منه وخشيته مقدمة على الخوف من كل أحد.

والعبادة هي الغاية المحبوبة لله والمرضية له، وهي التي خلق الخلق من أجلها؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريَات: ٥٦]، ولأجل تحقيقها أرسل جميع الرسل؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النّحل: ٣٦].

والعبادة لها أنواع كثيرة؛ كالصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، وصدق الحديث، وأداء الأمانة، وبر الوالدين، وصلة الأرحام، والوفاء بالعهود، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وجهاد الكفار والمنافقين، والإحسان إلى الأيتام والمساكين وابن السبيل والمملوك من الآدميين والبهائم، والدعاء، والذكر، وقراءة القرآن؛ كل ذلك من العبادة، وكذلك حب الله وحب رسوله ﷺ، وخشية الله والإنابة إليه؛ كل ذلك من العبادة، وكذلك الذبح والنذر والاستعاذة والاستعانة والاستغاثة.

فيجب صرف العبادة بجميع أنواعها لله وحده لا شريك له؛ فمن صرف منها شيئاً لغير الله؛ كمن دعا غير الله، أو ذبح أو نذر لغير الله، أو استعان أو استغاث بميت أو غائب أو بحي حاضر فيما لا يقدر عليه إلا الله؛ فقد أشرك الشرك الأكبر، وأذنب الذنب الذي لا يغفر إلا بالتوبة، سواء صرف هذا النوع من العبادة لصنم أو لشجر أو لحجر أو لنبي من الأنبياء، أو ولي من الأولياء حي أو ميت؛ كما يفعل اليوم عند الأضرحة المبنية على القبور؛ فإن الله لا يرضى أن يشرك معه في عبادته أحد؛ لا ملك مقرب ولا نبي مرسل ولا ولي ولا غيرهم، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾ [النِّسَاء: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿فَلَا تَدۡعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدٗا ١٨﴾ [الجنّ: ١٨]، وقال تعالى: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ﴾ [النِّسَاء: ٣٦].

ومع الأسف الشديد؛ فقد اتخذت القبور اليوم في بعض البلاد أوثاناً تعبد من دون الله ممن يَدَّعون الإسلام، وقد يدعو أحدهم

غير الله في أي مكان، ولو لم يكن عند قبر؛ كمن يقول: يا رسول الله، عند قيامه أو مفاجأته بشيء غريب، أو يقول: المدد يا رسول الله، أو: يا فلان. وإذا نهوا عن ذلك قالوا: نحن نعلم أن هؤلاء ليس لهم من الأمر شيء، ولكن هؤلاء أناس صالحون، لهم جاه عند الله، ونحن نطلب بجاههم وشفاعتهم، ونسي هؤلاء أو تناسوا ـ وهم يقرؤون القرآن ـ أن هذا بعينه قول المشركين؛ كما ذكره الله في القرآن في قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾﴾ [يُونس: ١٨]، وقوله تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾﴾ [الزُّمَر: ٣]، فسماهم كفاراً كذبة، وهم يعتقدون أن هؤلاء الأولياء مجرد وسائط بينهم وبين الله في قضاء حوائجهم، وهذا ما يقوله عباد القبور اليوم، ﴿تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْۗ﴾ [البَقَرَة: ١١٨].

فالواجب على علماء الإسلام أن ينكروا هذا الشرك الشنيع ويبينوه للناس، والواجب على حكام المسلمين هدم هذه الأوثان وتطهير البلاد منها، لا سيما المساجد.

وقد أنكر كثير من الأئمة المصلحين هذا الشرك، ونهوا عنه وحذروا وأنذروا، ومن هؤلاء: شيخ الإسلام ابن تيمية، وتلميذه ابن القيم، والشيخ محمد بن عبد الوهاب، والشيخ محمد بن إسماعيل

الصنعاني، والشيخ محمد بن علي الشوكاني، وكثير من الأئمة قديماً وحديثاً، وهذه مؤلفاتهم بين أيدينا.

وفي ذلك يقول الإمام الشوكاني في «نيل الأوطار»: (وَكَمْ قَدْ سَرَى عَنْ تَشْيِيدِ أَبْنِيَةِ الْقُبُورِ وَتَحْسِينِهَا مِنْ مَفَاسِدَ يَبْكِي لَهَا الْإِسْلَامُ، مِنْهَا اعْتِقَادُ الْجَهَلَةِ لَهَا كَاعْتِقَادِ الْكُفَّارِ لِلْأَصْنَامِ: وَعَظُمَ ذَلِكَ فَظَنُّوا أَنَّهَا قَادِرَةٌ عَلَى جَلْبِ النَّفْعِ وَدَفْعِ الضَّرَرِ فَجَعَلُوهَا مَقْصِداً لِطَلَبِ قَضَاءِ الْحَوَائِجِ وَمَلْجَأً لِنَجَاحِ الْمَطَالِبِ، وَسَأَلُوا مِنْهَا مَا يَسْأَلُهُ الْعِبَادُ مِنْ رَبِّهِمْ، وَشَدُّوا إلَيْهَا الرِّحَالَ وَتَمَسَّحُوا بِهَا وَاسْتَغَاثُوا وَبِالْجُمْلَةِ إنَّهُمْ لَمْ يَدَعُوا شَيْئاً مِمَّا كَانَتِ الْجَاهِلِيَّةُ تَفْعَلُهُ بِالْأَصْنَامِ إلَّا فَعَلُوهُ، فَإِنَّا للهِ وَإِنَّا إلَيْهِ رَاجِعُونَ. وَمَعَ هَذَا الْمُنْكَرِ الشَّنِيعِ وَالْكُفْرِ الْفَظِيعِ لَا تَجِدُ مَنْ يَغْضَبُ لِلَّهِ وَيَغَارُ حَمِيَّةً لِلدِّينِ الْحَنِيفِ لَا عَالِماً وَلَا مُتَعَلِّماً وَلَا أَمِيراً وَلَا وَزِيراً وَلَا مَلِكاً، وَقَدْ تَوَارَدَ إلَيْنَا مِنَ الْأَخْبَارِ مَا لَا يُشَكُّ مَعَهُ أَنَّ كَثِيراً مِنْ هَؤُلَاءِ القبوريين أَوْ أَكْثَرِهِمْ إذَا تَوَجَّهَتْ عَلَيْهِ يَمِينٌ مِنْ جِهَةِ خَصْمِهِ حَلَفَ بِاللهِ فَاجِراً، فَإِذَا قِيلَ لَهُ بَعْدَ ذَلِكَ: احْلِفْ بِشَيْخِك وَمُعْتَقَدِكَ الْوَلِيِّ الْفُلَانِيِّ تَلَعْثَمَ وَتَلَكَّأَ وَأَبَى وَاعْتَرَفَ بِالْحَقِّ. وَهَذَا مِنْ أَبْيَنِ الْأَدِلَّةِ الدَّالَّةِ عَلَى أَنَّ شِرْكَهُمْ قَدْ بَلَغَ فَوْقَ شِرْكِ مَنْ قَالَ: إنَّهُ تَعَالَى ثَانِيَ اثْنَيْنِ أَوْ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ. فَيَا عُلَمَاءَ الدِّينِ وَيَا مُلُوكَ الْمُسْلِمِينَ، أَيُّ رُزْءٍ لِلْإِسْلَامِ أَشَدُّ مِنَ الْكُفْرِ؟! وَأَيُّ بَلَاءٍ لِهَذَا الدِّينِ أَضَرُّ عَلَيْهِ مِنْ عِبَادَةِ غَيْرِ اللهِ؟! وَأَيُّ مُصِيبَةٍ يُصَابُ بِهَا الْمُسْلِمُونَ تَعْدِلُ هَذِهِ الْمُصِيبَةَ؟ وَأَيُّ مُنْكَرٍ يَجِبُ إنْكَارُهُ إنْ لَمْ يَكُنْ إنْكَارُ هَذَا الشِّرْكِ الْبَيِّنِ وَاجِباً؟!

لَقَدْ أَسْمَعْت لَوْ نَادَيْتَ حَيًّا   وَلَكِنْ لَا حَيَاةَ لِمَنْ تُنَادِي
وَلَوْ نَاراً نَفَخْت بِهَا أَضَاءَتْ   وَلَكِنْ أَنْتَ تَنْفُخُ فِي رَمَادِ)[١]

انتهى كلام الشوكاني رحمه الله.

وقد زاد البلاء بعده وصار أشد مما وصف، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

علاقة توحيد الألوهية بتوحيد الربوبية والعكس:

وعلاقة أحد النوعين بالآخر: أن توحيد الربوبية مستلزم لتوحيد الألوهية؛ بمعنى أن الإقرار بتوحيد الربوبية يوجب الإقرار بتوحيد الإلـٰهية والقيام به، فمن عرف أن الله ربه وخالقه ومدبر أموره؛ وجب عليه أن يعبده وحده لا شريك له.

وتوحيد الألوهية متضمن لتوحيد الربوبية؛ بمعنى: أن توحيد الربوبية يدخل ضمن توحيد الألوهية؛ فمن عبد الله وحده ولم يشرك به شيئاً فلا بد أن يكون قد اعتقد أنه هو ربه وخالقه؛ كما قال إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾ [الشُّعَرَاء: ٧٥ ـ ٨٢].

والألوهية والربوبية: تارة يذكران معاً فيفترقان في المعنى

(١) نيل الأوطار (٤/١٠٣).

ويكون أحدهما قسيماً للآخر؛ لأن الأصل أن العطف يقتضي المغايرة، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَـٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣﴾ [النَّاس: ١ ـ ٣]؛ **فيكون معنى الرب**: هو المالك المتصرف في الخلق، **ويكون معنى الإله**: أنه المعبود بحق المستحق للعبادة وحده. وتارة يذكر أحدهما مفرداً عن الآخر، فيجتمعان في المعنى ويدخل أحدهما في الآخر؛ كما في قول الملكين للميت في القبر: من ربك؟ ومعناه: من إلـٰهك وخالقك؟ وكما في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ [الحَجّ: ٤٠]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا﴾ [الأنعَام: ١٦٤]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ﴾ [فُصّلَت: ٣٠]؛ فالربوبية في هذه الآيات هي الألوهية.

والذي دعت إليه الرسل من النوعين هو توحيد الألوهية؛ لأن توحيد الربوبية يقر به جمهور الأمم، ولم ينكره إلا شواذ من الخليقة؛ أنكروه في الظاهر فقط، والإقرار به وحده لا يكفي؛ فقد أقرَّ به إبليس: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى﴾ [الحِجر: ٣٩]، وأقر به المشركون الذين بعث فيهم رسول الله ﷺ؛ كما دلت على ذلك الآيات البينات؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۝٨٧﴾ [الزّخرُف: ٨٧]، فمن أقر بتوحيد الربوبية فقط لم يكن مسلماً، ولم يحرم دمه ولا ماله، حتى يقر بتوحيد الألوهية؛ فلا يعبد إلا الله.

وبهذا يتبين بطلان ما يزعمه علماء الكلام والصوفية من أن

التوحيد المطلوب من العباد هو الإقرار بأن الله هو الخالق المدبر، ومن أقرَّ بذلك صار عندهم مسلماً، ولهذا يُعرِّفون التوحيد في الكتب التي ألفوها في العقائد بما ينطبق على توحيد الربوبية فقط؛ حيث يقولون مثلاً: التوحيد هو الإقرار بوجود الله، وأنه الخالق الرازق... إلخ، ثم يوردون أدلة توحيد الربوبية.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: (فَإِنَّ عَامَّةَ الْمُتَكَلِّمِينَ الَّذِينَ يُقَرِّرُونَ التَّوْحِيدَ فِي كُتُبِ الْكَلَامِ وَالنَّظَرِ: غَايَتُهُمْ أَنْ يَجْعَلُوا التَّوْحِيدَ ثَلَاثَةَ أَنْوَاعٍ؛ فَيَقُولُونَ: هُوَ وَاحِدٌ فِي ذَاتِهِ لَا قَسِيمَ لَهُ، وَوَاحِدٌ فِي صِفَاتِهِ لَا شَبِيهَ لَهُ، وَوَاحِدٌ فِي أَفْعَالِهِ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَرُ الْأَنْوَاعِ الثَّلَاثَةِ عِنْدَهُمْ هُوَ الثَّالِثُ وَهُوَ «تَوْحِيدُ الْأَفْعَالِ»؛ وَهُوَ أَنَّ خَالِقَ الْعَالَمِ وَاحِدٌ وَهُمْ يَحْتَجُّونَ عَلَى ذَلِكَ بِمَا يَذْكُرُونَهُ مِنْ دَلَالَةِ التَّمَانُعِ وَغَيْرِهَا وَيَظُنُّونَ أَنَّ هَذَا هُوَ التَّوْحِيدُ الْمَطْلُوبُ، وَأَنَّ هَذَا هُوَ مَعْنَى قَوْلِنَا: لَا إلَهَ إلَّا اللهُ؛ حَتَّى قَدْ يَجْعَلُوا مَعْنَى الْإِلَهِيَّةِ الْقُدْرَةَ عَلَى الِاخْتِرَاعِ. وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْمُشْرِكِينَ مِنَ الْعَرَبِ الَّذِينَ بُعِثَ إلَيْهِمْ مُحَمَّدٌ ﷺ أَوَّلاً، لَمْ يَكُونُوا يُخَالِفُونَهُ فِي هَذَا، بَلْ كَانُوا يُقِرُّونَ بِأَنَّ اللهَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إنَّهُمْ كَانُوا يُقِرُّونَ بِالْقَدَرِ أَيْضاً وَهُمْ مَعَ هَذَا مُشْرِكُونَ)[(١)].

هذا كلام الشيخ رَحِمَهُ اللهُ، وهو واضح في الرد على من اعتقد أن التوحيد المطلوب من الخلق هو الإقرار بتوحيد الربوبية، ويؤيد هذا قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النّحل: ٣٦].

(١) مجموع الفتاوى (٣/ ٩٧ ـ ٩٨).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية أيضاً: (التوحيد الذي جاء به الرسول لم يتضمن شيئاً من هذا النفي، وإنما تضمن إثبات الإلٰهية لله وحده، بأن يشهد أن لا إلٰه إلا هو، ولا يعبد إلا إياه).

إلى أن قال: (وليس المراد بالتوحيد مجرد توحيد الربوبية وهو اعتقاد أن الله وحده خلق العالم كما يظن ذلك من يظنه من أهل الكلام والتصوف، ويظن هؤلاء أنهم إذا أثبتوا ذلك بالدليل فقد أثبتوا غاية التوحيد، ويظن هؤلاء أنهم إذا شهدوا هذا وفنوا فيه فقد فنوا في غاية التوحيد).

إلى أن قال: (وذلك أن الرجل لو أقر بما يستحقه الرب تعالى من الصفات ونزّهه عن كل ما ينزه عنه وأقر بأنه وحده خالق كل شيء لم يكن موحداً؛ بل ولا مؤمناً حتى يشهد أن لا إلٰه إلا الله فيقر بأن الله وحده هو الإلٰه المستحق للعبادة ويلتزم بعبادة الله وحده لا شريك له.

والإلٰه هو بمعنى: المألوه المعبود الذي يستحق العبادة، ليس هو الإلٰه بمعنى القادر على الخلق؛ فإذا فسّر المفسّر الإلٰه بمعنى القادر على الاختراع واعتقد أن هذا أخص وصف للإلٰه، وجعل إثبات هذا التوحيد هو الغاية في التوحيد كما يفعل ذلك من يفعله من متكلمة الصفاتية، وهو الذي ينقلونه عن أبي الحسن وأتباعه لم يعرفوا حقيقة التوحيد الذي بعث الله به رسوله؛ فإن مشركي العرب كانوا مقرين بأن الله وحده خالق كل شيء وكانوا مع هذا مشركين.

قال تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يُوسُف: ١٠٦]، قال طائفة من السلف: تسألهم: من خلق السماوات

والأرض؟ فيقولون: الله، وهم مع هذا يعبدون غيره!!، وقال تعالى: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [المؤمنون: ٨٤ ـ ٨٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [العنكبوت: ٦١].

فليس كل من أقر أن الله رب كل شيء وخالقه يكون عابداً له دون ما سواه، داعياً له دون ما سواه، راجياً خائفاً منه دون ما سواه، يوالي فيه ويعادي فيه ويطيع رسله...

وعامة المشركين أقروا بأن الله خالق كل شيء وأثبتوا الشفعاء الذين يشركونهم به وجعلوا له أنداداً...).

إلى أن قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (ولهذا كان من أتباع هؤلاء من يسجد للشمس والقمر والكواكب ويدعوها كما يدعو الله تعالى ويصوم لها وينسك لها ويتقرب إليها ثم يقول: إن هذا ليس بشرك وإنما الشرك إذا اعتقدت أنها هي المدبرة لي فإذا جعلتها سبباً وواسطة لم أكن مشركاً، ومن المعلوم بالاضطرار من دين الإسلام أن هذا شرك...)[(١)] انتهى كلامه.

قلت: وهذا ما يقوله عبَّاد القبور اليوم يتقربون إليها بأنواع العبادة، ويقولون: هذا ليس بشرك؛ لأننا لا نعتقد فيها أنها تخلق وتدبر وإنما جعلناها وسائط نتوسل بأصحابها.

---

(١) درء تعارض العقل والنقل (١/ ٢٢٤ ـ ٢٢٨).

أساليب القرآن في الدعوة إلى توحيد الإلـٰهية:

لما كان توحيد الربوبية قد أقر به الناس بموجب فطرهم ونظرهم في الكون، وكان الإقرار به وحده لا يكفي للإيمان بالله، ولا ينجي صاحبه من العذاب، ركزت دعوات الرسل على توحيد الإلـٰهية، خصوصاً دعوة خاتم الرسل نبينا محمد عليه وعليهم أفضل السلام؛ فكان يطالب الناس بقول: لا إلـٰه إلا الله، المتضمنة لعبادة الله، وترك عبادة ما سواه، فكانوا ينفرون منه ويقولون: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾﴾ [ص: ٥].

وحاولوا مع الرسول ﷺ أن يترك هذه الدعوة ويخلي بينهم وبين عبادة الأصنام، وبذلوا في ذلك معه كل الوسائل؛ بالترغيب تارة وبالترهيب تارة، وهو عليه الصلاة والسلام يقول: «**وَاللهِ لَوْ وَضَعُوا الشّمْسَ فِي يَمِينِي، وَالْقَمَرَ فِي يَسَارِي عَلَى أَنْ أَتْرُكَ هَذَا الْأَمْرَ حَتّى يُظْهِرَهُ اللهُ أَوْ أَهْلِكَ فِيهِ مَا تَرَكْتُهُ**»(١).

وكانت آيات الله تتنزل عليه بالدعوة إلى هذا التوحيد، والرد على شبهات المشركين، وإقامة البراهين على بطلان ما هم عليه.

وقد تنوعت أساليب القرآن في الدعوة إلى توحيد الإلـٰهية، وها نحن نذكر جملة منها؛ فمن ذلك:

١ ـ أمره سبحانه بعبادته وترك عبادة ما سواه؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [النساء: ٣٦]، وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة: ٢١]،

(١) السيرة لابن هشام (١/ ٢٦٦).

إلى قوله: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [البَقَرَة: ٢٢].

٢ ـ ومنها: إخباره سبحانه أنه خلق الخلق لعبادته؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذّاريَات: ٥٦].

٣ ـ ومنها: إخباره أنه أرسل جميع الرسل بالدعوة إلى عبادته والنهي عن عبادة ما سواه؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النّحل: ٣٦].

٤ ـ ومنها: الاستدلال على توحيد الإلٰهية بانفراده بالربوبية والخلق والتدبير؛ كما في قوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾﴾ [البَقَرَة: ٢١]، وقوله: ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ﴾ [فُصّلَت: ٣٧]، وقوله: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾ [النّحل: ١٧].

٥ ـ ومنها: الاستدلال على وجوب عبادته سبحانه بانفراده بصفات الكمال، وانتفاء ذلك عن آلهة المشركين؛ كما في قوله تعالى: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾ [مَريَم: ٦٥]، وقوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعرَاف: ١٨٠]، وقوله عن خليله إبراهيم عليه السلام أنه قال لأبيه: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾﴾ [مَريَم: ٤٢]، وقوله: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَآءَكُمْ﴾ [فَاطِر: ١٤]، وقوله: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾﴾ [الأعرَاف: ١٤٨].

٦ ـ ومنها: تعجيزه لآلهة المشركين؛ كقوله تعالى: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا

لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾﴾ [الأعراف: ١٩١ ـ ١٩٢]، وقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾﴾ [الإسراء: ٥٦]، وقوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [النحل: ٧٣]، وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾﴾ [الحج: ٧٣].

٧ ـ ومنها: تسفيه المشركين الذين يعبدون غير الله؛ كقوله تعالى: ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الأنبياء: ٦٦ ـ ٦٧]، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾﴾ [الأحقاف: ٥].

٨ ـ ومنها: بيان عاقبة المشركين الذين يعبدون غير الله، وبيان مآلهم مع من عبدوهم، حيث تتبرأ منهم تلك المعبودات في أحرج المواقف؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾ [البقرة: ١٦٥ ـ ١٦٧]، وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾ [فاطر: ١٤]، وقوله: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ

لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَهُمۡ عَن دُعَآئِهِمۡ غَٰفِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمۡ أَعۡدَآءٗ وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمۡ كَٰفِرِينَ ۝٦﴾ [الأحقاف: ٥ ـ ٦]، وقوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ يَقُولُ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ۝٤٠ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ بَلۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّۖ أَكۡثَرُهُم بِهِم مُّؤۡمِنُونَ ۝٤١﴾ [سَبَإ: ٤٠ ـ ٤١]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلۡتُهُۥ فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥۚ تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ۝١١٦﴾ [المَائدة: ١١٦].

٩ ـ ومنها: رده سبحانه على المشركين في اتخاذهم الوسائط بينهم وبين الله بأن الشفاعة ملك له سبحانه؛ لا تطلب إلا منه، ولا يشفع أحد عنده إلا بإذنه، بعد رضاه عن المشفوع له؛ قال سبحانه: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلۡ أَوَلَوۡ كَانُواْ لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَعۡقِلُونَ ۝٤٣ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗاۖ لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ۝٤٤﴾ [الزُّمَر: ٤٣ ـ ٤٤]، وقوله سبحانه: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ﴾ [البَقَرَة: ٢٥٥]، وقوله: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ ۝٢٦﴾ [النّجْم: ٢٦]؛ فبيَّن سبحانه في هذه الآيات أن الشفاعة ملكه وحده، لا تطلب إلا منه، ولا تحصل إلا بعد إذنه للشافع ورضاه عن المشفوع له.

١٠ ـ ومنها: أنه بيّن سبحانه أن هؤلاء المعبودين من دونه لا يحصل منهم نفع لمن عبدهم من جميع الوجوه، ومَنْ هذا شأنه لا

يصلح للعبادة، كما في قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سَبَإ: ٢٢ ـ ٢٣].

١١ ـ ومنها: أنه سبحانه ضرب أمثلة كثيرة في القرآن يتضح بها بطلان الشرك، من ذلك قوله سبحانه: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾﴾ [الحَجّ: ٣١]؛ شبَّه سبحانه التوحيد في علوه وارتفاعه وسعته وشرفه بالسماء، وشبَّه تارك التوحيد بالساقط من السماء إلى أسفل سافلين؛ لأنه سقط من أوج الإيمان إلى حضيض الكفر، وشبَّه الشياطين التي تضله بالطير التي تمزق أعضاءه، وشبَّه هواه الذي يبعده عن الحق بالريح التي ترمي به في مكان بعيد، هذا مثال واحد من أمثلة كثيرة في القرآن ذكرها الله سبحانه؛ لبيان بطلان الشرك وخسارة المشرك في الدنيا والآخرة.

وما سقناه في هذا الدرس من أساليب القرآن في الدعوة إلى توحيد الإلٰهية وإبطال الشرك قليل من كثير، وما على المسلم إلا أن يقرأ القرآن بتدبر؛ ليجد الخير الكثير والأدلة المقنعة، والبراهين الساطعة التي ترسخ عقيدة التوحيد في قلب المؤمن وتقتلع منه كل شبهة.

حدوث الشرك في توحيد الألوهية:

مطلوب من المسلم بعد ما يعرف الحق أن يعرف ما يضاده من الباطل؛ ليجتنبه، كما يقال:

عرفت الشرَّ لا للشر ولكن لتوقيه
ومن لا يعرف الشرَّ من الخير يقع فيه

وكان حذيفة بن اليمان ﷺ **يقول:** (كَانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنِ الْخَيْرِ وَكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ مَخَافَةَ أَنْ يُدْرِكَنِي)[1].

ويقول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ: (يوشك أن تنقض عرى الإسلام عروة عروة إذا نشأ في الإسلام من لا يعرف الجاهلية).

وقبل ذلك قال الخليل عليه الصلاة والسلام: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [إبراهيم: ٣٥ ـ ٣٦]، فهذا مما يوجب شدة الخوف من الشرك ومعرفته؛ ليجتنبه المسلم.

والشرك هو: صرف شيء من أنواع العبادة لغير الله؛ كالدعاء والذبح والنذر والاستغاثة والاستعانة بغير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله.

والتوحيد هو: إفراد الله تعالى بالعبادة، وهو أصيل في بني آدم، والشرك طارئ عليه؛ قال تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ [البَقَرَة: ٢١٣].

(١) أخرجه البخاري (٣٦٠٦).

قال ابن عباس ﷺ: (كان بين آدم ونوح عشرة قرون؛ كلهم على الإسلام)[(١)].

قال ابن القيم رحمه الله: (هذا القول هو الصحيح في الآية)[(٢)].

وصحح هذا القول أيضاً ابن كثير رحمه الله[(٣)].

وأول ما حدث الشرك في الأرض في قوم نوح عليه السلام حين غلوا في الصالحين: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾﴾ [نُوح: ٢٣].

قال البخاري رحمه الله في «صحيحه» عن ابن عباس رضي الله عنهما: (أَسْمَاءُ رِجَالٍ صَالِحِينَ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ فَلَمَّا هَلَكُوا أَوْحَى الشَّيْطَانُ إِلَى قَوْمِهِمْ أَنِ انْصِبُوا إِلَى مَجَالِسِهِمُ الَّتِي كَانُوا يَجْلِسُونَ أَنْصَاباً وَسَمُّوهَا بِأَسْمَائِهِمْ فَفَعَلُوا فَلَمْ تُعْبَدْ حَتَّى إِذَا هَلَكَ أُولَئِكَ وَتَنَسَّخَ الْعِلْمُ عُبِدَتْ)[(٤)].

قال ابن القيم رحمه الله: (قال غير واحد من السلف: كان هؤلاء قوماً صالحين في قوم نوح عليه السلام، فلما ماتوا عكفوا على قبورهم، ثم صوروا تماثيلهم، ثم طال عليهم الأمد فعبدوهم)[(٥)].

ومن هذا الأثر الذي رواه البخاري عن ابن عباس في غلو قوم نوح في الصالحين، وتصويرهم إياهم، والاحتفاظ بصورهم ونصبها

---

(١) والحديث أخرجه الطبراني في الأوسط (٤٠٣) عن أبي أمامة الباهلي مرفوعاً، وابن حبان في صحيحه (٦١٩٠).

(٢) انظر: إغاثة اللهفان (٢/ ٢٠٤).

(٣) انظر: تفسير ابن كثير [البقرة: ٢١٣].

(٤) أخرجه البخاري (٤٩٢٠).

(٥) إغاثة اللهفان (١/ ١٨٤).

في مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها؛ منه ندرك خطورة التصوير وخطورة تعليق الصور على الجدران، وخطورة نصب التماثيل في الميادين والشوارع، وأن ذلك يؤول بالناس إلى الشرك؛ بحيث يتطور تعظيم تلك الصور والتماثيل المنصوبة، فيؤدي ذلك إلى عبادتها؛ كما حدث في قوم نوح.

ولهذا جاء الإسلام بتحريم التصوير، ولعن المصورين وتوعدهم بأشد الوعيد، وأنهم أشد الناس عذاباً يوم القيامة؛ سدًّا لذريعة الشرك، وابتعاداً عن مضاهاة خلق الله ﷿.

وندرك من هذه القصة مدى حرص الشيطان ـ لعنه الله ـ على إغواء بني آدم، ومكره بهم، وأنه قد يأتيهم من ناحية استغلال العواطف ودعوى الترغيب في الخير؛ فإنه لما رأى في قوم نوح ولوعهم بالصالحين ومحبتهم لهم دعاهم إلى الغلو في هذه المحبة؛ بحيث أمرهم بنصب الصور التذكارية لهم، وهدفه من ذلك التدرج بهم في إخراجهم من الحق إلى الضلال، ولم يقصر نظره على الحاضرين، بل امتد إلى أجيالهم اللاحقة الذين قلَّ فيهم العلم، وفشا فيهم الجهل، فزين لهم عبادة هذه الصور، وأوقعهم في الشرك الأكبر، وكابروا نبيهم بقولهم: ﴿لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ﴾ [نُوح: ٢٣].

قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: (وتلاعب الشيطان بالمشركين في عبادة الأصنام له أسباب عديدة؛ فقد تلاعب بكل قوم على قدر عقولهم:

فطائفة دعاهم إلى عبادتها من جهة تعظيم الموتى الذين صوّروا تلك الأصنام على صورهم كما تقدم عن قوم نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وهذا السبب هو الغالب على عوام المشركين.

وأما خواصهم فإنهم اتخذوها ـ بزعمهم ـ على صور الكواكب المؤثرة في العالم عندهم، وجعلوا لها بيوتاً وسدنةً وحجاباً وحجًّا وقرباناً، ولم يزل هذا في الدنيا قديماً وحديثاً... وأصل هذا المذهب من مشركي الصابئة وهم قوم إبراهيم عليه السلام الذين ناظرهم في بطلان الشرك وكسر حجتهم بعلمه وآلهتهم بيده فطلبوا تحريقه.

وطائفة أخرى اتخذت للقمر صنماً وزعموا أنه يستحق التعظيم والعبادة وإليه تدبير هذا العالم السفلي... وطائفة تعبد النار، وهم المجوس، وطائفة تعبد الماء، وطائفة تعبد الحيوانات؛ فطائفة عبدت الخيل، وطائفة عبدت البقر، وطائفة عبدت البشر الأحياء والأموات، وطائفة تعبد الجن، وطائفة تعبد الشجر، وطائفة تعبد الملائكة)[(١)] انتهى كلام ابن القيم رحمه الله تعالى.

وبه تعرف معنى قوله تعالى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾﴾ [الحج: ٣١]، وقوله تعالى: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يوسف: ٣٩ ـ ٤٠]، وقوله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [الزمر: ٢٩].

(١) انظر: إغاثة اللهفان (ص٢٢٢ ـ ٢٣٨).

هؤلاء المشركون لما تركوا عبادة الله وحده لا شريك له ـ وهي التي خلقوا من أجلها وبها سعادتهم ـ ابتلوا بعبادة الشياطين، وتفرقت بهم الأهواء والشهوات؛ كما قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ:

هربوا من الرق الذي خلقوا له فبلوا برق النفس والشيطان

فلا اجتماع للقلوب ولا صلاح للعالم إلا بالتوحيد؛ كما قال تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ هُمۡ يُنشِرُونَ ٢١ لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ ٢٢﴾ [الأنبياء: ٢١ ـ ٢٢].

ولذلك إذا خلت الأرض من التوحيد قامت القيامة؛ كما روى مسلم عن النبي ﷺ: «**لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى لَا يُقَالَ فِي الأَرْضِ: اللهُ اللهُ**»[1].

ومثل تَفَرُّقِ المشركين الأولين في عباداتهم ومعبوداتهم تَفَرُّقُ القبوريين اليوم في عبادة القبور؛ فكل منهم له ضريح خاص يتقرب إليه بأنواع العبادة، وكل طريقة من الطرق الصوفية لها شيخ اتخذه مريدوه ربًّا من دون الله يشرع لهم من الدين ما لم يأذن به الله.

وهكذا تلاعب الشياطين ببني آدم، ولا نجاة من شرّه ومكره إلا بتوحيد الله والاعتصام بكتابه وسُنَّة رسوله ﷺ.

نسأل الله أن يرينا الحق حقًّا ويرزقنا اتباعه، ويرينا الباطل باطلاً ويرزقنا اجتنابه؛ إنه هو مولانا، فنعم المولى ونعم النصير.

(١) أخرجه مسلم (١٤٨).

خطر الشرك ووجوب الحذر منه بتجنب أسبابه:

الشرك أعظم الذنوب؛ لأن الله تعالى أخبر أنه لا مغفرة لمن لم يتب منه، مع أنه سبحانه كتب على نفسه الرحمة، وذلك يوجب للعبد شدة الحذر وشدة الخوف من الشرك الذي هذا شأنه، ويحمله على معرفته لتوقيه؛ لأنه أقبح القبيح وأظلم الظلم، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ۝١٣﴾ [لقمان: ١٣]؛ وذلك لأنه تنقّص لله ﷻ، ومساواة لغيره به؛ كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ۝١﴾ [الأنعام: ١]، وقال تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٢٢﴾ [البقرة: ٢٢]؛ لأن الشرك مناقض للمقصود بالخلق والأمر من كل وجه؛ فمن أشرك بالله ﷻ فقد شبّه المخلوق بالخالق، وأقبح التشبيه تشبيه العاجز الفقير بالذات بالقادر الغني بالذات عن جميع المخلوقات.

وقد حذّر النبي ﷺ أمته من الشرك، وسد كل الطرق التي تفضي إليه؛ فقد بعث الله نبيَّه محمداً ﷺ وحالة العرب ـ بل وحالة أهل الأرض كلهم إلا بقايا من أهل الكتاب ـ كانت على أسوأ حالة، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝١٦٤﴾ [آل عمران: ١٦٤].

لقد كانت الخليقة في هذه الفترة على مللٍ ونحلٍ شتّى: بين وثنية حائرة تتخذ آلهتها من حجارة منحوتة، وأصنام منصوبة، تعكف عندها، وتطوف حولها، وتقرّب لها الذبائح من أَنْفَسِ

أموالها؛ بل وحتى أولادها؛ كما قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا۟ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾﴾ [الأنعَام: ١٣٧].

وفريق آخر: هم أهل كتاب: إما نصرانية حائرة ضلت عن سواء السبيل فجعلت الآلهة ثلاثة، واتخذت من أحبارها وقديسيها أرباباً من دون الله، وإما يهودية مدمرة عاثت في الأرض فساداً، وأشعلت نار الفتن، ونقضت عهد الله وميثاقه، وتلاعبت بنصوص كتابها حتى حرفتها عن مواضعها.

وفريق **ثالث:** هم المجوس الذين يعبدون النيران، ويتخذون إلهين: **أحدهما:** خالق للخير، **والثاني:** خالق للشر بزعمهم.

وفريق **رابع:** وهم الصابئون الذين يعبدون الكواكب والنجوم، ويعتقدون تأثيرها في الأرض.

وفريق **خامس:** هم الدهرية الذين لا يدينون بدين، ولا يؤمنون ببعث ولا حساب.

هكذا كانت حالة أهل الأرض عند بعثة النبي ﷺ؛ جهالة جهلاء وضلالة عمياء، فأنقذ الله به من قبل دعوته واستجاب له من الظلمات إلى النور، وأعاد الحنيفية السمحة ملة إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وهدم الأوثان، ونهى عن الشرك، وسد كل الوسائل الموصلة إليه.

وإليك بيان الوسائل القولية والفعلية التي نهى عنها رسول الله ﷺ؛ لأنها تفضي إلى الشرك:

١ ـ **نهى** رسول الله ﷺ عن التلفظ بالألفاظ التي فيها التسوية بين الله وبين خلقه؛ مثل: ما شاء الله وشئت، ولولا الله وأنت، وأمر بأن يقال بدل ذلك: ما شاء الله ثم شئت[(١)]؛ لأن الواو تقتضي التسوية، وثمَّ تقتضي الترتيب، وهذه التسوية في اللفظ شرك أصغر، وهو وسيلة إلى الشرك الأكبر.

٢ ـ **ونهى** ﷺ عن الغلو في تعظيم القبور بالبناء عليها، وتجصيصها[(٢)]، وإسراجها[(٣)]، والكتابة عليها[(٤)].

٣ ـ **نهى** عن اتخاذ القبور مساجد للصلاة عندها؛ لأن ذلك وسيلة لعبادتها[(٥)].

٤ ـ **نهى** عن الصلاة عند طلوع الشمس وعند غروبها؛ لما في ذلك من التشبه بالذين يسجدون لها في هذه الأوقات[(٦)].

٥ ـ **نهى** عن السفر إلى أي مكان من الأمكنة بقصد التقرب إلى الله فيه بالعبادة؛ إلا إلى المساجد الثلاثة: المسجد الحرام، والمسجد النبوي، والمسجد الأقصى[(٧)].

٦ ـ **ونهى** ﷺ عن الغلو في مدحه، فقال: «**لَا تُطْرُونِي كَمَا**

---

(١) مسند الإمام أحمد (١٨٣٩/٢٧٠٩٣)، والنسائي (٣٧٧٣)، وسنن ابن ماجه (٢١١٧).
(٢) أخرجه مسلم (٩٧٠).
(٣) أخرجه أبو داود (٣٢٣٨)، والترمذي (٣٢٠).
(٤) أخرجه الترمذي (١٠٥٢).
(٥) أخرجه مسلم (٩٧٢).
(٦) أخرجه مسلم (٨٢٥).
(٧) أخرجه البخاري (١١٨٩).

أَطْرَتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ، فَقُولُوا: عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ»[(١)]
والإطراء: هو المبالغة في المدح.

٧ ـ **ونهى** ﷺ عن الوفاء بالنذر إذا كان في مكان يعبد فيه صنم، أو يقام فيه عيد من أعياد الجاهلية[(٢)].

كل هذا حذّر منه؛ صيانةً للتوحيد، وحفاظاً عليه، وسدًّا للوسائل والذرائع التي تفضي إليه.

ومع هذا البيان التّام من النبي ﷺ والاحتياط الشديد الذي يبعد الأمة عن الشرك خالف القبوريون سُنَّة رسول الله ﷺ وعصوا أمره، وارتكبوا ما نهاهم عنه؛ فشيدوا القباب على القبور، وبنوا عليها المساجد، وزينوها بأنواع الزخارف، وصرفوا لها أنواعاً من العبادة من دون الله.

قال الإمام العلامة ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ومن جمع بين سُنَّة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم في القبور، وما أمر به ونهى عنه وما كان عليه أصحابه، وبين ما عليه أكثر الناس اليوم؛ رأى أحدهما مضاداً للآخر، مناقضاً له، بحيث لا يجتمعان أبداً.

فنهى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عن الصلاة إلى القبور، وهؤلاء يُصلون عندها وإليها.

ونهى عن اتخاذها مساجد، وهؤلاء يبنون عليها المساجد، ويسمونها مشاهد، مضاهاةً لبيوت الله تعالى.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٤٥).

(٢) أخرجه أبو داود (٣٣١٥).

ونهى عن إيقاد السُرج عليها، وهؤلاء يوقفون الوقوف على إيقاد القناديل عليها.

ونهى أن تتخذ أعياداً، وهؤلاء يتخذونها أعياداً ومناسك، ويجتمعون لها كاجتماعهم للعيد أو أكثر.

وأمر بتسويتها، كما روى مسلم في «صحيحه» عن أبي الهياج الأسدي قال: قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «أَلا أَبْعَثُكَ عَلَى مَا بَعَثَنِي عليهِ رَسُولُ صلّى اللهُ تَعالَى عَليْهِ وَسلّم؟ أَنْ لا تَدَعَ تِمْثَالاً إِلا طَمَسْتَهُ، وَلا قَبْراً مُشْرِفاً إِلا سَوَّيْتَهُ»[1]، وفي «صحيحه» أيضاً عن ثمامة بن شُفَي قال: «كنا مع فضالة بن عبيد بأرض الروم برودس، فتوفي صاحب لنا، فأمر فضالة بقبره فسُوي، ثم قال: سمعت رسول الله ﷺ يأمر بتسويتها[2]. وهؤلاء يبالغون في مخالفة هذين الحديثين، ويرفعونها عن الأرض كالبيت، ويعقدون عليها القباب.

ونهى عن تجصيص القبر والبناء عليه، كما روى مسلم في «صحيحه» عن جابر قال: «نَهَى رَسُولُ اللهِ صلّى اللهُ تعالى عليهِ وسلم عَنْ تَجْصِيصِ الْقَبْرِ، وَأَنْ يُقْعَدَ عَلَيْهِ، وَأنْ يُبْنَى عَلَيْهِ بِنَاءٌ»[3].

ونهى عن الكتابة عليها، كما روى أبو داود والترمذي في سننهما عن جابر رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: «نَهَى أنْ تُجَصَّصَ الْقُبُورُ، وَأَنْ يُكْتَبَ عَلَيْهَا»[4].

قال الترمذي: حديث حسن صحيح، وهؤلاء يتخذون عليها الألواح، ويكتبون عليها القرآن وغيره.

---

(١) أخرجه مسلم (٩٦٩).
(٢) أخرجه مسلم (٩٦٨).
(٣) سبق قريباً.
(٤) سبق قريباً.

ونهى أن يزاد عليها غير ترابها، كما روى أبو داود من حديث جابر أيضاً: «أن رسول الله ﷺ نهى أن يجصص القبر أو يكتب عليه أو يزاد عليه»، وهؤلاء يزيدون عليها الآجُر والأحجار والجص. . .

وقال إبراهيم النخعي: كانوا يكرهون الآجُرَّ على قبورهم).

إلى أن قال: (والمقصود: أن هؤلاء المعظمين للقبور المتخذينها أعياداً، الموقدين عليها السرج، الذين يبنون عليها المساجد والقباب مناقضون لما أمر به رسول الله ﷺ؛ محادُّون لما جاء به، وأعظم ذلك اتخاذها مساجد، وإيقاد السرج عليها، وهو من الكبائر. .)[١].

انتهى كلام ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ في وصف ما أحدثه عباد القبور في زمانه.

وقد زاد الأمر بعد عصره وتطور إلى أشد وأشنع، واعتبر من ينكر ذلك شاذًّا متشدداً متنقصاً لحق الأولياء، ومن العجب أنهم يغارون لتنقص حق الأولياء؛ حيث اعتبروا ترك عبادتهم تنقصاً لهم، ولا يغارون لتنقص حق الله بالشرك الأكبر، ولا يغارون لتنقص رسول الله ﷺ بمخالفة سُنَّته، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

٨ ـ **الغلو في حقه** ﷺ: لقد نهى النبي ﷺ عن الغلو في تعظيمه ومدحه، وغيره من باب أولى؛ لأن ذلك يؤدي إلى إشراك المخلوقين في حق الخالق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

(١) إغاثة اللهفان (١/ ١٩٥ ـ ١٩٧).

ولهذا نهى النبي ﷺ عن الغلو في مدحه؛ كما قال ﷺ: **«لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ، فَقُولُوا: عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ»**(١)، والإطراء هو مجاوزة الحد في مدحه؛ أي: لا تمدحوني فتغلوا في مدحي كما غلت النصارى في عيسى ابن مريم عليه السلام حتى ادّعوا فيه الألوهية ثم قال: «**إِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ فَقُولُوا: عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ**»؛ أي: صفوني بذلك، ولا تزيدوا عليه؛ فقولوا: عبد الله ورسوله، كما وصفني ربي بذلك؛ كما في قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾﴾ [الكهف: ١]، وقوله: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾﴾ [الفرقان: ١]، وقوله: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾﴾ [الجن: ١٩]، وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾ [المائدة: ٤١]، وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ﴾ [الأنفال: ٦٤] وغيرها.

فأبى المشركون إلا مخالفة أمره وارتكاب نهيه، فعظموه بما نهاهم عنه وحذرهم منه، وناقضوه أعظم مناقضة، وشابهوا النصارى في غلوهم وشركهم، وجرى منهم من الغلو في حقه ﷺ بما هو صريح الشرك، في نثرهم وشعرهم؛ كقول البوصيري محمد بن سعيد في «البردة» يخاطب النبي ﷺ:

يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به ... سواك عند حلول الحادث العمم

وما بعده من الأبيات التي مضمونها توجيه الدعاء والعياذ

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٤٥).

والليـاذ إلى الرسول ﷺ، وطلب تفريج الكربات منه في أضيق الحالات وأشد الصعوبات، ونسي الله عَزَّ وَجَلَّ.

وذلك أن الشيطان زين لهذا الناظم ولأمثاله سوء عملهم، فأظهر لهم هذا الغلو في مدحه ـ وإن كان شركاً أكبر ـ في قالب حبه وتعظيمه ﷺ، وأظهر لهم التزام السُّنَّة في عدم الغلو به ﷺ في قالب بغضه وتنقصه.

وفي الحقيقة إن ارتكاب ما نهى عنه ﷺ من الإفراط في مدحه وترك متابعته في أقواله وأفعاله وعدم الرضى بحكمه هو التنقص الحقيقي له ﷺ، فلا يحصل تعظيمه ولا تتحقق محبته إلا باتباعه ونصرة دينه وسُنَّته.

وقد جاء في حديث عبد الله بن الشِّخِّير رَضِيَ اللهُ عَنْهُ؛ قال: (انْطَلَقْتُ في وَفْدِ بَنِي عَامِرٍ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقُلْنَا: أَنْتَ سَيِّدُنَا، فَقَالَ: «**السَّيِّدُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى**»، فقُلْنَا: وَأَفْضَلُنَا فَضْلاً وَأَعْظَمُنَا طَوْلاً، فَقَالَ: «**قُولُوا بِقَوْلِكُمْ، أَوْ بَعْضِ قَوْلِكُمْ وَلَا يَسْتَجْرِيَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ**»)(١)، ففي هذا الحديث مَنَعَ ﷺ هؤلاء أن يقولوا له: أنت سيدنا، وقال: «**السَّيِّدُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى**»، ونهاهم أن يقولوا: وَأَفْضَلُنَا فَضْلاً وَأَعْظَمُنَا طَوْلاً، وذلك لأنه خشي عليهم الغلو، وكره أن يواجهوه بالمدح فيفضي بهم إلى الغلو، وقال: «**لَا يَسْتَجْرِيَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ**»؛ أي: يتخذكم جَرِيًّا له، والجَريُّ: الرسول والوكيل، فبيَّن بهذا أن مواجهة المادح للممدوح بالمدح ولو بما فيه؛ أنه من عمل الشيطان؛

(١) رواه أبو داود بسند جيد، السنن (٤٨٠٨).

لأن ذلك يسبب تعاظم الممدوح، وذلك مما ينافي كمال التوحيد؛ كما أنه قد يسبب غلو المادح حتى ينزل الممدوح منزلة لا يستحقها.

وقد نهى ﷺ عن إطرائه. **والإطراء**: هو الزيادة في المدح حتى يفضي ذلك إلى الشرك به، ووصفه بأوصاف الربوبية؛ كما حصل في كثير من المدائح النبوية التي نظمها بعض الغالين؛ كصاحب «البردة» وغيره، مما جرَّهم إلى الشرك الأكبر؛ كقول صاحب «البردة»:

يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به ... سواك عند حلول الحادث العمم
إن لم يكن في معادي آخذاً بيدي ... فضلاً وإلا فقل يا زلة القدم

وقوله:

فإن من جودك الدنيا وضرتها ... ومن علومك علم اللوح والقلم

والنبي ﷺ لما أكمل الله له مقام العبودية صار يكره أن يُمدح؛ صيانة لمقام العبودية، وحماية للعقيدة، وأرشد الأمة إلى ترك ذلك؛ نصحاً لها، وحماية لمقام التوحيد عن أن يدخله ما يفسده أو يضعفه من الشرك ووسائله، ومن ذلك نهيه لهؤلاء أن يقولوا له: أنت سيدنا، والسيد مأخوذ من السؤدد.

قال ابن الأثير في «النهاية»: (والسَّيِّدُ يُطْلق عَلَى الربِّ والمالِك، والشَّرِيف، والفَاضِل، والكَرِيم، والحَلِيم، ومُتَحمِّل أذَى قَومِه، والزَّوج، وَالرَّئِيسِ، والمقدَّم)(١).

وقوله ﷺ في هذا الحديث: «**السَّيِّدُ اللهُ**» يريد أن السؤدد

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر (٢/٤١٨).

حقيقة لله ﷻ، وأن الخلق كلهم عبيد له، والسيد إذا أطلق على الله تعالى، فهو بمعنى المالك والمولى والرب.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢﴾ [الإخلاص: ٢]؛ أي: السيد الذي قد كمل في جميع أنواع الشرف والسؤدد[١].

قال ابن الأثير رحمه الله قبل ذلك: (.. أَنَّهُ جَاءَهُ رجُلٌ فَقَالَ: أنتَ سَيِّدُ قُرَيش، فَقَالَ: «**السَّيِّدُ اللهُ**»؛ أَيْ: هُوَ الَّذِي تَحِقُّ لَهُ السِّيَادَةُ، كأنَّه كَره أَنْ يُحْمَد فِي وَجْهِهِ، وأَحَبَّ التَّواضُع).

إلى أن قال: (وَمِنْهُ الْحَدِيثُ: «**أَنَا سَيِّدُ وَلدِ آدَم وَلَا فَخْرَ**»[٢]؛ قَالَهُ إِخْبَاراً عَمَّا أَكْرَمَهُ اللهُ تَعَالَى بِهِ مِنَ الْفَضْلِ والسؤدد، وتحدُّثاً بِنِعْمَةِ اللهِ تَعَالَى عليه، وَإِعْلَاماً لأمُّته لِيَكُونَ إيمانُهم بِهِ عَلَى حَسَبه ومُوجَبه؛ وَلِهَذَا أتْبَعه بِقَوْلِهِ: «**وَلَا فَخْر**» أَيْ: إنَّ هَذِهِ الفَضِيلة الَّتِي نِلْتها كَرامةٌ مِنَ اللهِ، لَمْ أنَلْها مِنْ قِبَل نَفْسي، وَلَا بَلْغتُها بقُوَّتي، فَلَيْسَ لِي أَنْ أفْتَخِر بِهَا..)[٣] انتهى.

فهو ﷺ سيد ولد آدم كما أخبر بذلك، لكن لما واجهه هؤلاء بهذا اللفظ نهاهم عنه؛ خوفاً من الغلو الذي يفضي بهم إلى الشرك.

ومما يوضح هذا الحديث ما ثبت عن أنس بن مالك رضي الله عنه: (أن ناساً قالوا: يا خيرنا وابن خيرنا، وسيدنا وابن سيدنا، فقال: «**يا أيها الناس، قولوا بقولكم، ولا يستهوينكم الشيطان، أنا محمد**

(١) انظر: تفسير ابن جرير وابن كثير.
(٢) رواه الترمذي (٣١٤٨).
(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر (٢/٤١٨)، كلمة سَوَدَ.

عبد الله ورسوله، ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله ﷻ»[(١)].

ففي هذا الحديث ما يبين أنه نهاهم أن يقولوا: يا سيدنا؛ خشية عليهم من الغلو في حقه، فَسَدَّ هذا الطريق من أساسه، وأرشدهم أن يَصِفُوه بصفتين هما أعلى مراتب العبودية، وقد وصفه الله بهما في مواضع من كتابه، وهما قوله: «**عبد الله ورسوله**»، ولم يحب أن يرفعوه فوق ما أنزله الله ﷻ؛ حماية للتوحيد، وهذا كثير في السُّنَّة الثابتة عنه ﷺ:

كقوله: «**لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ، فَقُولُوا: عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ**»[(٢)]، وقوله: «**إِنَّهُ لَا يُسْتَغَاثُ بِي، إِنَّمَا يُسْتَغَاثُ بِاللهِ ﷻ**»[(٣)].

ونهى عن المدح وشدد فيه؛ كقوله لمن مدح إنساناً: «**وَيْلَكَ قَطَعْتَ عُنُقَ صَاحِبِكَ**»[(٤)]، وقال: «**إِذَا لَقِيتُمُ الْمَدَّاحِينَ فَاحْثُوا فِي وُجُوهِهِمُ التُّرَابَ**»[(٥)]؛ وذلك لما يخاف على المادح من الغلو، وعلى الممدوح من الإعجاب، وكلاهما يؤثران على العقيدة.

بقي أن يقال: هل يجوز أن يقال للمخلوق: سيد؟.

فيقال: قال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: (اختلف الناس في جواز

(١) رواه النسائي بسند جيد في السنن الكبرى (١٠٠٧٧ ـ ١٠٠٧٨)، وأحمد (١٢٥٥٠).
(٢) أخرجه البخاري (٣٤٤٥).
(٣) قال الهيثمي في مجمع الزوائد: رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ، وَرِجَالُهُ رِجَالُ الصَّحِيحِ غَيْرَ ابْنِ لَهِيعَةَ، وَهُوَ حَسَنُ الْحَدِيثِ (١٠/ ١٥٩)، ومثله عند أحمد (٢٢٧٠٦) بغير هذا اللفظ.
(٤) أخرجه البخاري (٢٦٦٢).
(٥) أخرجه مسلم (٣٠٠٢).

إطلاق السيد على البشر؛ فمنعه قوم، ونقل عن مالك، واحتجوا بقول النبي ﷺ لما قيل له: «يا سيدنا»، قال: «**إنما السيد الله**»، وجوّزه قوم، واحتجوا بقول النبي ﷺ: «**قوموا إلى سيدكم**» وهذا أصح من الحديث الأول....»[(١)] انتهى.

قال الشارح الشيخ سليمان بن عبد الله رَحِمَهُ اللهُ: (وأما استدلالهم بقول النبي ﷺ للأنصار: «**قوموا إلى سيدكم**»؛ فالظاهر أن النبي ﷺ لم يواجه سعداً به، فيكون في هذا المقام تفصيل)[(٢)]. انتهى.

وكأنه يقصد بالتفصيل أنه لا يجوز أن يواجه الإنسان، ويقال له: يا سيد؛ من باب المدح، ويجوز أن يقال هذا في حقه إذا كان غائباً، وكان ممن يستحق هذا الوصف؛ جمعاً بين الأدلة؛ والله أعلم.

٩ ـ **الغلو في الصالحين**: وإذا كان الغلو في حقه ﷺ ممنوعاً؛ فالغلو في حق غيره من الصالحين من باب أولى.

والمراد بالغلو في الصالحين: رفعهم فوق منزلتهم التي أنزلهم الله إلى ما لا يجوز إلا لله؛ من الاستغاثة بهم في الشدائد، والطواف بقبورهم، والتبرك بتُربتهم، وذبح القرابين لأضرحتهم، وطلب المدد منهم.

وقد أدخل الشيطان الشرك على قوم نوح من باب الغلو في الصالحين، فيجب الحذر من ذلك، وإن كان القصد حسناً.

---

(١) بدائع الفوائد (٣/ ٢١٣).
(٢) تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد، للشيخ سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب (٢/ ٤٧٨).

وقد وقع في هذه الأمة مثل ما وقع لقوم نوح لما أظهر الشيطان لكثير من المفتونين الغلو والبدع في قالب تعظيم الصالحين ومحبتهم؛ ليوقعهم فيما أوقع به قوم نوح؛ فما زال الشيطان يوحي إلى عُبَّاد القبور ويلقي إليهم أن البناء والعكوف على قبور الصالحين يعد محبة لهم، وأن الدعاء عند قبورهم يستجاب، ثم ينقلهم من هذه المرتبة إلى الدعاء والتوسل بها، فإذا ألفوا ذلك، نقلهم منه إلى دعاء المقبورين وعبادتهم، وسؤالهم الشفاعة من دون الله ﷻ، فتصبح قبورهم أوثاناً تعلق عليها القناديل، وتسدل عليها الستور ويطاف بها وتستلم وتُقبّل، فإذا ألفوا ذلك؛ نقلهم إلى أن يدعوا الناس إلى عبادة هذه القبور واتخاذها أعياداً ومناسك، فإذا ألفوا ذلك وتقرر عندهم، نقلهم إلى اعتقاد أن من نهى عنه فقد تنقص الأولياء وأبغضهم، وزعم أنه لا حرمة لهم ولا قدر لهم.

وقد سرى ذلك في نفوس كثير من الجُهال والطغام، وكثير ممن ينتسب إلى العلم والدين، حتى عادَوا أهل التوحيد، ورموهم بالعظائم، ونفَّروا الناس عنهم؛ فعلوا ذلك كله تحت ستار حب الصالحين وتعظيمهم، وقد كذبوا في ذلك؛ لأن محبة الصالحين على الحقيقة تكون على وفق الكتاب والسُّنَّة، وذلك بمعرفة فضلهم والاقتداء بهم في الأعمال الصالحة؛ من غير إفراط ولا تفريط: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ١٠﴾ [الحَشر: ١٠].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: (فَكُلُّ مَنْ غَلَا فِي حَيٍّ؛ أَوْ فِي رَجُلٍ صَالِحٍ.. وَجَعَلَ فِيهِ نَوْعاً مِنَ الْإِلَهِيَّةِ... مِثْلَ أَنْ يَقُولَ: يَا سَيِّدِي فُلَانُ اُنْصُرْنِي أَوِ ارْزُقْنِي أَوْ أَغِثْنِي.. أَوْ أَنَا فِي حَسْبِك؛ أَوْ نَحْوَ هَذِهِ الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ.. فَكُلُّ هَذَا شِرْكٌ وَضَلَالٌ يُسْتَتَابُ صَاحِبُهُ؛ فَإِنْ تَابَ وَإِلَّا قُتِلَ، فَإِنَّ اللهَ إِنَّمَا أَرْسَلَ الرُّسُلَ وَأَنْزَلَ الْكُتُبَ لِيعبد وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ولا يدعى معه إلٰه آخر.

وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إلٰهاً آخر مِثْلَ:... الْمَسِيحِ وَالْمَلَائِكَةِ والأصنام، لَمْ يَكُونُوا يَعْتَقِدُونَ أَنَّهَا تَخْلُقُ الْخَلَائِقَ؛ أَوْ أَنَّهَا تُنْزِلُ الْمَطَرَ أَوْ تُنْبِتُ النَّبَاتَ وَإِنَّمَا كَانُوا يَعْبُدُونَهم، أو يعبدون قبورهم، أو يعبدون صورهم؛ وَيَقُولُونَ: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزُّمَر: ٣]، ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ [يُونس: ١٨]، فبعث الله رُسُلَهُ تَنْهَى أَنْ يُدْعَا أَحَدٌ مِنْ دُونِهِ؛ لَا دُعَاءَ عِبَادَةٍ؛ وَلَا دُعَاءَ اسْتِغَاثَةٍ)(١). انتهى كلام الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ.

وبه يتضح كشف شبهة هؤلاء القبوريين، الذين يُسوغون فعلهم هذا بأنهم لا يعتقدون في الأولياء مشاركة الله في الخلق والرزق والإحياء والإماتة، وإنما يعتقدون أنهم وسائط بينهم وبين الله في قضاء حاجاتهم وتفريج كربتهم، وهي نفس الشبهة التي قالها مشركو الجاهلية؛ كما ذكرها الله في كتابه وأبطلها.

والواقع أن شرك هؤلاء المتأخرين زاد على شرك الجاهلية، فصاروا يهتفون بأسماء هؤلاء الأموات في كل نازلة، ولا يذكرون

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٣/ ٣٩٥ ـ ٣٩٦).

اسم الله إلا قليلاً، وإنما يجري على ألسنتهم اسم الولي دائماً، والأولون كانوا يشركون في الرخاء ويخلصون في الشدة، وهؤلاء شركهم دائم في الرخاء والشدة؛ كما قال الإمام محمد بن إسماعيل الصنعاني رَحِمَهُ اللَّهُ:

وكم هتفوا عند الشدائد باسمها كما يهتف المضطر بالصمد الفرد

فيا علماء المسلمين، أنتم المسؤولون عن هذه القطعان الضائعة والتائهة في الضلال.

لماذا لا تُبينون لهم طريق الحق، وتنهونهم عن هذا الشرك العظيم وأنتم تسكنون معهم في بلدٍ واحد وتخالطونهم؟!.

لماذا ضيعتم ما أوجب الله عليكم من الدعوة والبيان بقوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ [آل عِمرَان: ١٨٧]؟!، أليس العلماء ورثة الأنبياء، والأنبياء جاؤوا بإنكار هذا الشرك وجهاد أهله حتى يكون الدين كله لله؟!.

فاتقوا الله الذي حمّلكم هذه المسؤولية، وسيسألكم عنها؛ فقد ورد في الحديث الصحيح: «أن العَالِمَ الذي تعلَّم العلم رياءً وسمعة لا ليعمل بعلمه من أوَّل من تُسعّر بهم النار يوم القيامة»(١).

إن كنتم ترون هذا شركاً وتركتم الناس عليه فهذا أمر خطير، وإن كنتم لا ترونه شركاً فالأمر أشد خطراً؛ لأنكم جَهِلْتُم ما هو من أوضح الواضحات، اللَّهُمَّ أصلح أحوال المسلمين، واهد ضُلَّالَهم؛ إنك على كل شيء قدير.

---

(١) أخرجه مسلم (١٩٠٥)، والترمذي (٢٣٨١).

١٠ ـ **التصوير وسيلة إلى الشرك**: والتصوير معناه: نقل شكل الشيء وهيئته بواسطة الرسم أو الالتقاط بالآلة أو النحت وإثبات هذا الشكل على لوحة أو ورقة أو تمثال.

والعلماء يذكرون حكم التصوير في كتب العقيدة؛ لأن التصوير وسيلة من وسائل الشرك، وادعاء المشاركة لله بالخلق أو المحاولة لذلك، وأول شرك حدث في الأرض كان بسبب التصوير حينما أقدم قوم نوح على تصوير الصالحين، ونصب صورهم في مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها.

وقد حذّر النبي ﷺ من التصوير بجميع أنواعه، ونهى عنه، وتوعد من فعله بأشد الوعيد، وأمر بطمس الصور وتغييرها؛ لأن التصوير فيه مضاهاة لخلق الله ﷻ الذي انفرد بالخلق؛ فهذا الإنسان المصوِّرُ يحاول أن يضاهي الله ﷻ فيما انفرد به من الخلق، ولأن التصوير وسيلة من وسائل الشرك؛ فأول حدوث الشرك في الأرض كان بسبب التصوير؛ لما زين الشيطان لقوم نوح تصوير الصالحين، ونصب صورهم على المجالس؛ لأجل تذكر أحوالهم والاقتداء بهم في العبادة، حتى آل الأمر إلى عبادة تلك الصور، واعتقاد أنها تنفع وتضر من دون الله.

فالتصوير هو منشأ الوثنية؛ لأن تصوير المخلوق تعظيم له وتعلق به في الغالب، لا سيما إذا كان المصوَّر له شأن من سلطة أو علم أو صلاح، ولا سيما إذا عُظِّمت الصورة بنصبها على حائط أو إقامتها في شارع أو ميدان، أو في واجهات المجالس والمكاتب؛

فإن ذلك يؤدي إلى التعلق بها من الجهال وأهل الضلال، ولو بعد حين، ثم هذا أيضاً فيه فتح باب لنصب الأصنام والتماثيل التي تعبد من دون الله.

وسأورد جملة من الأحاديث الصحيحة الصريحة في تحريم التصوير مع التعليق عليها بما تيسر:

عن أبي هريرة رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: **«قَالَ اللهُ** عز وجل: **«وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ خَلْقاً كَخَلْقِي فَلْيَخْلُقُوا ذَرَّةً، أَوْ لِيَخْلُقُوا حَبَّةً، أَوْ لِيَخْلُقُوا شَعِيرَةً»**(١).

ومعناه: لا أحد أشد ظلماً من المصوِّر؛ لأنه لما صوَّر الصورة على شكل ما خلقه الله تعالى من إنسان أو بهيمة أو غيرهما من ذوات الأرواح صار مضاهئاً لخلق الله الذي هو خالق كل شيء، وهو رب كل شيء، وهو الذي صوَّر جميع المخلوقات وجعل فيها الأرواح التي تحصل بها حياتها؛ كما قال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ [التّغَابُن: ٣]، وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ﴾ [الحَشر: ٢٤].

ثم إن الله تحدّى هؤلاء المصورين الذين يحاولون مضاهاة خلقه أن يوجدوا في تلك الصور التي صوروها أرواحاً تحيا بها كما في المخلوق الذي صوروا على هيئته، وهذا بيان لعجزهم وفشلهم في محاولتهم، وكما أنهم عاجزون عن إيجاد حيوان ذي روح فهم عاجزون عن إيجاد الثمر والحب؛ فليخلقوا حبة.

(١) أخرجه البخاري ومسلم. البخاري (٥٩٥٣)، ومسلم (٢١١١) واللفظ له.

وروى البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ قال: «**أَشَدُّ النَّاسِ عَذَاباً يَوْمَ الْقِيَامَةِ الَّذِينَ يُضَاهُونَ بِخَلْقِ اللهِ**»(١).

فهذا إخبار منه ﷺ بشدة عذاب المصورين يوم القيامة وسوء عاقبتهم، وإن عاشوا في هذه الدنيا سالمين، وسمّوا فنانين، وشجعوا بأنواع التشجيع فإن لهم مصيراً ينتظرهم إذا لم يتوبوا؛ لأنهم بعملهم هذا يُضاهون بخلق الله؛ أي: يشابهون بما يصنعونه من الصور ما صنعه الله من الخلق وتفرد به وهو الخلاق العليم: ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿١٦﴾﴾ [الرّعد: ١٦].

قال الإمام النووي رحمه الله **عند كلامه على رواية: «أشد عذاباً»**: (مَحْمُولَةٌ عَلَى مَنْ فَعَلَ الصُّورَةَ؛ لِتُعْبَدَ، وَهُوَ صَانِعُ الْأَصْنَامِ وَنَحْوِهَا، فَهَذَا كَافِرٌ، وَهُوَ أَشَدُّ عَذَاباً، وَقِيلَ: هِيَ فِيمَنْ قَصَدَ الْمَعْنَى الَّذِي فِي الْحَدِيثِ مِنْ مُضَاهَاةِ خَلْقِ اللهِ تَعَالَى وَاعْتَقَدَ ذَلِكَ، فَهَذَا كَافِرٌ، لَهُ مِنْ أَشَدِّ الْعَذَابِ مَا لِلْكُفَّارِ، وَيَزِيدُ عَذَابُهُ بِزِيَادَةِ قُبْحِ كُفْرِهِ؛ فَأَمَّا مَنْ لَمْ يَقْصِدْ بِهَا الْعِبَادَةَ وَلَا الْمُضَاهَاةَ فَهُوَ فَاسِقٌ صاحب ذنب كبير ولا يكفر»(٢).

قال الشيخ عبد الرحمٰن بن حسن رحمه الله: (فإذا كان هذا فيمن صوَّر صورةً على مثال ما خلقه الله تعالى من الحيوان، فكيف بحال من سوّى المخلوق برب العالمين، وشبهه بخلقه،

---

(١) البخاري (٥٩٥٤) واللفظ له، ومسلم (٢١٠٧).
(٢) شرح صحيح مسلم.

وصرف له شيئاً من العبادة؟!)[١].

وروى مسلم رَحِمَهُ اللهُ عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**كُلُّ مُصَوِّرٍ فِي النَّارِ يَجْعَلُ لَهُ بِكُلِّ صُورَةٍ صَوَّرَهَا نَفْساً فَتُعَذِّبُهُ فِي جَهَنَّمَ**»[٢]، **ومعناه**: أنه في يوم القيامة تحضر جميع الصور التي صوَّرها في الدنيا، ويجعل في كل واحدة منها نفس يعذب بها في جهنم، قلَّت الصور أم كثرت، فيقاسي عذابها، بحيث يُكون من كل صورة شخص يعذب به في جهنم.

وروى البخاري ومسلم ـ رحمهما الله ـ عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أيضاً: «**مَنْ صَوَّرَ صُورَةً فِي الدُّنْيَا كُلِّفَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنْ يَنْفُخَ فِيهَا الرُّوحَ وَلَيْسَ بِنَافِخٍ**»[٣].

وهذا نوع آخر من العذاب للمُصور، ومعناه واضح، وهو: أن المصور تحضر أمامه جميع الصور التي صوّرها في الدنيا، ثم يؤمر أن ينفخ في كل واحدة منها الروح، وأنّى له ذلك، و﴿ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾ [الإسرَاء: ٨٥]؟! وإنما هذا تعذيب له وتعجيز له؛ لأنه يكلف ما لا يطيق، فيكون معذباً دائماً؛ فالحديث يدل على طول تعذيبه وإظهار عجزه عما كان يتعاطاه في دنياه من مضاهاة خلق الله.

وروى مسلم رَحِمَهُ اللهُ عن أبي الهياج؛ قال: (قَالَ لي عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ: أَلَّا أَبْعَثُكَ عَلَى مَا بَعَثَنِي عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ؟ أن لا تدع

(١) فتح المجيد شرح كتاب التوحيد (٢/ ٣٩٨).
(٢) أخرجه مسلم (٢١١٠).
(٣) أخرجه البخاري (٥٩٦٣) واللفظ له، ومسلم (٢١١٠).

صُورَةً إِلَّا طَمَسْتَهَا، وَلَا قَبْراً مُشْرِفاً إِلَّا سَوَّيْتَهُ)[(١)].

ففي هذا الحديث الأمر بطمس الصور، وهو تغييرها عن هيئتها؛ حتى لا تبقى على حالها المشابهة لخلق الله، وفيه الأمر بهدم المباني المقامة على القبور من قباب ومساجد وغيرها من مظاهر الوثنية.

ففي هذا الحديث الأمر بالقضاء على وسيلتين من أكبر وسائل الشرك وذرائعه المفضية إليه، هما: **التصوير والبناء على القبور**، وهذا وأمثاله من أكبر مصالح الدين وحماية عقيدة المسلمين.

وقد كثر في زماننا هذا التصوير واستعماله، ونصب الصور بتعليقها والاحتفاظ بالصور التذكارية[(٢)]، وكثر أيضاً في هذا الزمان البناء على القبور، حتى صار ذلك أمراً مألوفاً، وذلك بسبب غربة الدين، وخفاء السُنن، وظهور البدع، وسكوت كثير من العلماء، واستسلامهم للأمر الواقع، حتى أصبح المعروف منكراً والمنكر معروفاً في غالب البلدان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

فالواجب: التنبيه والنصيحة لله ولكتابه ولنبيِّه ولأئمة المسلمين وعامتهم، خصوصاً وأن دعاة الضلال والمروجين للباطل كثيرون؛ فلا بد من كشف زيفهم ورد ضلالهم وتبصير المسلمين بشرهم حتى يحذروهم.

وفق الله المسلمين للعمل بكتابه وسُنَّة رسوله.

---

(١) أخرجه مسلم (٩٦٩)، وينظر الروايات التي بعدها.

(٢) إذا جاز التصوير في الحالات الضرورية؛ كالتصوير لحفيظة النفوس وجواز السفر ورخصة القيادة، فإنه يقتصر على تلك الأحوال الضرورية، ولا يتوسع في غيرها؛ لأن الرخص تقدر بالضرورة.

نقض شبهات المشركين التي يتعلقون بها في تسويغ شركهم في توحيد الإلهية

إنه بسبب رواج الشُّبه والحكايات التي ضل بها أكثر الناس واعتبروها أدلة يستندون إليها في تسويغ ضلالهم وشركهم؛ استمرؤوا ما هم عليه، فكان لا بد من كشف زيفها وبيان بطلانها؛ ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢].

وهذه الشبه منها ما هو قديم أدلى به المشركون من الأمم السابقة، ومنها ما أدلى به مشركو هذه الأمة قديماً وحديثاً.

ومن هذه الشبه:

أولاً: شبهة تكاد تكون مشتركة بين طوائف المشركين في مختلف الأمم، وهي شبهة الاحتجاج بما كان عليه الآباء والأجداد، وأنهم ورثوا هذه العقيدة خلفاً عن سلف، كما قال الله تعالى عنهم: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الزّخرُف: ٢٣].

وهذه حجة يلجأ إليها من يعجز عن إقامة الدليل على دعواه، وهي حجة داحضة، لا يقام لها وزن في سوق المناظرة؛ فإن هؤلاء الآباء الذين قلدوهم ليسوا على هدى، ومن كان كذلك لا تجوز متابعته والاقتداء به.

قال تعالى عن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام: إن الواحد منهم كان يقول لقومه ردًّا عليهم: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ﴾ [الزّخرُف: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [المَائدة: ١٠٤]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ [البَقَرَة: ١٧٠].

وإنما يكون الاقتداء بالآباء محموداً إذا كانوا على حق، كما قال تعالى عن يوسف عليه السلام أنه قال: ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ﴾ [يُوسُف: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الطُّور: ٢١].

وشبهة الاحتجاج بما كان عليه الآباء الضالون متغلغلة في نفوس المشركين، يقابلون بها دعوات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام:

فقوم **نوح** لما قال لهم نوح: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [المؤمنون: ٢٣ ـ ٢٤]، فجعلوا ما عليه آباءهم حجة يعارضون بها ما جاءهم به نبيهم نوح عليه السلام.

وقوم **صالح** عليه السلام يقولون له: ﴿أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ [هُود: ٦٢].

وقوم **إبراهيم** يقولون له: ﴿بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾ [الشُّعَرَاء: ٧٤].

وفرعون قال لموسى عليه السلام: ﴿فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ۝٥١﴾ [طه: ٥١].

ومشركو **العرب** لما قال لهم محمد ﷺ: «**قولوا: لا إله إلا الله**»، قالوا: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ۝٧﴾ [ص: ٧].

ثانياً: ومن الشبه التي يدلي بها عباد القبور اليوم ظنهم أن مجرد النطق بلا إلٰه إلا الله يكفي لدخول الجنة، ولو فعل الإنسان ما فعل فإنه لا يكفر وهو يقول: (لا إلٰه إلا الله)، متمسكين بظواهر الأحاديث التي ورد فيها أن من نطق بالشهادتين حرم على النار.

والجواب عن هذه الشبهة: أن هذه الأحاديث ليست على إطلاقها، وإنما هي مقيدة بأحاديث أُخرى جاء فيها أنه لا بد لمن قال: (لا إلٰه إلا الله) أن يعتقد معناها بقلبه ويعمل بمقتضاها؛ فيكفر بما يعبد من دون الله.

كما في حديث عتبان: «**فَإِنَّ اللهَ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللهِ**»(١). وإلا فالمنافقون يقولون: لا إلٰه إلا الله بألسنتهم، وهم في الدرك الأسفل من النار، ولم ينفعهم النطق بلا إلٰه إلا الله؛ لأنهم لا يعتقدون ما دلت عليه بقلوبهم.

وفي «صحيح مسلم»: «**مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَكَفَرَ بِمَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ حَرُمَ مَالُهُ وَدَمُهُ وَحِسَابُهُ عَلَى اللهِ**»(٢). فعلَّق النبي ﷺ حرمة المال والدم على أمرين:

الأول: قول: لا إلٰه إلا الله.

(١) أخرجه البخاري (٥٤٠١)، وبنحوه مسلم (٣٣).
(٢) أخرجه مسلم (٢٣).

والثاني: الكفر بما يعبد من دون الله، ولم يكتف بمجرد النطق بلا إلٰه إلا الله، فدل على أن الذي يقول: لا إلٰه إلا الله ولا يترك عبادة الموتى والتعلق بالأضرحة لا يحرم ماله ولا دمه.

ثالثاً: ومن الشُّبه التي يدلون بها أيضاً: دعواهم أنه لا يقع في هذه الأمة المحمدية شرك وهم يقولون: (لا إلٰه إلا الله محمد رسول الله)، وأن هذا الذي يفعلونه عند الأضرحة من عبادة الموتى ودعائهم من دون الله لا يسمى شركاً عندهم.

والجواب عن هذه الشبهة: أن النبي ﷺ أخبر أنه سيكون في هذه الأمة مشابهة لليهود والنصارى فيما هم عليه، ومن جملة ذلكم اتخاذهم أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله، وأخبر ﷺ أنها لا تقوم الساعة حتى يلحق حي من أُمته بالمشركين، وحتى تعبد فئام من أمته الأوثان، وقد حدث في هذه الأمة من الشرك والمبادئ الهدامة والنحل الضالة ما خرج به كثير من الناس من دين الإسلام، وهم يقولون: لا إلٰه إلا الله.

رابعاً: ومن الشُّبه التي تعلقوا بها قضية الشفاعة؛ حيث يقولون: نحن لا نريد من الأولياء والصالحين قضاء الحاجات من دون الله، ولكن نريد منهم أن يشفعوا لنا عند الله؛ لأنهم أهل صلاح ومكانة عند الله؛ فنحن نريد من الله أن يقضي حاجاتنا بجاههم وشفاعتهم.

والجواب: أن هذا هو عين ما قاله المشركون من قبل في تسويغ ما هم عليه، وقد كفّرهم الله وسماهم مشركين؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى

ﭐللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزُّمَر: ٣]، وقال تعالى: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ [يُونس: ١٨].

والشفاعة حق، ولكنها ملك لله وحده؛ كما قال تعالى: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗاۖ﴾ [الزُّمَر: ٤٤]؛ فهي تطلب من الله لا من الأموات؛ لأن الله لم يرخص في طلب الشفاعة من الملائكة ولا من الأنبياء ولا غيرهم؛ لأنها ملكه سبحانه، وتطلب منه؛ ليأذن للشافع أن يشفع، وليس الأمر كما هو عند المخلوقين من تقدم الشفعاء لديهم بدون إذنهم، ويضطرون إلى قبول الشفاعة لحاجتهم إليهم، وإن لم يرضوا عن المشفوع فيه؛ لأنهم يحتاجون إلى الأعوان والوزراء، أما الله سبحانه فلا يشفع أحد إلا بإذنه ورضاه عن المشفوع فيه؛ قال تعالى: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ ٢٦﴾ [النّجم: ٢٦].

خامساً: ومن شُبه هؤلاء أنهم يقولون: إن الأولياء والصالحين لهم مكانة عند الله، ونحن نسأل الله بجاههم ومكانتهم.

والجواب: أن المؤمنين كلهم أولياء الله، ولكن الجزم لشخص معين أنه ولي لله يحتاج إلى دليل من الكتاب والسُّنَّة، ومن ثبتت ولايته بالكتاب والسُّنَّة لم يجز لنا الغلو فيه والتبرك به؛ لأن ذلك من وسائل الشرك، والله أمرنا بدعائه مباشرة دون اتخاذ وسائط بيننا وبينه، ولأن هذا هو التعليل الذي علّل به المشركون من قبل أنهم اتخذوا هؤلاء شفعاء ووسائط بينهم وبين الله، يسألون الله بجاههم وقربهم، فأنكر الله عليهم ذلك.

بيان أنواع من الشرك الأكبر

الشرك نوعان: شرك أكبر، وشرك أصغر، والشرك الأكبر ينافي التوحيد ويخرج من الملة، وله أنواع كثيرة سبق بيان بعضها مما يفعل حول الأضرحة، وتوجد أنواع أخرى منها:

أولاً: الشرك في الخوف:

الخوف كما عرَّفه العلماء: توقع مكروه عن أمارة مظنونة أو معلومة، وهو ثلاثة أقسام:

الأول: خوف السر، وهو: أن يخاف من غير الله من وثن أو طاغوت أو ميت أو غائب من جن أو إنس أن يصيبه بما يكره؛ كما قصَّ الله عن قوم هود عليه السلام أنهم قالوا له: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعۡتَرَىٰكَ بَعۡضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٖۗ قَالَ إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾﴾ [هُود: ٥٤ ـ ٥٥].

وقد خوَّف المشركون رسول الله محمداً ﷺ من أوثانهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ﴾ [الزُّمَر: ٣٦].

والخوف من غير الله هو الواقع اليوم من عُبَّاد القبور وغيرها من الأوثان؛ يخافونها، ويخوِّفون بها أهل التوحيد إذا أنكروا عبادتها وأمروا بإخلاص العبادة لله.

وهذا النوع من الخوف من أهم أنواع العبادة، فيجب

إخلاصه لله وحده؛ قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ [آل عِمرَان: ١٧٥]، وقال تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ﴾ [المَائدة: ٣].

وهذا الخوف من أعظم مقامات الدين وأجلّها؛ فمن صرفه أو صرف شيئاً منه لغير الله فقد أشرك بالله الشرك الأكبر والعياذ بالله.

الثاني: من أنواع الخوف: أن يترك الإنسان ما يجب عليه من الأعمال خوفاً من بعض الناس؛ فهذا محرم، وهو شرك أصغر، وهذا هو المذكور في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ [آل عِمرَان: ١٧٣ ـ ١٧٥].

وهذا أيضاً هو الخوف المذكور في الحديث الذي رواه ابن ماجه عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ: أنه قال: «**لَا يَحْقِرْ أَحَدُكُمْ نَفْسَهُ!**» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، كَيْفَ يَحْقِرُ أَحَدُنَا نَفْسَهُ؟ قَالَ: «**يَرَى أَمْراً للهِ عَلَيْهِ فِيهِ مَقَالٌ ثُمَّ لَا يَقُولُ فِيهِ، فَيَقُولُ اللهُ** عز وجل **لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: مَا مَنَعَكَ أَنْ تَقُولَ فِي كَذَا وَكَذَا؟ فَيَقُولُ خَشْيَةُ النَّاسِ، فَيَقُولُ الله** عز وجل: **فَإِيَّايَ كُنْتَ أَحَقَّ أَنْ تَخْشَى**»(١).

الثالث: من أنواع الخوف: الخوف الطبيعي: وهو الخوف من

(١) أخرجه ابن ماجه (٤٠٠٨).

عدو أو سَبُع أو غير ذلك؛ فهذا ليس بمذموم؛ كما قال تعالى في قصة موسى عليه السلام: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ [القَصَص: ٢١].

أما النوع الأول الذي هو خوف السّر، فهو من أعظم أنواع العبادة؛ فيجب إخلاصه لله عز وجل، وكذلك النوع الثاني؛ فهو من حقوق العبادة ومكملاتها.

ومعنى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ﴾ [آل عِمرَان: ١٧٥]؛ أي: يخوفكم بأوليائه، ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ﴾ [آل عِمرَان: ١٧٥] وهذا نهي من الله للمؤمنين أن يخافوا غيره، وأمرٌ لهم أن يقصروا خوفهم عليه؛ فإذا أخلصوا الخوف وجميع أنواع العبادة أعطاهم ما يريدون وأمنهم مما يخافون، كما قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ﴾ [الزُّمَر: ٣٦].

قال الإمام ابن القيم رحمه الله: (ومن كيد عدو الله تعالى: أن يخوِّف المؤمنين من جُنده وأوليائه؛ لئلا يجاهدوهم، ولا يأمروهم بمعروف، ولا ينهوهم عن منكر، وأخبر تعالى أن هذا من كيد الشيطان وتخويفه، ونهانا أن نخافه... فكلما قوي إيمان العبد زال منه خوف أولياء الشيطان، وكلما ضعف إيمانه قوي خوفه منهم)(١).

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾﴾ [التّوبَة: ١٨].

---

(١) انظر: إغاثة اللهفان (١/ ١١٠).

فأخبر سبحانه: أن مساجد الله لا يعمرها إلا أهل الإيمان بالله واليوم الآخر، الذين آمنوا بقلوبهم وعملوا بجوارحهم، وأخلصوا له الخشية دون من سواه، فأثبت لهم عمارة المساجد بعد أن نفاها عن المشركين؛ لأن عمارة المساجد لا تكون إلا بالطاعة والعمل الصالح، والمشرك وإن عمل فعمله ﴿كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا﴾ [النور: ٣٩]، أو ﴿كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ [إبراهيم: ١٨]، وما كان كذلك فالعدم خير منه، فلا تكون المساجد عامرة عمراناً صحيحاً إلا بالعمل الصالح المؤسس على الإخلاص والتوحيد والعقيدة الصحيحة الخالية من الشرك والبدع والخرافات، وليس عمارتها بالطين والزخرفة وفخامة البناء فقط، أو إشادتها على القبور؛ فقد لعن النبي ﷺ الذين يتخذون القبور مساجد.

وقوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [التوبة: ١٨]؛ قال ابن عطية رحمه الله: (يريد: خشية التعظيم والعبادة والطاعة... ولا محالة أن الإنسان يخشى غيره ويخشى المحاذير الدنيوية)(١).

وقد كتب معاوية رضي الله عنه إلى أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها يطلب منها أن تكتب له كتاباً توصيه فيه ولا تكثر عليه، فكتبت له عائشة رضي الله عنها ما نصه: سلام عليك، أما بعد فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من التمس رضى الله بسخط الناس كفاه الله مؤونة الناس، ومن التمس رضى الناس بسخط الله وكله الله إلى**

(١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (١٨/٣).

الناس» والسلام[(١)]، ورواه ابن حبان في «صحيحه» بلفظ: «**مَنِ الْتَمَسَ رِضَى اللهِ بِسَخَطِ النَّاسِ رَضِيَ الله تعالى عَنْهُ وَأَرْضَى النَّاسَ عَنْهُ، وَمَنِ الْتَمَسَ رِضَا النَّاسِ بِسَخَطِ اللهِ سَخَطَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَسْخَطَ عليه الناس**»[(٢)].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: (وَكَتَبَتْ عَائِشَةُ إِلَى مُعَاوِيَةَ، وَرُوِيَ أَنَّهَا رَفَعَتْهُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ: «**مَنْ أَرْضَى اللهَ بِسَخَطِ النَّاسِ كَفَاهُ مُؤْنَةَ النَّاسِ، وَمَنْ أَرْضَى النَّاسَ بِسَخَطِ اللهِ لَمْ يُغْنُوا عَنْهُ مِنَ اللهِ شَيْئاً**» هَذَا لَفْظُ الْمَرْفُوعِ، وَلَفْظُ الْمَوْقُوفِ: «مَنْ أَرْضَى اللهَ بِسَخَطِ النَّاسِ رضي الله عنه وَأَرْضَى عَنْهُ النَّاسَ، وَمَنْ أَرْضَى النَّاسَ بِسَخَطِ اللهِ عَادَ حَامِدُهُ مِنَ النَّاسِ لَهُ ذَامًّا» هَذَا لَفْظُ الْمَأْثُورِ عَنْهَا، وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ الْفِقْهِ فِي الدِّينِ، وَالْمَرْفُوعُ أَحَقّ وَأَصْدَقُ؛ فَإِنَّ مَنْ أَرْضَى اللهَ بِسَخَطِهِمْ كَانَ قَدِ اتَّقَاهُ، وَكَانَ عَبْدَهُ الصَّالِحَ، وَاللهُ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ، وَهُوَ كَافٍ عَبْدَهُ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطّلَاق: ٢ ـ ٣]، فَاللهُ يَكْفِيهِ مُؤْنَةَ النَّاسِ بِلَا رَيْبٍ، وَأَمَّا كَوْنُ النَّاسِ كُلِّهِمْ يَرْضَوْنَ عَنْهُ فَقَدْ لَا يَحْصُلُ ذَلِكَ، لَكِنْ يَرْضَوْنَ عَنْهُ إذَا سَلِمُوا مِنَ الْأَغْرَاضِ، وَإِذَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْعَاقِبَةُ، وَمَنْ أَرْضَى النَّاسَ بِسَخَطِ اللهِ لَمْ يُغْنُوا عَنْهُ مِنَ اللهِ شَيْئاً؛ كَالظَّالِمِ الَّذِي يَعَضُّ عَلَى يَدِهِ يَقُولُ: ﴿يَـٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ۝٢٧ يَـٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ۝٢٨﴾ [الفُرقان: ٢٧ ـ ٢٨].

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية بنحوه (٨/ ١٨٨)، والترمذي (٢٤١٤).
(٢) صحيح ابن حبان (٢٧٦).

وَأَمَّا كَوْنُ حَامِدِهِ يَنْقَلِبُ ذَامًّا فَهَذَا يَقَعُ كَثِيراً، وَيَحْصُلُ فِي الْعَاقِبَةِ؛ فَإِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلتَّقْوَى، لَا يَحْصُلُ ابْتِدَاءً عِنْدَ أَهْوَائِهِمْ)[١] انتهى كلامه رَحِمَهُ اللَّهُ.

ومن هذا الحديث برواياته يتبين: أن الإنسان إذا كان يطلب بعمله إرضاء الله بما يسخط الناس حصل على مصلحتين عظيمتين: رضى الله تعالى ثم رضى الناس، ومن كان بالعكس يطلب بعمله إرضاء الناس بما يسخط الله عَزَّ وَجَلَّ، حصل له مضرتان: سخط الله، ومن ثم سخط الناس، فدل على أن إرضاء الله تعالى يجمع الخير كله، وأن إرضاء الناس بما يسخط الله يجمع الشر كله، نسأل الله العافية والسلامة.

هذا ويجب أن نعلم أن الخوف من الله سبحانه يجب أن يكون مقروناً بالرجاء والمحبة؛ بحيث لا يكون خوفاً باعثاً على القنوط من رحمة الله؛ فالمؤمن يسير إلى الله بين الخوف والرجاء، بحيث لا يسلك سبيل الخوف فقط حتى يقنط من رحمة الله، ولا يسلك سبيل الرجاء فقط حتى يأمن من مكر الله؛ لأن القنوط من رحمة الله والأمن من مكره ينافيان كمال التوحيد؛ قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الأعراف: ٩٩]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [يوسف: ٨٧]، وقال: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾﴾ [الحجر: ٥٦].

---

(١) مجموع الفتاوى (١/ ٥٢).

قال إسماعيل بن رافع: (مِنَ الْأَمْنِ لِمَكْرِ اللهِ إِقَامَةُ الْعَبْدِ عَلَى الذَّنْبِ يَتَمَنَّى عَلَى اللهِ الْمَغْفِرَةَ)(١).

وقال العلماء: القنوط: استبعاد الفَرَج، واليأس منه، وهو يقابل الأمن من مكر الله، وكلاهما ذنب عظيم.

فلا يجوز للمؤمن أن يعتمد على الخوف فقط حتى يقنط من رحمة الله، ولا على الرجاء فقط حتى يأمن من عذاب الله؛ بل يكون خائفاً راجياً؛ يخاف ذنوبه، ويعمل بطاعة الله، ويرجو رحمته؛ كما قال تعالى عن أنبيائه: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنبياء: ٩٠]، وقال: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾﴾ [الإسراء: ٥٧].

والخوف والرجاء إذا اجتمعا دفعا العبد إلى العمل وفعل الأسباب النافعة؛ فإنه مع الرجاء يعمل الطاعات رجاء ثوابها، ومع الخوف يترك المعاصي خوف عقابها، أما إذا يئس من رحمة الله فإنه يتوقف عن العمل الصالح، وإذا أمن من عذاب الله وعقوبته فإنه يندفع إلى فعل المعاصي.

قال بعض العلماء: من عبد الله بالحب وحده فهو صوفي، ومن عبده بالخوف وحده فهو حروري، ومن عبده بالرجاء وحده فهو مرجئ، ومن عبده بالحب والخوف والرجاء فهو مؤمن؛ كما وصف الله بذلك خيرة خلقه حيث يقول سبحانه: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ

(١) رواه ابن أبي حاتم في تفسيره عند قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩].

يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ [الإسراء: ٥٧].

وقد وصف الله الذين أهملوا جانب الخوف واندفعوا في المعاصي، وأمنوا من العقوبة بأنهم الخاسرون، فقال تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الأعراف: ٩٧ ـ ٩٩].

ومعنى الآيات: أن الله لما ذكر حال أهل القرى المكذبين للرسل المتمادين في الكفر والمعاصي ذكر أن الذي حملهم على ذلك هو الأمن من مكر الله، وعدم الخوف منه.

ومكر الله: هو أنه إذا عصاه العبد وأغضبه أنعم عليه بأشياء يظن العبد أنها من رضى الله عنه، وهي استدراج له؛ فهؤلاء الكفرة أمنوا مكر الله بهم لما استدرجهم بالسراء والنعم، وعصوا رسلهم وتمادوا في المعاصي حتى أهلكهم الله.

وحذّر من جاء بعدهم أن يفعل مثل فعلهم فيصيبه ما أصابهم، فقال سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [الأعراف: ١٠٠].

قال بعض العلماء: خوف العبد من ربه ﷻ ينشأ من أمور هي:

أولاً: معرفته بالجناية وقبحها.

ثانياً: تصديقه بالوعيد، وأن الله رتَّب على المعصية عقوبتها.

ثالثاً: كونه لا يعلم لعله يمنع من التوبة ويحال بينه وبينها إذا ارتكب الذنب.

وبهذه الثلاثة يتم له الخوف قبل الذنب وبعده، ويكون خوفه أشد.

وكان الأنبياء عليهم السلام لا ينقطع أملهم بالله أبداً، ولا ييأسون من رحمة الله في جميع الأحوال، مهما اشتدَّ الخَطْبُ، وازداد الكرب، وضعفت الأسباب، وأغلقت الأبواب.

فهذا خليل الله إبراهيم لما بشَّرته الملائكة بالولد مع كبر سنه وحال زوجه التي يستبعد معها حصول الولد، قال عند ذلك: ﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾﴾ [الحِجر: ٥٦]؛ لأنه يعلم من قدرة الله ورحمته ما هو أبلغ من ذلك وأعظم، لكنه قال للملائكة: ﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [الحِجر: ٥٤]، قال ذلك على وجه التعجب والتفكر في عظيم قدرة الله ورحمته.

وهذا نبي الله يعقوب عليه السلام لما اشتد به الأمر وتأزم الحال بفراق بنيه عظم رجاؤه بالله وطمعه برحمته، وقال لبنيه الحاضرين عنده: ﴿يَٰبَنِىَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [يُوسُف: ٨٧]، وقال: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾﴾ [يُوسُف: ٨٣].

وهذا نبينا محمد ﷺ قال الله عنه: ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠]، فعظم رجاؤه عند الشدة.

وقال ﷺ: «**وَاعْلَمْ أَنَّ الْفَرَجَ مَعَ الْكَرْبِ**»(١).

والله سبحانه ينهى عباده الذين كثرت ذنوبهم وعظمت جرائمهم أن يحملهم ذلك على القنوط من رحمته، وترك التوبة منها؛ قال تعالى: ﴿قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [الزمر: ٥٣ ـ ٥٤]؛ فنهى سبحانه عباده أن تحملهم كثرة ذنوبهم على ترك التوبة واليأس من المغفرة.

وقد عدَّ النبي ﷺ اليأس من روح الله من الكبائر؛ فعن ابن عباس رضي الله عنهما: «أن رسول الله ﷺ سُئل عن الكبائر، فقال: «**الإشراك بالله واليأس من روح الله، والأمن من مكر الله**»(٢).

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: أَكْبَرُ الْكَبَائِرِ: الإِشْرَاكُ بِاللهِ، وَالأَمْنُ مِنْ مَكْرِ اللهِ وَالْقُنُوطُ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ وَالْيَأْسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ(٣).

(١) بنحوه مسند الإمام أحمد (٢٨٠٣).
(٢) بنحوه رواه البزار، قال الهيثمي في مجمع الزوائد: رواه البزار والطبراني في الأوسط ورجاله موثقون (١/ ١٢٤).
وانظر: ما ذكره ابن كثير عن هذا الحديث عند قوله تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ [النساء: ٣١].
(٣) المصنف لعبد الرزاق (١٩٧٠١)، والطبراني في الكبير (٨٧٨٤). وقال الهيثمي في المجمع (١/ ١٠٤): رواه الطبراني ورجاله موثقون.

لأن القنوط من رحمة الله سوء ظن بالله، وجهل بسعة رحمته ومغفرته، والأمن من مكر الله جهل بالله وبقدرته، وثقة بالنفس وإعجاب بها.

وفي ذلك تنبيه على أن يكون العبد دائماً بين الخوف والرجاء؛ فإذا خاف فلا يقنط ولا ييأس؛ بل يرجو رحمة الله، وإذا رجا فلا يتمادى به الرجاء حتى يأمن العقوبة.

وكان بعض السلف يستحبون للعبد أن يقوي في حال الصحة جانب الخوف، وفي حال المرض وعند حضور الموت يقوي جانب الرجاء.

فتوازن القلب بين الخوف والرجاء يدفع على العمل الصالح والبعد عن المعاصي والتوبة من الذنوب، أما إذا اختل توازن القلب فمال إلى جانب واحد فإن هذا مما يعطل حركة العمل، ويعرقل سبيل التوبة ويوقع في الهلاك.

وفيما قصَّه الله عن الأمم السابقة التي عطلت جانب الخوف فحل بها عقاب الله خير مذكر لأهل الإيمان؛ فها هم قوم هود يقولون له: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ﴾ [الشُّعَرَاء: ١٣٦ ـ ١٣٩].

والخوف والرجاء من أعظم أنواع العبادة؛ فيجب إخلاصهما لله ﷻ، والإخلال بهما إخلال بالتوحيد وإفساد للعقيدة.

ثانياً: الشرك في المحبة:

قلنا فيما سبق: إن الخوف من الله تعالى لا بد أن يكون مقروناً بمحبته سبحانه؛ لأن تعبده بالخوف فقط هو مذهب الوعيدية: (الخوارج، والمعتزلة).

فالمحبة هي أصل دين الإسلام الذي تدور عليه رحاه؛ فبكمال محبة الله يكمل دين الإسلام، وبنقصها ينقص توحيد الإنسان.

والمراد بالمحبة هنا: محبة العبودية المستلزمة للذل والخضوع، وكمال الطاعة، وإيثار المحبوب على غيره، فهذه المحبة خالصة لله، لا يجوز أن يشرك معه فيها أحد؛ **لأن المحبة قسمان:**

القسم الأول: محبة مختصة: وهي محبة العبودية التي تستلزم كمال الذل والطاعة للمحبوب، وهذه خاصة بالله ﷻ.

والقسم الثاني: محبة مشتركة، وهي ثلاثة أنواع:

النوع الأول: محبة طبيعية؛ كمحبة الجائع للطعام.

النوع الثاني: محبة إشفاق؛ كمحبة الوالد لولده.

النوع الثالث: محبة أُنس وإلف؛ كمحبة الشريك لشريكه والصديق لصديقه.

وهذه المحبة بأقسامها الثلاثة لا تستلزم التعظيم والذل، ولا يؤاخذ أحد بها، ولا تزاحم المحبة المختصة، فلا يكون وجودها شركاً؛ لكن لا بد أن تكون المحبة المختصة مقدمة عليها.

والمحبة المختصة ـ وهي محبة العبودية ـ هي المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ

ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِۗ وَلَوۡ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذۡ يَرَوۡنَ ٱلۡعَذَابَ أَنَّ ٱلۡقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعَذَابِ ﴿١٦٥﴾﴾ [البَقَرَة: ١٦٥].

قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ **عند كلامه عن هذه الآية:** (أخبر تعالى أن من أحب من دون الله شيئاً كما يحب الله تعالى فهو ممن اتخذ من دون الله أنداداً؛ فهذا ندٌّ في المحبة لا في الخلق والربوبية)[١].

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: (يذْكرُ تَعَالَى حال المشركين به في الدنيا وما لهم فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ؛ حَيْثُ جَعَلُوا لَهُ أَنْدَاداً ـ أَيْ: أَمْثَالاً وَنُظَرَاءَ ـ يَعْبُدُونَهُمْ مَعَهُ، وَيُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّهِ)[٢]؛ أي: يساوونهم بالله في المحبة والتعظيم.

وهذا الذي قاله ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ هو الذي قرره شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[٣]؛ كما حكى الله هذه التسوية عنهم في قوله: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذۡ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [الشُّعَرَاء: ٩٧ ـ ٩٨]، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ ﴿١﴾﴾ [الأنعَام: ١].

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِۗ﴾ [البَقَرَة: ١٦٥]؛ أي: أشد حبًّا لله من أصحاب الأنداد لله، وقيل: أشد حبًّا لله من أصحاب الأنداد لأندادهم، فدلت الآية على أن من أحب شيئاً كحب الله فقد اتخذه ندًّا لله.

---

(١) انظر: مدارج السالكين (٣/ ٢٠).
(٢) تفسير ابن كثير، سورة البقرة، الآية ١٦٥.
(٣) انظر: مدارج السالكين (٣/ ٢١).

قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ: (وفيه أن من اتخذ ندًّا تساوي محبته محبة الله فهو الشرك الأكبر)(١).

وقلنا قريباً: إن محبة الله هي محبة العبودية يجب أن تقدم على المحبة التي ليست عبودية، وهي: المحبة المشتركة كمحبة الآباء والأولاد والأزواج والأموال؛ لأن الله توعد من قدَّم هذه المحبة على محبة الله، فقال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [التوبة: ٢٤].

فتوعد سبحانه من قدَّم هذه المحبوبات الثمان على محبة الله ورسوله والأعمال التي يحبها، ولم يتوعد على مجرد حب هذه الأشياء؛ لأن هذا شيء جُبل عليه الإنسان ليس اختياريًّا، وإنما توعد من قدَّم محبتها على محبة الله ورسوله، ومحبة ما يحبه الله ورسوله ﷺ، فلا بد من إيثار ما أحبه الله من عبده وأراده شرعاً على ما يحبه العبد ويريده.

فمحبة الله لها علامات تدل عليها:

منها: أن من أحب الله تعالى فإنه يقدم ما يحبه الله من الأعمال على ما تحبه نفسه من الشهوات والملذات والأموال والأولاد والأوطان.

(١) كتاب التوحيد: المسألة الحادية عشرة من باب قول الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ [البَقَرَة: ١٦٥].

ومنها: أن من أحب الله تعالى فإنه يتَّبع رسوله ﷺ فيما جاء به، فيفعل ما أمر به، ويترك ما نهى عنه؛ قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [آل عِمرَان: ٣١ ـ ٣٢].

قال بعض السلف: (ادعى قوم محبة الله، فأنزل الله تعالى آية المحبة: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عِمرَان: ٣١])[١].

ففي الآية بيان دليل محبة الله وثمرتها وفائدتها.

فدليلها وعلامتها: اتباع الرسول ﷺ، **وفائدتها وثمرتها**: نيل محبة الله للعبد ومغفرته لذنوبه.

ومن علامات صدق محبة العبد لله ما ذكره الله بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ﴾ [المَائدة: ٥٤].

فذكر في هذه الآية الكريمة لمحبة الله أربع علامات:

العلامة الأولى: أن المحبين لله يكونون أذلة على المؤمنين؛ بمعنى: أنهم يشفقون عليهم، ويرحمونهم ويعطفون عليهم، قال عطاء رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (يكونون للمؤمنين كالوالد لولده).

العلامة الثانية: أنهم يكونون أعزة على الكافرين؛ أي: يُظهرون لهم الغلظة والشدة والترفع عليهم، ولا يظهرون لهم الخضوع والضعف.

(١) انظر: تفسير الطبري والقرطبي.

العلامة الثالثة: أنهم يجاهدون في سبيل الله بالنفس واليد والمال واللسان؛ لإعزاز دين الله وقمع أعدائه بكل وسيلة.

العلامة الرابعة: أنهم لا تأخذهم في الله لومة لائم، فلا يؤثر فيهم ازدراء الناس لهم ولومهم إياهم على ما يبذلون من أنفسهم وأموالهم لنصرة الحق؛ لقناعتهم بصحة ما هم عليه وقوة إيمانهم ويقينهم، فكل محب يؤثر فيه اللوم فيضعفه عن مناصرة حبيبه فليس بمحب على الحقيقة.

والأسباب الجالبة لمحبة الله تعالى عشرة أشياء: ذكرها ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهي:

الأول: قراءة القرآن بالتدبر والتفهم لمعانيه وما أريد به.

الثاني: التقرب إلى الله تعالى بالنوافل بعد الفرائض.

الثالث: دوام ذكر الله على كل حال باللسان والقلب والعمل.

الرابع: إيثار ما يحبه الله على ما يحبه العبد عند تزاحم المحبتين.

الخامس: التأمل في أسماء الله وصفاته وما تدل عليه من الكمال والجلال وما لها من الآثار الحميدة.

السادس: التأمل في نعم الله الظاهرة والباطنة، ومشاهدة بره وإحسانه وإنعامه على عباده.

السابع: انكسار القلب بين يدي الله وافتقاره إليه.

الثامن: الخلوة بالله وقت النزول الإلٰهي حين يبقى ثلث الليل الآخر، وتلاوة القرآن في هذا الوقت، وختم ذلك بالاستغفار والتوبة.

التاسع: مجالسة أهل الخير والصلاح المحبين لله ﷻ والاستفادة من كلامهم.

العاشر: الابتعاد عن كل سبب يحول بين القلب وبين الله من الشواغل[(١)].

ومن توابع محبة الله ولوازمها: محبة رسول الله ﷺ كما أخرج البخاري ومسلم عن أنس رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «**لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَلَدِهِ وَوَالِدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ**»[(٢)]؛ أي: لا يؤمن الإيمان الكامل إلا من كان الرسول أحب إليه من نفسه وأقرب الناس إليه.

ومحبة الرسول تابعة لمحبة الله ملازمة لها، ومن أحب الرسول ﷺ اتبعه؛ فمن ادعى محبته عليه الصلاة والسلام وهو يخالفه فيما جاء به فيطيع غيره من المنحرفين والمبتدعين والمخرفين؛ فيحيي البدع ويترك السنن فهو كاذب في دعواه أنه يحب رسول الله ﷺ؛ لأن المحب يطيع محبوبه.

فالذين يُحْدثون البدع المخالفة لسُنَّة الرسول بإحياء الموالد وغيرها من البدع، أو يفعلون ما هو أعظم من ذلك من الغلو في النبي ﷺ، ودعائه من دون الله، وطلب المدد منه، والاستغاثة به، ومع هذا يَدَّعون أنهم يحبونه فهذا من أعظم الكذب، وهم كالذين قال الله فيهم: ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم

---

(١) انظر: مدراج السالكين (٣/ ١٦ ـ ١٧).
(٢) أخرجه البخاري (١٤)، ومسلم (٤٤) واللفظ له.

مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [النُّور: ٤٧]؛ لأن الرسول ﷺ نهى عن هذه الأمور، وقد خالفوا نهيه وارتكبوا معصيته، وهم يدّعون أنهم يحبونه، وقد كذبوا، ولو كانوا صادقين لأطاعوه بامتثال أوامره واجتناب نواهيه.

لو كان حبك صادقاً لأطعته إن المحب لمن يحب مطيع

ثالثاً: الشرك في التوكل:

التوكل في اللغة معناه: الاعتماد والتفويض، وهو من عمل القلب، يقال: توكل في الأمر إذا ضمن القيام به، ووكلت أمري إلى فلان إذا اعتمدت عليه.

والتوكل على الله من أعظم أنواع العبادة التي يجب إخلاصها لله؛ قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [المَائدة: ٢٣].

والتوكل على غير الله تعالى أقسام:

أحدها: التوكل في الأمور التي لا يقدر عليها إلا الله؛ كالتوكل على الأموات والغائبين ونحوهم من الطواغيت في تحقيق المطالب من النصر والحفظ والرزق أو الشفاعة؛ فهذا شرك أكبر.

الثاني: التوكل في الأسباب الظاهرة؛ كمن يتوكل على سلطان أو أمير أو أي شخص حي قادر فيما أقدره الله من عطاء أو دفع أذى ونحو ذلك؛ فهذا شرك أصغر؛ لأنه اعتماد على الشخص.

الثالث: بمعنى التوكيل الذي هو إنابة الإنسان من يقوم بعمل عنه مما يقدر عليه كبيع وشراء؛ فهذا جائز، ولكن ليس له أن يعتمد

عليه في حصول ما وكل فيه، بل يتوكل على الله في تيسير أموره التي يطلبها بنفسه أو نائبه؛ لأن توكيل الشخص في تحصيل الأمور الجائزة من جملة الأسباب، والأسباب لا يعتمد عليها، وإنما يعتمد على الله سبحانه الذي هو مسبب الأسباب وموجد السبب والمسبب.

والتوكل على الله في دفع المضار وتحصيل الأرزاق، وما لا يقدر عليه إلا هو من أعظم أنواع العبادة، والتوكل على غيره في ذلك شرك أكبر؛ قال الله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [المَائدة: ٢٣]؛ فأمر الله سبحانه بالتوكل عليه وحده؛ لأن تقديم المعمول يفيد الحصر، وجعل التوكل عليه شرطاً في الإيمان، كما جعله شرطاً في الإسلام في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [يُونس: ٨٤]؛ فدل على انتفاء الإيمان والإسلام عمن لم يتوكل على الله، أو توكل على غيره فيما لا يقدر عليه إلا هو من أصحاب القبور والأضرحة وسائر الأوثان.

فالتوكل على الله فريضة يجب إخلاصها لله، وهو أجمع أنواع العبادة، وأعلى مقامات التوحيد وأعظمها وأجلّها؛ لما ينشأ عنه من الأعمال الصالحة؛ فإنه إذا اعتمد على الله في جميع أموره الدينية والدنيوية دون كل ما سواه صح إخلاصه ومعاملته مع الله.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَمَا رَجَا أَحَدٌ مَخْلُوقاً أَوْ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ إِلَّا خَابَ ظَنُّهُ فِيهِ...)[1]. انتهى.

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ٢٥٧).

والتوكل على الله من أعظم منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفَاتِحَة: ٥]؛ فلا يحصل كمال التوحيد بأنواعه الثلاثة إلا بكمال التوكل على الله سبحانه؛ قال الله تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ۝٩﴾ [المُزّمل: ٩]، والآيات في الأمر به كثيرة جدًّا، قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ﴾ [الطّلَاق: ٣].

قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ **في قوله تعالى:** ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝٢٣﴾ [المَائدة: ٢٣]: (فجعل التوكل شرطاً في الإيمان، فدل على انتفاء الإيمان عند انتفاء التوكل... وكلما قوي إيمان العبد كان توكله أقوى وإذا ضعف الإيمان ضعف التوكل، وإذا كان التوكل ضعيفاً فهو دليل على ضعف الإيمان ولا بد، والله تعالى يجمع بين التوكل والعبادة، وبين التوكل والإيمان، وبين التوكل والإسلام، وبين التوكل والتقوى، وبين التوكل والهداية)[1]، إلى أن قال: (فظهر أن التوكل أصل لجميع مقامات الإيمان والإحسان، ولجميع أعمال الإسلام، وأن منزلته منها كمنزلة الرأس من الجسد؛ فكما لا يقوم الرأس إلا على البدن فكذلك لا يقوم الإيمان ومقاماته وأعماله إلا على ساق التوكل)[2].

وقد جعل الله التوكل عليه من أبرز صفات المؤمنين، فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ

(١) انظر: طريق الهجرتين وباب السعادتين (١/ ٣٨٦).
(٢) انظر: طريق الهجرتين وباب السعادتين (١/ ٣٨٩).

عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾﴾ [الأنفال: ٢]؛ أي: يعتمدون عليه بقلوبهم فلا يرجون سواه، وفي الآية وصف المؤمنين حقًّا بثلاثة مقامات من مقامات الإحسان، وهي: الخوف، وزيادة الإيمان، والتوكل على الله وحده.

والتوكل على الله سبحانه لا ينافي السعي في الأسباب والأخذ بها؛ فإن الله ﷻ قدر مقدورات مربوطة بأسباب، وقد أمر الله تبارك وتعالى بتعاطي الأسباب مع أمره بالتوكل، فالأخذ بالأسباب طاعة لله؛ لأن الله أمر بذلك، وهو من عمل الجوارح، والتوكل من عمل القلب، وهو إيمان بالله.

وقد أمر الله بالأخذ بالأسباب في مواضع كثيرة منها:

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ﴾ [النِّسَاء: ٧١]، وقال تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفَال: ٦٠]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ [الجُمُعَة: ١٠].

قال بعض العلماء: (من طعن في الحركة ـ يعني: في السعي والكسب والأخذ بالأسباب ـ فقد طعن في السُّنَّة، ومن طعن في التوكل فقد طعن في الإيمان)(١).

قال الإمام ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (إِنَّ الْأَعْمَالَ الَّتِي يَعْمَلُهَا الْعَبْدُ ثَلَاثَةُ أَقْسَامٍ:

(١) مدارج السالكين (٢/ ١١٦).

أَحَدُهَا: الطَّاعَاتُ الَّتِي أَمَرَ اللهُ عِبَادَهُ بِهَا، وَجَعَلَهَا سَبَباً، لِلنَّجَاةِ مِنَ النَّارِ وَدُخُولِ الْجَنَّةِ، فَهَذَا لَا بُدَّ مِنْ فِعْلِهِ مَعَ التَّوَكُّلِ عَلَى اللهِ فِيهِ، وَالِاسْتِعَانَةِ بِهِ عَلَيْهِ، فَإِنَّهُ لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِهِ، وَمَا شَاءَ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ، فَمَنْ قَصَّرَ فِي شَيْءٍ مِمَّا وَجَبَ عَلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ اسْتَحَقَّ الْعُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ شَرْعاً وَقَدَراً.

قَالَ يُوسُفُ بْنُ أَسْبَاطٍ: (كَانَ يُقَالُ: اعْمَلْ عَمَلَ رَجُلٍ لَا يُنْجِيهِ إِلَّا عَمَلُهُ، وَتَوَكَّلْ تَوَكُّلَ رَجُلٍ لَا يُصِيبُهُ إِلَّا مَا كُتِبَ لَهُ).

وَالثَّانِي: مَا أَجْرَى اللهُ الْعَادَةَ بِهِ فِي الدُّنْيَا، وَأَمَرَ عِبَادَهُ بِتَعَاطِيهِ؛ كَالْأَكْلِ عِنْدَ الْجُوعِ، وَالشُّرْبِ عِنْدَ الْعَطَشِ، وَالِاسْتِظْلَالِ مِنَ الْحَرِّ، وَالتَّدَفُّؤِ مِنَ الْبَرْدِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ، فَهَذَا أَيْضاً وَاجِبٌ عَلَى الْمَرْءِ تَعَاطِي أَسْبَابِهِ، وَمَنْ قَصَّرَ فِيهِ حَتَّى تَضَرَّرَ بِتَرْكِهِ مَعَ الْقُدْرَةِ عَلَى اسْتِعْمَالِهِ فَهُوَ مُفَرِّطٌ يَسْتَحِقُّ الْعُقُوبَةَ. لَكِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ قَدْ يُقَوِّي بَعْضَ عِبَادِهِ مِنْ ذَلِكَ عَلَى مَا لَا يَقْوَى عَلَيْهِ غَيْرُهُ، فَإِذَا عَمِلَ بِمُقْتَضَى قُوَّتِهِ الَّتِي اخْتُصَّ بِهَا عَنْ غَيْرِهِ فَلَا حَرَجَ عَلَيْهِ، وَلِهَذَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُوَاصِلُ فِي صِيَامِهِ وَيَنْهَى عَنْ ذَلِكَ أَصْحَابَهُ وَيَقُولُ لَهُمْ: «**إِنِّي لَسْتُ كَهَيْئَتِكُمْ، إِنِّي أُطْعَمُ وَأُسْقَى**»(١)... وَقَدْ كَانَ كَثِيرٌ مِنَ السَّلَفِ لَهُمْ مِنَ الْقُوَّةِ عَلَى تَرْكِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ مَا لَيْسَ لِغَيْرِهِمْ؛ وَلَا يَتَضَرَّرُونَ بِذَلِكَ؛ فَمَنْ كَانَ لَهُ قُوَّةٌ فَعَمِلَ بِمُقْتَضَى قُوَّتِهِ وَلَمْ يُضْعِفْهُ عَنْ طَاعَةِ اللهِ فَلَا حَرَجَ عَلَيْهِ، وَمَنْ كَلَّفَ نَفْسَهُ ذَلِكَ حَتَّى أَضْعَفَهَا عَنْ بَعْضِ الْوَاجِبَاتِ فَإِنَّهُ يُنْكَرُ عَلَيْهِ ذَلِكَ.

---

(١) أخرجه البخاري (١٩٢٢)، ومسلم (١١٠٢).

الْقِسْمُ الثَّالِثُ: مَا أَجْرَى اللهُ الْعَادَةَ بِهِ فِي الدُّنْيَا فِي الْأَعَمِّ الْأَغْلَبِ. . .).

إلى أن قال: (وَقَدْ رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: كَانَ أَهْلُ الْيَمَنِ يَحُجُّونَ وَلَا يَتَزَوَّدُونَ وَيَقُولُونَ: نَحْنُ مُتَوَكِّلُونَ فَيَحُجُّونَ، فَيَأْتُونَ مَكَّةَ فَيَسْأَلُونَ النَّاسَ، فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ: ﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [البَقَرَة: ١٩٧])(١).

وقد سُئِلَ الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ عَمَّنْ يَقْعُدُ وَلَا يَكْتَسِبُ وَيَقُولُ: تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ، فَقَالَ: يَنْبَغِي لِلنَّاسِ كُلِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ عَلَى اللهِ، وَلَكِنْ يَعُودُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكَسْبِ، قَالَ الله تبارك وَتَعَالَى: ﴿فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ﴾ [الجُمُعَة: ٩](٢).

(وَقَدْ كَانَ الْأَنْبِيَاءُ يُؤَجِّرُونَ أَنْفُسَهُمْ، «وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُؤَجِّرُ نَفْسَهُ وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ»، وَلَمْ يَقُولُوا: نَقْعُدُ حَتَّى يَرْزُقَنَا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَقَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ [الجُمُعَة: ١٠].

وَخَرَّجَ التِّرْمِذِيُّ مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَعْقِلُهَا وَأَتَوَكَّلُ، أَوْ أُطْلِقُهَا وَأَتَوَكَّلُ؟ قَالَ: «**اعْقِلْهَا وَتَوَكَّلْ**»(٣).

وَهَذَا كُلُّهُ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ التَّوَكُّلَ لَا يُنَافِي الْإِتْيَانَ بِالْأَسْبَابِ المباحة؛ بَلِ الجَمْع بينهما هو المتعين.

---

(١) أخرجه البخاري (١٥٢٣).

(٢) مسائل الإمام أحمد لابنه عبد الله (١/٤٤٨).

(٣) رواه الترمذي (٢٥١٧).

وقد لَقِيَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رضي الله عنه جماعة مِنْ أَهْلِ الْيَمَنِ، فَقَالَ: مَنْ أَنْتُمْ؟ قَالُوا: نَحْنُ الْمُتَوَكِّلُونَ، قَالَ: بَلْ أَنْتُمُ الْمُتَأَكِّلُونَ، إِنَّمَا الْمُتَوَكِّلُ الَّذِي يُلْقِي حَبَّهُ فِي الْأَرْضِ، وَيَتَوَكَّلُ عَلَى اللهِ عز وجل)(١).

رابعاً: الشرك في الطاعة:

اعلموا ـ وفقني الله وإياكم ـ أن من الشرك طاعة العلماء والأمراء في تحليل ما حرم الله أو تحريم ما أحل الله.

قال الله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٣١﴾ [التوبة: ٣١].

وفي الحديث الصحيح: (أن النبي صلى الله عليه وسلم تلا هذه الآية على عدي بن حاتم الطائي، فقال: يا رسول الله، لسنا نعبدهم، قال: «**أَلَيْسَ يُحَرِّمُونَ مَا أَحَلَّ اللهُ فَتُحَرِّمُونَهُ وَيُحِلُّونَ مَا حَرَّمَ اللهُ، فَتَسْتَحِلُّونَهُ؟**»، قُلْتُ: بَلَى، قَالَ: «**فَتِلْكَ عِبَادَتُهُمْ**»)(٢).

وقد فسّر النبي صلى الله عليه وسلم فيه اتخاذ الأحبار والرهبان أرباباً من دون الله بأنه ليس معناه الركوع والسجود لهم، وإنما معناه طاعتهم في تغيير أحكام الله وتبديل شريعته بتحليلهم الحرام، وتحريمهم الحلال، وأن ذلك يعتبر عبادة لهم من دون الله؛ حيث نصَّبوا أنفسهم شركاء لله في التشريع، فمن أطاعهم في ذلك؛ فقد اتخذهم

(١) انظر: جامع العلوم والحكم، الحديث رقم (٤٩)، (٢/ ٤٩٩ ـ ٥٠٧).
(٢) رواه الترمذي وغيره. الترمذي (٣٠٩٥)، والطبراني في المعجم الكبير (١٣٦٧٣)، والبيهقي في السنن الكبرى (٢٠١٣٧).

شركاء لله في التشريع والتحليل والتحريم، وهذا من الشرك الأكبر، لقوله تعالى في الآية: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٣١﴾ [التّوبَة: ٣١].

ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأۡكُلُواْ مِمَّا لَمۡ يُذۡكَرِ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسۡقٞۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ ١٢١﴾ [الأنعَام: ١٢١].

ومن هذا طاعة الحكام والرؤساء في تحكيم القوانين الوضعية المخالفة للأحكام الشرعية في تحليل الحرام؛ كإباحة الربا والزنى وشرب الخمر، ومساواة المرأة للرجل في الميراث، وإباحة السفور والاختلاط، أو تحريم الحلال؛ كمنع تعدد الزوجات، وما أشبه ذلك من تغيير أحكام الله واستبدالها بالقوانين الشيطانية؛ فمن وافقهم على ذلك ورضي به واستحسنه، فهو مشرك كافر، والعياذ بالله.

ومن ذلك تقليد الفقهاء باتباع أقوالهم المخالفة للأدلة إذا كانت توافق أهواء بعض الناس وما يشتهونه؛ مثل ما يفعل بعض أنصاف المتعلمين من تلمس الرخص، والتلفيق بين المذاهب، والواجب أن يؤخذ من قول المجتهد ما وافق الدليل ويطرح ما خالفه.

قال الأئمة ـ رحمهم الله ـ: (كل يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله ﷺ).

قال الإمام أبو حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (إذا جاء الحديث عن رسول الله ﷺ فعلى الرأس والعين، وإذا جاء عن الصحابة رضي الله عنهم فعلى الرأس

والعين، وإذا جاء عن التابعين فهم رجال ونحن رجال)؛ يريد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أمثاله وأمثال الأئمة الكبار.

وقد استغل هذه الكلمة بعض أنصاف المتعلمين، الذين جعلوا أنفسهم في مصاف الأئمة المجتهدين، وهم لا يزالون جهالاً، ولا شك أن الإمام أبا حنيفة لا يقصد مساواة العلماء بالجهال.

وقال الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (كلنا راد ومردود عليه إلا صاحب هذا القبر)؛ يعني: رسول الله ﷺ.

وقال الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (إذا صح الحديث فهو مذهبي). وقال: (إذا خالف قولي قول رسول الله فاضربوا بقولي عرض الحائط).

وقال الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (عجبت لقوم عرفوا الإسناد وصحته يذهبون إلى رأي سفيان، والله تعالى يقول: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [النُّور: ٦٣].

ويقول عبد الله بن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: (يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء؛ أقول: قال رسول الله وتقولون: قال أبو بكر وعمر؟!).

قال الشيخ عبد الرحمٰن بن حسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «فتح المجيد»: (فالواجب على كل مكلف إذا بلغه الدليل من كتاب الله وسُنَّة رسوله وفَهِم معنى ذلك أن ينتهي إليه ويعمل به، وإن خالفه من خالفه...).

إلى أن قال: (فيجب على من نصح نفسَه إذا قرأ كتب العلماء ونظر فيها وعرف أقوالهم أن يعرضها على ما في الكتاب والسُّنَّة؛

فإن كل مجتهد من العلماء ومن تبعه، وانتسب إلى مذهبه لا بد أن يذكر دليله، والحق في المسألة واحد، والأئمة مثابون على اجتهادهم؛ فالمنصفُ يجعل النظر في كلامهم وتأمُّله طريقاً إلى معرفة المسائل واستحضارها ذهناً، وتمييزاً للصواب من الخطأ بالأدلة التي يذكرها المستدلون، ويتعرف بذلك على من هو أسعدُ بالدليل من العلماء فيتَّبعه)[١].

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ **عن قوله تعالى:** ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾ [الأنعَام: ١٢١]: (وهذا قد وقع فيه كثير من الناس مع من قلَّدوهم، لعدم اعتبارهم الدليل إذا خالف المقلد، وهو من هذا الشرك[٢]، ومنهم من يغلو في ذلك، ويعتقد أن الأخذ بالدليل والحالة هذه يُكره أو يحرم؛ فعظمت الفتنة، ويقول: هم أعلم منا بالأدلة...)[٣] انتهى.

وقال الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ: (المسألة الخامسة: تغير الأحوال إلى هذه الغاية، حتى صار عند الأكثر عبادة الرهبان هي أفضل الأعمال، وتسمى: الولاية، وعبادة الأحبار: هي العلم والفقه، ثم تغيرت الحال إلى أن عُبد من دون من ليس من الصالحين، وعبد بالمعنى الثاني من هو من الجاهلين...)[٤] انتهى.

ومن اتخاذ الأحبار والرهبان أرباباً طاعة علماء الضلال فيما

---

(١) انظر: فتح المجيد (٢/ ٢٢٣ ـ ٢٢٤). (٢) أي: من الشرك الأكبر.
(٣) انظر: فتح المجيد (٢/ ٢٢٩).
(٤) كتاب التوحيد: باب من أطاع العلماء والأمراء في تحريم ما أحل الله أو تحليل ما حرم الله فقد اتخذهم أرباباً من دون الله.

أحدثوه في دين الله من البدع والخرافات والضلالات؛ كإحياء أعياد الموالد والطرق الصوفية والتوسل بالأموات ودعائهم من دون الله، حتى إن هؤلاء العلماء الضالين شرعوا ما لم يأذن به الله، وقلَّدهم فيه الجهال السذج، واعتبروه هو الدين، ومن أنكره ودعا إلى اتباع ما جاء به الرسول ﷺ اعتبروه خارجاً من الدين، أو أنه يبغض العلماء والصالحين، فعاد المعروف منكراً والمنكر معروفاً، والسُّنَّة بدعة والبدعة سُنَّة، حتى شب على ذلك الصغير وهرم عليه الكبير، وهذا من غربة الدين وقلة الدعاة المُصلحين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وإذا كان لا يجوز اتباع أئمة الفقه المجتهدين فيما أخطؤوا فيه من الاجتهاد فيما هو من مسائل الاجتهاد ـ مع أنهم معذورون ومأجورون فيما أخطؤوا فيه من غير قصد ـ إلا أنه يحرم اتباعهم على الخطأ ـ فكيف لا يحرم تقليد هؤلاء المضلين والدجالين الذين أخطؤوا فيما لا يجوز الاجتهاد فيه ـ وهو أمر العقيدة ـ؛ لأن العقيدة توقيفية؛ تتوقف على النصوص، ولكن الأمر كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [الرُّوم: ٥٨ ـ ٦٠].

وإلى جانب هؤلاء المغرقين في التقليد الأعمى في الأصول والفروع، إلى جانبهم جماعة أخرى على النقيض منهم؛ ترى وجوب

الاجتهاد على كل أحد، ولو كان جاهلاً لا يحسن قراءة القرآن، ولا يعرف شيئاً من العلم، ويحرمون النظر في كتب الفقه، ويريدون من الجهال أن يستنبطوا الأحكام من الكتاب والسُّنَّة، وهذا تطرف شنيع، وخطر هؤلاء على الأمة الإسلامية لا يقلُّ عن خطر الفريق الأول إن لم يزد عليه، وخير الأمور الوسط والاعتدال؛ بأن لا نقلد الفقهاء تقليداً أعمى، ولا نزهد في علمهم ولا نترك أقوالهم الموافقة للكتاب والسُّنَّة، بل ننتفع بها ونستعين بها على فهم الكتاب والسُّنَّة؛ لأنها ثروة علمية ورصيد فقهي عظيم يؤخذ منه ما وافق الدليل ويترك ما خالف الدليل؛ كما كان السلف الصالح يفعلون ذلك، خصوصاً في هذا الزمان الذي تقاصرت فيه الهمم، وفشا فيه الجهل؛ **فالواجب**: الاعتدال بلا إفراط ولا تفريط ولا غلو ولا تساهل، ونسأل الله ﷻ أن يهدي ضال المسلمين ويثبت أئمتهم وقادتهم على الحق، إنه سميع مجيب.

وكما لا تجوز طاعة العلماء في تحليل الحرام وتحريم الحلال، فكذلك لا تجوز طاعة الأمراء والرؤساء في الحكم بين الناس بغير الشريعة الإسلامية؛ لأنه يجب التحاكم إلى كتاب الله وسُنَّة رسوله في جميع المنازعات والخصومات وشؤون الحياة؛ لأن هذا هو مقتضى العبودية والتوحيد؛ لأن التشريع حق لله وحده؛ كما قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]؛ أي: هو الحكم وله الحكم.

قال تعالى: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ١٠]،

وقال تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ۝٥٩﴾ [النِّسَاء: ٥٩].

فالتحاكم إلى شرع الله ليس لطلب العدل فقط، وإنما هو في الدرجة الأولى تعبدٌ لله وحق لله وحده وعقيدة؛ فمن احتكم إلى غير شرع الله من سائر الأنظمة والقوانين البشرية فقد اتخذ واضعي تلك القوانين والحاكمين بها شركاء لله، تعالى وتقدس في تشريعه، قال الله تعالى: ﴿أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ﴾ [الشّورىٰ: ٢١]، وقال تعالى: ﴿وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ ۝١٢١﴾ [الأنعَام: ١٢١].

وقد نفى الله الإيمان عمن تحاكم إلى غير شرعه، قال تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزۡعُمُونَ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا ۝٦٥﴾ [النِّسَاء: ٦٠ ـ ٦٥].

فمن دعا إلى تحكيم القوانين البشرية فقد جعل لله شريكاً في الطاعة والتشريع، ومن حكم بغير ما أنزل الله يرى أنه أحسن أو مساوٍ لما أنزله الله وشرعه، أو أنه يجوز الحكم بهذا فهو كافر بالله وإن زعم أنه مؤمن؛ لأن الله أنكر على من يريد التحاكم إلى غير شرعه وكذبهم في زعمهم الإيمان؛ لأن قوله: ﴿يَزۡعُمُونَ﴾ متضمن لنفي إيمانهم؛ لأن هذه الكلمة تقال غالباً لمن يدَّعي دعوى هو فيها

كاذب، ولأن تحكيم القوانين تحكيم للطاغوت، والله قد أمر بالكفر بالطاغوت، وجعل الكفر بالطاغوت ركن التوحيد؛ كما قال تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾ [البَقَرَة: ٢٥٦]؛ فمن حكم القوانين البشرية لم يكن موحداً؛ لأنه اتخذ شريكاً في التشريع والطاعة، ولم يكفر بالطاغوت الذي أُمِرَ أن يكفر به، وأطاع الشيطان؛ كما قال تعالى: ﴿وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾﴾ [النِّسَاء: ٦٠].

وقد أخبر الله أن المنافقين حينما يدعون إلى التحاكم إلى شرع الله يأبون ويعرضون، فقال سبحانه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾﴾ [النِّسَاء: ٦١].

كما أخبر أنهم يرون الفساد صلاحاً؛ لانتكاس فطرهم وفساد قلوبهم، فقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾﴾ [البَقَرَة: ١١ ـ ١٢].

فالتحاكم إلى غير الله من أعمال المنافقين، وهو من أعظم الفساد في الأرض.

قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ **على هذه الآية**: (قال أكثر المفسرين: ولا تفسدوا فيها بالمعاصي، والدعاء إلى غير طاعة الله بعد إصلاح الله إياها ببعث الرسل، وبيان الشريعة، والدعاء إلى طاعة الله؛ فإن عبادة غير الله والدعوة إلى غيره والشرك به هو أعظم

فساد في الأرض، بل فساد الأرض في الحقيقة إنما هو بالشرك ومخالفة أمره.

فالشرك والدعوة إلى غير الله، وإقامة معبود غيره ومطاع متبع غير رسول الله ﷺ هو أعظم فساد في الأرض، ولا صلاح لها ولأهلها إلا أن يكون الله وحده هو المعبود المطاع والدعوة له لا لغيره، والطاعة والاتباع للرسول ليس إلا، وغيره إنما تجب طاعته إذا أمر بطاعة الرسول ﷺ؛ فإذا أمر بمعصيته وخلاف شريعته فلا سمع له ولا طاعة.

ومن تدبر أحوال العالم وجد كل صلاح في الأرض فسببه توحيد الله وعبادته وطاعة رسوله ﷺ، وكل شر في العالم وفتنة وبلاء وقحط وتسليط عدو وغير ذلك فسببه مخالفة رسوله والدعوة إلى غير الله ورسوله)(١).

وقد سمى الله كل حكم يخالف حكمه بأنه حكم الجاهلية؛ قال تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٥٠﴾ [المَائدة: ٥٠].

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (يُنْكِرُ تَعَالَى عَلَى مَنْ خَرَجَ عَنْ حُكْمِ اللهِ المُحْكَمِ، الْمُشْتَمِلِ عَلَى كُلِّ خَيْرٍ، النَّاهِي عَنْ كُلِّ شَرٍّ، وَعَدَلَ إِلَى مَا سِوَاهُ مِنَ الْآرَاءِ وَالْأَهْوَاءِ وَالِاصْطِلَاحَاتِ، الَّتِي وَضَعَهَا الرِّجَالُ بِلَا مُسْتَنَدٍ مِنْ شَرِيعَةِ اللهِ، كَمَا كَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يَحْكُمُونَ بِهِ مِنَ

(١) انظر: بدائع الفوائد (٣/ ١٤، ١٥).

الضَّلَالَاتِ وَالْجَهَالَاتِ، مِمَّا يَضَعُونَهَا بِآرَائِهِمْ وَأَهْوَائِهِمْ، وَكَمَا يَحْكُمُ بِهِ التَّتَارُ مِنَ السِّيَاسَاتِ الْمَلَكِيَّةِ الْمَأْخُوذَةِ عَنْ مَلِكِهِمْ جِنْكِيزْخَانَ، الَّذِي وَضَعَ لَهُمُ (اليَاسق) وَهُوَ عِبَارَةٌ عَنْ كِتَابٍ مَجْمُوعٍ مِنْ أَحْكَامٍ قَدِ اقْتَبَسَهَا منْ شَرَائِعَ شَتَّى، مِنَ الْيَهُودِيَّةِ وَالنَّصْرَانِيَّةِ وَالْمِلَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ وغيرها، وَفِيهَا كَثِيرٌ مِنَ الْأَحْكَامِ أَخَذَهَا عنْ مُجَرَّدِ نَظَرِهِ وَهَوَاهُ، فَصَارَتْ فِي بَنِيهِ شَرْعاً مُتَّبَعاً، يُقَدِّمُونَهَا عَلَى الْحُكْمِ بِكِتَابِ اللهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ، فمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ مِنْهُمْ فَهُوَ كَافِرٌ يَجِبُ قِتَالُهُ، حَتَّى يَرْجِعَ إِلَى حُكْمِ اللهِ وَرَسُولِهِ ﷺ، فَلَا يَحْكُمُ سِوَاهُ فِي قَلِيلٍ وَلَا كَثِيرٍ)(١). انتهى كلامه رحمه الله.

ومثل قانون التتار هذا: القوانين الوضعية التي جعلت اليوم في كثير من الدول المنتسبة للإسلام ـ فضلاً عن غيرها ـ هي مصادر الأحكام، وألغيت من أجلها الشريعة الإسلامية إلا فيما يسمونه بالأحوال الشخصية!!

الدليل على كفر من فعل ذلك آيات كثيرة؛ منها: قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [المَائدة: ٤٤]، وقوله: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النِّسَاء: ٦٥]، وقوله تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ

(١) تفسير ابن كثير، عند قوله تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [المَائدة: ٥٠] (٣/ ١٣١).

يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [البَقَرَة: ٨٥].

وكما قلنا قريباً: إنه يجب تحكيم الشريعة عقيدة وديناً يدان الله به؛ لا من أجل طلب العدالة فقط، أو لتحقيق الأمن فحسب.

هذا ولا بد للعبد من قبول حكم الله، سواء كان له أم عليه، وسواء وافق هواه أم لا، قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النِّسَاء: ٦٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ﴾ [الأحزَاب: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ﴾ [القَصَص: ٥٠].

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: «**لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعاً لِمَا جِئْتُ بِهِ**»(١).

قال ابن رجب رحمه الله: (وَمَعْنَى الْحَدِيثِ: هُوَ أَنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَكُونُ مُؤْمِنًا كَامِلَ الْإِيمَانِ الْوَاجِبِ حَتَّى تَكُونَ مَحَبَّتُهُ تَابِعَةً لِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ مِنَ الْأَوَامِرِ وَالنَّوَاهِي وَغَيْرِهَا، فَيُحِبُّ مَا أَمَرَ بِهِ، وَيَكْرَهُ مَا نَهَى عَنْهُ.

وَقَدْ وَرَدَ الْقُرْآنُ بِمِثْلِ هَذَا فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ... وَذَمَّ سُبْحَانَهُ مَنْ كَرِهَ مَا أَحَبَّهُ اللهُ، أَوْ أَحَبَّ مَا كَرِهَهُ اللهُ، قَالَ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾﴾ [محَمَّد: ٢٨]).

(١) السُّنَّة لابن أبي عاصم (١/ ١٢، ١٥)، والإبانة (١/٣٨٧).

إلى أن قال: (وَقَدْ وَصَفَ اللهُ الْمُشْرِكِينَ بِاتِّبَاعِ الْهَوَى فِي مَوَاضِعَ مِنْ كِتَابِهِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ﴾ [القَصَص: ٥٠].

وَكَذَلِكَ الْبِدَعُ، إِنَّمَا تَنْشَأُ مِنْ تَقْدِيمِ الْهَوَى عَلَى الشَّرْعِ، وَلِهَذَا يُسَمَّى أَهْلُهَا: أَهْلَ الْأَهْوَاءِ، وَكَذَلِكَ الْمَعَاصِي، إِنَّمَا تَقَعُ مِنْ تَقْدِيمِ الْهَوَى عَلَى مَحَبَّةِ اللهِ وَمَحَبَّةِ مَا يُحِبُّهُ، وَكَذَلِكَ حُبُّ الْأَشْخَاصِ الْوَاجِبُ فِيهِ أَنْ يَكُونَ تَبَعاً لِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ، فَيَجِبُ عَلَى الْمُؤْمِنِ مَحَبَّةُ اللهِ، وَمَحَبَّةُ مَنْ يُحِبُّهُ اللهُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّسُلِ وَالْأَنْبِيَاءِ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ عُمُوماً...)[1]. انتهى كلامه رحمه الله.

هذا وهناك أشياء تنافي التوحيد وتقتضي الردة عن الإسلام؛ منها:

الأول: **سوء الظن بالله**: فسوء الظن بالله خطير؛ لأن حسن الظن بالله من واجبات التوحيد، وسوء الظن به ينافي التوحيد، وقد وصف الله المنافقين بأنهم يظنون به غير الحق، فقال تعالى: ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ﴾ [آل عِمرَان: ١٥٤]، وأخبر عنهم في الآية الأخرى أنهم يظنون به ظن السوء، فقال: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾﴾ [الفَتْح: ٦].

---

(١) انظر: جامع العلوم والحكم، الحديث رقم (٤١).

قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ **في تفسير الآية الأولى**: (... فُسّرَ هَذَا الظَّنّ الّذِي لَا يَلِيقُ بِاللهِ بِأَنّهُ سُبْحَانَهُ لَا يَنْصُرُ رَسُولَهُ، وَأَنّ أَمْرَهُ سَيَضْمَحِلُّ، وَأَنّهُ يُسْلِمُهُ لِلْقَتْلِ، وَأَنّ مَا أَصَابَهُمْ لَمْ يَكُنْ بِقَضَائِهِ وَقَدَرِهِ، وَلَا حِكْمَةَ لَهُ فِيهِ، فَفُسّرَ بِإِنْكَارِ الْحِكْمَةِ، وَإِنْكَارِ الْقَدَرِ، وَإِنْكَارِ أَنْ يُتِمّ أَمْرَ رَسُولِهِ، وَأن يُظْهِرَهُ عَلَى الدّينِ كُلّهِ، وَهَذَا هُوَ ظَنّ السّوْءِ الّذِي ظَنّهُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُشْرِكُونَ بِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي سُورَةِ الْفَتْحِ... وَإِنّمَا كَانَ هَذَا ظَنّ السّوْءِ؛ لِأَنّهُ ظَنٌّ لا يَلِيقُ بِهِ سبحانه ولا بِحِكْمَتِهِ وَحَمْدِهِ وَوَعْدِهِ الصّادِقِ. فَمَنْ ظَنَّ أَنّهُ يُدِيلُ الباطل عَلَى الْحَقّ إدَالَة مُسْتَمرة يَضْمَحِلُّ مَعَهَا الْحَقُّ، أو أَنْكَرَ أَنْ يَكُونَ مَا جَرَى بِقَضَائِهِ وَقَدَرِهِ، أو أَنْكَرَ أَنْ يَكُونَ قَدّرَهُ لِحِكْمَةٍ بَالِغةٍ يَسْتَحِق عَليهَا الْحَمد؛ بَلْ زَعَمَ أنَّ ذَلِكَ لمشيئة مُجردة فـ ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾﴾ [ص: ٢٧].

وَأَكْثَرُ النّاسِ يَظُنّونَ بِاللهِ غَيْرَ الْحَقّ ظَنّ السّوْءِ فِيمَا يَخْتَصّ بِهِمْ وَفِيمَا يَفْعَلُهُ بِغَيْرِهِمْ وَلَا يَسْلَمُ عَنْ ذَلِكَ إلّا مَنْ عَرَفَ اللهَ وَعَرَفَ أَسْمَاءَهُ وَصِفَاتِهِ وَعَرَفَ مُوجِبَ حَمْدِهِ وَحِكْمَتِهِ)[١].

إلى أن قال: (وَلَوْ فَتّشْت مَنْ فَتّشْت لَرَأَيْت عِنْدَهُ تَعنْتاً وتَعَتّباً عَلَى الْقَدَرِ وَمَلَامَةً لَهُ، وَاقْتِرَاحاً عَلَيْهِ، خِلَافَ مَا جَرَى بِهِ، وَأَنّهُ كَانَ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ كَذَا وَكَذَا، فَمُسْتَقِلّ وَمُسْتَكْثِرٌ، وَفَتّشْ نَفْسَك هَلْ أَنْتَ سَالِمٌ مِنْ ذَلِكَ؟.

(١) انظر: زاد المعاد (٣/ ٢٢٨ ـ ٢٣٠).

فَإِنْ تَنْجُ مِنْهَا تَنْجُ مِنْ ذِي عَظِيمَةٍ ... وَإِلَّا فَإِنّي لَا إِخَالُكَ نَاجِياً

فَلْيَعْتَنِ اللّبِيبُ النّاصِحُ لِنَفْسِهِ بِهَذَا، وَلْيَتُبْ إلَى اللهِ، وَلِيَسْتَغْفِرْهُ كُلّ وَقْتٍ مِنْ ظَنّهِ بِرَبّهِ ظَنّ السّوْءِ)[١].

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: (فَمَنْ ظَنّ بِأَنّهُ لَا يَنْصُرُ رَسُولَهُ وَلَا يُتِمّ أَمْرَهُ وَلَا يُؤَيّدُهُ وَيُؤَيّدُ حِزْبَهُ وَيُعْلِيهِمْ وَيُظْفِرُهُمْ بِأَعْدَائِهِ وَيُظْهِرُهُمْ عَلَيْهِمْ وَأَنّهُ لَا يَنْصُرُ دِينَهُ وَكِتَابَهُ وَأَنّهُ يُدِيلُ الشّرْكَ عَلَى التّوْحِيدِ وَالْبَاطِلَ عَلَى الْحَقّ إدَالَةً مُسْتَقِرّةً يَضْمَحِلُّ مَعَهَا التّوْحِيدُ وَالْحَقّ اضْمِحْلَالاً لَا يَقُومُ بَعْدَهُ أَبَداً، فَقَدْ ظَنّ بِاللهِ ظَنّ السّوْءِ وَنَسَبَهُ إلَى خِلَافِ مَا يَلِيقُ بِكَمَالِهِ وَجَلَالِهِ وَصِفَاتِهِ وَنُعُوتِهِ؛ فَإِنّ حَمْدَهُ وَعِزّتَهُ وَحِكْمَتَهُ وَإِلَهِيّتَهُ تَأْبَى ذَلِكَ وَتَأْبَى أَنْ يُذَلّ حِزْبُهُ وَجُنْدُهُ وَأَنْ تَكُونَ النّصْرَةُ الْمُسْتَقِرّةُ وَالظّفَرُ الدّائِمُ لِأَعْدَائِهِ الْمُشْرِكِينَ بِهِ الْعَادِلِينَ بِهِ فَمَنْ ظَنّ بِهِ ذَلِكَ فَمَا عَرَفَهُ وَلَا عَرَفَ أَسَمَاءَهُ وَلَا عَرَفَ صِفَاتِهِ وَكَمَالَهُ.

وَكَذَلِكَ مَنْ أَنْكَرَ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ بِقَضَائِهِ وَقَدَرِهِ، فَمَا عَرَفَهُ وَلَا عَرَفَ رُبُوبِيّتَهُ وَمُلْكَهُ وَعَظَمَتَهُ، وَكَذَلِكَ مَنْ أَنْكَرَ أَنْ يَكُونَ قَدّرَ مَا قَدّرَهُ مِنْ ذَلِكَ وَغَيْرِهِ لِحِكْمَةٍ بَالِغة وَغَايَةٍ مَحمودة يستحق عليها الحمد، وظن أن ذلك إنما صدر عن مشيئة مجردة عن حكمة وغاية مطلوبة هِيَ أَحَبّ إلَيْهِ مِنْ فَوْاتِهَا، وَأَنّ تِلْكَ الْأَسْبَابَ الْمَكْرُوهَةَ له الْمُفْضِيَةَ إلَيْهَا لَا يَخْرُجُ تَقْدِيرُهَا عَنِ الْحِكْمَةِ لِإِفْضَائِهَا إلَى مَا يُحِبُّ وَإِنْ كَانَتْ مَكْرُوهَةً لَهُ، فَمَا قَدّرَهَا سُدًى وَلَا أَنْشَأَهَا عَبَثاً وَلَا خَلَقَهَا بَاطِلاً: ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ ٢٧﴾ [صٓ: ٢٧].

(١) انظر: زاد المعاد (٣/ ٢٣٥).

وَأَكْثَرُ النّاسِ يَظُنّونَ بِاللهِ غَيْرَ الْحَقّ ظَنّ السّوْءِ فِيمَا يَخْتَصّ بِهِمْ وَفِيمَا يَفْعَلُهُ بِغَيْرِهِمْ وَلَا يَسْلَمُ منْ ذَلِكَ إلّا مَنْ عَرَفَ اللهَ وَعَرَفَ أَسْمَاءَهُ وَصِفَاتِهِ وَعَرَفَ مُوجِبَ حَمْدِهِ وَحِكْمَتِهِ.

فَمَنْ قَنَط مِنْ رَحْمَتِهِ وَأَيِسَ مِنْ رُوحِهِ فَقَدْ ظَنّ بِهِ ظَنّ السّوْءِ، وَمَنْ جوّزَ عَلَيْهِ أَنْ يُعَذّبَ أَوْلِيَاءَهُ مَعَ إحْسَانِهِمْ وَإِخْلَاصِهِمْ وَيُسَوّيَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ أَعْدَائِهِ فَقَدْ ظَنّ بِهِ ظَنّ السّوْءِ.

وَمَنْ ظَنّ بِهِ أَنْ يَتْرُكَ خَلْقَهُ سُدًى؛ مُعَطَّلِينَ عَنِ الْأَمْرِ وَالنّهْيِ وَلَا يُرْسِلَ إلَيْهِمْ رُسُلَهُ، وَلَا يُنْزِلَ عَلَيْهِمْ كُتُبَهُ؛ بَلْ يَتْرُكُهُمْ هَمَلاً كَالْأَنْعَامِ فَقَدْ ظَنّ بِهِ ظَنّ السّوْءِ.

وَمَنْ ظَنّ أَنّهُ لَنْ يَجْمَعَ عَبِيدَهُ بَعْدَ مَوْتِهِمْ لِلثّوَابِ وَالْعِقَابِ فِي دَارٍ يُجَازِي الْمُحْسِنَ فِيهَا بِإِحْسَانِهِ وَالْمُسِيءَ بِإِسَاءَتِهِ وَيُبَيّنَ لِخَلْقِهِ حَقِيقَةَ مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَيُظْهِرَ لِلْعَالَمِينَ كُلّهِمْ صِدْقَهُ وَصِدْقَ رُسُلِهِ وَأَنّ أَعْدَاءَهُ كَانُوا هُمْ الْكَاذِبِينَ فَقَدْ ظَنّ بِهِ ظَنّ السّوْءِ.

وَمَنْ ظَنّ أَنّهُ يُضِيعُ عَلَيْهِ عَمَلَهُ الصّالِحَ الّذِي عَمِلَهُ خَالِصاً لِوَجْهِهِ الْكَرِيم عَلَى امْتِثَالِ أَمْرِهِ وَيُبْطِلُهُ بِلَا سَبَبٍ مِنَ الْعَبْدِ وأَنّهُ يُعَاقِبُهُ بِمَا لَا صُنْعَ فِيهِ وَلَا اخْتِيَارَ لَهُ وَلَا قُدْرَةَ وَلَا إرَادَةَ له فِي حُصُولِهِ بَلْ يُعَاقِبُهُ عَلَى فِعْلِهِ هُوَ سُبْحَانَهُ بِهِ.

أَوْ ظَنّ بِهِ أَنّهُ يَجُوزُ عَلَيْهِ أَنْ يُؤَيّدَ أَعْدَاءَهُ الْكَاذِبِينَ عَلَيْهِ بِالْمُعْجِزَاتِ الّتِي يُؤَيّدُ بِهَا أَنْبِيَاءَهُ وَرُسُلَهُ وَيُجْرِيهَا عَلَى أَيْدِيهِمْ يُضِلّونَ بِهَا عِبَادَهُ، وَأَنّهُ يَحْسُنُ مِنْهُ كُلّ شَيْءٍ حَتّى تَعْذِيبُ مَنْ أَفْنَى عُمْرَهُ فِي طَاعَتِهِ فَيُخَلّدُهُ فِي الجحيم أَسْفَلَ السّافِلِينَ، وَيُنَعّمُ مَنِ اسْتَنْفَدَ عُمُرَهُ

فِي عَدَاوَتِهِ وَعَدَاوَةِ رُسُلِهِ وَدِينِهِ فَيَرْفَعُهُ إِلَى أَعْلَى عِلِّيِّينَ، وَكِلَا الْأَمْرَيْنِ عِنْدَهُ فِي الْحُسْنِ سَوَاءٌ!! وَلَا يُعْرَفُ امْتِنَاعُ أَحَدِهِمَا وَوُقُوعُ الْآخَرِ إِلَّا بِخَبَرٍ صَادِقٍ، وَإِلَّا فَالْعَقْلُ لَا يَقْضِي بِقُبْحِ أَحَدِهِمَا وَحُسْنِ الْآخَرِ، فَقَدْ ظَنَّ بِهِ ظَنَّ السَّوْءِ.

وَمَنْ ظَنَّ بِهِ أَنَّهُ أَخْبَرَ عَنْ نَفْسِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ بِمَا ظَاهِرُهُ بَاطِلٌ وَتَشْبِيهٌ وَتَمْثِيلٌ وَتَرْكُ الْحَقِّ لَمْ يُخْبِرْ بِهِ، وَإِنَّمَا رَمَزَ إِلَيْهِ رُمُوزاً بَعِيدَةً وَأَشَارَ إِلَيْهِ إِشَارَاتٍ مُلْغِزَةً لَمْ يُصَرِّحْ بِهِ وَصَرَّحَ دَائِماً بِالتَّشْبِيهِ وَالتَّمْثِيلِ وَالْبَاطِلِ وَأَرَادَ مِنْ خَلْقِهِ أن يُتْعِبُوا أَذْهَانَهُمْ وَقُوَاهُمْ وَأَفْكَارَهُمْ فِي تَحْرِيفِ كَلَامِهِ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَتَأْوِيلِهِ عَلَى غَيْرِ تَأْوِيلِهِ وَيَتَطَلَّبُوا لَهُ الْوُجُوهَ والِاحْتِمَالَاتِ الْمُسْتَكْرَهَةِ وَالتَّأْوِيلَاتِ الَّتِي هِيَ بِالْأَلْغَازِ وَالْأَحَاجِي أَشْبَهُ مِنْهَا بِالْكَشْفِ وَالْبَيَانِ، وَأَحَالَهُمْ فِي مَعْرِفَةِ أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ عَلَى عُقُولِهِمْ وَآرَائِهِمْ لَا عَلَى كِتَابِهِ، بَلْ أَرَادَ مِنْهُمْ أَنْ لَا يَحْمِلُوا كَلَامَهُ عَلَى مَا يَعْرِفُونَ مِنْ خِطَابِهِمْ وَلُغَتِهِمْ مَعَ قُدْرَتِهِ عَلَى أَنْ يُصَرِّحَ لَهُمْ بِالْحَقِّ الَّذِي يَنْبَغِي التَّصْرِيحُ بِهِ وَيُرِيحَهُمْ مِنَ الْأَلْفَاظِ الَّتِي تُوقِعُهُمْ فِي اعْتِقَادِ الْبَاطِلِ فَلَمْ يَفْعَلْ؛ بَلْ سَلَكَ بِهِمْ خِلَافَ طَرِيقِ الْهُدَى وَالْبَيَانِ، فَقَدْ ظَنَّ بِهِ ظَنَّ السَّوْءِ.

فَإِنَّهُ إِنْ قَالَ: إِنَّهُ غَيْرُ قَادِرٍ عَلَى التَّعْبِيرِ عَنِ الْحَقِّ بِاللَّفْظِ الصَّرِيحِ الَّذِي عَبَّرَ بِهِ هُوَ وَسَلَفُهُ فَقَدْ ظَنَّ بِقُدْرَتِهِ الْعَجْزَ.

وَإِنْ قَالَ: إِنَّهُ قَادِرٌ وَلَمْ يُبَيِّنْ، وَعَدَلَ عَنِ الْبَيَانِ وَعَنِ التَّصْرِيحِ بِالْحَقِّ إِلَى مَا يُوهِمُ؛ بَلْ يُوقِعُ فِي الْبَاطِلِ الْمُحَالِ وَالِاعْتِقَادِ الْفَاسِدِ؛ فَقَدْ ظَنَّ بِحِكْمَتِهِ وَرَحْمَتِهِ ظَنَّ السَّوْءِ، وَمن ظَنَّ أَنَّهُ هُوَ وَسَلَفُهُ عَبَّرُوا

عَنِ الْحَقّ بِصَرِيحِهِ دُونَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَأَنّ الْهُدَى وَالْحَقّ فِي كَلامِهِمْ وَعِبَارَاتِهِمْ، وَأَمّا كَلامُ اللهِ فَإِنّمَا يُؤْخَذُ مِنْ ظَاهِرِهِ التّشْبِيهُ وَالتّمْثِيلُ وَالضّلَالُ وَظَاهِرُ كَلَامِ الْمشركين والحيارى هو الهدى والحق؛ فهذا من أسوأ الظن بالله، فكل هؤلاء مِنَ الظّانّينَ بالله ظَنّ السّوْءِ، وَمِنَ الظّانّينَ بالله غَيْرَ الْحَقّ ظَنّ الْجَاهِلِيّةِ. . .)[(١)].

انتهى كلام الإمام ابن القيم في بيان من هم الذين يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية، ومن أراد استيفاءه فليراجعه في «زاد المعاد». والله والمستعان، ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [ص: ٢٧].

الثاني: الاستهزاء بشيء فيه ذكر الله: يجب على المسلم احترام كتاب الله وسُنَّة رسوله وعلماء المسلمين، وأن يعرف حكم من استهزأ بشيء فيه ذكر الله أو القرآن أو الرسول؛ ليكون المسلم على حذر من ذلك؛ فإن من استهزأ بذكر الله أو القرآن أو الرسول أو بشيء من السُّنَّة فقد كفر بالله ﷻ؛ لاستخفافه بالربوبية والرسالة، وذلك مناف للتوحيد، وكفر بإجماع أهل العلم.

قال الله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُمۡ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلۡعَبُۚ قُلۡ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمۡ تَسۡتَهۡزِءُونَ ٦٥ لَا تَعۡتَذِرُواْ قَدۡ كَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡۚ﴾ [التوبة: ٦٥ ـ ٦٦] الآية.

وقد كان في سبب نزول هاتين الآيتين الكريمتين أنه ما حصل من المنافقين في بعض الغزوات من سخرية بالرسول ﷺ وأصحابه.

---

(١) انظر: زاد المعاد (٣/ ٢٢٩ ـ ٢٣١).

فقد روى ابن جرير وغيره عن ابن عمر ومحمد بن كعب وزيد بن أسلم وقتادة دخل حديث بعضهم في بعض: (أنه قال رجل في غزوة تبوك: ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء أرغب بطوناً ولا أكذب ألسناً ولا أجبن عند اللقاء ـ يعني: رسول الله ﷺ وأصحابه القراء ـ، فقال له عوف بن مالك: كذبت، ولكنك منافق، لأخبرن رسول الله ﷺ فذهب عوف إلى رسول الله ليخبره، فوجد القرآن قد سبقه، فجاء ذلك الرجل إلى رسول الله ﷺ وقد ارتحل وركب ناقته، فقال: يا رسول الله؛ إنما كنا نخوض ونتحدث حديث الركب نقطع به عنَّا ـ أو عناء ـ الطريق، قال ابن عمر: كأني أنظر إليه متعلقاً بنسعة ناقة رسول الله ﷺ وإن الحجارة تنكب رجليه وهو يقول: إنما كنا نخوض ونلعب، فيقول له رسول الله ﷺ: ﴿أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٥ ـ ٦٦])[١].

ففي هاتين الآيتين الكريمتين مع بيان سبب نزولهما دليل واضح على كفر من استهزأ بالله أو رسوله أو آيات الله أو سُنَّة رسوله أو صحابة رسول الله؛ لأن من فعل ذلك فهو مستخِفٌّ بالربوبية والرسالة، وذلك مناف للتوحيد والعقيدة، ولو لم يقصد حقيقة الاستهزاء.

ومن هذا الباب الاستهزاء بالعلم وأهله، وعدم احترامهم أو الوقيعة فيهم من أجل العلم الذي يحملونه، وكون ذلك كفراً، ولو لم يقصد حقيقة الاستهزاء؛ لأن هؤلاء الذين نزلت فيهم الآيات

(١) تفسير الطبري (١٤/ ٣٣٤).

جاؤوا معترفين بما صدر منهم ومعتذرين بقولهم: ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ [التّوبَة: ٦٥]؛ أي: لم نقصد الاستهزاء والتكذيب، وإنما قصدنا اللعب، واللعب ضد الجد، فأخبرهم الله على لسان رسوله ﷺ أن عذرهم هذا لا يغني عنهم من الله شيئاً، وأنهم كفروا بعد إيمانهم بهذه المقالة التي استهزؤوا بها، ولم يقبل اعتذارهم بأنهم لم يكونوا جادين في قولهم، وإنما قصدوا اللعب، ولم يزد ﷺ في إجابتهم على تلاوة قول الله تعالى: ﴿أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ [التّوبَة: ٦٥ ـ ٦٦]؛ لأن هذا لا يدخله المزح واللعب، وإنما الواجب أن تحترم هذه الأشياء وتعظم، وليخشع عند آيات الله إيماناً بالله ورسوله وتعظيماً لآياته، والخائض اللاعب متنقص لها.

قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ: (القول الصريح في الاستهزاء بالدين مثل ما قدمت لك.

وأما الفعل الصريح: فمثل مد الشفة وإخراج اللسان أو غمز العين مما يفعله كثير من الناس عند الأمر بالصلاة والزكاة؛ فكيف بالتوحيد؟!)[(١)]. انتهى.

ومثل هذا الاستهزاء بالسُّنَّة الثابتة عن رسول الله ﷺ؛ كالذي يستهزئ بإعفاء اللحى وقص الشوارب، أو يستهزئ بالسواك، أو غير ذلك، وكالاستهزاء بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

قال ابن إسحاق: (وَقَدْ كَانَ جماعة مِنَ الْمُنَافِقِينَ، مِنْهُمْ:

(١) انظر: الدرر السنية (١٠/ ١٢٥).

وَدِيعَةُ بْنُ ثَابِتٍ، أَخُو بَنِي أمية بن زيد من بني عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ، وَرَجُلٌ مِنْ أَشْجَعَ، حَلِيفٌ لِبَنِي سَلِمَةَ يُقَالُ لَهُ: مُخَشِّنُ بْنُ حُمَيِّرٍ، يُشِيرُونَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهُوَ مُنْطَلِقٌ إِلَى تَبُوكَ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: أَتَحْسِبُونَ جِلادَ بَنِي الْأَصْفَرِ كَقِتَالِ الْعَرَبِ بَعْضُهُمْ بَعْضاً؟! وَاللهِ لَكَأَنَّا بِكَمْ غَداً مُقَرَّنِينَ فِي الْحِبَالِ؛ إِرْجَافاً وَتَرْهِيباً لِلْمُؤْمِنِينَ، فَقَالَ مُخَشِّنُ بْنُ حُمَيِّرٍ: وَاللهِ لَوَدِدْتُ أَنِّي أُقَاضِي عَلَى أَنْ يُضْرَبُ كُلَّ رجل منَّا مائَة جَلْدَةٍ، وَإِنَّا نَتفلتُ أَنْ يَنْزِّلَ فِينَا قُرْآنٌ لِمَقَالَتِكُمْ هَذِهِ.

وَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ - فِيمَا بَلَغَنِي - لِعَمَّارِ بْنِ يَاسِرٍ: «**أَدْرِكْ الْقَوْمَ، فَإِنَّهُمْ قَدِ احْتَرَقُوا، فَسَلْهُمْ عَمَّا قَالُوا، فَإِنْ أَنْكَرُوا فَقُلْ: بَلَى، قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا**»، فَانْطَلَقَ إِلَيْهِمْ عَمَّارٌ، فَقَالَ ذَلِكَ لَهُمْ، فَأَتَوْا رَسُولَ اللهِ ﷺ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْهِ، فَقَالَ وَدِيعَةُ بْنُ ثَابِتٍ - وَرَسُولُ اللهِ ﷺ وَاقِفٌ عَلَى نَاقَتِهِ - فَجَعَلَ يَقُولُ وَهُوَ آخِذٌ بِحَقَبِهَا: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ، فَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ [التوبة: ٦٥]، وَقَالَ مُخَشِّنُ بْنُ حُمَيِّرٍ: يَا رَسُولَ اللهِ، قَعَدَ بِي اسْمِي وَاسْمُ أَبِي، فَكَأَنَّ الَّذِي عناه - أي: بقوله تعالى: ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةً﴾ [التوبة: ٦٦] فِي هَذِهِ الْآيَةِ مُخَشِّنُ بْنُ حُمَيِّرٍ، فَسَمّي عَبْدَ الرَّحْمَنِ، وَسَأَلَ اللهَ تَعَالَى أَنْ يُقْتَل شَهِيداً لَا يُعْلَمُ بِمَكَانِهِ، فَقُتِلَ يَوْمَ الْيَمَامَةِ، فَلَمْ يُوجَدْ لَهُ أَثَرٌ)[(١)].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: (فَقَدْ أَخْبَرَ أَنَّهُمْ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ مَعَ قَوْلِهِمْ: إِنَّما تَكَلَّمْنَا بِالْكُفْرِ مِنْ غَيْرِ اعْتِقَادٍ لَهُ بَلْ إنما كُنَّا

(١) انظر: سيرة ابن هشام (٢/ ٥٢٤ - ٥٢٥).

نَخُوضُ وَنَلْعَبُ، وَبَيَّنَ أَنَّ الِاسْتِهْزَاءَ بِآيَاتِ اللهِ كُفْرٌ، وَلَا يَكُونُ هَذَا إِلَّا مِمَّنْ شَرَحَ صَدْرًا بِهَذَا الْكَلَامِ، وَلَوْ كَانَ الْإِيمَانُ فِي قَلْبِهِ لَمَنَعَهُ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِهَذَا الْكَلَامِ. وَالْقُرْآنُ يُبَيِّنُ أَنَّ إِيمَانَ الْقَلْبِ يَسْتَلْزِمُ الْعَمَلَ الظَّاهِرَ بِحَسَبِهِ؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَى. ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥۚ بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾﴾ [النُّور: ٤٧ ـ ٥١] فَنَفَى الْإِيمَانَ عَمَّنْ تَوَلَّى عَنْ طَاعَةِ الرَّسُولِ، وَأَخْبَرَ أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ سَمِعُوا وَأَطَاعُوا؛ فَبَيَّنَ أَنَّ هَذَا مِنْ لَوَازِمِ الْإِيمَانِ»[(١)].

وبه يعلم كفر من يتنقصون الشريعة الإسلامية، ويصفونها بأنها لا تصلح لهذا العصر الحاضر، وأن الحدود الشرعية فيها قسوة ووحشية، وأن الإسلام ظلم المرأة!! إلى غير ذلك من مقالات الكفر والإلحاد، نسأل الله العافية والسلامة.

أمور يفعلها بعض الناس وهي من الشرك أو من وسائله:

هناك أشياء مترددة بين الشرك الأكبر والشرك الأصغر بحسب ما يقوم بقلب فاعلها، وما يصدر عنه من الأفعال والأقوال، ويقع فيها بعض الناس، قد تتنافى مع العقيدة أو تنافي كمالها أو تعكر

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٧/ ٢٢٠ ـ ٢٢١).

صفوها، وهي تفعل جهاراً نهاراً، وتمارس على المستوى العام، ويقع فيها بعض العوام تأثراً بالدجالين والمحتالين والمشعوذين، وقد حذّر منها النبي ﷺ.

ومن هذه الأمور:

أولاً: لبس الحلقة والخيط ونحوهما بقصد رفع البلاء أو دفعه: وذلك من فعل الجاهلية، وهو من الشرك الأصغر، وقد يترقى إلى درجة الشرك الأكبر بحسب ما يقوم بقلب لابسها من الاعتقاد بها، فعن عمران بن حصين رضي الله عنه: (أن رسول الله ﷺ رأى رجلاً في يده حلقة من صفر، فقال: «**ما هذا؟**» قال: من الواهنة، فقال: «**انزعها؛ فإنها لا تزيدك إلا وَهَناً؛ فإنك لو مت وهي عليك ما أفلحت أبداً**»[(١)] رواه أحمد بسند لا بأس به، وصححه ابن حبان والحاكم وأقره الذهبي.

ثانياً: تعليق التمائم: وهي: خرزات كانت العرب تعلقها على أولادها يتقون بها العين، ويتلمحون من اسمها أن يتم الله لهم مقصودهم.

وقد تكون التمائم من عظام ومن خرز ومن كتابة غير القرآن، ونحو ذلك، وهذا لا يجوز.

وقد يكون المعلق من القرآن؛ فإذا كان المعلق من القرآن فقد اختلف العلماء في جوازه وعدم جوازه، والراجح عدم جوازه؛ سدًّا للذريعة؛ فإنه يفضي إلى تعليق غير القرآن، ولأنه لا مُخصص

---

(١) انظر: مسند الإمام أحمد (٢٠٠٠٠)، وابن حبان (٦٠٨٥ ـ ٦٠٨٨)، والحاكم (٤/ ٢٤٠).

للنصوص المانعة من تعليق التمائم؛ كحديث ابن مسعود رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «**إِنَّ الرُّقَى، وَالتَّمَائِمَ، وَالتِّوَلَةَ شِرْكٌ**» رواه أحمد وأبو داود [(١)]، وعن عقبة بن عامر مرفوعاً: «**مَنْ عَلَّقَ تَمِيمَةً فَقَدْ أَشْرَكَ**»[(٢)]، وهذه نصوص عامة لا مخصص لها.

ثالثاً: التبرك بالأشجار والأحجار والآثار والبنايات: والتبرك معناه: طلب البركة ورجاؤها واعتقادها في تلك الأشياء.

وحكم التبرك بهذه الأمور أنه شرك أكبر؛ لأنه بغير الله سبحانه في حصول البركة، وعُبَّاد الأوثان إنما كانوا يطلبون البركة منها؛ فالتبرك بقبور الصالحين كالتبرك باللات، والتبرك بالأشجار والأحجار كالتبرك بالعزى ومناة.

وعن أبي واقد الليثي رضي الله عنه، قال: خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى حنين ونحن حُدثاء عهد بكفر، وللمشركين سدرة يعكفون عندها، وينوطون بها أسلحتهم، يقال لها: ذات أنواط، فمررنا بسدرة، فقلنا: يا رسول الله، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**قُلْتُمْ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ كَمَا قَالَ قَوْمُ مُوسَى**: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [الأعراف: ١٣٨]، **إِنَّهَا السُّنَنُ، لَتَرْكَبُنَّ سُنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ**» رواه الترمذي وصححه[(٣)].

رابعاً: السحر: وهو في اللغة: عبارة عما خفي ولطف سببه،

---

(١) مسند الإمام أحمد (٣٦١٥)، وأبو داود (٣٨٨٥).
(٢) مسند الإمام أحمد (١٧٤٢٢).
(٣) أخرجه الإمام أحمد (٢١٨٩٧)، والترمذي (٢١٨٠).

سُمي سحراً لأنه يحصل بأمور خفية لا تدرك بالأبصار، **وهو في الاصطلاح**: عبارة عن عزائم ورقى وكلام يتكلم به وأدوية وتدخينات، ومنه ما يؤثر في القلوب والأبدان؛ فيمرض ويقتل ويفرق بين المرء وزوجه، وتأثيره بإذن الله الكوني القدري.

وهو عمل شيطاني، كثير منه لا يُتَوصل إليه إلا بالشرك والتقرب إلى الأرواح الخبيثة بشيء مما تحب والاستعانة بالتحيل على استخدامها بالإشراك بها، ولهذا يقرنه الشارع بالشرك، **وهو داخل في الشرك من ناحيتين**:

الأولى: ما فيه من استخدام الشياطين والتعلق بهم، وربما تقرب إليهم بما يحبونه ليقوموا بخدمته.

الثانية: ما فيه من دعوى علم الغيب ودعوى مشاركة الله في ذلك، وهذا كفر وضلال؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾ [البَقَرَة: ١٠٢].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «**اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ**»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ وَمَا هُنَّ؟ قَالَ: «**الشِّرْكُ بِاللهِ، وَالسِّحْرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ الْغَافِلَاتِ**»[(١)].

خامساً: **الكهانة**: وهي: ادعاء علم الغيب؛ كالإخبار بما سيقع في الأرض مع الاستناد إلى سبب هو استراق السمع؛ حيث يسترق

(١) أخرجه البخاري (٢٧٦٦).

الجني الكلمة من كلام الملائكة، فيلقيها في أذن الكاهن، فيكذب معها مئة كذبة، فيصدقه الناس بسبب تلك الكلمة.

والله هو المتفرد بعلم الغيب؛ فمن ادعى مشاركته في شيء من ذلك بكهانة أو غيرها أو صدق من يدعي ذلك فقد جعل لله شريكاً فيما هو من خصائصه، وهو مكذب لله ولرسوله ﷺ.

وكثير من الكهانة المتعلقة بالشياطين لا تخلو من الشرك والتقرب إلى الوسائط التي يستعان بها على دعوى العلوم الغيبية؛ فالكهانة شرك في الربوبية من جهة دعوى مشاركة الله في علمه الذي اختص به، وشرك في الألوهية من جهة التقرب إلى غير الله.

وإتيان الكاهن وسؤاله كبيرة من كبائر الذنوب، وموبقة من موبقات الأعمال ولو لم يصدقه، أما تصديقه فكفر.

وفي «صحيح مسلم» عن بعض أزواج النبي ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «**مَنْ أَتَى عَرَّافاً فَسَأَلَهُ عَنْ شَيءٍ لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةٌ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً**»[1]، وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «**مَنْ أَتَى كَاهِناً، فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ** ﷺ» رواه أبو داود[2].

ومما يجب التنبيه عليه والتحذير منه أمر السحرة والكهان والمشعوذين الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون؛ فبعضهم يظهر للناس بمظهر الطبيب الذي يداوي المرض، وهو في الحقيقة مفسد

(١) أخرجه مسلم (٢٢٣٠).

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٩٥٣٦)، وبنحوه أبو داود (٣٩٠٦)، وكذا الترمذي (١٣٥).

للعقائد؛ بحيث يأمر المريض بفعل الشرك، مثل: أن يذبح لغير الله، أو يكتب له الطلاسم الشركية والتعاويذ الشيطانية، وبعضهم يظهر بمظهر المخبر عن المغيبات وأماكن الأشياء المفقودة؛ بحيث يأتيه الجهال يسألونه عن الأشياء الضائعة، فيخبرهم عن أماكن وجودها، أو يحضرها لهم بواسطة الشياطين.

وبعضهم يظهر بمظهر الولي الذي له خوارق وكرامات؛ كدخول النار، وضرب نفسه بالسلاح، ومسك الحيات ونحو ذلك، وهو في الحقيقة دجال مشعوذ وولي للشيطان، وكل هذه الأصناف تريد الاحتيال والنصب لأكل أموال الناس وإفساد عقائدهم.

فيجب على المسلمين أن يحذروهم ويبتعدوا عنهم، ويجب على ولاة الأمور استتابة هؤلاء؛ فإن تابوا وإلا قتلوا؛ لإراحة المسلمين من شرهم وفسادهم وتنفيذاً لحكم الله فيهم.

ففي «سنن أبي داود» عن بجالة بن عبدة قال: (كتب عمر بن الخطاب ﵁: أَنِ اقْتُلُوا كُلَّ سَاحِرٍ وَسَاحِرَةٍ)(١).

وعن جندب مرفوعاً: «**حَدُّ السَّاحِرِ ضَرْبَةٌ بِالسَّيْفِ**»(٢).

سادساً: التطير: وهو التشاؤم بالطيور والأسماء والألفاظ والبقاع والأشخاص وغير ذلك؛ فإذا عزم شخص على أمر من أمور الدين أو الدنيا، فرأى أو سمع ما يكره أثّر فيه ذلك أحد أمرين: إما الرجوع عما كان عازماً عليه؛ تطيراً وتأثراً بما رأى أو سمع، فيعلق

(١) مسند الإمام أحمد (١٦٥٧). وانظر: سنن أبي داود (٣٠٤٥).
(٢) رواه الترمذي (١٤٦٠).

قلبه بذلك المكروه، ويؤثر ذلك على إيمانه، ويخل بتوحيده وتوكله على الله، وإما أن لا يرجع عما عزم عليه، ولكن يبقى في قلبه أثر ذلك التطير من الحزن والألم والهم والوساوس والضعف.

فيجب على من وجد شيئاً من ذلك في نفسه أن يجاهدها على دفعه، ويستعين بالله، ويتوكل عليه، ويمضي في شأنه، ويقول: اللَّهُمَّ لا يأتي بالحسنات إلا أنت، ولا يدفع السيئات إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بك.

والتطير داء قديم ذكره الله عن الأمم الكافرة، وأنهم كانوا يتطيرون بخير الخلق، وهم الأنبياء وأتباعهم المؤمنين.

كما ذكر الله عن فرعون وقومه أنهم إذا أصابتهم سيئة: ﴿يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾ [الأعرَاف: ١٣١].

وكما ذكر الله عن قوم صالح أنهم قالوا له: ﴿ٱطَّيَّرۡنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَۚ﴾ [النَّمل: ٤٧].

وكما ذكر الله عن أصحاب القرية أنهم قالوا لرسل الله: ﴿إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٨﴾ [يٓس: ١٨].

وكما ذكر الله عن المشركين أنهم تطيروا بمحمد ﷺ كما في قوله تعالى: ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِكَۚ . . .﴾ [النِّسَاء: ٧٨].

وهكذا دين المشركين واحد، حيث انتكست قلوبهم وعقولهم، فاعتقدوا الشر بمن هو مصدر الخير، وهم الرسل عليهم الصلاة والسلام، وما ذلك إلا لتمكن الضلالة في نفوسهم وانتكاس فطرهم، وإلا فالخير والشر كلاهما بقضاء الله وقدره، ويجريان حسب حكمته

وعلمه تفضلاً وعدلاً؛ فالخير تفضل منه وجزاء على فعل الطاعة، والشر عدل منه وجزاء وعقوبة على فعل المعصية؛ قال تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النِّسَاء: ٧٩].

والتطير شرك؛ لكونه تعلق على غير الله، واعتقاد بحصول الضرر من مخلوق لا يملك لنفسه ضرًّا ولا نفعاً، ولكونه من إلقاء الشيطان ووسوسته، ولكونه يصدر عن القلب خوفاً وخشية وهو ينافي التوكل.

واسمعوا ما قاله الرسول ﷺ محذراً عن التطير؛ فقد روى الشيخان عن النبي ﷺ أنه قال: «**لَا عَدْوَى وَلَا طِيَرَةَ وَلَا هَامَةَ وَلَا صَفَرَ**»(١)، وقال ﷺ: «**لَا عَدْوَى وَلَا طِيَرَةَ وَيُعْجِبُنِي الْفَأْلُ**» قَالُوا: وَمَا الْفَأْلُ؟ قَالَ: «**كَلِمَةٌ طَيِّبَةٌ**»(٢) متفق عليه.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً: (**الطِّيَرَةُ شِرْكٌ، الطِّيَرَةُ شِرْكٌ**)(٣).

وفي «صحيح مسلم» عن معاوية بن الحكم رضي الله عنه، وفيه أنه قال لرسول الله ﷺ: «وَمِنَّا رِجَالٌ يَتَطَيَّرُونَ؟»، قَالَ: «**ذَاكَ شَيءٌ يَجِدُونَهُ فِي صُدُورِهِمْ فَلَا يَصُدَّنَّهُمْ**»(٤)، فأخبر ﷺ أن تأذيه وتشاؤمه بالطيرة إنما هو في نفسه وعقيدته لا في المتطيَّر به، فوهمه وخوفه وإشراكه هو الذي يطيره ويصده تأثراً بما رآه أو سمعه.

---

(١) البخاري (٥٧٠٧)، ومسلم (٢٢٢٠).
(٢) أخرجه البخاري (٥٧٧٦)، ومسلم (٢٢٢٤).
(٣) مسند الإمام أحمد (٤١٩٤)، وسنن أبي داود (٣٩١٢).
(٤) أخرجه مسلم (٥٣٧).

فأوضح ﷺ لأمته، وبيَّن فساد الطيرة؛ ليعلموا أن الله سبحانه لم يجعل لهم عليها علامة، ولا فيها لهم دلالة، ولا نصبها سبباً لما يخافونه ويحذرونه، ولتطمئن قلوبهم وتسكن نفوسهم إلى وحدانيته تعالى، التي أرسل بها رسله وأنزل بها كتبه وخلق لأجلها السماوات والأرض، فقطع علق الشرك من قلوبهم؛ فمن استمسك بعروة التوحيد الوثقى، واعتصم بحبله المتين، وتوكل على الله قطع هاجس الطيرة قبل استقرارها، وبادر خواطرها بدفعها قبل استكمالها.

قال عكرمة: (كنا جلوساً عند ابن عباس، فمر طائر يصيح، فقال رجل من القوم: خير، خير، فقال ابن عباس: لا خير ولا شر)[(١)]، فبادره بالإنكار عليه لئلا يعتقد تأثيره في الخير والشر، وكذلك سائر المخلوقات لا تجلب خيراً ولا تدفع شرًّا بذاتها.

وقوله ﷺ: «**وَيُعْجِبُنِي الْفَأْلُ**»، ثم بيَّنه بأنه الكلمة الطيبة، وإنما أعجبه الفأل لأنه حسن ظن بالله، والعبد مأمور أن يحسن الظن بالله، والطيرة سوء ظن بالله ﷻ وتوقع للبلاء، ومن هنا جاء الفرق بينهما في الحكم؛ لأن الناس إذا أملوا الخير من الله علقوا قلوبهم به وتوكلوا عليه، وإذا قطعوا آمالهم ورجاءهم من الله كان ذلك من الشرك والتعلق بغير الله.

قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: (لَيْسَ فِي الْإِعْجَاب بالفأل ومحبته شيء من الشّرك؛ بل ذَلِك إبانة عَن مُقْتَضى الطبيعة وَمُوجب الْفطْرَة الإنسانية الَّتِي تميل إِلَى ما يلائمها ويوافقها مِمَّا ينفعها كَمَا

---

(١) انظر: المقاصد الحسنة للسخاوي (٤٥٧) (١/ ٣٣٣).

أخْبرهُم ﷺ أَنه حبب إِلَيْهِ من الدُّنْيَا النِّسَاء وَالطّيب.. وَكَانَ يحب الْحَلْوَاء وَالْعَسَل، وَيُحب حسن الصَّوْت بِالْقُرْآنِ وَالْأَذَان، ويستمع إِلَيْهِ وَيُحب معالي الْأَخْلَاق وَمَكَارِم الشيم، وَبِالْجُمْلَةِ يحب كل كَمَال وَخير، وَمَا يُفْضِي إِلَيْهِمَا.

وَالله سُبْحَانَهُ قد جعل فِي غرائز النَّاس الْإِعْجَاب بِسَمَاع الاسم الْحسن ومحبته وميل نُفُوسهم إِلَيْهِ، وَكَذَلِكَ جعل فِيهَا الارتياح والاستبشار وَالسُّرُور باسم السَّلَام والفلاح والنجاح والتهنئة والبشرى والفوز وَالظفر... فَإِذا قرعت هَذِه الْأَسْمَاء الأسماع استبشرت بهَا النَّفس وانشرح لَهَا الصَّدْر وقوي بهَا الْقلب، وَإِذا سَمِعت أضدادها أوجب لَهَا ضد هَذِه الْحَال فأحزنها ذَلِك وأثار لَهَا خوفاً وطيرة وانكماشاً وانقباضاً عَمَّا قصدت لَهُ وعزمت عَلَيْهِ فأورث لَهَا ذَلِك ضَرَراً فِي الدُّنْيَا ونقصاً فِي الْإِيمَان ومقارفة للشرك)[(١)]. انتهى كلامه رحمه الله.

وفي الحديث الذي رواه أحمد عن ابن عمرو رضي الله عنهما عن النبي ﷺ: «**مَنْ رَدَّتْهُ الطِّيَرَةُ مِنْ حَاجَةٍ، فَقَدْ أَشْرَكَ**»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا كَفَّارَةُ ذَلِكَ؟ قَالَ: «**أَنْ يَقُولَ أَحَدُهُمْ: اللَّهُمَّ لَا خَيْرَ إِلَّا خَيْرُكَ، وَلَا طَيْرَ إِلَّا طَيْرُكَ، وَلَا إِلَهَ غَيْرُكَ**»[(٢)].

فتضمن هذا الحديث الشريف أن الطيرة لا تضر من كرهها ومضى في طريقه، وأما من لم يُخلص في توكله على الله، واسترسل مع الشيطان في ذلك فقد يعاقب بالوقوع فيما يكره؛ لأنه أعرض عن واجب الإيمان بالله.

---

(١) انظر: مفتاح دار السعادة (٢/ ٢٤٤).
(٢) مسند الإمام أحمد (٧٠٤٥).

هذا ونسأل الله ﷻ أن يمن علينا بالإيمان والتوكل عليه ويجنبنا طريق الشر والشرك؛ إنه سميع مجيب.

سابعاً: **التنجيم**: وهو كما عرَّفه بعض المحققين: بأنه الاستدلال بالأحوال الفلكية على الحوادث الأرضية؛ كأوقات هبوب الرياح ومجيء المطر، وظهور الحر والبرد، وتغير الأسعار، أو حدوث الأمراض أو الوفيات، أو السُّعود والنُّحوس.

وهذا ما يسمى بعلم التأثير، وهو على نوعين:

النوع الأول: أن يدعي المنجم أن الكواكب فاعلة مختارة، وأن الحوادث تجري بتأثيرها، وهذا كفر بإجماع المسلمين؛ لأنه اعتقاد بوجود خالق غير الله، وأن أحداً يتصرف في ملكه بغير مشيئته وتقديره ﷻ.

النوع الثاني: الاستدلال بمسير الكواكب واجتماعها وافتراقها على حدوث الحوادث، وهذا لا شك في تحريمه؛ لأنه من ادعاء علم الغيب، وهو من السحر أيضاً، كما قال النبي ﷺ: «**مَنِ اقْتَبَسَ عِلْماً مِنَ النُّجُومِ اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنَ السِّحْرِ زَادَ مَا زَادَ**»(١). رواه أبو داود، وإسناده صحيح، وصححه النووي والذهبي، ورواه ابن ماجه وأحمد وغيرهما.

والسحر محرم بالكتاب والسُّنَّة والإجماع.

والإخبار عن الحوادث المستقبلية عن طريق الاستدلال بالنجوم

---

(١) رواه أبو داود (٣٩٠٧)، والإمام أحمد (٢٨٤٠)، وابن ماجه (٣٧٢٦).

من ادعاء علم الغيب الذي استأثر الله بعلمه؛ فهو ادعاء لمشاركته سبحانه بعلمه الذي انفرد به أو تصديق لمن ادعى ذلك، وهذا ينافي التوحيد؛ لما فيه من هذه الدعوى الباطلة.

قال الخطابي: (علم النجوم المنهي عنه هو: ما يدَّعيه أهل التنجيم من علم الكوائن والحوادث التي لم تقع وستقع في مستقبل الزمان؛ كإخبارهم بأوقات هبوب الرياح، ومجيء المطر، وظهور الحر والبرد وتغير الأسعار وما كان في معانيها من الأمور، يزعمون أنهم يدركون معرفتها بسير الكواكب في مجاريها وباجتماعها واقترانها ويدّعون أن لها تأثيراً في السفليات... وهذا منهم تحكم على الغيب، وتعاطٍ لعلم استأثر الله سبحانه به لا يعلم الغيب أحد سواه)[١].

قال البخاري في «صحيحه»: (قَالَ قَتَادَةُ: خَلَقَ الله هَذِهِ النُّجُومَ لِثَلَاثٍ: جَعَلَهَا زِينَةً لِلسَّمَاءِ وَرُجُوماً لِلشَّيَاطِينِ وَعَلَامَاتٍ يُهْتَدَى بِهَا؛ فَمَنْ تَأَوَّلَ فِيهَا بِغَيْرِ ذَلِكَ أَخْطَأَ وَأَضَاعَ نَصِيبَهُ، وَتَكَلَّفَ مَا لَا عِلْمَ لَهُ بِهِ...)[٢]. انتهى.

وأخرج الخطيب عن قتادة أيضاً أنه قال: (وَإِنَّ أُنَاساً جَهَلَةً بِأَمْرِ اللهِ تَعَالَى قَدْ أَحْدَثُوا فِي هَذِهِ النُّجُومِ كِهَانَةً: مَنْ أَعْرَسَ بِنَجْمِ كَذَا وَكَذَا، كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَمَنْ سَافَرَ بِنَجْمِ كَذَا وَكَذَا، كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَعَمْرِي مَا مِنَ نَجْمٍ إِلا يُولَدُ بِهِ الأحمر والأسود، والطَّوِيلُ

(١) معالم السنن (٤/ ٢٢٩ ـ ٢٣٠).
(٢) صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق، باب في النجوم.

وَالْقَصِيرُ، وَالْحَسَنُ وَالدمِيمُ، وَمَا عِلْمُ هَذَا النَّجْمِ وَهَذِهِ الدَّابَّةِ وَهَذَا الطَّائر بِشَيْءٍ مِنَ الْغَيْبِ، وَلَوْ أَنَّ أَحَداً عَلِمَ الْغَيْبَ لَعَلِمَهُ آدَمُ الَّذِي خَلَقَهُ اللهُ تَعَالَى بِيَدِهِ، وَأَسْجَدَ لَهُ مَلائِكَتَهُ، وَعَلَّمَهُ أَسْمَاءَ كُلِّ شَيْءٍ)[(١)]. انتهى.

أقول: ومن الخرافات الباطلة ما يُرَوِّجه الدَّجَّالون في بعض الصحف والمجلات، من ذكر الطوالع والبَخْتِ والنُّحوس والسُّعود، وقراءة الكفِّ والفنجان، ويعلقون ذلك بحسابات البروج والنجوم، ويصدق به بعض السذج.

قال الشيخ عبد الرحمٰن بن حسن رَحِمَهُ اللَّهُ في «فتح المجيد»: (فإن قيل: المنجم قد يصدق، قيل: صِدْقُه كصدق الكاهن؛ يصدقُ في كلمة ويكذب في مئة، وصدقه ليس عن علم، بل قد يوافق قدراً فيكون فتنة في حق مَن صَدَّقه).

قال: (وقد جاءت الأحاديث عن النبي ﷺ بإبطال علم التنجيم؛ كقوله: «**مَنِ اقْتَبَسَ عِلْماً مِنَ النُّجُومِ اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنَ السِّحْرِ زَادَ مَا زَادَ**»)[(٢)] رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه.

وعن رجاء بن حيوة: أن النبي ﷺ قال: «**إن مما أخاف على أمتي: التصديق بالنجوم والتكذيب بالقدر وحيف الأئمة**»[(٣)] رواه عبد حميد.

---

(١) انظر: القول في علم النجوم، للخطيب البغدادي (١٨٦)، وانظر: الدر المنثور (٣/ ٣٢٨)، وتفسير ابن عطية (١١/ ١٨٦).
(٢) فتح المجيد (٣٠٤).
(٣) رواه ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (٢/ ٧٩٥) (١٤٨٢) من حديث أبي محجن الثقفي، وابن بطة في الإبانة (٤/ ١١٠) (١٥٢٩).

وأما الاستدلال بالنجوم لمعرفة الاتجاه في الأسفار في البر والبحر فهذا لا بأس به، وهو من نعمة الله ﷻ؛ حيث يقول سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهۡتَدُواْ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ٩٧﴾ [الأنعام: ٩٧]؛ أي: لتعرفوا بها جهة قصدكم، وليس المراد أنه يُهتدَى بها في الغيب كما يعتقده المنجمون.

قال الخطابي: (وأما ما يُستدل به من النجوم على جهة القبلة؛ فإنها كواكب رصدها أهل الخبرة من الأئمة الذين لا نشك في عنايتهم بأمر الدين ومعرفتهم بها وصدقهم فيما أخبروا به عنها؛ مثل أن يشاهدوها بحضرة الكعبة ويشاهدوها على حال الغيبة عنها؛ فكان إدراكهم الدلالة عنها بالمعاينة وإدراكنا ذلك بقبول خبرهم؛ إذ كانوا عندنا غير متهمين في دينهم ولا مقصرين في معرفتهم)[(١)].

وقال ابن رجب: (والمأذون في تعلمه: علم التسيير لا علم التأثير؛ فإنه ـ أي: علم التأثير ـ باطل محرم قليله وكثيره، وأما علم التسيير فيتعلم ما يحتاج إليه من الاهتداءات ومعرفة القبلة والطرق، وهو جائز عند الجمهور)[(٢)]. انتهى.

وكذلك تعلم منازل الشمس والقمر للاستدلال بذلك على القبلة وأوقات الصلوات والفصول ومعرفة الزوال.

قال الخطابي: (أما علم النجوم الذي يُدرك من طريق

(١) انظر: معالم السنن (٤/ ٢٣٠).
(٢) انظر: فضل علم السلف على علم الخلف لابن رجب (٢).

المشاهدة والحس الذي يعرف به الزوال، ويعلم به جهة القبلة فإنه غير داخل فيما نهي عنه، وذلك أن معرفة رصد الظل ليس شيئاً بأكثر من أن الظل ما دام متناقصاً فالشمس بعده صاعدة نحو وسط السماء من الأفق الشرقي، وإذا أخذ في الزيادة فالشمس هابطة من وسط السماء نحو الأفق الغربي، وهذا علم يصح دَركه من جهة المشاهدة، إلّا أن أهل هذه الصناعة قد دبَّروه بما اتخذوا له من الآلة التي يستغني الناظر فيها عن مراعاة مدته ومُراصدته)[(١)]. انتهى.

وروى ابن المنذر عن مجاهد: أَنه كَانَ لَا يرى بَأْسا أَن يتَعَلَّم الرجل منَازِل الْقَمَر[(٢)].

إن عقيدة المسلم هي أعز شيء عنده؛ لأن بها نجاته وسعادته، فيجب عليه أن يحرص على تجنب ما يسيء إليها أو يمسُّها من الشركيات والخرافات والبدع؛ لتبقى صافية مضيئة، وذلك بالتزام الكتاب والسُّنَّة، وما عليه السلف الصالح، ولا يتم ذلك إلا بتعلم هذه العقيدة، ومعرفة ما يضادها من العقائد المنحرفة، لا سيما وأنه قد كثر اليوم في صفوف المسلمين من يحترف التدجيل والشعوذة والتعلق بالقبور والأضرحة لطلب الحاجات وتفريج الكربات؛ كما كان عليه المشركون الأولون أو أشد، إضافة إلى اتخاذهم من يسمونهم بالسادة، وأصحاب الطرق الصوفية أرباباً من دون الله؛ يشرعون لأتباعهم من الدين ما لم يأذن به الله، فلا حول ولا قوة إلا بالله.

---

(١) انظر: معالم السنن (٤/ ٢٣٠).
(٢) الدر المنثور (٥/ ١١٩).

ثامناً: الاستسقاء بالأنواء: وهو: نسبة المطر إلى طلوع النجم أو غروبه على ما كانت الجاهلية تعتقده من أن طلوع النجم أو سقوطه في المغيب يؤثر في إنزال المطر، فيقولون: مطرنا بنوء كذا وكذا، وهم يريدون بذلك النجم، ويعبِّرون عنه بالنوء، وهو طلوع النجم، من (ناء ينوء) إذا نهض وطلع، فيقولون: إذا طلع النجم الفلاني ينزل المطر.

والمراد بالأنواء عندهم: منازل القمر الثمانية والعشرون، في كل ثلاث عشرة ليلة يغرب واحد منها عند طلوع الفجر ويطلع مقابله وتنقضي جميعها عند انقضاء السنة القمرية، وتزعم العرب في جاهليتها أنه عند طلوع ذلك النجم في الفجر ومغيب مقابله ينزل المطر، ويسمى ذلك الاستسقاء بالأنواء، ومعنى ذلك نسبة السقيا إلى هذه الطوالع، وهذا من اعتقاد الجاهلية الذي جاء الإسلام بإبطاله والنهي عنه؛ لأن نزول المطر وانحباسه يرجع إلى إرادة الله وتقديره وحكمته، وليس لطلوع النجوم تأثير فيه.

قال تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٦ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٌ كَرِيمٌ ۝٧٧ فِي كِتَٰبٍ مَّكۡنُونٍ ۝٧٨ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ۝٧٩ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٨٠ أَفَبِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَنتُم مُّدۡهِنُونَ ۝٨١ وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ ۝٨٢﴾ [الواقعة: ٧٥ ـ ٨٢].

فقوله تعالى: ﴿وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ ۝٨٢﴾: معناه: نسبة المطر الذي هو الرزق النازل من الله إلى النجم؛ بأن يقال: مطرنا بنوء كذا وكذا، وهذا من أعظم الكذب والافتراء؛ كما روى الإمام

أحمد والترمذي وحسنه ابن جرير وابن أبي حاتم والضياء في (المختارة) عن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ﴾ [الواقِعَة: ٨٢] يَقُولُ: «**شُكْرَكُمْ**»، ﴿أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الواقِعَة: ٨٢] تَقُولُونَ: «**مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا بِنَجْمِ كَذَا وَكَذَا**»(١).

قال الشيخ عبد الرحمٰن بن حسن رحمه الله: (وهذا أولى ما فسرت به الآية، وروي ذلك عن علي وابن عباس وقتادة والضحاك وعطاء الخراساني وغيرهم، وهو قول جمهور المفسرين)(٢) انتهى.

وعن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**أَرْبَعٌ فِي أُمَّتِي مِنَ الْجَاهِلِيَّةِ لَا يَتْرُكُونَهُنَّ: الْفَخْرُ فِي الْأَحْسَابِ، وَالطَّعْنُ فِي الْأَنْسَابِ، وَالِاسْتِسْقَاءُ بِالنُّجُومِ، وَالنِّيَاحَةُ**»(٣).

والمراد بالجاهلية هنا: ما قبل بعثة النبي ﷺ، وكل ما يخالف ما جاء به الرسول ﷺ فهو جاهلية.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله **في معنى الحديث**: (أخبر أن بعض أمر الجاهلية لا يتركه الناس كلهم؛ ذمًّا لمن لم يتركه، وهذا يقتضي أن كل ما كان من أمر الجاهلية وفعلهم فهو مذموم في دين الإسلام، وإلا لم يكن في إضافة هذه المنكرات إلى الجاهلية ذم لها، ومعلوم أن إضافتها إلى الجاهلية خرج مخرج الذم، وهذا كقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الأحزَاب: ٣٣] فإن

(١) مسند الإمام أحمد (٨٤٩)، والترمذي (٣٢٩٥).
(٢) فتح المجيد (٢/ ٩٦).
(٣) صحيح مسلم (٩٣٤)، ومسند الإمام أحمد (٢٢٩١٢).

في ذلك ذمًّا للتبرج وذمًّا لحال الجاهلية الأولى، وذلك يقتضي المنع من مشابهتهم في الجملة)(١). انتهى.

وقوله في هذا الحديث: «**وَالِاسْتِسْقَاءُ بِالنُّجُومِ**» معناه: نسبة المطر إلى النوء، وهو سقوط النجم؛ بأن يقول: مطرنا بنجم كذا وكذا.

وحكم الاستسقاء بالأنواء أنه إن كان يعتقد أن له تأثيراً في إنزال المطر فهذا شرك وكفر أكبر، وهو الذي يعتقده أهل الجاهلية. وإن كان لا يعتقد للنجم تأثيراً، وأن التأثير بيد الله وحده، ولكنه أجرى العادة بوجود المطر عند سقوط ذلك النجم فهذا لا يصل إلى الشرك الأكبر، ويكون من الشرك الأصغر؛ لأنه يحرم نسبة المطر إلى النجم، ولو على سبيل المجاز؛ سدًّا للذريعة.

وقد روى البخاري ومسلم عن زيد بن خالد ﵁ قال: صَلَّى لَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ صَلَاةَ الصُّبْحِ بِالْحُدَيْبِيَةِ عَلَى إِثْرِ سَمَاءٍ - أي: مطر - كَانَتْ مِنَ اللَّيْلِ فَلَمَّا انْصَرَفَ النبي ﷺ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ فَقَالَ: «**هَلْ تَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟**»، قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «**قال الله تعالى: أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ فَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللهِ وَرَحْمَتِهِ فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ بِالْكَوْكَبِ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي وَمُؤْمِنٌ بِالْكَوْكَبِ**»(٢).

---

(١) انظر: اقتضاء الصراط المستقيم (١/ ٢٣٥).

(٢) أخرجه البخاري (٨٤٦)، ومسلم (٧١).

فقوله تعالى في هذا الحديث القدسي: «**أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ**» وبيّن أن المؤمن الذي ينسب المطر إلى فضل الله ورحمته، وأن الكافر الذي ينسب المطر إلى الكوكب، وهذا فيه دليل على أنه لا تجوز نسبة أفعال الله إلى غيره، وأن ذلك كفر؛ فإن اعتقد أن للكوكب تأثيراً في إنزال المطر فهذا كفر أكبر؛ لأنه إشراك في الربوبية، والمشرك كافر، وإن لم يعتقد أن للكواكب تأثيراً في إنزال المطر، وإنما نسبه إليها مجازاً فهذا محرم، وهو من الشرك الأصغر؛ لأنه نسب نعمة الله إلى غيره.

قال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ: (وكانت العَرَبُ إذا طلع نجمٌ من المشرقِ وسقَطَ آخر من المغرب، فحدَثَ عند ذلك مطرٌ أو ريح فمنهم مَنْ يَنْسُبُهُ إلى الطالِعِ، ومنهم مَنْ ينسبه إلى الغارب الساقِطِ نِسْبَةَ إيجادٍ واختراعٍ، ويُطْلِقون ذلك القولَ المذكور في الحديث، فنهى الشارعُ عن إطلاقِ ذلك؛ لئلا يَعْتَقِدَ أحدٌ اعتقادَهُمْ، ولا يتشبَّهَ بهم في نُطْقهم)[(١)]. انتهى.

وقد روى مسلم في «صحيحه» في سبب نزول قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾﴾ [الواقعة: ٧٥] الآيات، عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا مرفوعاً: «**قَالَ بَعْضُهُمْ: لَقَدْ صَدَقَ نَوْءُ كَذَا وَكَذَا**»، قال: فنزلت هذه الآية: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾﴾ [الواقعة: ٧٥]، حتى بلغ: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الواقعة: ٨٢][(٢)].

---

(١) انظر: المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (١/ ١٨٥).
(٢) صحيح مسلم (٧٣).

فإنزال المطر من الله وبحوله وقوته لا دخل لمخلوق فيه؛ كما قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [الواقِعَة: ٦٨ ـ ٦٩]؛ فمن نسب إنزال المطر إلى الكواكب، أو إلى الظواهر الطبيعية؛ كالانخفاض الجوي أو المناخ فقد كذب وافترى، وهذا شرك أكبر. وإن كان يعتقد أن المنزل هو الله، ولكنه نسبه إلى هذه الأشياء من باب المجاز فهذا حرام وكفر أصغر؛ لأنه نسب النعمة إلى غير الله؛ كالذي يقول: مطرنا بنوء كذا وكذا.

وما أكثر التساهل في هذا الأمر على ألسنة بعض الصحفيين أو الإعلاميين؛ فيجب على المسلم أن ينتبه لهذا، والله الموفق، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

تاسعاً: نسبة النعم إلى غير الله: سبق الكلام عن حكم نسبة المطر إلى الأنواء والاستسقاء بها، والكلام الآن في حكم نسبة النعم عموماً إلى غير الله.

إن الاعتراف بفضل الله وإنعامه والقيام بشكره من صميم العقيدة؛ لأن من نسب النعمة إلى غير موليها ـ وهو الله سبحانه ـ فقد كفرها وأشرك بالله بنسبتها إلى غيره، قال الله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [النّحل: ٨٣].

قال بعض المفسرين: يعرفون أن النعم من عند الله، وأن الله هو المنعم عليهم بذلك، ولكنهم ينكرون ذلك، فيزعمون أنهم ورثوها عن آبائهم، وبعضهم يقول: لولا فلان لم يكن كذا وكذا،

وبعضهم يقول: هذا بشفاعة آلهتنا... وهكذا كل ينسب النعمة إلى من يعظمه من الآباء والآلهة والأشخاص، متناسين مصدرها الصحيح والمنعم بها على الحقيقة، وهو الله سبحانه، كما أن بعضهم ينسب نعمة السير في البحر والسلامة من خطره إلى الريح وحذق الملاح، فيقول: كانت الريح طيبة والملاح حاذقاً.

ومثله اليوم ما يجري على ألسنة الكثير من نسبة حصول النعم واندفاع النقم إلى مجهود الحكومات أو الأفراد أو تقدم العلم التجريبي، فيقولون مثلاً: تقدم الطب تغلب على الأمراض أو قضى عليها، والمجهودات الفلانية تقضي على الفقر والجهل، وما أشبه ذلك من الألفاظ التي يجب على المسلم أن يبتعد عنها ويتحفظ منها غاية التحفظ، وأن ينسب النعم إلى الله وحده، ويشكره عليها، وما يجري على يد بعض المخلوقين أفراداً أو جماعات من المجهودات إنما هي أسباب قد تثمر وقد لا تثمر، وهم يشكرون على قدر ما بذلوه، ولكن لا يجوز نسبة حصول النتائج إلا إلى الله سبحانه.

وقد ذكر الله في كتابه الكريم عن أقوام أنكروا نعمة الله عليهم، ونسبوا ما حصلوا عليه من المال والنعمة إلى غير الله؛ إما إلى كونهم يستحقونها، أو إلى خبرتهم ومعرفتهم ومهارتهم.

قال تعالى عن الإنسان: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾﴾ [فُصّلَت: ٥٠].

فقوله: ﴿هَٰذَا لِي﴾. أي: حصلت على هذا بعلمي، وأنا محقوق به، لا أنه تفضلٌ من الله ونعمة ليس بحول العبد ولا بقوته.

وقال تعالى عن قارون الذي آتاه الله الكنوز العظيمة فبغى على قومه، وقد وعظه الناصحون وأمروه بالاعتراف بنعمة الله والقيام بشكرها فكابر عند ذلك وقال: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ [القَصَص: ٧٨]؛ أي: حصلت على هذه الكنوز بسبب حذقي ومعرفتي بوجوه المكاسب، لا أنها تفضل من الله تعالى، فكانت عاقبته من أسوء العواقب، وعقوبته من أشد العقوبات، حيث خسف الله به وبداره الأرض لما جحد نعمة الله ونسبها إلى غيره، وأنه حصل عليها بحوله وقوته.

وما أحرى هؤلاء الذين اغتروا في زماننا بما توصلوا إليه من مخترعات وقدرات أقدرهم الله عليها؛ امتحاناً لهم فلم يشكروا نعمة الله وصاروا يتشدقون ويتفاخرون بحولهم وقوتهم، وبغوا في الأرض بغير الحق، وتطاولوا على عباد الله ما أحراهم بالعقوبة؛ فقد اغترت قبلهم عاد بقوتها؛ كما قال الله تعالى عنهم: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾﴾ [فُصّلَت: ١٥ ـ ١٦].

وهاكم قصة قصَّها رسول الله ﷺ عن جماعة ممن كان قبلنا

ابتلاهم الله فأنعم عليهم، فمنهم من جحد نعمة الله ونسب ما حصل عليه من المال إلى وراثته عن آبائه فسخط الله عليه، ومنهم من اعترف بفضل الله وشكر نعمة الله فرضي الله عنه:

عن أبي هريرة رضي الله عنه: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**إِنَّ ثَلَاثَةً فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ: أَبْرَصَ وَأَقْرَعَ وَأَعْمَى فأراد الله أَنْ يَبْتَلِيَهُمْ، فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ مَلَكاً، فَأَتَى الْأَبْرَصَ فَقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْك؟ قَالَ: لَوْنٌ حَسَنٌ وَجِلْدٌ حَسَنٌ ويذهب عني الذي قَدْ قَذِرَنِي النَّاسُ، قَالَ: فَمَسَحَهُ فَذَهَبَ عَنْهُ قذره؛ وأُعْطِيَ لَوْناً حَسَناً وَجِلْداً حَسَناً، قَالَ: فأَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْك؟ قَالَ: الْإِبِلُ، أَوْ قَالَ: الْبَقَرُ** - شَكَّ إسحاق - **فَأُعْطِيَ نَاقَةً عُشَرَاءَ، وقَالَ: بَارَك الله لَك فِيهَا**».

قال: «**فأَتَى الْأَقْرَعَ فَقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْك؟ قَالَ: شَعَرٌ حَسَنٌ وَيَذْهَبُ عَنِّي هَذَا الذي قَدْ قَذِرَنِي النَّاسُ، فَمَسَحَهُ فَذَهَبَ عنه وَأُعْطِيَ شَعَراً حَسَناً، فقَالَ: فَأَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْك؟ قَالَ: الْبَقَرُ، فَأُعْطِي بَقَرَةً حَامِلاً، وَقَالَ: بَارَك الله لَك فِيهَا**».

قال: «**فأَتَى الْأَعْمَى فَقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْك؟ قَالَ: أن يَرُدَّ اللهُ إِلَيَّ بَصَرِي فَأُبْصِرَ بِهِ النَّاسَ، فَمَسَحَهُ فَرَدَّ اللهُ إِلَيْهِ بَصَرَهُ، فقَالَ: فَأَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْك؟ قَالَ: الْغَنَمُ، فَأُعْطِي شَاة وَالِداً؛ فَأُنْتِجَ هَذَانِ وَوَلَّدَ هَذَا، فَكَانَ لِهَذَا وَادٍ مِنَ الْإِبِلِ، وَلِهَذَا وَادٍ مِنَ البَقَرِ، وَلِهَذَا وَادٍ مِنَ الْغَنَم**».

قال: «**ثُمَّ إنه أَتَى الْأَبْرَصَ فِي صُورَتِهِ وَهَيْئَتِهِ، فَقَالَ: رَجُلٌ مِسْكِينٌ قد انقَطَعَتْ بِيَ الْحِبَالُ فِي سَفَرِي، فَلَا بَلَاغَ لي الْيَوْمَ إِلَّا بِاللهِ**

ثُمَّ بِكَ، أَسْأَلُكَ بِالَّذِي أَعْطَاكَ اللَّوْنَ الْحَسَنَ وَالْجِلْدَ الْحَسَنَ وَالْمَالَ بَعِيراً أَتبَلَّغُ بِهِ فِي سَفَرِي، فَقَالَ: الْحُقُوقُ كَثِيرَةٌ، فَقَالَ: كَأَنِّي أَعْرِفُكَ؛ أَلَمْ تَكُنْ أَبْرَص يَقْذَرُكَ النَّاسُ فَقِيراً فَأَعْطَاكَ اللهُ ﷻ المال، فقَالَ: إنما وَرِثْتُ هذا المال كَابِراً عَنْ كَابِرٍ، فقَالَ: إِنْ كُنْتَ كَاذِباً فَصَيَّرَكَ اللهُ إِلَى مَا كُنْتَ».

قال: «وَأَتَى الْأَقْرَعَ فِي صُورَتِهِ وَهَيْئَتِهِ، فَقَالَ لَهُ مِثْلَ مَا قَالَ لِهَذَا، وردَّ عَلَيْهِ مِثْلَ مَا رَدَّ عَلَيْه هَذَا، فَقَالَ: إِنْ كُنْتَ كَاذِباً فَصَيَّرَكَ اللهُ إِلَى مَا كُنْتَ».

قال: «وَأَتَى الْأَعْمَى فِي صُورَتِهِ وهيئته، فَقَالَ: رَجُلٌ مِسْكِينٌ وَابْنُ سَبِيلٍ قد انقَطَّعَتْ بِيَ الْحِبَالُ فِي سَفَرِي فَلَا بَلَاغَ لي الْيَوْمَ إِلَّا بِاللهِ ثُمَّ بِكَ، أَسْأَلُكَ بِالَّذِي رَدَّ عَلَيْكَ بَصَرَكَ شَاةً أَتَبَلَّغُ بِهَا فِي سَفَرِي، فَقَالَ: كُنْتُ أَعْمَى فَرَدَّ اللهُ إلي بَصَرِي، فَخُذْ مَا شِئْتَ ودع ما شئت؛ فَوَاللهِ لَا أَجْهَدُكَ الْيَوْمَ بِشَيْءٍ أَخَذْتَهُ للهِ، فَقَالَ: أَمْسِكْ مَالَكَ؛ فَإِنَّمَا ابْتُلِيتُمْ؛ فَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنْكَ وَسَخِطَ عَلَى صَاحِبَيْكَ» رواه البخاري ومسلم(١).

وهذا حديث عظيم فيه معتبر؛ فإن الأوَّلَيْن جحدا نعمة الله، ولم ينسباها إليه، ومنعا حق الله في مالهما، فحل عليهما سخط الله، وسلبت منهما النعمة، والآخر اعترف بنعمة الله، ونسبها إليه، وأدى حق الله فيها، فاستحق الرضى من الله، ووفر الله ماله؛ لقيامه بشكر النعمة.

(١) البخاري (٣٤٦٤)، ومسلم (٢٩٦٤).

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: (أصل الشكر هو الاعتراف بإنعام المنعم على وجه الخضوع له والذل والمحبة، فمن لم يعرف النعمة، بل كان جاهلاً بها لم يشكرها، ومن عرفها ولم يعرف المنعم بها لم يشكرها أيضاً، ومن عرف النعمة والمنعم لكن جحدها كما يجحد المنكر لنعمة والمنعم عليه بها فقد كفرها، ومن عرف النعمة والمنعم بها وأقر بها ولم يجحدها ولكن لم يخضع له ولم يحبه ويرض به وعنه لم يشكره أيضاً، ومن عرفها وعرف المنعم بها وأقر بها وخضع للمنعم بها وأحبه ورضي به وعنه واستعملها في محبته وطاعته فهذا هو الشاكر لها، فلا بد في الشكر من علم القلب، وعمل يتبع العلم، وهو الميل إلى المنعم ومحبته والخضوع له)[١]. انتهى.

❁ ❁ ❁

(١) طريق الهجرتين، وباب السعادتين (١/١٦٨).

الشرك الأصغر

الشرك الأصغر يُنْقص التوحيد ويُخِلُّ به، وتوجد أنواع من الشرك الأصغر حذرنا منها الله ورسوله؛ صيانة للعقيدة وحماية للتوحيد؛ لأنها تنقص التوحيد، وربما تجر إلى الشرك الأكبر.

قال الله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [البَقَرَة: ٢٢]. وقال ابن عباس رضي الله عنهما في الآية: (الْأَنْدَادُ هُوَ الشِّرْكُ، أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ عَلَى صَفَاةٍ سَوْدَاءَ فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ، وَهُوَ أَنْ يَقُولَ: وَاللهِ، وَحَيَاتِكَ يَا فُلَانَةُ، وَحَيَاتِي، وَيَقُولُ: لَوْلَا كَلْبُهُ هَذَا لَأَتَانَا اللُّصُوصُ، وَلَوْلَا الْبَطُّ فِي الدَّارِ لَأَتَى اللُّصُوصُ، وَقَوْلُ الرَّجُلِ لِصَاحِبِهِ: مَا شَاءَ اللهُ وَشِئْتَ، وَقَوْلُ الرَّجُلِ: لَوْلَا اللهُ وَفُلَانٌ، لَا تَجْعَلْ فِيهَا فُلَاناً؛ فَإِنَّ هَذَا كُلَّهُ بِهِ شِرْكٌ) رواه ابن أبي حاتم[(١)].

فقد بيَّن ابن عباس رضي الله عنهما أن هذه الأشياء من الشرك، والمراد به الشرك الأصغر، والآية عامة تشمل الشرك الأكبر والشرك الأصغر.

فابن عباس رضي الله عنهما نبَّه بهذه الأشياء بالأدنى ـ وهو الشرك الأصغر ـ على الأعلى ـ وهو الشرك الأكبر ـ ولأن هذه الألفاظ تجري على ألسنة الكثير من الناس إما جهلاً أو تساهلاً.

---

(١) انظر: تفسيره عند قوله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾ [البَقَرَة: ٢٢].

ومن أنواع الشرك الأصغر:

الأول: الحلف بغير الله ﷻ:

وهو شرك؛ كما روى عبد الله بن عمر ﵄ عن رسول الله ﷺ: أنه قال: «**مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ كَفَرَ أَوْ أَشْرَكَ**» رواه الترمذي وحسنه وصححه الحاكم(١).

وقوله: «**فَقَدْ كَفَرَ أَوْ أَشْرَكَ**» يحتمل أن يكون هذا شكًّا من الراوي، ويحتمل أن تكون «أَوْ» بمعنى الواو، فيكون قد كفر وأشرك، ويكون من الكفر الذي هو دون الكفر الأكبر، كما أنه من الشرك الأصغر.

وقد كثر من الناس اليوم من يحلف بغير الله؛ كمن يحلف بالأمانة، أو يحلف بالنبي ﷺ، أو يقول: وحياتي، وحياتك يا فلان، وما أشبه هذه الألفاظ، وقد ذكرنا في الحديث الوارد في النهي عن الحلف بغير الله ﷻ، واعتباره كفراً أو شركاً؛ لأن الحلف بالشيء تعظيم له، والذي يجب أن يعظم ويحلف به هو الله ﷻ، والحلف بغيره شرك وجريمة عظمى.

قال ابن مسعود ﵁: (لَأَنْ أَحْلِفَ بِاللهِ كَاذِباً، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَحْلِفَ بِغَيْرِهِ صَادِقاً)(٢).

ومن المعلوم أن الحلف بالله كاذباً كبيرة من الكبائر، لكن الشرك ـ وهو الحلف بغير الله ـ أكبر من الكبائر ـ وإن كان شركاً

(١) أخرجه الترمذي (١٥٣٥) وحسنه، والحاكم (٤/ ٣٣٠).
(٢) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (١٥٩٢٩)، وابن أبي شيبة (١٢٢٨١)، والطبراني في المعجم الكبير (٨٨١٠).

أصغر ـ فيجب على المسلم أن يتنبه لهذا ولا تأخذه العوائد الجاهلية.

قال ﷺ: «**مَنْ كَانَ حَالِفاً فَلْيَحْلِفْ بِاللهِ أَوْ لِيَصْمُتْ**»(١).

وقال ﷺ: «**لَا تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ**»(٢).

إلى غير ذلك من النصوص التي تأمرنا إذا أردنا أن نحلف أن نقتصر على الحلف بالله وحده ولا نحلف بغيره.

ويجب على من حُلف له بالله أن يرضى؛ كما قال النبي ﷺ: «**مَنْ حَلَفَ بِاللهِ فَلْيَصْدُقْ وَمَنْ حُلِفَ لَهُ بِاللهِ فَلْيَرْضَ، وَمَنْ لَمْ يَرْض فَلَيْسَ مِنَ اللهِ**»(٣).

الثاني: ومن أنواع الشرك الأصغر: الشرك في الألفاظ:

مثل قول: ما شاء الله وشئت، ولولا الله وأنت.

فقد روى الإمام أحمد والنسائي عن قتيلة رضي الله عنها: أن يهوديًّا أتى النبي ﷺ، فقال: إنكم تشركون؛ تقولون: ما شاء الله وشئت، وتقولون: والكعبة، فأمرهم النبي ﷺ إذا أرادوا أن يحلفوا أن يقولوا: ورب الكعبة، وأن يقولوا: ما شاء الله ثم شئت(٤).

وروى النسائي عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن رجلاً قال للنبي ﷺ: ما شاء الله وشئت. فقال: «**أَجَعَلْتَنِي للهِ عَدْلاً؟ قُلْ: مَا شَاءَ اللهُ وَحْدَهُ**»(٥).

فدل الحديثان وما جاء بمعناهما على منع قول: ما شاء الله

(١) أخرجه البخاري (٢٦٧٩). (٢) أخرجه البخاري (٣٨٣٦).
(٣) أخرجه ابن ماجه (٢١٠١)، والبيهقي في السنن (٢١٢٤٠).
(٤) أخرجه الإمام أحمد (٢٧٠٩٣)، والنسائي (٣٧٧٣).
(٥) السنن الكبرى (١٠٨٢٥)، ومسند الإمام أحمد (١٨٣٩)، والسنن الكبرى للبيهقي (٥٦٠٣).

وشئت، وما شابهه من الألفاظ؛ مثل: لولا الله وأنت، ما لي إلا الله وأنت؛ لأن العطف بالواو يقتضي التسوية بين المتعاطفين، وهذا شرك؛ فالواجب أن يعطف بـ «ثم»، فيقال: ما شاء الله ثم شئت، أو: ثم شاء فلان، لولا الله ثم أنت، أو: ثم فلان، ما لي إلا الله ثم أنت؛ لأن العطف بـ «ثم» يقتضي الترتيب والتعقيب، وأن مشيئة العبد تأتي بعد مشيئة الله تعالى، لا مساوية لها؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ [الإنسان: ٣٠]؛ فمشيئة العبد تابعة لمشيئة الله تعالى؛ فالعبد وإن كانت له مشيئة ـ خلافاً للجبرية ـ فمشيئته تابعة لمشيئة الله، ولا يقدر على أن يشاء شيئاً إلا إذا كان الله قد شاءه؛ خلافاً للقدرية من المعتزلة وغيرهم، الذين يثبتون للعبد مشيئة تخالف ما أراده الله، تعالى الله عما يقولون.

الثالث: ومن أنواع الشرك الأصغر: الشرك في النيات والمقاصد:

وهو ما يسمى بالشرك الخفي؛ كالرياء، وهو نوعان:

أولاً: **الرياء والسُّمعة**: الرياء مشتق من الرؤية، والمراد به: إظهار العبادة لقصد رؤية الناس لها، فيحمدون صاحبها، والفرق بين الرياء وبين السمعة: أن الرياء لما يرى من العمل كالصلاة، والسمعة لما يسمع؛ كالقراءة والوعظ والذكر، ويدخل في ذلك تحدّث الإنسان عن أعماله وإخباره بها، وقد قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌۖ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف: ١١٠].

قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ **في معنى الآية**: (أَيْ: كَمَا أَنَّ اللهَ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ سِوَاهُ، فَكَذَلِكَ يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ الْعِبَادَةُ لَهُ وَحْدَهُ لا

شريك له، فَكَمَا تَفَرَّدَ بِالْإِلَهِيَّةِ يَجِبُ أَنْ يُفْرَدَ بِالْعُبُودِيَّةِ، فَالْعَمَلُ الصَّالِحُ: هُوَ الْخَالِي مِنَ الرِّيَاءِ الْمُقَيَّدُ بِالسُّنَّةِ)[(١)]. انتهى.

وقد توعد الله المرائين بالويل، فقال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ۝٧﴾ [الماعون: ٤ ـ ٧].

وأخبر أن الرياء من صفات المنافقين، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ﴾ [النِّساء: ١٤٢].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «**قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ مَنْ عَمِلَ عَمَلاً أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ**» رواه مسلم[(٢)]؛ أي: من قصد بعمله غيري من المخلوقين تركته وشركه، وفي رواية لابن ماجه: «... **فَأَنَا مِنْهُ بَرِيءٌ وَهُوَ لِلَّذِي أَشْرَكَ**»[(٣)].

قال ابن رجب رحمه الله: (**اعْلَمْ أَنَّ الْعَمَلَ لِغَيْرِ اللهِ أَقْسَامٌ:**

فَتَارَةً يَكُونُ رِيَاءً مَحْضاً: كَحَالِ الْمُنَافِقِينَ، كَمَا قَالَ اللهُ عز وجل: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ﴾ [النِّساء: ١٤٢]، وَهَذَا الرِّيَاءُ الْمَحْضُ لَا يَكَادُ يَصْدُرُ مِنْ مُؤْمِنٍ فِي فَرْضِ الصَّلَاةِ وَالصِّيَامِ، وَقَدْ يَصْدُرُ فِي الصَّدَقَةِ الْوَاجِبَةِ أَوِ الْحَجِّ الواجب، وَغَيْرِهِمَا مِنَ الْأَعْمَالِ الظَّاهِرَةِ، الَّتِي يَتَعَدَّى نَفْعُهَا، فَإِنَّ الْإِخْلَاصَ فِيهَا عَزِيزٌ،

---

(١) انظر: الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي (ص١٣٢).

(٢) صحيح مسلم (٢٩٨٥).

(٣) سنن ابن ماجه (٤٢٠٢).

وَهَذَا الْعَمَلُ لَا يَشُكُّ مُسْلِمٌ أَنَّهُ حَابِطٌ، وَأَنَّ صَاحِبَهُ يَسْتَحِقُّ الْمَقْتَ مِنَ اللهِ وَالْعُقُوبَةَ.

وَتَارَةً يَكُونُ الْعَمَلُ لِلَّهِ، وَيُشَارِكُهُ الرِّيَاءُ:

فَإِنْ شَارَكَهُ مِنْ أَصْلِهِ فَالنُّصُوصُ الصَّحِيحَةُ تَدُلُّ عَلَى بُطْلَانِهِ وَحُبُوطِهِ أَيْضاً.

وَأَمَّا إِنْ كَانَ أَصْلُ الْعَمَلِ لِلَّهِ، ثُمَّ طَرَأَتْ عَلَيْهِ نِيَّةُ الرِّيَاءِ، فَإِنْ كَانَ خَاطِراً دَفَعَهُ، فَلَا يَضُرُّهُ بِغَيْرِ خِلَافٍ، وَإِنِ اسْتَرْسَلَ مَعَهُ، فَهَلْ يُحْبَطُ عَمَلُهُ أَمْ لَا يَضُرُّهُ ذَلِكَ وَيُجَازَى عَلَى أَصْلِ نِيَّتِهِ؟.

فِي ذَلِكَ اخْتِلَافٌ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ مِنَ السَّلَفِ، قَدْ حَكَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَابْنُ جَرِيرٍ الطَّبَرِيُّ، وَرَجَّحَا أَنَّ عَمَلَهُ لَا يَبْطُلُ بِذَلِكَ، وَأَنَّهُ يُجَازَى بِنِيَّتِهِ الْأُولَى، وَهُوَ مَرْوِيٌّ عَنِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ وَغَيْرِهِ)[(١)]. انتهى.

فتحفظوا على أعمالكم من الشرك أعظم مما تتحفظون على أنفسكم من أعدائكم، وأعظم مما تتحفظون على أموالكم من السُّراق؛ فإن خطر الشرك عظيم.

نسأل الله لنا ولكم السلامة والإخلاص في القول والعمل.

ثانياً: إرادة الإنسان بعمله الدنيا: إرادة الإنسان بعمله الدنيا نوع من أنواع الشرك في النية والقصد، قد حذر الله منه في كتابه، وحذر منه رسوله ﷺ في سُنَّته. وهو: أن يريد الإنسان بالعمل الذي

(١) انظر: جامع العلوم والحكم، حديث رقم (١)، (١/ ٧٩ ـ ٨٢ ـ ٨٣).

يُبتغى به وجه الله طمعاً من مطامع الدنيا، وهذا شرك ينافي كمال التوحيد ويحبط العمل.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [هُود: ١٥ ـ ١٦].

ومعنى الآيتين الكريمتين: أن الله سبحانه يخبر أن من قصد بعمله الحصول على مطامع الدنيا فقط؛ فإن الله يوفر له ثواب عمله في الدنيا بالصحة والسرور وبالمال والأهل والولد، وهذا مقيد بالمشيئة؛ كما قال في قوله تعالى في الآية الأخرى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ [الإسراء: ١٨]، وهؤلاء ليس لهم في الآخرة إلا النار؛ لأنهم لم يعملوا ما يخلصهم منها، وكان عملهم في الآخرة باطلاً لا ثواب له؛ لأنهم لم يريدوها.

قال قتادة: (يقول تعالى: مَنْ كَانَتِ الدُّنْيَا هَمَّهُ وَطِلْبَتَهُ وَنِيَّتَهُ، جَازَاهُ اللهُ بِحَسَنَاتِهِ فِي الدُّنْيَا، ثُمَّ يُفْضِي إِلَى الْآخِرَةِ وَلَيْسَ لَهُ حَسَنَةٌ يُعْطَى بِهَا جَزَاءً، وَأَمَّا الْمُؤْمِنُ فَيُجَازَى بِحَسَنَاتِهِ فِي الدُّنْيَا وَيُثَابُ عَلَيْهَا فِي الْآخِرَةِ)(١).

قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللهُ **عن الآية السابقة:**

(ذكر عن السلف من أهل العلم فيها أنواع مما يفعله الناس اليوم ولا يعرفون معناه.

---

(١) تفسير ابن جرير عند قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾﴾ [هُود: ١٥].

فمن ذلك (حاشية: هذا هو **النوع الأول**): العمل الصالح الذي يفعله كثير من الناس ابتغاء وجه الله؛ من صدقة وصلاة، وصلة وإحسان إلى الناس ونحو ذلك، وكذلك ترك ظلم أو كلام في عرض، مما يفعله الإنسان أو يتركه؛ خالصاً لله، لكنه لا يريد ثوابه في الآخرة، إنما يريد أن يُجازى بحفظ ماله وتنميته، أو حفظ أهله وعياله، أو إدامة النعمة عليهم، ولا هِمّة له في طلب الجنة والهرب من النار؛ فهذا يُعطى ثواب عمله في الدنيا، وليس له في الآخرة من نصيب، وهذا النوع ذكره ابن عباس.

النوع الثاني: وهو أكبر من الأول وأخوف، وهو الذي ذكره مجاهد في الآية أن الآية أنزلت فيه، وهو أن يعمل أعمالاً صالحة ونيته رياء الناس لا طلب ثواب الآخرة.

النوع الثالث: أن يعمل أعمالاً صالحة ويقصد بها مالاً؛ مثل أن يحج لمال يأخذه لا لله، أو يهاجر لدنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها، أو يجاهد لأجل المغنم؛ فقد ذُكر هذا النوع أيضاً في تفسير هذه الآية... وكما يتعلم الرجل لأجل مُدَارسةِ أهله، أو مكسبهم أو رئاستهم، أو يتعلم القرآن ويواظب على الصلاة لأجل وظيفة المسجد؛ كما هو واقع كثيراً.

النوع الرابع: أن يعمل الإنسان بطاعة الله مخلصاً في ذلك لله وحده لا شريك له، ولكنه على عمل يُكفِّرُهُ كفراً يخرج من الإسلام؛ مثل اليهود والنصارى إذا عبدوا الله أو تصدقوا أو صاموا ابتغاء وجه الله والدار الآخرة، ومثل كثير من هذه الأمة الذين فيهم كفر أو شرك

يخرجهم من الإسلام بالكلية، إذا أطاعوا الله طاعة خالصة يريدون بها ثواب الله في الدار الآخرة، لكنهم على أعمال تخرجهم من الإسلام وتمنع قبول أعمالهم؛ فهذا النوع أيضاً قد ذُكر في هذه الآية عن أنس بن مالك وغيره، وكان السلف يخافون منها)[(١)]. انتهى ما ذكره رَحِمَهُ اللَّهُ.

والآيتان تتناولان هذه الأنواع الأربعة؛ لأن لفظهما عام؛ فالأمر خطير يوجب على المسلم الحذر من أن يطلب بعمل الآخرة طمع الدنيا.

وقد جاء في «صحيح البخاري»: أن من كان قصده الدنيا يجري وراءها بكل همه أنه يصير عبداً لها: فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قال: قال رسول الله ﷺ: **«تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ وَعَبْدُ الدِّرْهَمِ وَعَبْدُ الْخَمِيصَةِ؛ إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ تَعِسَ وَانْتَكَسَ وَإِذَا شِيكَ فَلَا انْتَقَشَ»**[(٢)].

ومعنى (تَعِسَ) لغة: سقط، والمراد هنا: هلك، وسماه عبداً لهذه الأشياء لكونها هي المقصودة بعمله؛ فكل من توجه بقصده لغير الله فقد جعله شريكاً له في عبوديته؛ كما هو حال الأكثر، وقد دعا الرسول ﷺ في هذا الحديث على من جعل الدنيا قصده وهمه بالتعاسة والانتكاسة، وإصابته بالعجز عن انتقاش الشوك من جسده، ولا بد أن يجد أثر هذه الدعوات كل من اتصف بهذه الصفات الذميمة، فيقع فيما يضره في دنياه وآخرته.

---

(١) انظر: فتح المجيد (٢/ ٢٠٠)، وانظر: الدرر السنية (١٣/ ٢١٩ ـ ٢٢٠ ـ ٢٢١).
(٢) صحيح البخاري (٢٨٨٧).

قال **شيخ الإسلام ابن تيمية** رَحِمَهُ اللَّهُ: (فَسَمَّاهُ النَّبِيُّ ﷺ عَبْدَ الدِّرْهَمِ وَعَبْدَ الدِّينَارِ وَعَبْدَ الْقَطِيفَةِ وَعَبْدَ الْخَمِيصَةِ، وَذُكِرَ فِيهِ ما هو دُعَاءٌ وَخَبَرٌ، وَهُوَ قَوْلُهُ: «**تَعِسَ وَانْتَكَسَ وَإِذَا شِيكَ فَلَا انْتَقَشَ**»، وَهَذِهِ حَالُ مَنْ إذَا أَصَابَهُ شَرٌّ لَمْ يَخْرُجْ مِنْهُ وَلَمْ يُفْلِحْ؛ لِكَوْنِهِ تَعِسَ وَانْتَكَسَ فَلَا نَالَ الْمَطْلُوبَ وَلَا خَلَصَ مِنَ الْمَكْرُوهِ، وَهَذِهِ حَالُ مَنْ عَبَدَ الْمَالَ وَقَدْ وُصِفَ ذَلِكَ بِأَنَّهُ: «**إذَا أُعْطِيَ رَضِيَ وَإِذَا مُنِعَ سَخِطَ**» كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [التّوبَة: ٥٨].

فَرِضَاهُمْ لِغَيْرِ اللهِ وَسَخَطُهُمْ لِغَيْرِ اللهِ وَهَكَذَا حَالُ مَنْ كَانَ مُتَعَلِّقاً بِرِئَاسَةٍ أَوْ بِصُورَةٍ وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنْ أَهْوَاءِ نَفْسِهِ؛ إنْ حَصَلَ لَهُ رَضِيَ وَإِنْ لَمْ يَحْصُلْ لَهُ سَخِطَ؛ فَهَذَا عَبْدُ مَا يَهْوَاهُ مِنْ ذَلِكَ، وَهُوَ رَقِيقٌ لَهُ؛ إذِ الرِّقُّ وَالْعُبُودِيَّةُ فِي الْحَقِيقَةِ هُوَ رِقُّ الْقَلْبِ وَعُبُودِيَّتُهُ، فَمَا اسْتَرَقَّ الْقَلْبَ وَاسْتَعْبَدَهُ فَهُوَ عَبْدُهُ)(١).

إلى أن قال: (وَهَكَذَا أَيْضاً طَالِبُ الْمَالِ فَإِنَّ ذَلِكَ يَسْتَعْبِدُهُ وَيَسْتَرِقُّهُ وَهَذِهِ الْأُمُورُ نَوْعَانِ:

الأول: مِنْهَا: مَا يَحْتَاجُ الْعَبْدُ إلَيْهِ كَمَا يَحْتَاجُ إلَيْهِ مِنْ طَعَامِهِ وَشَرَابِهِ وَمَسْكَنِهِ ومنكحه وَنَحْوِ ذَلِكَ، فَهَذَا يَطْلُبُهُ مِنَ اللهِ وَيَرْغَبُ إلَيْهِ فِيهِ فَيَكُونُ الْمَالُ عِنْدَهُ يَسْتَعْمِلُهُ فِي حَاجَتِهِ بِمَنْزِلَةِ حِمَارِهِ الَّذِي يَرْكَبُهُ وَبِسَاطِهِ الَّذِي يَجْلِسُ عَلَيْهِ؛ بَلْ بِمَنْزِلَةِ الْكَنِيفِ الَّذِي يَقْضِي فِيهِ حَاجَتَهُ

(١) انظر: مجموع الفتاوى (١٠/ ١٨٠ ـ ١٨١).

مِنْ غَيْرِ أَنْ يَسْتَعْبِدَهُ فَيَكُونَ هَلُوعاً ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ۝٢١﴾ [المعَارج: ٢٠ ـ ٢١].

الثاني: وَمِنْهَا: مَا لَا يَحْتَاجُ الْعَبْدُ إِلَيْهِ فَهَذِا لَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُعَلِّقَ قَلْبَهُ بِهَا؛ فَإِذَا تَعَلَّقَ قَلْبُهُ بِهَا صَارَ مُسْتَعْبَداً لَهَا؛ وَرُبَّمَا صَارَ مُعْتَمِداً عَلَى غَيْرِ اللهِ فَلَا يَبْقَى مَعَهُ حَقِيقَةُ الْعِبَادَةِ لِلَّهِ وَلَا حَقِيقَةُ التَّوَكُّلِ عَلَيْهِ؛ بَلْ فِيهِ شُعْبَةٌ مِنَ الْعِبَادَةِ لِغَيْرِ اللهِ وَشُعْبَةٌ مِنَ التَّوَكُّلِ عَلَى غَيْرِ اللهِ وَهَذَا مِنْ أَحَقِّ النَّاسِ بِقَوْلِهِ ﷺ: «**تَعِسَ عَبْدُ الدِّرْهَمِ، تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ، تَعِسَ عَبْدُ الْقَطِيفَةِ، تَعِسَ عَبْدُ الْخَمِيصَةِ**»، وَهَذَا هُوَ عَبْدٌ لِهَذِهِ الْأُمُورِ فَلَوْ طَلَبَهَا مِنَ اللهِ فَإِنَّ اللهَ إِذَا أَعْطَاهُ إِيَّاهَا رَضِيَ، وَإِن مَنَعَهُ إِيَّاهَا سَخِطَ.

وَإِنَّمَا عَبْدُ اللهِ مَنْ يُرْضِيهِ مَا يُرْضِي اللهَ، وَيُسْخِطُهُ مَا يُسْخِطُ اللهَ، وَيُحِبُّ مَا أَحَبَّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ، وَيُبْغِضُ مَا أَبْغَضَهُ اللهُ وَرَسُولُهُ، وَيُوَالِي أَوْلِيَاءَ اللهِ وَيُعَادِي أَعْدَاءَ اللهِ تَعَالَى، فَهَذَا هُوَ الَّذِي اسْتَكْمَلَ الْإِيمَانَ...)[(١)]. انتهى كلامه رحمه الله.

قلت: ومن عبيد المال اليوم الذين يقدمون على المعاملات المحرمة والمكاسب الخبيثة بدافع حب المادة؛ كالذين يتعاملون بالربا مع البنوك وغيرها، والذين يأخذون المال عن طريق الرشوة والقمار، وعن طريق الغش في المعاملات والفجور في المخاصمات، وهم يعلمون أن هذه مكاسب محرمة، لكن حبهم للمال أعمى بصائرهم، وجعلهم عبيداً لها، فصاروا يطلبونها من أي طريق.

(١) انظر: مجموع الفتاوى (١٠/١٨٩ ـ ١٩٠).

نسأل الله العافية لنا ولإخواننا المسلمين من الشح المطاع، والهوى المتبع وإعجاب كل ذي رأي برأيه.

الرابع من أنواع الشرك الأصغر: سب الدهر ونحوه:

وهذا النوع في بيان أشياء يرتكبها بعض الناس بحكم العادة، وهي مما ينقص التوحيد أيضاً ويسيء إلى العقيدة، ومن هذه الأشياء: سب الدهر وسب الريح، وما أشبه ذلك من إسناد الذم إلى المخلوقات فيما ليس لها فيه تصرف، فيكون هذا الذم في الحقيقة موجهاً إلى الله سبحانه؛ لأنه الخالق المتصرف.

قال الله تعالى عن المشركين: ﴿وَقَالُواْ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الجَاثيَة: ٢٤]؛ فقد كذبوا بالبعث وقالوا: ﴿مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾ التي نحن فيها، ليس هناك حياة سواها ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾؛ أي: يموت قوم ويعيش آخرون، وهذا منهم إنكار لوجود الخالق المتصرف، ورد جريان الحوادث إلى الطبيعة، ولهذا قالوا: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾؛ أي: لا يفنينا إلا مرور الليالي والأيام، فنسبوا الإهلاك إلى الدهر على سبيل الذم له، وإنما قالوا هذا القول عن جهل وتخرص لا عن علم وبرهان؛ لأن البرهان يرد هذا القول ويبطله، ولهذا رد الله عليهم بقوله: ﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾﴾، وكل قول لا ينبني على علم وبرهان فهو قول باطل مردود.

والبراهين تدل على أن ما يجري في الكون لا بد له من مدبر حكيم قادر، وهو الله سبحانه وتعالى؛ فكل من سب الدهر ونسب إليه شيئاً من

الحوادث فقد شارك المشركين والدهرية في هذا الوصف الذميم، وإن لم يشاركهم في أصل الاعتقاد.

وفي «الصحيحين» وغيرهما عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**قَالَ اللهُ ﷻ: يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ يَسُبُّ الدَّهْرَ وَأَنَا الدَّهْرُ أُقَلِّبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ**»(١)، وفي رواية: «**لَا تَسُبُّوا الدَّهْرَ فَإِنَّ اللهَ هُوَ الدَّهْرُ**»(٢).

فدل الحديث على أن من سب الدهر فقد آذى الله سبحانه؛ لأن السب يتجه إلى مدبر الحوادث والوقائع وخالقها، والدهر إنما هو ظرف ومحل وخلق مدبَّر ليس له شيء من التدبير، ولهذا قال الله: «**وَأَنَا الدَّهْرُ أُقَلِّبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ**».

فقوله سبحانه: «**أُقَلِّبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ**» تفسير لقوله: «**وَأَنَا الدَّهْرُ**»، وكذا قوله: «**فَإِنَّ اللهَ هُوَ الدَّهْرُ**» معناه: أن الله هو المتصرف الذي يصرف الدهر وغيره؛ فالذي يسب الدهر إنما يسب مَنْ خَلَقَهُ وهو الله تعالى وتقدس.

قال بعض السلف: (كانت العرب في جاهليتها من شأنها ذم الدهر؛ أي: سبه عند النوازل، فكانوا إذا أصابتهم شدة أو بلاء قالوا: أصابتهم قوارع الدهر، وأبادهم الدهر، وقالوا: يا خيبة الدهر فيسندون تلك الأفعال إلى الدهر ويسبونه، وإنما فاعل ذلك هو الله؛ فإذا أضافوا ما نالهم من الشدائد إلى الدهر فإنما سبوا الله ﷻ؛

---

(١) البخاري (٤٨٢٦)، ومسلم (٢٢٤٦). (٢) أخرجه مسلم (٢٢٤٦).

لأن الله هو الفاعل لذلك حقيقة)[١].

قال الشيخ عبد الرحمٰن بن حسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وقد غلط ابن حزم ومن نحا نحوه من الظاهرية في عدِّهم الدهر من الأسماء الحسنى أخذاً بهذا الحديث، وقد تبين معناه في الحديث بقوله: «**أُقَلِّبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ**»، وتقليبه: تصرّفه تعالى فيه بما يحبه الناس ويكرهونه)[٢].

فالذي يليق بالمسلم تجنب مثل هذه الألفاظ، وإن كان يعتقد أن الله هو المتصرف، لكن في تجنبها ابتعاد عن مشابهة الكفار ولو في الألفاظ، وفي ذلك حفاظ على العقيدة وتأدب مع الله سبحانه.

ومن جنس مسبة الدهر مسبة الريح، وقد ورد النهي عنها في الحديث الذي رواه الترمذي وصححه، عن أُبيِّ بن كعب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: أن رسول الله ﷺ قال: «**لَا تَسُبُّوا الرِّيحَ، فَإِذَا رَأَيْتُمْ مَا تَكْرَهُونَ فَقُولُوا: اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ هَذِهِ الرِّيحِ وَخَيْرِ مَا فِيهَا وَخَيْرِ مَا أُمِرَتْ بِهِ، وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ هَذِهِ الرِّيحِ وَشَرِّ مَا فِيهَا وَشَرِّ مَا أُمِرَتْ بِهِ**»[٣].

وذلك لأن الريح إنما تهب بأمر الله وتدبيره؛ لأنه هو الذي أوجدها وأمرها فمسبتها مسبة للفاعل وهو الله سبحانه كما تقدم في سب الدهر؛ لأن سب الريح وسب الدهر يرجعان إلى مسبة الخالق الذي دبر هذه الكائنات.

---

(١) انظر: بيان تلبيس الجهمية (١/٤١٦)، وشفاء العليل لابن القيم (ص٤٦)، وتفسير البغوي (٧/٢٤٦).

(٢) انظر: فتح المجيد (٢/٢٩٨)، وانظر: تفسير ابن كثير عند قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الجَاثِيَة: ٢٤].

(٣) الترمذي (٢٢٥٢).

ثم أرشدهم النبي ﷺ عندما يرون ما يكرهون مما يأتي مع الريح بأن يتوجهوا إلى خالقها وآمرها ليسألوه من خيرها وخير ما فيها ويستعيذوا من شرها وشر ما فيها؛ فما استجلبت نعمة إلا بطاعة الله وشكره، ولا استدفعت نقمة إلا بالالتجاء إلى الله والاستعاذة به.

وأما سب هذه المخلوقات ففيه مفاسد:

منها: أنه فيه سبًّا لما ليس أهلاً للسب؛ فإنها مخلوقات مسخرة ومدبرة.

ومنها: أن سب هذه الأشياء متضمن للشرك؛ فإنه إنما سبها لظنه أنها تضر وتنفع من دون الله.

ومنها: أن السب إنما يقع على من خلق ودبر هذه الأفعال، وهو الله.

وإذا قال العبد عند هبوب الريح ما أرشده إليه النبي ﷺ بقوله: «**إِذَا رَأَيْتُمْ مَا تَكْرَهُونَ فَقُولُوا: اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ هَذِهِ الرِّيحِ وَخَيْرِ مَا فِيهَا وَخَيْرِ مَا أُمِرَتْ بِهِ، وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ هَذِهِ الرِّيحِ وَشَرِّ مَا فِيهَا وَشَرِّ مَا أُمِرَتْ بِهِ**» فقد لجأ إلى خالق الريح ومدبرها ومصرفها، وهذا هو التوحيد والاعتقاد السليم الذي يخالف اعتقاد أهل الجاهلية.

وهكذا يكون المسلم دائماً وأبداً مع الأحداث؛ يرجعها إلى خالقها، ويسأله من خيرها، وأن يدفع عنه شرها، ولا يلقي باللوم عليها ويسبها ويفسرها بغير تفسيرها الصحيح.

وليعلم أن ما أصابه من هذه الأحداث مما يكره إنما هو بتقدير

من الله وتسليط لها عليه بسبب ذنوبه؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٍ ۝٣٠﴾ [الشورى: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ [الروم: ٤٨] الآية، وقال تعالى: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيۡنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠]، وقال تعالى: ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةً لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ۝٤٤﴾ [النور: ٤٤].

فالأمر كله راجع إلى الله؛ فالواجب حمده في الحالين: حال السراء، وحال الضراء، وحسن الظن به، والرجوع إليه بالتوبة والإنابة؛ كما قال تعالى: ﴿وَبَلَوۡنَٰهُم بِٱلۡحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ۝١٦٨﴾ [الأعراف: ١٦٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَخَذۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقۡصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ۝١٣٠﴾ [الأعراف: ١٣٠].

هذا هو التفسير الصحيح لنوازل الأحداث.

فالمؤمن يعلم أن ما أصابه مما يكره إنما هو بسبب ذنوبه، فيلقي باللوم على نفسه لا على الدهر ولا على الريح، فيتوب إلى الله، والكافر والفاسق أو الجاهل يلقي باللوم على هذه المخلوقات، ولا يحاسب نفسه، ولا يتوب من ذنبه؛ كما قال الشاعر:

يا دهر ويحك ما أبقيت لي أحداً ... إذ أنت والد سوء تأكل الولدا

وقال آخر:

قبحاً لوجهك يا زمان فإنه ... وجه له في كل قبح برقع

نسأل الله العافية والبصيرة في دينه.

الخامس من أنواع الشرك الأصغر: قول: «لو» في بعض الأحوال:

ومن الألفاظ التي لا ينبغي التلفظ بها لأنها تخل بالعقيدة، وقد ورد النهي عنها بخصوصها: كلمة «لو» في بعض المقامات.

وذلك عندما يقع الإنسان في مكروه أو تصيبه مصيبة فإنه لا يقول: لو أني فعلت كذا ما حصل علي هذا، أو: لو أني لم أفعل لم يحصل كذا، لما في ذلك من الإشعار بعدم الصبر على ما فات مما لا يمكن استدراكه، ولما يشعر به اللفظ من عدم الإيمان بالقضاء والقدر، ولما في ذلك من إيلام النفس وتسليط الشيطان على الإنسان بالوساوس والهموم.

والواجب بعد نزول المصائب التسليم للقدر، والصبر على ما أصاب الإنسان، مع عمل الأسباب الجالبة للخير والواقية من الشر والمكروه بدون تلوم.

وقد ذم الله الذين قالوا هذه الكلمة عند المصيبة التي حلت بالمسلمين في وقعة أُحد، فقال تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾ [آل عِمرَان: ١٥٤]، هذه مقالة قالها بعض المنافقين يوم أُحد لما حصل على المسلمين ما حصل من المصيبة، قالوها يعارضون القدر، ويعتبون على النبي ﷺ والمسلمين خروجهم إلى العدو، فرد الله عليهم بقوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ [آل عِمرَان: ١٥٤]؛ أي: هذا قدر مقدر من الله لا بد أن يقع، ولا يمنع منه التحرز في البيوت والتلهف.

وقول: «لو» بعد نزول المصيبة لا يفيد إلا التحسر والحزن

وإيلام النفس والضعف، مع تأثيره على العقيدة من حيث إنه يوحي بعدم التسليم للقدر.

ثم ذكر سبحانه عن هؤلاء المنافقين مقالة أخرى، وذلك في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ وَقَعَدُواْ لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ﴾ [آل عِمرَان: ١٦٨]، وهذه من مقالات المنافقين يوم أُحد أيضاً.

ويروى أن عبد الله بن أُبيّ كان يعارض القدر ويقول: لو سمعوا مشورتنا عليهم بالقعود وعدم الخروج ما قتلوا مع من قتل؛ فردَّ الله عليهم بقوله: ﴿قُلۡ فَٱدۡرَءُواْ عَنۡ أَنفُسِكُمُ ٱلۡمَوۡتَ﴾ [آل عِمرَان: ١٦٨]؛ أي: إذا كان القعود وعدم الخروج يسلم به الشخص من القتل أو الموت فينبغي أن لا تموتوا، والموت لا بد أن يأتي إليكم في أي مكان فادفعوه عن أنفسكم إن كنتم صادقين في دعواكم أن من أطاعكم سلم من القتل.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ لما ذكر مقالة ابن أُبيّ هذه، قال: (فَلَمَّا انْخَزَلَ يَوْمَ أُحُدٍ وَقَالَ: يَدَعُ رَأْيِي وَرَأْيَهُ وَيَأْخُذُ بِرَأْيِ الصِّبْيَانِ ـ أَوْ كَمَا قَالَ ـ انْخَزَلَ مَعَهُ خَلْقٌ كَثِيرٌ مِنْهُمْ مَنْ لَمْ يُنَافِقْ قَبْلَ ذَلِكَ... فَأُولَئِكَ كَانُوا مُسْلِمِينَ وَكَانَ مَعَهُمْ إيمَانٌ، هُوَ الضَّوْءُ الَّذِي ضَرَبَ اللهُ بِهِ الْمَثَلَ فَلَوْ مَاتُوا قَبْلَ الْمِحْنَةِ وَالنِّفَاقِ مَاتُوا عَلَى الْإِسْلَامِ الَّذِي يُثَابُونَ عَلَيْهِ وَلَمْ يَكُونُوا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ حَقًّا الَّذِينَ امْتُحِنُوا فَثَبَتُوا عَلَى الْإِيمَانِ وَلَا مِنَ الْمُنَافِقِينَ حَقًّا الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَنِ الْإِيمَانِ بِالْمِحْنَةِ...)[١]. انتهى.

(١) مجموع الفتاوى (٧/ ٢٨٠ ـ ٢٨١).

والشاهد منه أن اللهج بكلمة (لو) عند حصول المصائب من سمات المنافقين الذين لا يؤمنون بالقضاء والقدر.

فيجب على المؤمن الابتعاد عن التلفظ بهذه الكلمة عندما تصيبه محنة أو مكروه، وأن يعدل إلى الألفاظ الطيبة التي فيها الرضى بما قدر الله والصبر والاحتساب، وهي الألفاظ التي وجه إليها رسول الله ﷺ بقوله فيما رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «**الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ. احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ وَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَلَا تَعْجِزْ وَإِنْ أَصَابَكَ شَيءٌ فَلَا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَرُ اللهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ؛ فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ**»(١).

فقد وجه النبي ﷺ إلى فعل الأسباب التي تنفع العبد في دنياه وآخرته مما شرعه الله تعالى لعباده من الأسباب الواجبة والمستحبة والمباحة، ويكون العبد في حال فعله السبب مستعيناً بالله؛ ليتم له سببه وينفعه؛ لأن الله تعالى هو الذي خلق السبب والمسبب، والجمع بين فعل الأسباب النافعة والتوكل على الله توحيد.

ثم نهى عن العجز، وهو ضد الحرص على ما ينفع؛ فإذا حرص على ما ينفعه، وبذل السبب، ثم وقع خلاف ما أراد أو أصابه ما يكره فلا يقل: لو أني فعلت كذا لكان كذا وكذا؛ لأن هذه الكلمة لا تجدي شيئاً، وإنما تفتح عمل الشيطان، وتبعث على التأسف ولوم القدر، وذلك ينافي الصبر والرضى، والصبر واجب، والإيمان بالقدر فرض.

---

(١) صحيح مسلم (٢٦٦٤).

ثم أرشده النبي ﷺ إلى اللفظ النافع المتضمن للإيمان بالقدر، وهو أن يقول: «**قَدَرُ اللهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ**»؛ لأن ما قدره الله لا بد أن يكون، والواجب التسليم للمقدور، وما شاء الله فعل؛ لأن أفعاله لا تصدر إلا عن حكمة.

قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فإن فاته ما لم يُقَدَّر له فله حالتان: حالة عجز: وهي مفتاح عمل الشيطان، فيلقيه العجز إلى (لو) ولا فائدة في (لو) بل هي مفتاح اللوم... والحالة الثانية: النظر إلى المقدور وملاحظته، وأنه لو قُدِّر له لم يفته ولم يغلبه عليه أحد.

فأرشده ـ يعني: النبي ﷺ ـ إلى ما ينفعه في الحالتين: حالة حصول مطلوبة، وحالة فواته)[(١)].

ونهى النبي ﷺ عن قول (لو)، وأخبر أنها تفتح عمل الشيطان؛ لما فيها من التأسف على ما فات، والتحسر والحزن ولوم القدر، فيأثم بذلك، وذلك من عمل الشيطان، وليس هذا لمجرد لفظ (لو)؛ بل لما قارنها من الأمور القائمة بقلبه المنافية لكمال الإيمان الفاتحة لعمل الشيطان.

فإن قيل: الرسول ﷺ قد قال هذه الكلمة حينما أمر أصحابه بفسخ الحج إلى العمرة ولم يفسخ هو؛ لأنه ساق الهدي.

فالجواب عن ذلك: أن قوله ﷺ: «**لَوِ اسْتَقْبَلْتُ مِنْ أَمْرِي مَا اسْتَدْبَرْتُ مَا سُقْتُ الْهَدْيَ**»[(٢)]، خبر عن مستقبل لا اعتراض فيه على

(١) انظر: شفاء العليل (ص١٩ ـ ٢٠).

(٢) أخرجه البخاري (٧٢٢٩).

قدر، بل هو إخبار لأصحابه أنه لو استقبل الإحرام بالحج؛ ما ساق الهدي، ولأحرم بالعمرة، قال ذلك لهم لما أمرهم بفسخ الحج إلى العمرة؛ حثًّا وتطييباً لقلوبهم لما رآهم توقفوا في أمره، فليس هذا من المنهي عنه، بل هو إخبار لهم عما كان يفعل في المستقبل لو حصل، ولا خلاف في جواز ذلك، وإنما ينهى عن ذلك في معارضة القدر، والله أعلم.

فهذا الحديث الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه لا يستغني عنه العبد، وهو يتضمن إثبات القدر وإثبات الكسب والقيام بالعبودية.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله **في معنى هذا الحديث**: (ولَا تَعْجِزْ عَنْ مَأْمُورٍ وَلَا تَجْزَعْ مِنْ مَقْدُورٍ)[1].

❁ ❁ ❁

(١) انظر: مجموع الفتاوى (١٦/ ٣٨).

الصبر ومنزلته في العقيدة

تقدم الكلام في النهي عن قول (لو) عندما يقع الإنسان في مصيبة، وأن الواجب عليه الصبر والاحتساب.

قال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ: «ذكر الله تعالى الصبر في تسعين موضعاً من كتابه».

وفي الحديث الصحيح: «**الصَّبْرُ ضِيَاءٌ**» رواه أحمد ومسلم[(١)].

قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَجَدْنَا خَيْرَ عَيْشِنَا بِالصَّبْرِ»[(٢)].

وقال علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إن الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد»، ثم رفع صوته وقال: «ألا إنه لا إيمان لمن لا صبر له»[(٣)].

وقد روى البخاري ومسلم مرفوعاً: «**مَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْراً وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ**»[(٤)].

والصبر مشتق من صبر: إذا حبس ومنع؛ **فهو**: حبس النفس عن الجزع، وحبس اللسان عن التشكي والتسخط، وحبس الجوارح عن لطم الخدود وشق الجيوب.

---

(١) صحيح مسلم (٢٢٣)، ومسند الإمام أحمد (٢٢٩٠٢).
(٢) رواه البخاري معلقاً، كِتَابُ الرِّقَاقِ، بَابُ الصَّبْرِ عَنْ مَحَارِمِ اللهِ، وابن المبارك في الزهد رقم (٦٣٠).
(٣) انظر: الصبر لابن أبي الدنيا (٢)، وحلية الأولياء (١/ ٧٥)، وشعب الإيمان للبيهقي (٧/ ١٢٤).
(٤) البخاري (١٤٦٩)، ومسلم (١٠٥٣).

وهو ثلاثة أنواع:

١ ـ صبر على فعل ما أمر الله به.

٢ ـ وصبر على ترك ما نهى الله عنه.

٣ ـ وصبر على ما قدره الله من المصائب.

قال الله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥۚ﴾ [التّغَابُن: ١١]، وقوله: ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ﴾؛ أي: بقدره ومشيئته ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥۚ﴾، قال علقمة: «هُوَ الرَّجُلُ تُصِيبُهُ الْمُصِيبَةُ، فَيَعْلَمُ أَنَّهَا مِنْ عِنْدِ اللهِ، فَيَرْضَى وَيُسَلِّمُ»[(١)].

وقال غيره في معنى الآية: أي: من أصابته مصيبة، فعلم أنها بقدر الله، فصبر واحتسب واستسلم لقضاء الله هدى الله قلبه وعوضه عما فاته من الدنيا هُدًى في قلبه ويقيناً صادقاً، وقد يخلف عليه ما كان أخذ منه، وقال سعيد بن جبير: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥۚ﴾ [التّغَابُن: ١١]؛ يعني: يسترجع ويقول: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦﴾ [البَقَرَة: ١٥٦][(٢)].

وفي الآية الكريمة دليل على أن الأعمال من الإيمان، وعلى أن الصبر سبب لهداية القلوب، وأن المؤمن يحتاج إلى الصبر في كل المواقف.

يحتاج إليه مع نفسه أمام أوامر الله ونواهيه بإلزام نفسه بالتزامها.

ويحتاج إلى الصبر في مواقف الدعوة إلى الله تعالى على ما

(١) انظر: تفسير ابن جرير وابن كثير.
(٢) انظر: تفسير ابن كثير.

يناله في سبيلها من مشقة وأذى؛ قال تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ [النّحل: ١٢٥] إلى قوله: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ﴾ [النّحل: ١٢٧].

ويحتاج إلى الصبر في موقف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على ما يلاقيه من أذى الناس؛ قال تعالى عن لقمان: ﴿يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾﴾ [لقمَان: ١٧].

والمؤمن بحاجة إلى الصبر أمام مواجهته المصائب التي تجري عليه؛ بأن يعلم أنها من عند الله، فيرضى ويسلم، ويحبس نفسه عن الجزع والتسخط الذي قد يظهر على اللسان والجوارح.

وهذا من صميم العقيدة؛ لأن الإيمان بالقدر هو أحد أركان الإيمان الستة، وثمرته الصبر على المصائب؛ فمن لم يصبر على المصائب فهذا دليل على فقدان هذا الركن أو ضعفه لديه، ومن ثم سيقف أمام المصائب موقف الجزع والتسخط، وقد أخبر النبي ﷺ أن هذا كفر يخل بالعقيدة الإسلامية.

ففي «صحيح مسلم» عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «**اثْنَتَانِ فِي النَّاسِ هُمَا بِهِمْ كُفْرٌ: الطَّعْنُ فِي النَّسَبِ وَالنِّيَاحَةُ عَلَى الْمَيِّتِ**»(١).

فهاتان الخصلتان من خصال الكفر؛ لأنهما من أعمال

(١) صحيح مسلم (٦٧).

الجاهلية، ولكن ليس من قام به شعبة من شعب الكفر يصير كافراً الكفر المطلق، وفرقٌ بين الكفر المعرف باللام ـ كما في قوله ﷺ: «**لَيْسَ بَيْنَ الْعَبْدِ وَالْكُفْرِ إِلَّا تَرْكُ الصَّلَاةِ**»(١) ـ وبين كُفْر مُنَكَّرٍ كما في هذا الحديث.

وفي «الصحيحين»: «**لَيْسَ مِنَّا مَنْ ضَرَبَ الْخُدُودَ وَشَقَّ الْجُيُوبَ وَدَعَا بِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ**»(٢).

وقوله في الحديث: «**وَدَعَا بِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ**» قال ابن القيم رحمه الله: «الدّعَاءُ بِدَعْوَى الْجَاهِلِيّةِ كَالدّعَاءِ إلَى الْقَبَائِلِ وَالْعَصَبِيّةِ، وَمِثْلُهُ التّعَصّبُ إلى الْمَذَاهِبِ وَالطّوائِف وَالْمَشَائخِ، وَتَفْضِيلُ بَعْضِهِم عَلَى بَعْضٍ، يَدْعُو إلَى ذَلِكَ وَيُوَالِي عَلَيْهِ وَيُعَادِي، فكُلّ هَذَا مِنْ دَعْوَى الْجَاهِلِيّةِ»(٣). انتهى.

والله سبحانه يجري المصائب على عباده لحكم عظيمة، منها: أنه يكفر بها خطاياهم؛ كما في حديث أنس رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: «**إِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدِهِ الخَيْرَ عَجَّلَ لَهُ العُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا، وَإِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدِهِ الشَّرَّ أَمْسَكَ عَنْهُ بِذَنْبِهِ حَتَّى يُوَافِيَ بِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ**»(٤) رواه الترمذي وحسنه الحاكم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «المصائب نعمة لأنها مكفرات للذنوب، وتدعو إلى الصبر فيثاب عليها، وتقتضي الإنابة

(١) أخرجه النسائي (٤٦٤)، والبيهقي في السنن الكبرى (٦٢٨٨)، وبنحوه في مسلم (٨٢) بدون صيغة القصر.
(٢) البخاري (١٢٩٧)، ومسلم (١٠٣).
(٣) انظر: زاد المعاد (٢/ ٤٧١).
(٤) أخرجه الترمذي (٢٣٩٦)، والحاكم (٤/ ٦٥١).

إلى الله والذل له والإعراض عن الخلق... إلى غير ذلك من المصالح العظيمة.

فنفس البلاء يكفر الله به الذنوب والخطايا، وهذا من أعظم النعم، فالمصائب رحمة ونعمة في حق عموم الخلق؛ إلا أن يدخل صاحبها في معاص أعظم مما كان قبل ذلك، فيكون شرًّا عليه من جهة ما أصابه في دينه؛ فإن من الناس من إذا ابتلي بفقر أو مرض أو وجع حصل له من النفاق والجزع ومرض القلب أو الكفر الظاهر وترك بعض الواجبات وفعل بعض المحرمات ما يوجب له الضرر في دينه؛ فهذا كانت العافية خيراً له من جهة ما أورثته المصيبة، لا من جهة نفس المصيبة، كما أن من أوجبت له المصيبة صبراً وطاعة كانت في حقه نعمة دينية؛ فهي بعينها فعل الرب ﷻ رحمة للخلق، والله تعالى محمود عليها، فمن ابتلي فرزق الصبر كان الصبر عليه نعمة في دينه، وحصل له بعد ما كفر من خطاياه رحمة، وحصل له ثناء ربه عليه؛ قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ١٥٧﴾ [البَقَرَة: ١٥٧]، وحصل له غفران السيئات ورفع الدرجات؛ فمن قام بالصبر الواجب حصل له ذلك»(١). انتهى.

ومن الحكم الإلٰهية في إجراء المصائب: ابتلاء العباد عند وقوعها؛ من يصبر ويرضى، ومن يجزع ويسخط؛ كما قال النبي ﷺ: **«إِنَّ عِظَمَ الجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ البَلَاءِ، وَإِنَّ اللهَ إِذَا أَحَبَّ قَوْماً ابْتَلَاهُمْ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السَّخَطُ»**(٢).

(١) انظر: فتح المجيد (٢/ ١٨٠).
(٢) رواه الترمذي وحسنه (٢٣٩٦).

والرضى: هو أن يسلم العبد أمره إلى الله، ويحسن الظن به ويرغب في ثوابه.

والسخط: هو الكراهية للشيء، وعدم الرضى به؛ أي: من سخط على الله فيما دبره فله السَّخَط من الله.

وفي هذا الحديث: أن الجزاء من جنس العمل، وفيه إثبات الرضى من الله سبحانه على ما يليق به كسائر صفاته، وفيه بيان الحكمة في إجراء المصائب على العباد، وفيه إثبات القضاء والقدر، وأن المصائب تجري بقضاء الله وقدره، وفيه مشروعية الصبر على المصائب والرجوع إلى الله، والاعتماد عليه وحده في كل ملمة ودفع كل مكروه.

وقد أمر الله بالاستعانة بالصبر والصلاة على ما يواجه الإنسان في هذه الحياة من متاعب ومشاق؛ لأن من وراء ذلك الخير والعاقبة الحميدة، وأخبر أنه مع الصابرين بنصره وتأييده؛ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٣﴾ [البقرة: ١٥٣]، مما يدل على أهمية الصبر وحاجة المؤمن إليه، وهو من مقومات العقيدة.

نسأل الله ﷻ أن يرزقنا الصبر والاحتساب، وأن يمن علينا بالتوفيق والهداية.

❁ ❁ ❁

بيان ألفاظ لا يجوز أن تقال في حق الله تعالى تعظيماً لشأنه

الله جلَّ وعلا عظيم يجب أن يعظم، وهناك ألفاظ لا يجوز أن تقال في حقه سبحانه تعظيماً له، وقد ورد النهي عنها.

فمن هذه الألفاظ: أنه لا يقال: السلام على الله؛ لأن السلام دعاء للمسلَّم عليه بطلب السلامة له من الشرور، والله سبحانه يُطلب منه ذلك ولا يُطلب له، ويُدعى ولا يُدعى له؛ لأنه المغني، له ما في السماوات والأرض، وهو السالم من كل عيب ونقص، وهو مانح السلامة ومعطيها، وهو السلام ومنه السلام.

وفي «الصحيح» عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: كنا إذ كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في الصلاة قلنا: السلام على الله من عباده، السلام على فلان وفلان. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «**لَا تَقُولُوا: السَّلَامُ عَلَى اللهِ؛ فَإِنَّ اللهَ هُوَ السَّلَامُ**»(١)؛ أي: إن الله سالم من كل نقص.

قال الإمام ابن القيم رحمه الله: «السلام الذي هو التحية: اسم مصدر»(٢).

إلى أن قال: «هذا ونحوه من ألفاظ الدعاء متضمن للإنشاء والإخبار؛ فجهة الخبرية فيه لا تناقض الجهة الإنشائية»، وهو معنى السلام المطلوب عند التحية...

(١) صحيح البخاري (٨٣٥).
(٢) انظر: بدائع الفوائد (٣/ ١٩٧).

إلى أن قال: «والمقام لما كان مقام طلب السلامة التي هي أهم ما عند الرجل أتى في لفظها بصيغة اسم من أسماء الله تعالى، وهو السلام الذي تطلب منه السلامة.

فتضمن لفظ السلام معنيين: **أحدهما**: ذكر الله. **والثاني**: طلب السلامة، وهو مقصود المُسلِّم»[(١)].

ومن الألفاظ التي لا تجوز أن تقال في حق الله تعالى: اللَّهُمَّ اغفر لي إن شئت؛ فطلب الحاجة من الله لا يعلق على المشيئة، وإنما يجزم به.

وفي «الصحيحين» عن أبي هريرة ﵁: أن رسول الله ﷺ قال: «**لَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمُ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ، اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي إِنْ شِئْتَ، لِيَعْزِمِ الْمَسْأَلَةَ؛ فَإِنَّهُ لَا مُكْرِهَ لَهُ**»[(٢)].

ولمسلم: «**وَلْيُعَظِّمِ الرَّغْبَةَ؛ فَإِنَّ اللهَ لَا يَتَعَاظَمُهُ شَيءٌ أَعْطَاهُ**»[(٣)].

والنهي عن ذلك لأمرين:

الأول: أن الله سبحانه لا مُكرِه له على الفعل، وإنما هو يفعل ما يريد، بخلاف العبد؛ فإنه قد يفعل الشيء وهو كاره، ولكن يفعله لخوف أو رجاء من أحد، والله ليس كذلك.

الثاني: أن التعليق على المشيئة يدل على فتور في الطلب وقلة رغبة فيه؛ فإن حصل وإلا استغنى عنه، وهذا يدل على عدم الافتقار

(١) انظر: بدائع الفوائد (٣/ ٢٠٣).
(٢) صحيح البخاري (٦٣٣٩)، ومسلم (٢٦٧٩).
(٣) صحيح مسلم (٢٦٧٩).

إلى الله، وفي رواية مسلم الأمر بتعظيم الطلب؛ لأن الله لا يتعاظمه شيء أعطاه؛ أي: لا يكبر عليه سبحانه ولا يعسره، وليس عنده بعظيم، وإن عظم في نفس المخلوق، وذلك لكمال فضله وجوده وسعة غناه، فهو يعطي العظائم، ولا يعجزه شيء، ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس: ٨٢].

ومن الألفاظ التي لا يجوز أن تقال في حق الله تعالى: الإقسام على الله إذا كان على جهة الحجر عليه أن لا يفعل الخير.

عن جندب بن عبد الله رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ حدّث: «**أَنَّ رَجُلاً قَالَ: وَاللهِ لَا يَغْفِرُ اللهُ لِفُلَانٍ، وَإِنَّ اللهَ تَعَالَى قَالَ: مَنْ ذَا الَّذِي يَتَأَلَّى عَلَيَّ أَنْ لَا أَغْفِرَ لِفُلَانٍ؟! فَإِنِّي قَدْ غَفَرْتُ لِفُلَانٍ وَأَحْبَطْتُ عَمَلَكَ**»(١).

والتألي من الأَلِيَّة - بتشديد الياء - وهي اليمين، ومعنى (يَتَأَلَّى): يحلف، وقوله: «**مَنْ ذَا الَّذِي**»: استفهام إنكار، وهذا الرجل أساء الأدب مع الله، وحكم عليه وقطع أنه لا يغفر لهذا المذنب، وهذا من جهله، واغتراره بنفسه وبعمله وإدلاله بذلك، فعومل بنقيض قصده، وغفر لهذا المذنب بسببه، وأحبط عمله بسبب هذه الكلمة السيئة التي قالها، مع أنه كان عابداً، قال أبو هريرة رضي الله عنه: (لَتَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ أَوْبَقَتْ دُنْيَاهُ وَآخِرَتَهُ)(٢).

ففي الحديث: وجوب التأدب مع الله سبحانه في الأقوال

---

(١) رواه مسلم (٢٦٢١).

(٢) مسند الإمام أحمد (٨٢٩٢)، وأبو داود (٤٩٠٣).

والأفعال، وتحريم الإدلال على الله والإعجاب بالنفس، واحتقار الآخرين، وتحريم الحلف على الله إذا كان على جهة الحجر عليه أن لا يفعل الخير بعباده، أما إذا كان الحلف على الله على جهة حسن الظن به سبحانه ورجاء الخير منه فهذا جائز؛ كما جاء في الحديث: «**إِنَّ مِنْ عِبَادِ اللهِ مَنْ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لَأَبَرَّهُ**»(١)..

وفي حديث جندب أيضاً بيان خطر اللسان ووجوب التحفظ منه.

وعن معاذ رضي الله عنه: قلت: (يَا نَبِيَّ اللهِ، وَإِنَّا لَمُؤَاخَذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ؟! فَقَالَ: «**ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ، وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ** - أَوْ **عَلَى مَنَاخِرِهِمْ - إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ؟!**»(٢).

ومما سبق يتبين أنه يجب التحفظ في الألفاظ والابتعاد عن اللفظ الذي فيه سوء أدب مع الله سبحانه؛ لأن هذا يخل بالعقيدة وينقض التوحيد.

فلا يقال: السلام على الله؛ لأنه هو السلام سبحانه، ولأن السلام على أحد دعاء له بالسلامة، والله سبحانه يُدْعى ولا يدعى له.

ولا يقال: اللَّهُمَّ اغفر لي وارحمني إن شئت ونحو ذلك، بل كل دعاء يؤتى به على سبيل الجزم بلا تعليق بالمشيئة؛ لأن الله يفعل ما يشاء ولا مُكْرِهَ له.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٧٠٣).

(٢) رواه الترمذي وصححه (٢٦١٦).

وأنه لا يقسم على الله أن لا يرحم فلاناً أو يغفر لفلان؛ لأن هذا حظر ومنع لرحمة الله، وسوء ظن بالله ﷻ، كما أنه لا يجوز أن يقال: ما شاء الله وشاء فلان، وإنما يقال: ما شاء الله ثم شاء فلان؛ لأن العطف بالواو يقتضي المشاركة، ولا أحد يشارك الله سبحانه ويساويه في أمر من الأمور، وأما العطف بـ (ثم)؛ فإنه يقتضي الترتيب والتبعية، فتكون مشيئة المخلوق تابعة لمشيئة الله سبحانه وحاصلة بعدها وليست مشاركة لها.

وكل هذا مما يؤكد على المسلم وجوب دراسة العقيدة ومعرفة ما يصححها وما يخل بها؛ حتى يكون على بينة من أمره وحتى لا يقع في المحذور وهو لا يشعر.

وفق الله الجميع للعلم النافع والعمل الصالح.

❁ ❁ ❁

المبحث الثالث

توحيد الأسماء والصفات

تقدم أن بيَّنَّا أن التوحيد ثلاثة أنواع: توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات.

وقد تكلمنا عن النوعين الأولين منه، وهما: توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية؛ لأن كل نوع من هذه الأنواع جحده طائفة من البشر.

فتوحيد الربوبية: جحده المعطلة الذين أنكروا وجود الله؛ كالدهرية والملاحدة، ومنهم الشيوعية في عصرنا الحاضر، وإن كان جحودهم له إنما هو في الظاهر مكابرة منهم، وإلا فهم يقرون به في الباطن وفي قرارة أنفسهم؛ إذ لا يعقل وجود مخلوق بدون خالق.

والقسم الثاني: ـ **وهو توحيد الألوهية** ـ جحده أكثر الخلق، وهو الذي بعث الله بالدعوة إليه رسله، وأنزل كتبه، وقد جحده المشركون قديماً وحديثاً، وجحودهم له يتمثل بعبادة الأشجار والأحجار والأصنام والقبور والأضرحة، وعبادة المشايخ الصوفية باعتقاد النفع والخير فيهم من دون الله ﷻ ممن ينتسبون إلى الإسلام زوراً وبهتاناً.

والقسم الثالث: ـ **هو توحيد الأسماء والصفات** ـ يعني: إثبات ما أثبته الله لنفسه أو أثبته له رسوله من صفات الكمال، ونفي ما

نفاه الله عن نفسه أو نفاه عنه رسوله من صفات النقص؛ على حد قول الله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشّورىٰ: ١١]. وهذا القسم قد جحده الجهمية وتلاميذهم من المعتزلة والأشاعرة، وهو في الحقيقة داخل في توحيد الربوبية، لكن لما كثر منكروه وروجوا الشبه حوله أُفْرِدَ بالبحث، وجُعِلَ قسماً مستقلًّا، وأُلِّفت فيه المؤلفات الكثيرة.

فألف الإمام أحمد رده المشهور على الجهمية، وألف ابنه عبد الله (ت٢٩٠هـ) كتاب «السُّنَّة»، وألف عبد العزيز بن يحيى الكناني (ت٢٤٠هـ) كتاب «الحيدة» في الرد على بشر المريسي (الهالك ٢١٨هـ)، وألف أبو عبد الله محمد بن نصر المروزي (ت٢٩٤هـ) كتاب «السُّنَّة»، وألف عثمان بن سعيد (ت٢٨٠هـ) كتاب «الرد على بشر المريسي»، وألف إمام الأئمة محمد بن خزيمة (ت٣١١هـ) كتاب «التوحيد»، وألف غير هؤلاء كشيخ الإسلام ابن تيمية (ت٧٢٨هـ) وتلميذه ابن القيم (ت٧٥١هـ) هؤلاء ومن جاء بعدهم وسار على نهجهم، فللّه الحمد والمنة على بيان الحق ودحض الباطل.

وأول من عرف عنه إنكار الصفات بعض مشركي العرب الذين أنزل الله فيهم قوله: ﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ﴾ [الرّعد: ٣٠].

وسبب نزول هذه الآية أن قريشاً لما سمعت رسول الله ﷺ يذكر الرحمٰن أنكروا ذلك، فأنزل الله فيهم: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ﴾ [الرّعد: ٣٠].

وذكر ابن جرير أن ذلك كان في صلح الحديبية، حين كتب الكاتب «بسم الله الرحمٰن الرحيم»، قالت قريش: أما الرحمٰن فلا نعرفه[(١)].

روى ابن جرير أيضاً عن ابن عباس رضي الله عنهما: كان رسول الله ﷺ يدعو ساجداً يقول: «**يا رحمٰن يا رحيم**»، فقال المشركون: هذا يزعم أنه يدعو واحداً وهو يدعو مثنى، فأنزل: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ أَيّٗا مَّا تَدۡعُواْ فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾ [الإسراء: ١١٠][(٢)].

وقال تعالى في سورة الفرقان: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسۡجُدُواْ لِلرَّحۡمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ [الفُرقان: ٦٠].

فهؤلاء هم سلف الجهمية والأشاعرة في إنكار أسماء الله وصفاته، وبئس السلف لبئس الخلف، ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمۡ لَكُمۡ عَدُوُّۢۚ بِئۡسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلٗا ۝٥٠﴾ [الكهف: ٥٠].

أما الرسل وأتباعهم ـ خصوصاً خاتمهم محمد ﷺ وصحابته الكرام والذين اتبعوهم بإحسان ـ فهم يصفون الله بما وصف به نفسه، وينفون عنه ما نفاه عن نفسه، وينكرون على من يخالف هذا المنهج.

فقد روى عبد الرزاق، عن معمر، عن ابن طاوس، عن أبيه، عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنه رأى رجلاً انتفض لما سمع حديثاً عن النبي ﷺ في الصفات؛ استنكاراً لذلك، فقال: «ما فَرَّقَ هؤلاء؟ يجدون رقة عند محكمه ويهلكون عند متشابهه»[(٣)].

---

(١) انظر: تفسير ابن جرير.
(٢) انظر: تفسير ابن جرير.
(٣) انظر: جامع معمر بن راشد (٢٠٨٩٥)، والسُّنَّة لابن أبي عاصم (٤٨٥).

يشير رضي الله عنه إلى أناس يحضرون مجلسه من عامة الناس بأنهم إذا سمعوا شيئاً من نصوص الصفات ـ وهي من المحكم ـ حصل معهم فرق (أي: خوف) وانتفضوا كالمنكرين لها؛ فهم كالذين قال الله فيهم: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾ [آل عِمرَان: ٧]؛ فيدعون المحكم ويتبعون المتشابه، ويؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض.

ونصوص الصفات من المحكم لا من المتشابه، يقرؤها المسلمون ويتدارسونها، ويفهمون معناها، ولا ينكرون منها شيئاً.

قال وكيع: «أدركنا الأعمش وسفيان يحدثون بهذه الأحاديث (يعني: أحاديث الصفات) ولا ينكرونها»[(١)]. انتهى.

وإنما ينكرها المبتدعة من الجهمية والمعتزلة والأشاعرة الذين ساروا على منهج مشركي قريش الذين يكفرون بالرحمٰن، ويلحدون في أسماء الله.

وقد قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾ [الأعرَاف: ١٨٠].

فأثبت لنفسه الأسماء الحسنى، وأمر أن يدعى بها، وكيف يدعى بما لم يُسَمَّ به ولا يفهم معناه على زعم هؤلاء؟ وتوعد هؤلاء الذين يلحدون في أسمائه فينفونها عنه أو يؤولونها عن معانيها الصحيحة بأنه سيجزيهم على عملهم بالعقاب والعذاب.

(١) كتاب العرش للذهبي (١٧٣).

كما وصفهم بالكفر في قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾ [الرّعد: ٣٠]؛ فلهذا كفّر الجهمية كثير من أهل السُّنَّة.

قال ابن القيم رحمه الله تعالى:

ولقد تقلد كفرهم خمسون في … عشر من العلماء في البلدان

واللالكائي الإمام حكاه عنـ … ـهم بل قد حكاه قبله الطبراني

وجوب احترام أسماء الله سبحانه وتعالى:

قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾ [الأعراف: ١٨٠].

وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾﴾ [طه: ٨].

يخبر تعالى أن أسماءه حسنى؛ أي: حسان قد بلغت الغاية في الحسن، فلا أحسن منها؛ لما تدل عليه من صفات الكمال ونعوت الجلال؛ فهي أحسن الأسماء وأكملها.

وأسماؤه سبحانه توقيفية؛ فلا يجوز لنا أن نسميه إلا بما سمى به نفسه أو سماه به رسوله ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ﴾ [الأعراف: ١٨٠]؛ أي: اسألوه وتوسلوا إليه بها؛ كما تقول: اللَّهُمَّ اغفر لي وارحمني؛ إنك أنت الغفور الرحيم.

وأسماؤه سبحانه كثيرة لا تحصر ولا تحد بعدد، منها ما استأثر الله بعلمه فلا يعلمه ملك مقرب ولا نبي مرسل؛ كما في

الحديث الصحيح: «**أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَداً مِنْ خَلْقِكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ**»[(١)].

قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: (فجعل أسماءه ثلاثة أقسام: قسم سمى به نفسه، فأظهره لمن شاء من ملائكته أو غيرهم ولم ينزل به كتابه، وقسم أنزل به كتابه فتعرف به إلى عباده، وقسم استأثر به في علم غيبه فلم يطلع عليه أحداً من خلقه)[(٢)].

وقوله تعالى: ﴿وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ﴾ [الأعراف: ١٨٠]؛ أي: أعرضوا عنهم واتركوهم؛ فإن الله سيتولى جزاءهم، ولهذا قال: ﴿سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾ [الأعراف: ١٨٠]، ومعنى: ﴿يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ﴾؛ أي: يميلون بها وبحقائقها ومعانيها عن الحق الثابت لها.

والإلحاد بأسماء الله أنواع[(٣)]:

أحدها: أن يسمى بها الأصنام؛ كتسميتهم (اللات) من الإلٰه، و(العزى) من العزيز، وتسميتهم الصنم إلٰهاً.

الثاني: تسميته بما لا يليق بجلاله؛ كتسمية النصارى له: أباً، وتسمية الفلاسفة له: موجباً بذاته، أو علة فاعلة بالطبع.

---

(١) مسند الإمام أحمد (٣٧١٢)، والحاكم (١/ ٦٩٠)، وابن حبان (٩٧٢)، وابن أبي شيبة (٢٩٣١٨).

(٢) انظر: بدائع الفوائد (٢/ ٢٧٩).

(٣) انظر: المرجع السابق (٢/ ٢٨٥).

الثالث: وصفه بما يتعالى عنه ويتقدس من النقائص؛ كقول أخبث اليهود: إنه فقير، وقولهم: إنه استراح بعد أن خلق خلقه، وقولهم: يد الله مغلولة.

والرابع: تعطيل أسماء الله الحسنى عن معانيها وجحد حقائقها؛ كقول الجهمية وأتباعهم: إنها ألفاظ مجردة لا تتضمن صفات ولا معاني، فيطلقون عليه اسم السميع البصير... ويقولون: لا سمع له ولا بصر مثلاً... وهذا من أعظم الإلحاد فيها عقلاً وشرعاً، ولغةً وفطرةً، وهو يقابل إلحاد المشركين؛ فإن المشركين أعطوا من أسمائه وصفاته لآلهتهم، وهؤلاء سلبوا كماله وعطلوا أسماءه وصفاته.

والواجب إثبات أسمائه وصفاته، واعتقاد ما تدل عليه من صفات كماله ونعوت جلاله من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل، على حد قوله سبحانه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشّورىٰ: ١١].

والواجب احترام أسمائه من أن يسمى بها غيره، وذلك من تحقيق التوحيد.

فعن أبي شريح رضي الله عنه: أنه كان يُكنى أبا الحكم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «**إِنَّ اللهَ هُوَ الْحَكَمُ وَإِلَيْهِ الْحُكْمُ، فَلِمَ تُكْنَى أَبَا الْحَكَمِ؟**»، فقال: إن قومي إذا اختلفوا في شيء أتوني، فحكمت بينهم، فرضي كلا الفريقين، فقال: «**مَا أَحْسَنَ هَذَا، فَمَا لَكَ مِنَ الْوَلَدِ؟**»، قلت: شريح ومسلم وعبد الله، قال: «**فَمَنْ أَكْبَرُهُمْ؟**»، قلت: شريح، قال:

«**فَأَنْتَ أَبُو شُرَيْحٍ**»[(١)] رواه أبو داود وغيره.

فغيّر النبي ﷺ كنيته من أجل احترام أسماء الله؛ لأن الله هو الحكم على الإطلاق، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَحۡكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكۡمِهِۦۚ﴾ [الرّعد: ٤١]، وهو الحكم في الدنيا والآخرة، يحكم في الدنيا بين خلقه بوحيه الذي أنزله على أنبيائه، ويحكم بينهم يوم القيامة بعلمه فيما اختلفوا فيه، وينصف المظلوم من الظالم.

وفي هذا الحديث دليل على المنع من التسمي بأسماء الله تعالى المختصة به، والمنع مما يوهم عدم الاحترام لها؛ كالتكني بأبي الحكم ونحوه.

ومن احترام أسماء الله: أن لا يقول الإنسان لمملوكه: عبدي وأمتي؛ لما في ذلك من إيهام المشاركة في الربوبية، وفي «الصحيحين» عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «**لَا يَقُلْ أَحَدُكُمُ: اسْقِ رَبَّكَ، أَطْعِمْ رَبَّكَ، وَضِّئْ رَبَّكَ، وَلَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ: رَبِّي، وَلْيَقُلْ: سَيِّدِي، مَوْلَايِ، وَلَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ: عَبْدِي، أَمَتِي، وَلْيَقُلْ: فَتَايَ، فَتَاتِي، غُلَامِي**»[(٢)].

نهى رسول الله ﷺ عن هذه الألفاظ: (ربك، عبدي، أمتي)؛ لأنها توهم التشريك مع الله، وسدًّا للذريعة، وحسماً لمادة الشرك، وأرشد المالك أن يقول: فتاي وفتاتي، والعبد أن يقول: سيدي ومولاي.

(١) سنن أبي داود (٤٩٥٧)، والنسائي (٥٣٨٧).
(٢) البخاري (٢٥٥٢)، ومسلم (٢٢٤٩).

ومن احترام أسماء الله سبحانه: أن لا يرد من سأل بالله، عن ابن عمر ﵄ قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنِ اسْتَعَاذَ بِاللهِ فَأَعِيذُوهُ وَمَنْ سَأَلَ بِاللهِ فَأَعْطُوهُ**»(١)، ولأن منع من سأل بالله يدل على عدم إجلال الله، وفي إعطائه دليل على تعظيم الله والتقرب إليه سبحانه.

ومن احترام أسماء الله تعالى: أنه لا يسأل بوجه الله تعالى إلا الجنة؛ إجلالاً له، وإكراماً له، وتعظيماً له، عن جابر ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لَا يُسْأَلُ بِوَجْهِ اللهِ إِلَّا الْجَنَّةُ**»(٢) رواه أبو داود.

فلا يسأل بوجه الله تعالى ما هو حقير من حوائج الدنيا، وإنما يسأل به ما هو غاية المطالب وهو الجنة، أو ما هو وسيلة إلى الجنة مما يقرب إليها من قول أو عمل.

ومن احترام أسماء الله: أن لا يكثر الحلف بها، قال الله تعالى: ﴿وَٱحۡفَظُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡۚ﴾ [المَائدة: ٨٩]؛ قال ابن عباس: يريد: لا تحلفوا؛ لأن كثرة الحلف تدل على الاستخفاف بالله وعدم التعظيم له، وذلك مما ينافي كمال التوحيد الواجب.

وعن سلمان ﵁: أن رسول الله ﷺ قال: «**ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا يُزَكِّيهِمْ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ: أُشَيْمِطٌ زَانٍ، وَعَائِلٌ مُسْتَكْبِرٌ، وَرَجُلٌ جَعَلَ اللهَ لَهُ بِضَاعَةً فَلَا يَبِيعُ إِلَّا بِيَمِينِهِ وَلَا يَشْتَرِي إِلَّا بِيَمِينِهِ**»(٣).

---

(١) أخرجه أبو داود (١٦٧٤).
(٢) في سننه (١٦٧١).
(٣) رواه الطبراني بسند صحيح المعجم الكبير (٨٢١)، وقال الهيثمي: ... ورجاله رجال الصحيح.

ومعنى «**جَعَلَ اللهَ لَهُ بِضَاعَةً**»؛ أي: جعل الحلف بالله بضاعته؛ ففيه شدة الوعيد على كثرة الحلف؛ لأن ذلك يدل على الاستخفاف بحق الله تعالى وعدم احترام أسمائه.

ومن إجلال الله وتعظيمه: أنه لا يستشفع به على خلقه؛ لما في ذلك من تنقصه سبحانه؛ لأن الشافع يكون أقل درجة من المشفوع عنده.

قال الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللهُ: إنما يشفع عند من هو أعلى منه، تعالى الله عن ذلك.

وعن جبير بن مطعم قال: أَتَى رَسُولَ اللهِ ﷺ أَعْرَابِيٌّ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، جُهِدَتِ الأَنْفُسُ وَضَاعَتِ الْعِيَالُ وَنُهِكَتِ الأَمْوَالُ وَهَلَكَتِ الأَنْعَامُ، فَاسْتَسْقِ اللهَ لَنَا؛ فَإِنَّا نَسْتَشْفِعُ بِكَ عَلَى اللهِ، وَنَسْتَشْفِعُ بِاللهِ عَلَيْكَ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**وَيْحَكَ أَتَدْرِى مَا تَقُولُ؟!**» وَسَبَّحَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَمَا زَالَ يُسَبِّحُ حَتَّى عُرِفَ ذَلِكَ فِي وُجُوهِ أَصْحَابِهِ، ثُمَّ قَالَ: «**وَيْحَكَ إِنَّهُ لَا يُسْتَشْفَعُ بِاللهِ عَلَى أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ، شَأْنُ اللهِ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ وَيْحَكَ أَتَدْرِى مَا اللهُ؟!...**»[١] الحديث، فشأن الله عظيم، وهو الذي يشفع عنده بإذنه سبحانه.

❁ ❁ ❁

(١) رواه أبو داود في سننه (٤٧٢٨).

منهج أهل السُّنَّة والجماعة في أسماء الله وصفاته

منهج السلف الصالح أهل السُّنَّة والجماعة الذين هم الفرقة الناجية في أسماء الله وصفاته: إثباتها كما جاءت في الكتاب والسُّنَّة مع اعتقاد ما دلت عليه وأنها على ظاهرها.

ولا يلزم من إثباتها تشبيه الله بخلقه تعالى الله عن ذلك؛ لأن صفات الخالق تخصه وتليق به، وصفات المخلوقين تليق بهم وتخصهم، ولا تشابه بين الصفتين، كما أنه لا تشابه بين ذات الخالق سبحانه وذات المخلوق.

ومذهب أهل السُّنَّة والجماعة في ذلك ينبني على أسس سليمة وقواعد مستقيمة، وهذه الأسس هي:

أولاً: أن أسماء الله وصفاته توقيفية؛ بمعنى: أنهم لا يثبتون لله إلا ما أثبته لنفسه في كتابه، أو أثبته له رسوله في سُنَّته من الأسماء والصفات، ولا يثبتون شيئاً بمقتضى عقولهم وتفكيرهم، ولا ينفون عن الله إلا ما نفاه عن نفسه في كتابه، أو نفاه عنه رسوله في سُنَّته، لا ينفون عنه بموجب عقولهم وأفكارهم؛ فهم لا يتجاوزون الكتاب والسُّنَّة في إثبات ولا نفي، وما لم يصرح الكتاب والسُّنَّة بنفيه ولا إثباته ـ كالعرض والجسم والجوهر ـ فهم يتوقفون فيه بناءً على هذا الأصل العظيم.

ثانياً: أن ما وصف الله به نفسه أو وصفه به رسوله ﷺ فهو حق على ظاهره، ليس فيه أحاجٍ ولا ألغاز، بل معناه يعرف من حيث يعرف مقصود المتكلم بكلامه.

فأهل السُّنَّة يثبتون ألفاظ الصفات ومعانيها، فليس ما وصف الله به نفسه، أو وصفه به رسوله ﷺ من المتشابه الذي يفوض معناه؛ لأن اعتبار نصوص الصفات مما لا يفهم معناه يجعلها من الكلام الأعجمي الذي لا يفهم، والله تعالى قد أمرنا بتدبر القرآن كله، وحضنا على تعقله وتفهمه، وإذا كانت نصوص الصفات مما لا يفهم معناه، فيكون الله قد أمرنا بتدبر وتفهم ما لا يمكن تدبره وتفهمه، وأمرنا باعتقاد ما لم يوضحه لنا؟! تعالى الله عن ذلك.

إذاً: فمعاني صفات الله تعالى معلومة يجب اعتقادها، وأما كيفيتها فهي مجهولة لنا لا يعلمها إلا الله تعالى.

ولهذا قال الإمام مالك بن أنس رضي الله عنه لما سئل عن قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥]: كيف استوى؟ قال: «الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة»(١).

وما قال الإمام مالك في الاستواء هو قاعدة في جميع الصفات، وهو قول أهل السُّنَّة والجماعة قاطبة؛ فمن نسب إلى السلف أنهم يفوضون معاني الأسماء والصفات ويجعلون نصوصها من المتشابه الذي استأثر الله بعلم معناه فقد كذب عليهم؛ لأن كلامهم يخالف ما يقوله هذا المفتري.

---

(١) انظر: الأسماء والصفات للبيهقي برقم (٨٦٦) وما بعده، وشرح أصول الاعتقاد للالكائي (٣/ ٤٤١)، وإثبات صفات العلو لابن قدامة برقم (٨٨).

ثالثاً: السلف يثبتون الصفات إثباتاً بلا تمثيل؛ فلا يمثلونها بصفات المخلوقين؛ لأن الله ليس كمثله شيء ولا كفء له، ولا ند له، ولا سمي له، ولأن تمثيل الصفات وتشبيهها بصفات المخلوقين ادعاء لمعرفة كيفيتها، وكيفيتها مجهولة لنا، مثل كيفية الذات؛ لأن العلم بكيفية الصفة يستلزم العلم بكيفية الموصوف، والله تعالى لا يعلم كيفية ذاته إلا هو، والكلام في الصفات فرع عن الكلام في الذات؛ فكما أن لله ذاتاً لا تشبه الذوات فكذلك له صفات لا تشبه الصفات: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى: ١١]؛ أي: لا يشبهه أحد لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله.

فيجب الإيمان بما وصف الله به نفسه؛ لأنه لا أحد أعلم من الله بالله، ﴿ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ﴾ [البقرة: ١٤٠]؛ فهو أعلم بنفسه وبغيره.

كما يجب الإيمان بما وصفه به رسوله ﷺ؛ لأنه لا أحد بعد الله أعلم بالله من رسول الله ﷺ الذي قال الله في حقه: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾ [النجم: ٣ ـ ٤]؛ فيلزم كل مكلف أن يؤمن بما وصف الله به نفسه، أو وصفه به رسوله ﷺ، وينزه ربه جلَّ وعلا من أن تشبه صفته صفة الخلق.

فمن تقدم بين يدي الله ورسوله ﷺ، وتجرأ على الله، فنفى عنه ما أثبته لنفسه من الصفات العظيمة وما وصفه به رسوله ﷺ، وقال: هذا الذي وصفت به نفسك ووصفك به رسولك لا يليق بك، وفيه من النقص كذا وكذا، فأنا أُؤَوِّله وألغيه وآتي ببدله من تلقاء نفسي؛ كما قال بعضهم:

وكُلُّ نص أوْهَم التشبيها أوِّله أو فَوِّض ورُم تَنْزيها

ويقول: أنا لا أرجع إلى كتابك ولا إلى سُنَّة نبيك في ذلك؛ لأن فيهما ما يوهم التشبيه، وإنما أرجع إلى قواعد المتكلمين وأقاويل الجهمية والمعتزلة والأشاعرة والماتريدية!! فهل يكون ـ يا عباد الله ـ هذا مؤمناً بالله وبكتابه وسُنَّة رسوله؟! وهل يكون معظماً لربه؟! سبحانك هذا بهتان عظيم!.

رابعاً: وكما أن أهل السُّنَّة والجماعة يثبتون لله الصفات التي وصف بها نفسه أو وصفه بها رسوله على وجه يليق بجلاله ولا يشبهونه بخلقه فهم ينزهونه عن النقائص والعيوب تنزيهاً لا يفضي بهم إلى التعطيل بتأويل معانيها أو تحريف ألفاظها عن مدلولها بحجة التنزيه؛ فمذهبهم في ذلك وسط بين طرفي التشبيه والتعطيل؛ تجنبوا التعطيل في مقام التنزيه، وتجنبوا التشبيه في مقام الإثبات.

خامساً: وطريقة أهل السُّنَّة والجماعة فيما يثبتون لله من الصفات وما ينفون عنه من النقص هي طريقة الكتاب والسُّنَّة، وهي الإجمال في النفي، والتفصيل في الإثبات؛ كما في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ١١﴾ [الشورى: ١١].

فأجمل في النفي، وهو قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ﴾ وفصّل في الإثبات، وهو قوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ١١﴾.

وكل نفي في صفات الله فإنه يتضمن إثبات الكمال، وليس هو نفياً محضاً؛ لأن النفي المحض ليس فيه مدح؛ لأنه عدم محض، والعدم ليس بشيء.

ومن أمثلة النفي المتضمن لإثبات الكمال قوله تعالى: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ۝٤٩﴾ [الكهف: ٤٩]؛ أي: لكمال عدله سبحانه، وقوله: ﴿وَلَا يَئُودُهُۥ حِفْظُهُمَا﴾ [البَقَرَة: ٢٥٥]؛ أي: لكمال قدرته وقوته، وقوله: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البَقَرَة: ٢٥٥]؛ أي: لكمال حياته وقيوميَّته.

وهكذا كل نفي عن الله فإنه يتضمنُ إثبات ضدَّ المنفيِّ من الكمال والجلال.

هذا ونسأل الله البصيرة في دينه، والعمل بطاعته، ومعرفة الحق، والعمل به.

منهج الجهمية وتلاميذهم في أسماء الله وصفاته:

يجب على المسلم إثبات أسماء الله وصفاته على الوجه اللائق بجلال الله وعظمته على وفق ما جاء في الكتاب والسُّنَّة؛ لأن هذا يدخل في باب الإيمان بالله ﷻ، وهو مذهب أهل السُّنَّة والجماعة، متخذين كتاب الله وسُنَّة رسوله الدليل والمرجع في ذلك، عكس ما عليه الجهمية وتلاميذهم من المعتزلة والأشاعرة، الذين ينفون ما أثبته الله لنفسه من الأسماء والصفات، أو ينفون بعضاً منها ويثبتون البعض الآخر تحكماً منهم، ويجعلون مرجعهم في ذلك ما قررته عقولهم القاصرة أو قرره لهم أئمة الضلال، وفرق بين من جعل دليله الكتاب والسُّنَّة، ومن جعل دليله نحاتة الأفكار وزبالة الأذهان؛ كما يقوله واحد منهم:

وكُلُّ نص أوْهَم التشبيها ... أوِّله أو فَوِّض ورُم تَنْزيها

هذه طريقتهم مع نصوص الكتاب والسُّنَّة في باب أسماء الله وصفاته؛ **التأويل**: وهو صرف هذه النصوص عما دلت عليه من

المعاني الجليلة إلى ما تقرره عقولهم من الأفكار العقيمة، والآراء الباطلة، وما عجزت عنه عقولهم رفضوه واعتقدوا خلاف ما يدل عليه. سبحانك ربي ما أعظم شأنك! وما أحلمك على عبادك! إنهم نفوا عنك ما أَثْبَتَّه لنفسك من صفات الكمال ونعوت الجلال، وخالفوا كتابك، وقدموا ما أملته عليهم عقولهم على ما أنزلته في كتابك، نفوا عنك أسماءك وصفاتك، ونفوا عن كتابك حجيته وهدايته.

قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ **في هؤلاء**: (وَمَنْ ظَنّ بِهِ أَنّهُ أَخْبَرَ عَنْ نَفْسِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ بِمَا ظَاهِرُهُ بَاطِلٌ وَتَشْبِيهٌ وَتَمْثِيلٌ، وَتَرَك الْحَقَّ لَمْ يُخْبِرْ بِهِ؛ وَإِنّمَا رَمَزَ إلَيْهِ رُمُوزاً بَعِيدَةً وَأَشَارَ إلَيْهِ إشَارَاتٍ مُلْغِزَةً ولَمْ يُصَرّحْ بِهِ وَصَرّحَ دَائِماً بِالتّشْبِيهِ وَالتّمْثِيلِ الْبَاطِلِ، وَأَرَادَ مِنْ خَلْقِهِ أن يُتْعِبُوا أَذْهَانَهُمْ وَقُوَاهُمْ وَأَفْكَارَهُمْ فِي تَحْرِيفِ كَلَامِهِ عَنْ مَوَاضِعِهِ، وَتَأْوِيلِهِ عَلَى غَيْرِ تَأْوِيلِهِ، وَيَتَطَلّبُوا لَهُ وُجُوهَ الِاحْتِمَالَاتِ الْمُسْتَكْرَهَةِ، وَالتّأْوِيلَاتِ الّتِي هِيَ بِالْأَلْغَازِ وَالْأَحَاجِي أَشْبَهُ مِنْهَا بِالْكَشْفِ وَالْبَيَانِ، وَأَحَالَهُمْ فِي مَعْرِفَةِ أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ عَلَى عُقُولِهِمْ وَآرَائِهِمْ لَا عَلَى كِتَابِهِ؛ بَلْ أَرَادَ مِنْهُمْ أَنْ لَا يَحْمِلُوا كَلَامَهُ عَلَى مَا يَعْرِفُونَ مِنْ خِطَابِهِمْ وَلُغَتِهِمْ مَعَ قُدْرَتِهِ عَلَى أَنْ يُصَرّحَ لَهُمْ بِالْحَقّ الّذِي يَنْبَغِي التّصْرِيحُ بِهِ، وَيُرِيحَهُمْ مِنَ الْأَلْفَاظِ الّتِي تُوقِعُهُمْ فِي اعْتِقَادِ الْبَاطِلِ، فَلَمْ يَفْعَلْ بَلْ سَلَكَ بِهِمْ خِلَافَ طَرِيقِ الْهُدَى وَالْبَيَانِ ـ فَقَدْ ظَنّ بِهِ ظَنّ السّوْءِ.

فَإِنّهُ إنْ قَالَ: إنّهُ غَيْرُ قَادِرٍ عَلَى التّعْبِيرِ عَنِ الْحَقّ بِاللّفْظِ الصّرِيحِ الّذِي عَبّرَ بِهِ هُوَ وَسَلَفُهُ فَقَدْ ظَنّ بِقُدْرَتِهِ الْعَجْزَ. وَإِنْ قَالَ: إنّهُ قَادِرٌ وَلَمْ يُبَيّنْ وَعَدَلَ عَنِ الْبَيَانِ وَعَنِ التّصْرِيحِ بِالْحَقّ إلَى مَا يُوهِمُ؛ بَلْ يُوقِعُ فِي

الْبَاطِلِ الْمُحَالِ وَالِاعْتِقَادِ الْفَاسِدِ فَقَدْ ظَنَّ بِحِكْمَتِهِ وَرَحْمَتِهِ ظَنَّ السَّوْءِ، وَظَنّ أَنَّهُ هُوَ وَسَلَفَهُ عَبّرُوا عَنِ الْحَقّ بِصَرِيحِهِ دُونَ اللهِ وَرَسُولِهِ ﷺ، وَأَنّ الْهُدَى وَالْحَقّ فِي كَلَامِهِمْ وَعِبَارَاتِهِمْ، وَأَمّا كَلَامُ اللهِ فَإِنّمَا يُؤْخَذُ مِنْ ظَاهِرِهِ التّشْبِيهُ وَالتّمْثِيلُ وَالضّلَالُ وَظَاهِرُ كَلَام الْمُتَهَوّكِينَ الحيارى هو الهدى والحق!! وهذا من أسوأ الظن بالله)[1].

إلى أن قال: (وَمَنْ ظَنّ أَنّهُ لَا سَمْعَ لَهُ وَلَا بَصَرَ وَلَا عِلْمَ لَهُ وَلَا إرَادَةَ وَلَا كَلَامَ يَقُولُ بِهِ، وَأَنّهُ لَمْ يُكَلّمْ أَحداً مِنَ الْخَلْقِ وَلَا يَتَكَلّمُ أَبَداً، وَلَا قَالَ وَلَا يَقُولُ وَلَا لَهُ أَمْرٌ وَلَا نَهْيٌ يَقُومُ بِهِ فَقَدْ ظَنّ بِهِ ظَنّ السّوْءِ.

وَمَنْ ظَنّ بِهِ أَنّهُ ليس فَوْقَ سَمَاوَاتِهِ عَلَى عَرْشِهِ بَائِناً مِنْ خَلْقِهِ وَأَنّ نِسْبَةَ ذَاتِهِ تَعَالَى إلَى عَرْشِهِ كَنِسْبَتِهَا إلَى أَسْفَلِ السّافِلِينَ وَإِلَى الْأَمْكِنَةِ الّتِي يُرْغَبُ عَنْ ذِكْرِهَا، وَأَنّهُ أَسْفَلُ كَمَا أَنّهُ أَعْلَى فَقَدْ ظَنّ بِهِ أَقْبَحَ الظّنّ وَأَسْوَأَهُ)[2]. انتهى كلامه رَحِمَهُ اللهُ.

وهو يعني به: أولئك الذين نفوا ما أثبته الله لنفسه من صفات الكمال من الجهمية والمعتزلة والأشاعرة، ومعلوم أن من نفى عن الله صفات الكمال فقد أثبت له أضدادها من صفات النقص، تعالى الله عما يقول الظالمون علوًّا كبيراً.

ثم يلزم من هذا أن يكون هؤلاء الضلال أعلم بالله وما يستحقه من الله؛ لأنهم نفوا عنه ما أثبته لنفسه، وزعموا أنه لا يليق به، وأي ضلال أعظم من هذا؟! وأي جرأة على الله أعظم من هذه الجرأة؟!.

(١) انظر: زاد المعاد (٣/ ٢٣١).
(٢) المرجع السابق.

ويلزم من ذلك أيضاً أن يكونوا أعلم بالله من رسول الله ﷺ؛ لأن رسول الله ﷺ أثبت لله هذه الصفات، وهم نفوها وقالوا: إنها لا تليق بالله، وأي ضلال أعظم من هذا الضلال لو كانوا يعقلون؟!

كيف يكون هؤلاء الجهال الضُّلال أعلم بالله من نفسه؟ تعالى الله عما يقولون؛ والله تعالى يقول: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾﴾ [طه: ١١٠]، ولا أحد من الخلق أعلم بالله وما يستحقه وما يليق به من رسول الله ﷺ.

إن الذي حمل الجهمية وأتباعهم على نفي صفات الله ﷻ هو جهلهم بالله وسوء أفهامهم؛ حيث ظنوا أنه يلزم من إثبات هذه الصفات التي أثبتها الله لنفسه وأثبتها له رسوله يلزم منها التشبيه؛ لأنهم يرون هذه الصفات في المخلوقين، ولا يفرقون بين صفات الخالق وصفات المخلوق، ولم يفهموا من صفات الخالق إلا ما فهموا من صفات المخلوقين، ولم يعلموا أن صفات الخالق سبحانه تخصه وتليق به، وصفات المخلوقين تخصهم وتليق بهم، ولا تشابه بين صفات الخالق وصفات المخلوق؛ كما أنه لا تشابه بين ذات الخالق وذوات المخلوقين؛ كما قال الله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى: ١١] فأثبت لنفسه السمع والبصر، ونفى عنه مشابهة الأشياء، فدل ذلك على أن إثبات الصفات لا يلزم منه المشابهة بين الخالق والمخلوق.

وهذا هو الأصل الذي سار عليه أهل السُّنَّة والجماعة في إثبات أسماء الله وصفاته؛ وأثبتوا ما أثبته لنفسه بلا تمثيل، ونزهوه عما نزه نفسه عنه بلا تعطيل.

أما الجهمية وتلاميذهم من المعتزلة والأشاعرة فإنهم بنوا مذهبهم على أصل باطل أصّلوه من عند أنفسهم، وهو أن إثبات هذه الصفات يقتضي التشبيه، فيلزم حيال النصوص الواردة بذلك أحد أمرين عندهم: إما تأويلها عن ظاهرها، وأما تفويضها مع اعتقاد أن ظاهرها غير مراد، ولهذا يقول ناظم عقيدتهم:

وكُلُّ نص أوْهَم التشبيها أوِّله أو فَوِّض ورُم تَنْزيها

سبحانك ربي عما يقول الظالمون والجاحدون علوًّا كبيراً.

وقد أجرى الله الحق على لسان هذا الناظم حيث قال: «وكُلُّ نص أوْهَم التشبيها»؛ فبيَّن أن مذهبهم مبني على الوهم لا على الحقيقة؛ لأنهم توهموا أن هذه النصوص تقتضي التشبيه، فراحوا يؤولونها، وهل الوهم ـ يا عباد الله ـ تُعارض به النصوص وتبنى عليه عقيدة؟! إن الوهم أقل درجة من الظن، والله تعالى يقول في الظن: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾﴾ [النّجْم: ٢٨]، والنبي ﷺ يقول: «**الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ**»(١).

الرد على المنحرفين عن منهج السلف في أسماء الله وصفاته من المشبهة والمعطلة:

المنحرفون عن منهج السلف في أسماء الله وصفاته طائفتان: المشبهة، والمعطلة.

١ ـ **فأما المشبهة**: فشبهوا الله بخلقه، وجعلوا صفاته من جنس صفات المخلوقين، ولذلك سموا بالمشبهة.

(١) أخرجه البخاري (٥١٤٣).

وأول من قال هذه المقالة هو هشام بن الحكم الرافضي، وبيان بن سمعان التميمي الذي تنسب إليه البيانية من غالية الشيعة.

فالمشبهة غلوا في إثبات الصفات حتى أدخلوا في ذلك ما نفاه الله ورسوله مما لا يليق به سبحانه من صفات النقص؛ تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيراً، ومن هؤلاء هشام بن سالم الجواليقي وداود الجواربي.

وقد نفى الله في كتابه مشابهته لخلقه ونهى عن ضرب الأمثال له؛ فقال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١] ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾ [مريم: ٦٥]، وقال: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾ [الإخلاص: ٤]، وقال: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [النحل: ٧٤].

فمن شبَّه صفات الله بصفات خلقه لم يكن عابداً لله في الحقيقة، وإنما يعبد وثناً صوَّرهُ له خياله ونحته له فكره؛ فهو من عباد الأوثان، لا من عباد الرحمٰن.

قال العلامة ابن القيم:

لسنا نشبه وصفه بصفاتنا إن المشبه عابد الأوثان
كلا ولا نخليه من أوصافه إن المعطل عابد البهتان

ومن شبَّه صفات الله بصفات خلقه فهو مشابه للنصارى الذين يعبدون المسيح ابن مريم عليه السلام.

يقول العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى:

من مثَّل اللَّه العظيم بخلقه فهو النسيب لمشرك نصراني
أو عطل الرحمٰن من أوصافه فهو الكفور وليس ذا إيمان

وقال نعيم بن حماد شيخ البخاري رحمهما الله: «من شبه الله بخلقه فقد كفر، ومن نفى ما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله فقد كفر، وليس فيما وصف الله به نفسه أو وصفه به رسوله تشبيه»[(١)].

٢ ـ وأما المعطلة: فهم الذين نفوا عن الله ما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله من صفات الكمال، زاعمين أن إثباتها يقتضي التشبيه والتجسيم، فهم على طرفي نقيض مع المشبهة.

ومذهب التعطيل مأخوذ من تلامذة اليهود والمشركين وضلال الصابئين، وأول من حفظ عنه مقالة التعطيل في الإسلام هو الجعد بن درهم في أوائل المائة الثانية، أخذ هذا المذهب الخبيث عنه الجهم بن صفوان وأظهره، وإليه نسبت الجهمية، ثم انتقل أصل هذا المذهب إلى المعتزلة والأشاعرة، فهذه أسانيد مذهبهم ترجع إلى اليهود والصابئين والمشركين والفلاسفة، وهم في هذا التعطيل متفاوتون:

فالجهمية: ينفون الأسماء والصفات.

والمعتزلة: يثبتون الأسماء مجردة عن معانيها وينفون الصفات.

والأشاعرة: يثبتون الأسماء وسبع صفات فقط هي: العلم والحياة والقدرة والإرادة والسمع والبصر والكلام، وينفون بقية الصفات.

---

(١) العلو للذهبي (١٢٦)، مجموع الفتاوى (٥/ ١٩٦).

وشُبهَةُ الجميع فيما نفوه من الصفات أن إثباتها يقتضي التشبيه والتجسيم بزعمهم؛ لأنه لا يشاهد موصوف بها إلا هذه الأجسام، والله ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾ [الشّورىٰ: ١١].

فتعين نفي الصفات وتعطيلها تنزيهاً لله عن التشبيه بزعمهم، ولهذا يسمون من أثبتها مشبهاً.

ووقفوا من النصوص الدالة على إثباتها موقفين:

الموقف الأول: الإيمان بألفاظها وتفويض معانيها؛ بأن يسكتوا عن تفسيرها ويفوضوه إلى الله مع نفي دلالتها على شيء من الصفات، وسموا هذه الطريقة: طريقة السلف، وقالوا: هي الأسلم.

الموقف الثاني: صرف هذه النصوص عن مدلولها إلى معان ابتدعوها، وهذا ما يسمونه بطريقة التأويل، وسموها: طريقة الخلف، وقالوا: هي الأعلم والأحكم.

والرد على شبهتهم: أن نقول: لا ريب أن التمثيل قد نطق القرآن الكريم بنفيه عن الله تعالى؛ كقوله تعالى: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ١١﴾ [الشّورىٰ: ١١]، وقوله: ﴿هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا ٦٥﴾ [مَريَم: ٦٥]، وقوله: ﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ ٤﴾ [الإخلاص: ٤]، وقوله: ﴿فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا﴾ [البَقَرَة: ٢٢]، وقوله: ﴿فَلَا تَضۡرِبُواْ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡثَالَۚ﴾ [النّحل: ٧٤]، لكن مع نفيه سبحانه عن نفسه مشابهة المخلوقين أثبت لنفسه صفات الكمال؛ كما في قوله تعالى: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ١١﴾ [الشّورىٰ: ١١].

فجمع في هذه الآية الكريمة بين نفي التشبيه عنه، وأثبت لنفسه صفتي السمع والبصر، فدل على أن إثبات الصفات لا يقتضي التشبيه؛ إذ لا تلازم بينهما، وهكذا في كثير من آيات القرآن الكريم نجد إثبات الصفات مع نفي التشبيه مقترنان، وهذا هو مذهب السلف الصالح؛ يثبتون الصفات، وينفون عنه التشبيه والتمثيل.

ومن زعم أن إثبات الصفات لا يليق بالله لأنه يقتضي التشبيه فإنما جره إلى ذلك سوء فهمه؛ حيث فهم أن إثبات الصفات يلزم منه التشبيه، فأداه هذا الفهم الخاطئ إلى نفي ما أثبته الله ﷻ لنفسه، فكان هذا الجاهل مشبهاً أولاً ومعطلاً ثانياً وارتكب ما لا يليق بالله ابتداءً وانتهاءً، ولو كان قلبه طاهراً من أقذار التشبيه لكان المتبادر عنده والسابق إلى فهمه أن صفات الله ﷻ بالغة من الكمال والجلال ما يقطع أوهام علائق التشبيه والمشابهة بين صفات الخالق وصفات المخلوقين، فيكون قلبه مستعدًّا للإيمان بصفات الله على وجه يليق به، مع تنزيه الله عن مشابهة المخلوقين، أما من توهم أن صفات الله تشبه صفات المخلوقين فإنه لم يعرف الله حق معرفته، ولم يقدره حق قدره، ولهذا وقع فيما وقع فيه من ورطة التعطيل، وصار يسمي من أثبت لله صفات الكمال ونزهه عن صفات النقص على مقتضى الكتاب والسُّنَّة صار يسميه مشبهاً ومجسماً؛ نظراً لما قام بقلبه من توهم أن صفات الله تشبه صفات خلقه، ولم يدرِ أن هذا الوصف أليق به؛ فهو الذي شبه أولاً، ثم عطل ثانياً، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

قال إمام الأئمة ناصر السُّنَّة أبو بكر محمد بن خزيمة رَحِمَهُ اللَّهُ **في** الرد على الجهمية وتلاميذهم ممن زعم أن إثبات الصفات لله عَزَّ وَجَلَّ يقتضي التشبيه، وننقل كلامه مختصراً في هذا الموضوع:

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَزَعَمَتِ الْجَهْمِيَّةُ ـ عَلَيْهِمْ لَعَائِنُ اللهِ ـ أَنَّ أَهْلَ السُّنَّةِ وَمُتَّبِعِي الْآثَارِ الْقَائِلِينَ بِكِتَابِ رَبِّهِمْ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِمْ ﷺ، الْمُثْبِتِينَ للهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ صِفَاتِهِ مَا وَصَفَ اللهُ بِهِ نَفْسَهُ فِي مُحْكَمِ تَنْزِيلِهِ الْمُثْبَتِ بَيْنَ الدَّفَّتَيْنِ، وَعَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ الْمُصْطَفَى ﷺ بِنَقْلِ الْعَدْلِ عَنِ الْعَدْلِ مَوْصُولاً إِلَيْهِ مُشَبِّهَةٌ[1]؛ جَهْلاً مِنْهُمْ بِكِتَابِ رَبِّنَا وَسُنَّةِ نَبِيِّنَا ﷺ، وَقِلَّةِ مَعْرِفَتِهِمْ بِلُغَةِ الْعَرَبِ، الَّذِينَ بِلُغَتِهِمْ خُوطِبْنَا».

إلى أن قال: (نَحْنُ نَقُولُ وَعُلَمَاؤُنَا جَمِيعاً فِي جَمِيعِ الْأَقْطَارِ: إِنَّ لِمَعْبُودِنَا عَزَّ وَجَلَّ وَجْهاً كَمَا أَعْلَمَنَا اللهُ فِي مُحْكَمِ تَنْزِيلِهِ، فَذَوَّاهُ[2] بِالْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ، وَحَكَمَ لَهُ بِالْبَقَاءِ، وَنَفَى عَنْهُ الْهَلَاكَ، وَنَقُولُ: إِنَّ لِوَجْهِ رَبِّنَا عَزَّ وَجَلَّ مِنَ النُّورِ وَالضِّيَاءِ وَالْبَهَاءِ مَا لَوْ كَشَفَ حِجَابَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ كُلَّ شَيْءٍ أَدْرَكَهُ بَصَرُهُ... وَنَقُولُ: إِنَّ لِبَنِي آدَمَ وُجُوهاً كَتَبَ اللهُ عَلَيْهَا الْهَلَاكَ).

إلى أن قال: (وَنَقُولُ: إِنَّ وُجُوهَ بَنِي آدَمَ مُحْدَثَةٌ مَخْلُوقَةٌ، لَمْ تَكُنْ، فَكَوَّنَهَا اللهُ بَعْدَ أَنْ لَمْ تَكُنْ مَخْلُوقَةً، أَوْجَدَهَا بَعْدَ مَا كَانَتْ عَدَماً، وَإِنَّ جَمِيعَ وُجُوهِ بَنِي آدَمَ فَانِيَةٌ غَيْرُ بَاقِيَةٍ، تَصِيرُ جَمِيعاً مَيْتاً، ثُمَّ تَصِيرُ رَمِيماً، ثُمَّ يُنْشِئُهَا اللهُ بَعْدَ مَا قَدْ صَارَتْ رَمِيماً... ثُمَّ تَصِيرُ

---

(١) هذا خبر «أن» التي تقدمت في قوله: أهل السُّنَّة... إلخ.
(٢) أي: قال: ذو الجلال والإكرام.

إِمَّا إِلَى جَنَّةٍ مُنَعَمَّةً فِيهَا، أَوْ إِلَى النَّارِ مُعَذَّبَةً فِيهَا، فَهَلْ يَخْطِرُ ـ يَا ذَوِي الْحِجَا ـ بِبَالِ عَاقِلٍ مُرَكَّبٍ فِيهِ الْعَقْلُ، يَفْهَمُ لُغَةَ الْعَرَبِ، وَيَعْرِفُ خِطَابَهَا، وَيَعْلَمُ التَّشْبِيهَ أَنَّ هَذَا الْوَجْهَ شَبِيهٌ بِذَاكَ؟

وَهَلْ هَاهُنَا ـ أَيُّهَا الْعُقَلَاءُ ـ تَشْبِيهُ وَجْهِ رَبِّنَا جَلَّ ثَنَاؤُهُ الَّذِي هُوَ كَمَا وَصَفْنَا وَبَيَّنَّا صِفَتَهُ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ بِتَشْبِيهِ وُجُوهِ بَنِي آدَمَ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا وَوَصَفْنَاهَا؟»

إلى أن قال: (وَلَوْ كَانَ تَشْبِيهاً مِنْ عُلَمَائِنَا لَكَانَ كُلُّ قَائِلٍ: إِنَّ لِبَنِي آدَمَ وَجْهاً، وَلِلْخَنَازِيرِ، وَالْقِرَدَةِ، وَالْكِلَابِ، وَالسِّبَاعِ، وَالْحَمِيرِ، وَالْبِغَالِ، وَالْحَيَّاتِ، وَالْعَقَارِبِ وُجُوهاً قَدْ شَبَّهَ وُجُوهَ بَنِي آدَمَ بِوُجُوهِ الْخَنَازِيرِ وَالْقِرَدَةِ، وَالْكِلَابِ وَغَيْرِهَا مِمَّا ذَكَرْتُ، وَلَسْتُ أَحْسَبُ أَنَّ عَقْلَ الْجَهْمِيَّةِ الْمُعَطِّلَةِ عِنْدَ نَفْسِهِ لَوْ قَالَ لَهُ أَكْرَمُ النَّاسِ عَلَيْهِ: وَجْهُكَ يُشْبِهُ وَجْهَ الْخِنْزِيرِ وَالْقِرْدِ، وَالدُّبِّ، وَالْكَلْبِ، وَالْحِمَارِ، وَالْبَغْلِ وَنَحْوَ هَذَا إِلَّا غَضِبَ).

إلى أن قال رَحِمَهُ اللهُ: (فَإِذَا كَانَ مَا ذَكَرْنَا عَلَى مَا وَصَفْنَا ثَبَتَ عِنْدَ الْعُقَلَاءِ وَأَهْلِ التَّمْيِيزِ أَنَّ مَنَ رَمَى أَهْلَ الْآثَارِ الْقَائِلِينَ بِكِتَابِ رَبِّهِمْ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِمْ ﷺ بِالتَّشْبِيهِ فَقَدَ قَالَ الْبَاطِلَ وَالْكَذِبَ، وَالزُّورَ وَالْبُهْتَانَ، وَخَالَفَ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ، وَخَرَجَ مِنْ لِسَانِ الْعَرَبِ).

إلى أن قال رَحِمَهُ اللهُ: (وَالْمُعَطِّلَةُ مِنَ الْجَهْمِيَّةِ تُنْكِرُ كُلَّ صِفَةٍ لِلَّهِ وَصَفَ بِهَا نَفْسَهُ فِي مُحْكَمِ تَنْزِيلِهِ، أَوْ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ ﷺ لِجَهْلِهِمْ بِالْعِلْمِ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ وَجَدُوا فِي الْقُرْآنِ أَنَّ اللهَ قَدْ أَوْقَعَ أَسْمَاءً مِنْ أَسْمَاءِ صِفَاتِهِ عَلَى بَعْضِ خَلْقِهِ، فَتَوَهَّمُوا لِجَهْلِهِمْ بِالْعِلْمِ أَنَّ مَنْ

وَصَفَ اللهَ بِتِلْكَ الصِّفَةِ الَّتِي وَصَفَ اللهُ بِهَا نَفْسَهُ قَدْ شَبَّهَهُ بِخَلْقِهِ، فَاسْمَعُوا ـ يَا ذَوِي الْحِجَا ـ مَا أُبَيِّنُ مِنْ جَهْلِ هَؤُلَاءِ الْمُعَطِّلَةِ:

أَقُولُ: وَجَدْتُ اللهَ وَصَفَ نَفْسَهُ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ مِنْ كِتَابِهِ، فَأَعْلَمَ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّهُ سَمِيعٌ بَصِيرٌ، فَقَالَ: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١١﴾ [الشّورىٰ: ١١]، وَذَكَرَ عَجَلَّ الْإِنْسَانَ فَقَالَ: ﴿فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٢﴾ [الإنسان: ٢]، وَأَعْلَمَنَا ـ جَلَّ وَعَلَا ـ أَنَّهُ يَرَى، فَقَالَ: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [التّوبة: ١٠٥]، وَقَالَ لِمُوسَى وَهَارُونَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ: ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ۝٤٦﴾ [طه: ٤٦]، فَأَعْلَمَ عَجَلَّ أَنَّهُ يَرَى أَعْمَالَ بَنِي آدَمَ، وَأَنَّ رَسُولَهُ وَهُوَ بَشَرٌ يَرَى أَعْمَالَهُمْ أَيْضاً، وَقَالَ: ﴿أَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ﴾ [النّحل: ٧٩] وَبَنُو آدَمَ يَرَوْنَ أَيْضاً الطَّيْرَ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ، وَقَالَ عَجَلَّ: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [هُود: ٣٧]، وَقَالَ: ﴿تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا﴾ [القمر: ١٤]، وَقَالَ: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطُّور: ٤٨]، فَثَبَّتَ رَبُّنَا عَجَلَّ لِنَفْسِهِ عَيْناً، وَثَبَّتَ لِبَنِي آدَمَ أَعْيُناً، فَقَالَ: ﴿تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ﴾ [المائدة: ٨٣] فَقَدْ خَبَّرَنَا رَبُّنَا أَنَّ لَهُ عَيْناً، وَأَعْلَمَنَا أَنَّ لِبَنِي آدَمَ أَعْيُناً، وَقَالَ لِإِبْلِيسَ عَلَيْهِ لَعْنَةُ اللهِ: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ [ص: ٧٥]، وَقَالَ: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [المائدة: ٦٤]، فَثَبَّتَ رَبُّنَا جَلَّ وَعَلَا لِنَفْسِهِ يَدَيْنِ، وَخَبَّرَنَا أَنَّ لِبَنِي آدَمَ يَدَيْنِ).

إلى أن قال: (أَفَيَلْزَمُ ـ ذَوِي الْحِجَا ـ عِنْدَ هَؤُلَاءِ الْفَسَقَةِ أَنَّ مَنْ ثَبَّتَ للهِ مَا يُثَبِّتُ اللهُ فِي هَذِهِ الْآيِ أَنْ يَكُونَ مُشَبِّهاً خَالِقَهُ بِخَلْقِهِ؟

حَاشَا اللهَ أَنْ يَكُونَ هَذَا تَشْبِيهاً كَمَا ادَّعَوْا لِجَهْلِهِمْ بِالْعِلْمِ)[(١)]. انتهى كلامه.

هذا مما رد به إمام الأئمة محمد بن خزيمة ـ رحمه الله تعالى ـ على الجهمية وتلاميذهم، وهو رد مفحم لا يستطيعون الإجابة عنه.

وقد رد عليهم أيضاً كبار الأئمة من أمثال: الإمام أحمد والدارمي والآجري وعبد العزيز الكناني وابن منده واللالكائي وشيخ الإسلام ابن تيمية والإمام ابن القيم، ولا تزال ردودهم ـ والحمد لله ـ بأيدي أهل السُّنَّة والجماعة.

ونسوق من ذلك نموذجاً من رد شيخ الإسلام ابن تيمية على طائفة من هؤلاء زعمت أن النصوص التي وردت في الكتاب والسُّنَّة في صفات الله ﷻ هي من قبيل المتشابه الذي استأثر الله بعلمه ولا يعلم معناه إلا هو، فهذه النصوص ـ بزعمهم ـ ليست على ظاهرها؛ لأن ظاهرها عندهم التشبيه، بل لها معنى لا يعلمه إلا الله، فيفوضون معناها إلى الله، ويزعمون أن هذه طريقة السلف، وقد كذبوا على السلف، ونسبوا إليهم ما هم براء منه؛ لأن عقيدة السلف إثبات صفات الله ﷻ كما دل عليها الكتاب العزيز والسُّنَّة النبوية، وأنها على ظاهرها، ويفسرون معناها على ما يليق بجلال الله، ولا يفوضونها، بل وهي عندهم من المحكم لا من المتشابه.

قال رَحِمَهُ اللهُ: (وأما على قول أكابرهم ـ يعني: نفات الصفات ـ: إن معاني هذه النصوص لا يعلمها إلا الله، وأن معناها الذي أراده الله

(١) انظر: كتاب التوحيد لابن خزيمة (١/ ٥٣ ـ ٥٤ ـ ٥٥ ـ ٥٦).

بها هو ما يوجب صرفها عن ظواهرها؛ فعلى قول هؤلاء يكون الأنبياء والمرسلون لا يعلمون معاني ما أنزل الله عليهم من هذه النصوص، ولا الملائكة، ولا السابقون الأولون، وحينئذٍ فيكون ما وصف الله به نفسه في القرآن، أو كثير مما وصف الله به نفسه، لا يعلم الأنبياء معناه، بل يقولون كلاماً لا يعقلون معناه).

إلى أن قال ﷺ: (ومعلوم أن هذا قدح في القرآن والأنبياء، إذ أن الله أنزل القرآن، وأخبر أنه جعله هُدًى وبياناً للناس، وأمر الرسول أن يبلغ البلاغ المبين، وأن يبين للناس ما نزل إليهم وأمر بتدبر القرآن وعَقْلِه، ومع هذا فأشرف ما فيه ـ وهو ما أخبر به الرب عن صفاته، أو عن كونه خالقاً لكل شيء، وهو بكل شيء عليم، أو عن كونه أمر ونهي، ووعد وتوعد، أو ما أخبر به عن اليوم الآخر ـ لا يعلم أحد معناه، فلا يعقل ولا يتدبر، ولا يكون الرسول بيّن للناس ما نزل إليهم، ولا بلغ البلاغ المبين)[1].

وقال ﷺ نافياً هذا القول عن السلف: (وَأَمَّا إدْخَالُ أَسْمَاءِ اللهِ وَصِفَاتِهِ أَوْ بَعْضِ ذَلِكَ فِي الْمُتَشَابِهِ الَّذِي لَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إلَّا اللهُ).

إلى أن قال: «مَنْ قَالَ: إنَّ هَذَا مِنَ الْمُتَشَابِهِ وَأَنَّهُ لَا يُفْهَمُ مَعْنَاهُ، فَنَقُولُ: أَمَّا الدَّلِيلُ عَلَى بُطْلَانِ ذَلِكَ: فَإِنِّي مَا أَعْلَمُ عَنْ أَحَدٍ مِنْ سَلَفِ الْأُمَّةِ وَلَا مِنَ الْأَئِمَّةِ، لَا أَحْمَد بْنَ حَنْبَلٍ وَلَا غَيْرَه أَنَّهُ جَعَلَ ذَلِكَ مِنَ الْمُتَشَابِهِ الدَّاخِلِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ، (يعني: قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ

(١) انظر: درء تعارض العقل والنقل (١/ ٢٠٤).

مُتَشَٰبِهَٰتٌۖ﴾ [آل عِمرَان: ٧]) وَنَفَى أَنْ يَعْلَمَ أَحَدٌ مَعْنَاهُ، وَجَعَلُوا أَسْمَاءَ اللهِ وَصِفَاتِهِ بِمَنْزِلَةِ الْكَلَامِ الْأَعْجَمِيِّ الَّذِي لَا يُفْهَمُ... وَإِنَّمَا قَالُوا كَلِمَاتٍ لَهَا مَعَانٍ صَحِيحَةٌ، قَالُوا فِي أَحَادِيثِ الصِّفَاتِ: تَمُرُّ كَمَا جَاءَتْ، وَنَهَوْا عَنْ تَأْوِيلَاتِ الْجَهْمِيَّة وَرَدُّوهَا وَأَبْطَلُوهَا، الَّتِي مَضْمُونُهَا تَعْطِيلُ النُّصُوصِ عَمَّا دَلَّتْ عَلَيْهِ.

وَنُصُوصُ أَحْمَد وَالْأَئِمَّةِ قَبْلَهُ بَيِّنَةٌ فِي أَنَّهُمْ كَانُوا يُبْطِلُونَ تَأْوِيلَاتِ الْجَهْمِيَّة وَيُقِرُّونَ النُّصُوصَ عَلَى مَا دَلَّتْ عَلَيْهِ مِنْ مَعْنَاهَا».

إلى أن قال: «فَهَذَا اتِّفَاقٌ مِنَ الْأَئِمَّةِ عَلَى أَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ مَعْنَى هَذَا الْمُتَشَابِهِ وَأَنَّهُ لَا يُسْكَتُ عَنْ بَيَانِهِ وَتَفْسِيرِهِ؛ بَلْ يُبَيَّنُ وَيُفَسَّرُ بِاتِّفَاقِ الْأَئِمَّةِ مِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ لَهُ عَنْ مَوَاضِعِهِ أَوْ إِلْحَادٍ فِي أَسْمَاءِ اللهِ وَآيَاتِهِ»[(١)].

هذا ما قرره شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ وحكاه عن الأئمة والسلف أنهم لا يجعلون نصوص الصفات من المتشابه الذي لا يفهم معناه ويجب تفويضه، بل كانوا يعلمون معاني هذه النصوص ويفسرونها، وإنما يفوضون علم كيفيتها إلى الله عَزَّ وَجَلَّ؛ كما قال الإمام مالك وغيره: «الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة».

قال الإمام ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: (وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعرَاف: ٥٤] فَلِلنَّاسِ فِي هَذَا الْمَقَام مَقَالَاتٌ كَثِيرَةٌ جِدًّا ليس هذا موضع بسطها، وإنما نسلك فِي هَذَا الْمَقَام مَذْهَبَ السَّلَفِ الصَّالِحِ: مَالِكٌ وَالْأَوْزَاعِيُّ وَالثَّوْرِيُّ وَاللَّيْثُ بْنُ سَعْدٍ وَالشَّافِعِيُّ

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (١٣/ ٢٩٤ ـ ٢٩٥).

وَأَحْمَدُ وَإِسْحَاقُ بْنُ رَاهَوَيْهِ، وَغَيْرُهُمْ مِنْ أَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ قَدِيماً وَحَدِيثاً، وَهُوَ إِمْرَارُهَا كَمَا جَاءَتْ مِنْ غَيْرِ تَكْيِيفٍ وَلَا تَشْبِيهٍ وَلَا تَعْطِيلٍ، وَالظَّاهِرُ الْمُتَبَادَرُ إِلَى أَذْهَانِ الْمُشَبِّهِينَ مَنْفِيٌّ عَنِ اللهِ، فإن الله لا يشبهه شيء من خلقه، و﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ⑪﴾ [الشّورىٰ: ١١].

بَلِ الْأَمْرُ كَمَا قَالَ الْأَئِمَّةُ: مِنْهُمْ: نُعَيْمُ بن حماد الخزاعي شيخ البخاري قال: من شبَّه الله بخلقه كَفَرَ، وَمَنْ جَحَدَ مَا وَصَفَ اللهُ بِهِ نَفْسَهُ فَقَدْ كَفَرَ، وَلَيْسَ فِيمَا وَصَفَ اللهُ بِهِ نَفْسَهُ وَلَا رَسُولَهُ تَشْبِيهٌ؛ فَمَنْ أَثْبَتَ للهِ تَعَالَى مَا وَرَدَتْ بِهِ الْآيَاتُ الصَّرِيحَةُ وَالْأَخْبَارُ الصَّحِيحَةُ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي يَلِيقُ بِجَلَالِ الله، وَنَفَى عَنِ اللهِ تَعَالَى النَّقَائِصَ فَقَدْ سَلَكَ سَبِيلَ الْهُدَى»[(١)]. انتهى.

وبعد، فهذا خلاصة مذهب السلف في أسماء الله وصفاته، وهو إثباتها كما جاءت في الكتاب والسُّنَّة؛ من غير تشبيه لها بصفات المخلوقين، ومن غير تعطيل ونفي لها، بل إثبات بلا تشبيه، وتنزيه لله بلا تعطيل، على حد قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ⑪﴾ [الشّورىٰ: ١١].

فمن نسب إلى السلف أن مذهبهم التفويض فقد كذب وافترى عليهم، ورماهم بما هم بريئون منه.

نسأل الله العفو والعافية.

❁ ❁ ❁

(١) انظر: تفسير ابن كثير، سورة الأعراف، الآية (٥٤).

الأصل الثاني

الإيمان بالملائكة

الإيمان بالملائكة هو أحد أركان الإيمان الستة؛ كما جاء في حديث جبريل؛ حيث قال: «**الإيمان: أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ**»(١)، وقد جاء ذكر الإيمان بالملائكة مقروناً بالإيمان بالله في كثير من الآيات القرآنية، كما قال تعالى: ﴿كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ [البَقَرَة: ٢٨٥]، وكما في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [البَقَرَة: ١٧٧].

والإيمان بالملائكة يتضمن التصديق بوجودهم، وأنهم عباد مكرمون، خلقهم الله لعبادته وتنفيذ أوامره، ويتضمن الإيمان بأصنافهم وأوصافهم وأعمالهم التي يقومون بها حسبما ورد في الكتاب والسُّنَّة، والإيمان بفضلهم ومكانتهم عند الله ﷻ.

وقد ورد في «صحيح مسلم»: أن الله خلقهم من نور(٢).

ومما يدل على فضلهم وشرفهم:

أن الله يضيفهم إليه إضافة تشريف؛ كقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ

(١) أخرجه مسلم (٨).
(٢) أخرجه مسلم (٢٩٩٦).

يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾ [الأحزَاب: ٥٦]، وقوله: ﴿كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ﴾ [البَقَرَة: ٢٨٥]، وقوله: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ﴾ [النِّسَاء: ١٣٦]، وقوله: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ﴾ [البَقَرَة: ٩٨].

ويقرن سبحانه شهادتهم مع شهادته وصلاتهم مع صلاته؛ كقوله تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [آل عِمرَان: ١٨]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾ [الأحزَاب: ٥٦].

ويصفهم سبحانه بالكرم والإكرام؛ قال تعالى: ﴿بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾﴾ [عَبَسَ: ١٥ ـ ١٦]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾﴾ [الانفِطار: ١٠ ـ ١١]، وقوله: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الأنبيَاء: ٢٦].

ويصفهم بالعلو والتقريب؛ كما في قوله تعالى: ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [الصَّافات: ٨]، وفي قوله: ﴿يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾﴾ [المطفّفِين: ٢١].

ويذكر حملهم للعرش وحفهم به؛ كما في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ﴾ [غَافر: ٧]، وقوله: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ﴾ [الزُّمَر: ٧٥].

ويذكر سبحانه أنهم عنده، ويعبدونه ويسبحونه؛ كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ﴿٢٠٦﴾﴾ [الأعرَاف: ٢٠٦]، وقوله: ﴿فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [فُصّلَت: ٣٨].

وهم بالنسبة إلى الأعمال التي يقومون بها أصناف:

فمنهم: **حملة العرش**؛ قال تعالى: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ۝١٧﴾ [الحَاقَّة: ١٧].

ومنهم: **المقربون**؛ كما قال تعالى: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [النِّسَاء: ١٧٢].

ومنهم: **الموكلون بالجنان وإعداد الكرامة لأهلها.**

ومنهم: **الموكلون بالنار وتعذيب أهلها**، وهم الزبانية، ومُقَدَّمُوهم تسعة عشر، وخَازِنها مالك، وهو مقدَّم الخزنة؛ كما قال تعالى: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ۝٣٠﴾ [المدَّثِّر: ٣٠]، وقوله: ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ [الزّخرُف: ٧٧]، وقوله ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۝٤٩﴾ [غَافر: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۝٦﴾ [التّحْرِيم: ٦].

ومنهم: **الموكلون بحفظ بني آدم في الدنيا**؛ قال تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرّعد: ١١] الآية؛ أي: معه ملائكة يحفظونه من بين يديه ومن خلفه، فإذا جاء قدر الله تخلوا عنه.

ومنهم: **الموكلون بحفظ أعمال العباد وكتابتها**؛ قال تعالى: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ۝١٧ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ۝١٨﴾ [قٓ: ١٧ ـ ١٨]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝١١﴾ [الانفِطار: ١٠ ـ ١١].

وقال عليه الصلاة والسلام: «**يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ مَلَائِكَةٌ بِاللَّيْلِ وَمَلَائِكَةٌ بِالنَّهَارِ**»(١)؛ فمع الإنسان ملائكة يحفظونه من المؤذيات، وملائكة يحفظون عليه أعماله وما يصدر منه.

ومن الملائكة من هو موكل بالرحم وشأن النطفة؛ كما في حديث ابن مسعود رضي الله عنه: «**إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْماً، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِك، ثُمَّ يَبْعَثُ اللهُ مَلَكاً فَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ، وَيُقَالُ لَهُ: اكْتُبْ عَمَلَهُ وَرِزْقَهُ وَأَجَلَهُ وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ، ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ الرُّوحُ**»(٢).

ومنهم: ملائكة موكلون بقبض الأرواح؛ قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الأنعام: ٦١]، وقال تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾﴾ [السَّجدَة: ١١]؛ فملك الموت له أعوان من الملائكة يستخرجون روح العبد من جسمه حتى تبلغ الحلقوم، فيتناولها ملك الموت.

والمقصود: أن الله وكل بالعالم العلوي والسفلي ملائكة تدبر شؤونهما بإذنه وأمره ومشيئته سبحانه وتعالى؛ كما قال تعالى: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأنبياء: ٢٧]، وقوله: ﴿عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾﴾ [التحريم: ٦]؛ فلهذا يضيف سبحانه التدبير إلى الملائكة تارة لكونهم المباشرين له؛ كقوله تعالى: ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ﴿٥﴾﴾ [النَّازعَات: ٥]، ويضيف إليه التدبير تارة؛ كقوله: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ [يُونس: ٣].

(١) أخرجه البخاري (٥٥٥).
(٢) أخرجه البخاري (٣٢٠٨).

فالملائكة رسل الله في تدبير أمور خلقه، وتبليغ أمره، واسم الملك يتضمن أنه رسول؛ لأنه من الألوكة بمعنى الرسالة، وقال تعالى: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ [فَاطِر: ١]، وقال تعالى: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ۝١﴾ [المُرسَلات: ١]؛ فهم رسل الله في تنفيذ أمره الكوني الذي يدبر به السماء والأرض، وهم رسله في تدبير أمره الديني الذي تنزل به على الرسل من البشر؛ قال تعالى: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ۝٢﴾ [النّحل: ٢]، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحَجّ: ٧٥].

وأعظمهم جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهو أمين الوحي؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ۝١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ۝١٩٥﴾ [الشُّعَرَاء: ١٩٢ ـ ١٩٥]، وقال تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ [النّحل: ١٠٢].

وقد أعطى الله الملائكة قدرة على التشكل بأشكال مختلفة؛ فقد جاؤوا إلى إبراهيم ولوط عَلَيْهِمَا السَّلَامُ بصورة أضياف، وكان جبريل يأتي إلى النبي ﷺ في صفات متعددة؛ تارة يأتي في صورة دحية الكلبي(١)، وتارة في صورة أعرابي، وتارة في صورته التي خلق عليها(٢)، وقد وقع منه هذا مرتين؛ وذلك لأن البشر لا يستطيعون أن يروا الملك في صورته، ولما اقترح المشركون أن يرسل الله إليهم

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٣٤)، والإمام أحمد في المسند (٥٨٥٧).
(٢) أخرجه البخاري (٣٢٣٤).

ملكاً؛ قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌۭ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًۭا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًۭا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًۭا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾﴾ [الأنعام: ٨ ـ ٩]؛ أي: لو بعثنا إلى البشر رسولاً ملكيًّا لكان على هيئة الرجل؛ ليمكنهم مخاطبته والانتفاع بالأخذ عنه؛ لأن كل جنس يأنس بجنسه، وينفر من غير جنسه.

هذا وبالله التوفيق.

❁ ❁ ❁

الأصل الثالث

الإيمان بالكتب

الإيمان بالكتب الإلـٰهية، هو أحد أصول الإيمان وأركانه.

والإيمان بها هو: التصديق الجازم بأنها حق وصدق، وأنها كلام الله ﷻ، فيها الهدى والنور والكفاية لمن أنزلت عليهم.

نؤمن بما سمى الله منها، وهي (القرآن والتوراة والإنجيل والزبور، وصحف إبراهيم) وبما لم يسم منها؛ فإن لله كتباً لا يعلمها إلا هو سبحانه.

وإنزال الكتب من رحمة الله بعباده لحاجة البشرية إليها؛ لأن عقل الإنسان محدود، لا يدرك تفاصيل النفع والضرر، وإن كان يدرك الفرق بين الضار والنافع إجمالاً.

والعقل الإنساني أيضاً تغلب عليه الشهوات، وتلعب به الأغراض والأهواء؛ فلو وكلت البشرية إلى عقولها القاصرة لضلت وتاهت، فاقتضت حكمة الله ورحمته أن ينزل هذه الكتب على المصطفين من رسله؛ ليبينوا للناس ما تدل عليه هذه الكتب وما تتضمنه من أحكام الله العادلة، ووصاياه النافعة، وأوامره ونواهيه الكفيلة بإصلاح البشرية.

قال تعالى حين أهبط آدم أبا البشرية من الجنة: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [البقرة: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الأعراف: ٣٥].

وقد انقسم الناس حيال الكتب السماوية إلى ثلاثة أقسام:

قسم كذب بها كلها: وهم أعداء الرسل من الكفار والمشركين والفلاسفة.

وقسم آمن بها كلها: وهم المؤمنون الذين آمنوا بجميع الرسل وما أنزل إليهم؛ كما قال تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

وقسم آمن ببعض الكتب وكفر ببعضها: وهم اليهود والنصارى ومن سار على نهجهم، الذين يقولون: ﴿نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ﴾ [البقرة: ٩١]، بل هؤلاء يؤمنون ببعض كتابهم ويكفرون ببعضه؛ كما قال تعالى فيهم: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [البقرة: ٨٥].

ولا شك أن الإيمان ببعض الكتاب أو ببعض الكتب والكفر بالبعض الآخر كفر بالجميع؛ لأنه لا بد من الإيمان بجميع الكتب السماوية وبجميع الرسل؛ لأن الإيمان لا بد أن يكون مؤتلفاً جامعاً لا تفريق فيه ولا تبعيض ولا اختلاف، والله تعالى ذم الذين تفرقوا

واختلفوا في الكتاب؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾﴾ [البَقَرَة: ١٧٦].

وسبب كفر من كفر بالكتب أو كفر ببعضها أو ببعض الكتاب الواحد هو اتباع الهوى والظنون الكاذبة، وزعمهم أن لهم العقل والرأي والقياس العقلي، ويسمون أنفسهم بالحكماء والفلاسفة، ويسخرون من الرسل وأتباعهم، ويصفونهم بالسفه؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [غافر: ٨٣].

وأما أتباع الرسل فإنهم يؤمنون بكل كتاب أنزله الله، لا يفرقون بينها.

والإيمان بالكتب السابقة إيمان مجمل، يكون بالإقرار به بالقلب واللسان، أما الإيمان بالقرآن فإنه إيمان مفصل يكون بالإقرار به بالقلب واللسان، وباتباع ما جاء فيه، وتحكيمه في كل كبيرة وصغيرة، والإيمان بأنه كلام الله منزل غير مخلوق، منه بدأ وإليه يعود.

وقد اقتضت حكمة الله أن تكون الكتب السابقة لآجال معينة ولأوقات محددة، ووكل حفظها إلى الذين استحفظوا عليها من البشر؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ﴾ [المَائدة: ٤٤].

أما القرآن الكريم فقد أنزله الله لكل الأجيال من الأمم في كل

الأوطان إلى يوم القيامة، وتولى حفظه بنفسه؛ لأن وظيفة هذا الكتاب لا تنتهي إلا بنهاية حياة البشر على الأرض؛ قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحِجر: ٩]، وقال تعالى: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ۝٤٢﴾ [فُصّلَت: ٤٢].

ويجب تحكيم هذا القرآن في جميع الخلافات، ويجب رد جميع النزاعات إليه، وقد جعل الله التحاكم إلى غير كتابه تحاكماً إلى الطاغوت؛ قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ﴾ [النِّسَاء: ٦٠].

والطاغوت: فَعَلُوت من الطغيان، وهو: مجاوزة الحد، وقد ذم الله المدعين للإيمان بالكتب كلها وهم يتركون التحاكم إلى الكتاب والسُّنَّة ويتحاكمون إلى بعض الطواغيت.

وقد قال النبي ﷺ: «وما حكم قوم بغير ما أنزل الله إلا وقع بأسهم بينهم»، ورد بلفظ: «**وَمَا لَمْ تَحْكُمْ أَئِمَّتُهُمْ بِكِتَابِ اللهِ، وَيَتَخَيَّرُوا مِمَّا أَنْزَلَ اللهُ إِلَّا جَعَلَ اللهُ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ**»(١)، وفي المستدرك بلفظ «**وَمَا لَمْ يَحْكُمْ أَئِمَّتُهُمْ بِكِتَابِ اللهِ إِلَّا أَلْقَى اللهُ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ**»(٢)، وهذا من أعظم أسباب تغيير الدول ونشوب الفتن والتناحر بين الشعوب؛ لأن الإيمان بالكتاب يوجب التحاكم إليه؛ فمن ادعى الإيمان بالكتاب وهو يتحاكم إلى غيره فهو متناقض في دعواه،

(١) في سنن ابن ماجه (٤٠١٩).
(٢) المستدرك (٤/ ٥٨٢).

والكتاب لا يتجزأ؛ فيجب تطبيقه كله والعمل به كله في كل المجالات؛ في العقائد والعبادات والمعاملات، وفي الأحوال الشخصية والجنايات والحدود، وفي الآداب والسلوك.

قال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [المائدة: ٤٤]، ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [المائدة: ٤٥]، ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [المائدة: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: ٦٥].

فنفى الإيمان نفياً مؤكداً بالقسم عمن لم يُحكِّم الرسول ﷺ في موارد النزاع، مع انشراح صدره وانقياده لحكم الله؛ كما وصف من لم يحكم بما أنزل الله بالكفر والظلم والفسق، وإن ادعى الإيمان والعدالة والعدل.

فتبًّا لقوم استبدلوا كتاب الله بالقوانين الوضعية الطاغوتية، وهم يدعون الإيمان؛ فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

الأصل الرابع

الإيمان بالرسل

الإيمان بالرسل أحد أصول الإيمان؛ لأنهم الواسطة بين الله وبين خلقه في تبليغ رسالاته وإقامة حجته على خلقه.

والإيمان بهم يعني: التصديق برسالاتهم، والإقرار بنبوتهم، وأنهم صادقون فيما أخبروا به عن الله، وقد بلغوا الرسالات، وبينوا للناس ما لا يسع أحداً جهله.

والأدلة على وجوب الإيمان بالرسل كثيرة؛ منها:

قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [البقرة: ١٧٧]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا﴾ [النساء: ١٥٠ ـ ١٥١].

ففي هذه الآيات قرن الله الإيمان بالرسل بالإيمان به سبحانه وبملائكته وكتبه، وحكم بكفر من فرّق بين الله ورسله؛ فآمن ببعض وكفر ببعض.

وبعْثُ الرسل نعمة من الله على البشرية؛ لأن حاجة البشرية

إليهم ضرورية؛ فلا تنتظم لهم حال ولا يستقيم لهم دين إلا بهم؛ فهم يحتاجون إلى الرسل أشد من حاجتهم إلى الطعام والشراب؛ لأن الله سبحانه جعل الرسل وسائط بينه وبين خلقه في تعريفهم بالله وبما ينفعهم وما يضرهم، وفي تفصيل الشرائع والأمر والنهي والإباحة، وبيان ما يحبه الله وما يكرهه؛ فلا سبيل إلى معرفة ذلك إلا من جهة الرسل؛ فإن العقل لا يهتدي إلى تفصيل هذه الأمور، وإن كان قد يدرك وجه الضرورة إليها من حيث الجملة.

قال تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ [البَقَرَة: ٢١٣]، وحاجة العباد إلى الرسالات أعظم بكثير من حاجة المريض إلى الطبيب؛ فإن غاية ما يحصل بعدم وجود الطبيب تضرر البدن، والذي يحصل من عدم الرسالة هو تضرر القلوب، ولا بقاء لأهل الأرض إلا ما دامت آثار الرسالة موجودة فيهم، فإذا ذهبت آثار الرسالة من الأرض أقام الله القيامة.

والرسل الذين ذكر الله أسماءهم في القرآن يجب الإيمان بأعيانهم وهم خمسة وعشرون، منهم ثمانية عشر ذكرهم الله في قوله: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ [الأنعام: ٨٣] إلى قوله: ﴿وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [الأنعام: ٨٦]، والباقون ـ وهم سبعة ـ ذكروا في آيات متفرقة.

ومن لم يُسَمَّ في القرآن من الرسل وجب الإيمان به إجمالاً؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ

﴿وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر: ٧٨]، وقال تعالى: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ [النساء: ١٦٤]، **وهنا مسألة تحتاج إلى بيان وهي: الفرق بين النبي والرسول**، فالفرق بين النبي والرسول على المشهور:

أن الرسول: إنسان ذكر أُوحي إليه بشرع وأمر بتبليغه.

والنبي: إنسان ذكر أُوحي إليه بشرع ولم يؤمر بتبليغه.

والقول الصحيح الذي اختاره شيخ الإسلام أن كلًّا من النبي والرسول يوحى إليه، لكن النبي قد يبعث في قوم مؤمنين بشرائع سابقة؛ كأنبياء بني إسرائيل يأمرون بشريعة التوراة، وقد يوحى إلى أحدهم وحي خاص في قضية معينة. وأما الرسل: فإنهم يبعثون في قوم كفار يدعونهم إلى توحيد الله وعبادته؛ فهم يرسلون إلى المخالفين فيكذبهم بعضهم.

والرسول أفضل من النبي.

والرسل يتفاضلون؛ قال تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

وأفضل الرسل أولو العزم، وهم خمسة: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام، وهم المذكورون في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾﴾ [الأحزاب: ٧]، وفي قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ

كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِيٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾ [الشّورىٰ: ١٣].

وأفضل أولو العزم الخليلان: إبراهيم ومحمد عليهما وعليهم جميعاً أفضل الصلاة والسلام.

وأفضل الخليلين: محمد ﷺ.

هذا، والنبوة تفضُّل واختيار من الله تعالى؛ كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحجّ: ٧٥].

وليست النبوة كسباً يناله العبد بالجد والاجتهاد، وتكلف أنواع العبادات، واقتحام أشق الطاعات، والدأب في تهذيب النفس وتنقية الخاطر وتطهير الأخلاق ورياضة النفس؛ بل هي محض تفضل وامتنان، لا كما يقول الفلاسفة: إنه يجوز اكتساب النبوة؛ حيث يزعمون أن من لازم المشاهدة بعد كمال ظاهره وباطنه بالتهذيب والرياضة فإنها تنصقل مرآة باطنه، وتفتح له بصيرة لبه، وتتهيأ له ما لا يتهيأ لغيره.

فللنبوة عند الفلاسفة ثلاث خصائص:

الأولى: القوة العلمية؛ بحيث ينال العلم بدون تعلم بل بطريق القوة.

الثانية: قوة التخيل؛ بحيث يتخيل في نفسه أشكالاً نورانية تخاطبه ويسمع الخطاب منها.

الثالثة: قوة التأثير في الناس، وهي التي يسمونها التصرف في (هيولي العالم).

وهذه الصفات عندهم تحصل بالاكتساب، ولهذا طلب النبوة بعض المتصوفة؛ فهي عندهم صنعة من الصنائع، وهذا قول باطل، يرد عليه قول الله تعالى: ﴿قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحجّ: ٧٥].

فالنبوة اصطفاء من الله حسب حكمته وعلمه بمن يصلح لها، وليست اكتساباً من قبل العبد. صحيح أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام اختصوا بفضائل يمتازون بها عن غيرهم، ولكن ليست على النحو الذي يقوله الفلاسفة الضلّال.

دلائل النبوة:

دلائل النبوة هي: الأدلة التي تعرف بها نبوة النبي الصادق، ويعرف بها كذب المدعي للنبوة من المتنبئين الكذبة؛ لأن هذا موضوع هام جدًّا.

ودلائل النبوة كثيرة ومتنوعة وغير محصورة؛ فمنها:

١ـ **المعجزة:** وهي اسم فاعل من العجز المقابل للقدرة، وفي القاموس: (معجزة النبي: ما أعجز به الخصم عند التحدي، والهاء فيها للمبالغة، وهي أمر خارق للعادة يجريه الله على يد من يختاره لنبوته؛ ليدل على صدقه وصحة رسالته).

ومعجزات الرسل عليهم الصلاة والسلام كثيرة: منها الناقة التي أوتيها صالح عليه السلام حجة على قومه، وقلب العصا حية آية لموسى عليه السلام، وإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى آية لعيسى عليه السلام،

ومنها معجزات نبينا محمد ﷺ، وهي كثيرة، أعظمها القرآن الكريم، وهو المعجزة الخالدة التي تحدى الله بها الجن والإنس، ومنها الإسراء والمعراج وانشقاق القمر وتسبيح الحصا في كفه عليه الصلاة والسلام، وحنين الجذع إليه وإخباره عن حوادث المستقبل والماضي.

ودلائل النبوة ليست محصورة في المعجزة كما يقوله المتكلمون، بل هي كثيرة متنوعة؛ **فمنها أيضاً**:

٢ ـ إخبارهم الأمم بما سيكون من انتصارهم وخذلان أعدائهم وبقاء العاقبة لهم، فوقع كما أخبروا، ولم يتخلف منه شيء؛ كما حصل لنوح وهود وصالح وشعيب وإبراهيم ولوط وموسى ونبينا محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين مما قصه الله في كتابه.

٣ ـ **ومنها**: أن ما جاؤوا به من الشرائع والأخبار في غاية الإحكام والإتقان وكشف الحقائق وهدي الخلق مما يعلم بالضرورة أن مثله لا يصدر إلا عن أعلم الناس وأبرهم.

٤ ـ **ومنها**: أن الله يؤيدهم تأييداً مستمرًّا، وقد علم من سُنَّته سبحانه أنه لا يؤيد الكذاب بمثل ما يؤيد به الصادق، بل لا بد أن يفتضح الكذاب، وقد يمهله الله ثم يهلكه.

٥ ـ **ومنها**: أن طريقتهم واحدة فيما يأمرون به من عبادة الله والعمل بطاعته والتصديق باليوم الآخر والإيمان بجميع الكتب والرسل، فلا يمكن خروج واحد منهم عما اتفقوا عليه؛ فهم يصدق

متأخرهم متقدمهم، ويبشر متقدمهم بمتأخرهم؛ كما بشر المسيح ومن قبله بمحمد ﷺ، وكما صدّق محمد ﷺ جميع النبيين قبله.

٦ ـ **ومن دلائل النبوة:** تأييد الله للأنبياء؛ فقد علم من سُنَّة الله أنه لا يؤيد الكذاب بمثل ما يؤيد به الصادق، بل يفضح الكذاب ولا ينصره، بل لا بد أن يهلكه، وإذا نصر ملكاً ظالماً مسلطاً فهو لم يدع النبوة ولم يكذب عليه، بل هو ظالم سلطه الله على ظالم مثله؛ كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ [الأنعام: ١٢٩]؛ بخلاف من قال: إن الله أرسله وهو كاذب؛ فهذا لا يؤيده تأييداً مستمرًّا، لكن قد يمهله مدة ثم يهلكه.

والتمييز بين الصادق والكاذب له طرق كثيرة فيما هو دون دعوى النبوة، فكيف بدعوى النبوة؟!

ومعلوم أن مدعي الرسالة إما أن يكون من أفضل الخلق وأكملهم، وإما أن يكون من أنقص الخلق، ولهذا قال أحد أكابر ثقيف للنبي ﷺ لما بلغهم ودعاهم إلى الإسلام فقال له: «والله لا أقول لك إلا كلمة واحدة: إن كنت صادقاً فأنت أجل في عيني من أن أرد عليك، وإن كنت كاذباً فأنت أحقر من أن أرد عليك»(١)، فكيف يشتبه أفضل الخلق وأكملهم بأنقص الخلق وأرذلهم؟!.

وما من أحد ادعى النبوة من الكذابين إلا وقد ظهر عليه من الجهل والكذب والفجور واستحواذ الشياطين عليه ما ظهر به كذبه لمن له أدنى تمييز، وما من أحد ادعى النبوة من الصادقين إلا وقد

(١) انظر: سيرة ابن هشام (١/ ٤١٩)، وانظر: البداية والنهاية لابن كثير (٤/ ٣٣٧).

ظهر عليه من العلم والصدق والبر وأنواع الخيرات ما ظهر به صدقه لمن له أدنى تمييز؛ فإن الرسول لا بد أن يخبر الناس بأمور، ويأمرهم بأمور ولا بد أن يفعل أموراً، والكاذب يظهر من نفس ما يأمر به، ويخبر عنه ويفعله ما يظهر به كذبه من وجوه كثيرة.

هذا، وربما يسأل سائل عن الفرق بين دلائل النبوة وخوارق السحرة والكهان، وعجائب المخترعات التي ظهرت اليوم.

والجواب: أن هناك فوارق كثيرة بين دلائل النبوة وخوارق السحرة والكهان والمخترعات الصناعية:

منها: أن أخبار الأنبياء لا يقع فيها تخلف ولا غلط بخلاف أخبار الكهنة والمنجمين؛ فالغالب عليها الكذب، وإن صدقوا أحياناً في بعض الأشياء بسبب ما يحصل عليه الكهان من استراق شياطينهم للسمع.

ومنها: أن السحر والكهانة والاختراع أمور معتادة معروفة ينالها الإنسان بكسبه وتعلمه، فهي لا تخرج عن كونها مقدورة للجن والإنس، ويمكن معارضتها بمثلها، بخلاف آيات الأنبياء؛ فإنها لا يقدر عليها جن ولا إنس؛ كما قال تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسرَاء: ٨٨]؛ فآيات الأنبياء لا يقدر عليها الخلق، بل الله هو الذي يفعلها آية وعلامة على صدقهم؛ كانشقاق القمر وقلب العصا حية وتسبيح الحصا بصوت يسمع وحنين الجذع وتكثير الماء والطعام القليل، فهذا لا يقدر عليه إلا الله.

ومنها: أن الأنبياء مؤمنون مسلمون يعبدون الله وحده بما أمر ويصدقون جميع ما جاءت به الأنبياء، وأما السحرة والكهان والمتنبئون الكذبة فلا يكونون إلا مشركين مكذبين ببعض ما أنزل الله.

ومنها: أن الفطر والعقول توافق ما جاء به الأنبياء ﷺ، وأما السحرة والكهان والدجالون الكذابون فإنهم يخالفون الأدلة السمعية والعقلية والفطرية.

ومنها: أن الأنبياء جاؤوا بما يكمل الفطر والعقول، والسحرة والكهان والكذبة يجيئون بما يفسد العقول والفطر.

ومنها: أن معجزات الأنبياء لا تحصل بأفعالهم هم، وإنما يوجدها الله ﷻ آية وعلامة لهم ويجريها على أيديهم؛ كانشقاق القمر وقلب العصا حية والإتيان بالقرآن والإخبار بالغيب الذي يختص الله به. فأمر الآيات إلى الله لا إلى اختيار المخلوق؛ كما قال الله لنبيِّه عندما طلبوا منه أن يأتي بآية قال: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَٰتٞ مِّن رَّبِّهِۦۖ قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ۝٥٠﴾ [العَنكبوت: ٥٠]، وأما خوارق السحرة والكهان والمخترعات الصناعية فإنها تحصل بأفعال الخلق.

والفوارق بين آيات الأنبياء وخوارق الكهان كثيرة واضحة، ومن أراد المزيد فليراجع كتاب «النبوات» لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله.

❁ ❁ ❁

معجزة القرآن

إن أعظم معجزات نبينا محمد ﷺ هو القرآن العظيم؛ لأن كل نبي تكون معجزته مناسبة لحال قومه، ولذلك:

- لما كان السحر فاشياً في قوم فرعون جاء موسى بالعصا على صورة ما يصنع السحرة لكنها تلقفت ما صنعوا فاحتاروا وانفجعوا وعلموا أن ما جاء به موسى هو الحق وليس من السحر؛ كما قال تعالى: ﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [الشُّعَرَاء: ٤٦ ـ ٤٨]، ولم يقع ذلك بعينه لغير موسى عليه السلام.

- ولما كان الزمن الذي يعيش فيه عيسى عليه السلام قد فشا فيه الطب جاء المسيح بما حيَّر الأطباء من إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص من الداء العضال القبيح وخلق من الطين كهيئة الطير فنفخ فيه فكان طيراً بإذن الله، فطاشت عقول الأطباء، وأذعنوا أن ذلك من عند الله عز وجل.

- ولما كانت العرب أرباب الفصاحة والبلاغة وفرسان الكلام والخطابة جعل الله سبحانه معجزة نبينا محمد ﷺ هي القرآن الكريم، الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فُصّلَت: ٤٢]، وهي المعجزة الباقية الخالدة على مر العصور.

فقد اختار الله هذه المعجزة الباهرة لخاتمة الرسالات السماوية العامة للناس أجمعين؛ فالقرآن معجزة يطلع عليها الأجيال في كل

زمان ويتلونه، فيعلمون أنه كلام الله حقًّا، وليس كلام البشر، وقد تحدى الله الإنس والجن أن يأتوا بمثله، أو بعشر سور منه، أو بسورة منه فما استطاع أحد منهم منذ بعثة محمد ﷺ إلى عصرنا هذا وإلى الأبد أن يأتي أحد بكتاب مثله أو بمثل سورة منه، على الرغم من وجود أعداء كثيرين للرسول ﷺ ولدين الإسلام في عصور التاريخ.

قال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [البَقَرَة: ٢٣ ـ ٢٤]؛ فالتحدي لا يزال قائما إلى قيام الساعة في قوله: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا﴾.

وقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الطُّور: ٣٣ ـ ٣٤].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وَهَذَا التَّحَدِّي كَانَ بِمَكَّةَ؛ فَإِنَّ سُوَرَ يُونُسَ، وَهُودٍ، وَالطُّورِ من المَكِّيّ، ثُمَّ أَعَادَ التَّحَدِّي فِي الْمَدِينَةِ بَعْدَ الْهِجْرَةِ، فَقَالَ فِي سورة الْبَقَرَةِ وَهِيَ مَدَنِيَّةٌ: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [البَقَرَة: ٢٣]، ثُمَّ قَالَ: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [البَقَرَة: ٢٤].

فَذَكَرَ أَمْرَيْنِ:

أَحَدُهُمَا قَوْلُهُ: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ﴾ يَقُولُ: إِذَا لَمْ تَفْعَلُوا فَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّهُ حَقٌّ، فَخَافُوا اللهَ أَنْ تُكَذِّبُوهُ، فَيَحِيقَ بِكُمُ الْعَذَابُ الَّذِي أعدّه للمُكَذِّبِينَ.

وَالثَّانِي قَوْلُهُ: ﴿وَلَن تَفْعَلُواْ﴾ وَ (لَنْ) لِنَفْيِ الْمُسْتَقْبَلِ، فَثَبَتَ أَنَّهُمْ فِيمَا يُسْتَقْبَلُ مِنَ الزَّمَانِ لَا يَأْتُونَ بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ كَمَا أَخْبَرَ بذَلِكَ.

وَأَمَرَ الله تعالى نبيَّه ﷺ أَنْ يَقُولَ فِي سُورَةِ الإسراء، وَهِيَ مَكِّيَّةٌ افْتَتَحَهَا بِذِكْرِ الْإِسْرَاءِ، وَقد كَانَ بِمَكَّةَ بَنصِّ الْقُرْآنِ وَالْخَبَرِ الْمُتَوَاتِرِ: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء: ٨٨]، أمره أن يخبر بالخبر جَمِيعَ الْخَلْقِ مُعْجِزاً لَهُمْ، قَاطِعاً بِأَنَّهُمْ إِذَا اجْتَمَعُوا كُلُّهُمْ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ، وَلَوْ تَظَاهَرُوا عليه وَتَعَاوَنُوا عَلَى ذَلِكَ، وَهَذَا التَّحَدِّي لِجَمِيعِ الْخَلْقِ، وَقَدْ سَمِعَهُ كُلُّ مَنْ سَمِعَ الْقُرْآنَ وَعَرَفَهُ الْخَاصُّ وَالْعَامُّ، وَعُلِمَ مَعَ ذَلِكَ أَنَّهُمْ لَمْ يُعَارِضُوهُ، وَلَا أَتَوْا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ.

وَمِنْ حِينِ بُعِثَ النبي ﷺ إِلَى الْيَوْمِ والْأَمْرُ عَلَى ذَلِكَ، مَعَ مَا عُلِمَ مِنْ أَنَّ الْخَلْقَ كَانُوا كُلُّهُمْ كُفَّاراً قَبْلَ أَنْ يُبْعَثَ، وَلَمَّا بُعِثَ إِنَّمَا تَبِعَهُ قَلِيلٌ، وَكَانَ الْكُفَّارُ مِنْ أَحْرَصِ النَّاسِ عَلَى إِبْطَالِ قَوْلِهِ، مُجْتَهِدِينَ بِكُلِّ طَرِيقٍ ممكِن؛ تَارَةً يَذْهَبُونَ إِلَى أَهْلِ الْكِتَابِ فَيَسْأَلُونَهُمْ عَنْ أُمُورِ الْغَيْبِ؛ حَتَّى يَسْأَلُوهُ عَنْهَا، كَمَا سَأَلُوهُ عَنْ قِصَّةِ يُوسُفَ وَأَهْلِ الْكَهْفِ وَذِي الْقَرْنَيْنِ، وَيَجْتَمِعُونَ فِي مَجْمَعٍ بَعْدَ مَجْمَعٍ؛ ليتفقوا عَلَى مَا يَقُولُونَهُ فِيهِ، وَصَارُوا يَضْرِبُونَ لَهُ الْأَمْثَالَ، فَيُشَبِّهُونَهُ بِمَنْ لَيسَ بمِثْلَه مَعَ ظُهُورِ الْفَرْقِ، فَتَارَةً يَقُولُونَ: مَجْنُونٌ وَتَارَةً سَاحِرٌ وَكَاهِنٌ وَشَاعِرٌ، إِلَى أَمْثَالِ ذَلِكَ مِنَ الْأَقْوَالِ الَّتِي يَعْلَمُونَ هُمْ وغيرهم من كُلّ عَاقِلٍ يسَمِعهَا أَنَّهَا افْتِرَاءٌ عَلَيْهِ.

فَإِذَا كَانَ قَدْ تَحَدَّاهُمْ بِالْمُعَارَضَةِ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ وَهِيَ تُبْطِلُ دَعْوَاهم، فَمَعْلُومٌ أَنَّهُمْ لَوْ كَانُوا قَادِرِينَ عَلَيْهَا لَفَعَلُوهَا، فَإِنَّهُ مَعَ وُجُودِ

هَذَا الدَّاعِي التَّامِّ الْمُؤَكَّدِ إِذَا كَانَتِ الْقُدْرَةُ حَاصِلَةً يجب وُجُودُ الْمَقْدُورِ، وهَكَذَا الْقَوْلُ فِي سَائِرِ أَهْلِ الْأَرْضِ؛ فَهَذَا يُوجِبُ عِلْماً مبَيِّناً لِكُلِّ أَحَدٍ بِعَجْزِ جَمِيع أَهْلِ الْأَرْضِ عَنْ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ بِحِيلَةٍ وَبِغَيْرِ حِيلَةٍ، وَهَذَا أَبْلَغُ مِنَ الْآيَاتِ الَّتِي تكَرّر جِنْسُهَا كَإِحْيَاءِ الْمَوْتَى، فَإِنَّ هَذَا لَمْ يَأْتِ أَحَدٌ بِنَظِيرِهِ»[(١)].

«فَإِقْدَامُهُ ﷺ فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ على هذا التحدي وَهُوَ بِمَكَّةَ وَأَتْبَاعُهُ قَلِيلٌ عَلَى أَنْ يَقُولَ خَبَراً يَقْطَعُ بِهِ أَنَّهُ لَوِ اجْتَمَعَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ فِي ذَلِكَ الْعَصْرِ وَفِي سَائِرِ الْأَعْصَارِ الْمُتَأَخِّرَةِ، لَا يَكُونُ إِلَّا مَعَ جَزْمِهِ بِذَلِكَ، وَتَيَقُّنِهِ لَهُ، وَإِلَّا فَمَعَ الشَّكِّ وَالظَّنِّ لَا يَقُولُ ذَلِكَ مَنْ يَخَافُ أَنْ يَظْهَرَ كَذِبُهُ فَيَنفْضِحَ فَيَرْجِعَ النَّاسُ عَنْ تَصْدِيقِهِ، وَإِذَا كَانَ جَازِماً بِذَلِكَ مُتَيَقِّناً لَهُ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ إِلَّا عَنْ إِعْلَامِ اللهِ تعالى لَهُ بِذَلِكَ. وَلَيْسَ فِي الْعُلُومِ الْمُعْتَادَةِ أَنْ يَعْلَمَ الْإِنْسَانُ أَنَّ جَمِيعَ الْخَلْقِ لَا يَقْدِرُونَ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ كَلَامِهِ إِلَّا إِذَا عَلِمَ الْعَالِمُ أَنَّهُ خَارِجٌ عَنْ قُدْرَةِ الْبَشَرِ، وَالْعِلْمُ بِهَذَا يَسْتَلْزِمُ كَوْنَهُ مُعْجِزاً»[(٢)].

والقرآن الكريم معجزة من وجوه متعددة: من جهة اللفظ، ومن جهة النظم، ومن جهة البلاغة في دلالة اللفظ على المعنى، ومن جهة معانيه التي أمر بها، ومعانيه التي أخبر بها عن الله تعالى وأسمائه وصفاته وملائكته وغير ذلك، ومن جهة معانيه التي أخبر بها عن الغيب المستقبل وعن الغيب الماضي، ومن جهة ما أخبر به عن المعاد، ومن جهة ما بيَّن فيه من الدلائل اليقينية.

---

(١) انظر: الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح (٥/ ٤٢٥ ـ ٤٢٦ ـ ٤٢٧).
(٢) المرجع السابق (٥/ ٤٣٢ ـ ٤٣٣).

عصمة الأنبياء

العصمة: المنعة، والعاصم: المانع الحامي، والاعتصام: الامتساك بالشيء.

والمراد بالعصمة هنا: حفظ الله لأنبيائه من الذنوب والمعاصي.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ حاكياً للخلاف ومبيناً الراجح في هذه المسألة: «الْأَنْبِيَاءُ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِمْ مَعْصُومُونَ فِيمَا يُخْبِرُونَ بِهِ عَنْ اللهِ سُبْحَانَهُ، وَفِي تَبْلِيغِ رِسَالَاتِهِ بِاتِّفَاقِ الْأُمَّةِ، وَلِهَذَا وَجَبَ الْإِيمَانُ بِكُلِّ مَا أُوتُوهُ.

كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٦﴾ [البَقَرَة: ١٣٦]، وَقَالَ: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [البَقَرَة: ١٧٧]، وَقَالَ: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ٢٨٥﴾ [البَقَرَة: ٢٨٥]»[1].

(١) انظر: مجموع الفتاوى (١٠/ ٢٨٩ ـ ٢٩٠).

قال: «وَهَذِهِ الْعِصْمَةُ الثَّابِتَةُ لِلْأَنْبِيَاءِ هِيَ الَّتِي يَحْصُلُ بِهَا مَقْصُودُ النُّبُوَّةِ وَالرِّسَالَةِ؛ فَإِنَّ «النَّبِيَّ» هُوَ الْمُنَبِّئُ عَنِ اللهِ، وَ«الرَّسُولَ» هُوَ الَّذِي أَرْسَلَهُ اللهُ تَعَالَى، وَكُلُّ رَسُولٍ نَبِيٌّ وَلَيْسَ كُلُّ نَبِيٍّ رَسُولاً، وَالْعِصْمَةُ فِيمَا يُبَلِّغُونَهُ عَنِ اللهِ ثَابِتَةٌ فَلَا يَسْتَقِرُّ فِي ذَلِكَ خَطَأٌ بِاتِّفَاقِ الْمُسْلِمِينَ»[(١)].

إلى أن قال: «وَأَمَّا الْعِصْمَةُ فِي غَيْرِ مَا يَتَعَلَّقُ بِتَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ فَلِلنَّاسِ فِيهِ نِزَاعٌ: هَلْ هُوَ ثَابِتٌ بِالْعَقْلِ أَوْ بِالسَّمْعِ؟ وَمُتَنَازِعُونَ فِي الْعِصْمَةِ مِنَ الْكَبَائِرِ وَالصَّغَائِرِ أَوْ مِنْ بَعْضِهَا؟ أَمْ هَلِ الْعِصْمَةُ إِنَّمَا هِيَ فِي الْإِقْرَارِ عَلَيْهَا لَا فِي فِعْلِهَا؟ أَمْ لَا يَجِبُ الْقَوْلُ بِالْعِصْمَةِ إِلَّا فِي التَّبْلِيغِ فَقَطْ؟ وَهَلْ تَجِبُ الْعِصْمَةُ مِنَ الْكُفْرِ وَالذُّنُوبِ قَبْلَ الْمَبْعَثِ أَمْ لَا؟.

وَالْقَوْلُ الَّذِي عَلَيْهِ جُمْهُورُ النَّاسِ ـ وَهُوَ الْمُوَافِقُ لِلْآثَارِ الْمَنْقُولَةِ عَنِ السَّلَفِ ـ: إِثْبَاتُ الْعِصْمَةِ مِنَ الْإِقْرَارِ عَلَى الذُّنُوبِ مُطْلَقاً، وَالرَّدُّ عَلَى مَنْ يَقُولُ: إِنَّهُ يَجُوزُ إِقْرَارُهُمْ عَلَيْهَا وَحُجَجُ الْقَائِلِينَ بِالْعِصْمَةِ إِذَا حُرِّرَتْ إِنَّمَا تَدُلُّ عَلَى هَذَا الْقَوْلِ، وَحُجَجُ النُّفَاةِ لَا تَدُلُّ عَلَى وُقُوعِ ذَنْبٍ أَقَرَّ عَلَيْهِ الْأَنْبِيَاءُ، فَإِنَّ الْقَائِلِينَ بِالْعِصْمَةِ احْتَجُّوا بِأَنَّ التَّأَسِّي بِهِمْ مَشْرُوعٌ... وَمَعْلُومٌ أَنَّ التَّأَسِّي بِهِمْ إِنَّمَا هُوَ مَشْرُوعٌ فِيمَا أُقِرُّوا عَلَيْهِ دُونَ مَا نُهُوا عَنْهُ وَرَجَعُوا عَنْهُ، كَمَا أَنَّ الْأَمْرَ وَالنَّهْيَ إِنَّمَا تَجِبُ طَاعَتُهُمْ فِيمَا لَمْ يُنْسَخْ مِنْهُ، فَأَمَّا مَا نُسِخَ مِنَ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ فَلَا يَجُوزُ

---

(١) المرجع السابق (١٠/ ٢٩٠).

جَعْلُهُ مَأْمُوراً بِهِ وَلَا مَنْهِيًّا عَنْهُ فَضْلاً عَنْ وُجُوبِ اتِّبَاعِهِ وَالطَّاعَةِ فِيهِ.

وَكَذَلِكَ مَا احْتَجُّوا بِهِ مِنْ أَنَّ الذُّنُوبَ تُنَافِي الْكَمَالَ أَوْ أَنَّهَا مِمَّنْ عَظُمَتْ عَلَيْهِ النِّعْمَةُ أَقْبَحُ، أَوْ أَنَّهَا تُوجِبُ التغييرَ أَوْ نَحْوَ ذَلِكَ مِنَ الْحُجَجِ الْعَقْلِيَّةِ فَهَذَا إِنَّمَا يَكُونُ مَعَ الْبَقَاءِ عَلَى ذَلِكَ وَعَدَمِ الرُّجُوعِ؛ وَإِلَّا فَالتَّوْبَةُ النَّصُوحُ الَّتِي يَقْبَلُهَا اللهُ يَرْفَعُ بِهَا صَاحِبَهَا إِلَى أَعْظَمَ مِمَّا كَانَ عَلَيْهِ، كَمَا قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: كَانَ دَاوُد عليه السلام بَعْدَ التَّوْبَةِ خَيْراً مِنْهُ قَبْلَ الْخَطِيئَةِ. وَقَالَ آخَرُ: لَوْ لَمْ تَكُنِ التَّوْبَةُ أَحَبَّ الْأَشْيَاءِ إِلَيْهِ لَمَا ابْتَلَى بِالذَّنْبِ أَكْرَمَ الْخَلْقِ عَلَيْهِ، وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصِّحَاحِ حَدِيثُ التَّوْبَةِ: «**للهُ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ رَجُلٍ نَزَلَ مَنْزِلاً...**»[(١)] **الحديث**»[(٢)].

إلى أن قال: «وَفِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ الصَّحِيحَةِ وَالْكُتُبِ الَّتِي أُنْزِلَتْ قَبْلَ الْقُرْآنِ مِمَّا يُوَافِقُ هَذَا الْقَوْلَ مَا يَتَعَذَّرُ إِحْصَاؤُهُ، وَالرَّادُّونَ لِذَلِكَ تَأَوَّلُوا ذَلِكَ بِمِثْلِ تَأْوِيلَاتِ الْجَهْمِيَّةِ وَالْقَدَرِيَّةِ وَالدَّهْرِيَّةِ لِنُصُوصِ «الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ» وَنُصُوصِ «الْقَدَرِ» وَنُصُوصِ «الْمَعَادِ»، وَهِيَ مِنْ جِنْسِ تَأْوِيلَاتِ الْقَرَامِطَةِ الْبَاطِنِيَّةِ الَّتِي يُعْلَمُ بِالِاضْطِرَارِ أَنَّهَا بَاطِلَةٌ، وَأَنَّهَا مِنْ بَابِ تَحْرِيفِ الْكَلِمِ عَنْ مَوَاضِعِهِ، وَهَؤُلَاءِ يَقْصِدُ أَحَدُهُمْ تَعْظِيمَ الْأَنْبِيَاءِ فَيَقَعُ فِي تَكْذِيبِهِمْ، وَيُرِيدُ الْإِيمَانَ بِهِمْ فَيَقَعُ فِي الْكُفْرِ بِهِمْ.

ثُمَّ إِنَّ الْعِصْمَةَ الْمَعْلُومَةَ بِدَلِيلِ الشَّرْعِ وَالْعَقْلِ وَالْإِجْمَاعِ وَهِيَ - الْعِصْمَةُ فِي التَّبْلِيغِ - لَمْ يَنْتَفِعُوا بِهَا إِذْ كَانُوا لَا يُقِرُّونَ بِمُوجِبِ مَا

---

(١) رواه البخاري (٦٣٠٨)، ومسلم (٢٧٤٤).

(٢) انظر: مجموع الفتاوى (١٠/ ٢٩٢ - ٢٩٤).

بَلَّغَتْهُ الْأَنْبِيَاءُ وَإِنَّمَا يُقِرُّونَ بِلَفْظٍ حَرَّفُوا مَعْنَاهُ أَوْ كَانُوا فِيهِ كَالْأُمِّيِّينَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ.

وَالْعِصْمَةُ الَّتِي كَانُوا ادَّعَوْهَا لَوْ كَانَتْ ثَابِتَةً لَمْ يَنْتَفِعُوا بِهَا وَلَا حَاجَةَ بِهِمْ إِلَيْهَا عِنْدَهُمْ، فَإِنَّهَا مُتَعَلِّقَةٌ بِغَيْرِهِمْ لَا بِمَا أُمِرُوا بِالْإِيمَانِ بِهِ، فَيَتَكَلَّمُ أَحَدُهُمْ فِيهَا عَلَى الْأَنْبِيَاءِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ مِنَ اللهِ وَيَدَعُ مَا يَجِبُ عَلَيْهِ مِنْ تَصْدِيقِ الْأَنْبِيَاءِ وَطَاعَتِهِمْ، وَهُوَ الَّذِي تَحْصُلُ بِهِ السَّعَادَةُ وَبِضِدِّهِ تَحْصُلُ الشَّقَاوَةُ، وقَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾ [النُّور: ٥٤].

وَاللهُ تَعَالَى لَمْ يَذْكُرْ فِي الْقُرْآنِ شَيْئاً مِنْ ذَلِكَ عَنْ نَبِيٍّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ إِلَّا مَقْرُوناً بِالتَّوْبَةِ وَالِاسْتِغْفَارِ.

كَقَوْلِ آدَمَ وَزَوْجَتِهِ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأعراف: ٢٣].

وَقَوْلِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [هُود: ٤٧].

وَقَوْلِ الْخَلِيلِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾ [إبراهيم: ٤١]، وَقَوْلِهِ: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾ [الشُّعَرَاء: ٨٢].

وَقَوْلِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ﴾ [الأعراف: ١٥٥ ـ ١٥٦]، وَقَوْلِهِ: ﴿رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى﴾ [القَصَص: ١٦]، وَقَوْلِهِ: ﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾﴾ [الأعراف: ١٤٣].

وقَوْله تَعَالَى عَنْ دَاوُد عليه السلام: ﴿فَٱسۡتَغۡفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعٗا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرۡنَا لَهُۥ ذَٰلِكَۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ ﴿٢٥﴾﴾ [صٓ: ٢٤ ـ ٢٥].

وقَوْله تَعَالَى عَنْ سُلَيْمَانَ عليه السلام: ﴿ٱغۡفِرۡ لِي وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ﴿٣٥﴾﴾ [صٓ: ٣٥].

وَأَمَّا يُوسُفُ الصِّدِّيقُ عليه السلام فَلَمْ يَذْكُرْ اللهُ عَنْهُ ذَنْباً، فَلِهَذَا لَمْ يَذْكُرْ اللهُ عَنْهُ مَا يُنَاسِبُ الذَّنْبَ مِنَ الِاسْتِغْفَارِ، بَلْ قَالَ: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [يُوسُف: ٢٤]، فَأَخْبَرَ أَنَّهُ صَرَفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَصْدُرْ مِنْهُ سُوءٌ وَلَا فَحْشَاءُ، وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ﴾ [يُوسُف: ٢٤]، **فَالْهَمُّ**: اسْمُ جِنْسٍ تَحْتَهُ «نَوْعَانِ» كَمَا قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَد: **الْهَمُّ نوعان**: هَمُّ خَطَرَاتٍ، وَهَمُّ إصْرَارٍ، وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: أَنَّ الْعَبْدَ إذَا هَمَّ بِسَيِّئَةٍ لَمْ تُكْتَبْ عَلَيْهِ وَإِذَا تَرَكَهَا لِلَّهِ كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةٌ وَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ لَهُ سَيِّئَةً وَاحِدَةً وَإِنْ تَرَكَهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَتْرُكَهَا للهِ لَمْ تُكْتَبْ لَهُ حَسَنَةً وَلَا تُكْتَبُ عَلَيْهِ سَيِّئَةً[1]، وَيُوسُفُ ﷺ هَمَّ هَمًّا تَرَكَهُ للهِ، وَلِذَلِكَ صَرَفَ اللهُ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ لِإِخْلَاصِهِ، وَذَلِكَ إنَّمَا يَكُونُ إذَا قَامَ الْمُقْتَضِي لِلذَّنْبِ ـ وَهُوَ: الْهَمُّ ـ وَعَارَضَهُ الْإِخْلَاصُ الْمُوجِبُ لِانْصِرَافِ الْقَلْبِ عَنِ الذَّنْبِ لِلَّهِ، فَيُوسُفُ عليه السلام لَمْ يَصْدُرْ مِنْهُ إلَّا حَسَنَةٌ يُثَابُ عَلَيْهَا، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَـٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾ [الأعراف: ٢٠١])[2].

---

(١) رواه البخاري (٦٤٩١)، ومسلم (١٣١).

(٢) انظر: مجموع الفتاوى (١٠/ ٢٩٥ ـ ٢٩٧).

إلى أن قال: (وبِهَذَا يَظْهَرُ جوَابُ شُبْهَةِ مَنْ يَقُولُ: إنَّ اللهَ لَا يَبْعَثُ نَبِيًّا إلَّا مَنْ كَانَ مَعْصُوماً قَبْلَ النُّبُوَّةِ، كَمَا يَقُولُ ذَلِكَ طَائِفَةٌ مِنَ الرَّافِضَةِ وَغَيْرِهِمْ، وَكَذَلِكَ مَنْ قَالَ: إنَّهُ لَا يَبْعَثُ نَبِيًّا إلَّا مَنْ كَانَ مُؤْمِناً قَبْلَ النُّبُوَّةِ؛ فَإِنَّ هَؤُلَاءِ تَوَهَّمُوا أَنَّ الذُّنُوبَ تَكُونُ نَقْصاً وَإِنْ تَابَ التَّائِبُ مِنْهَا، وَهَذَا مَنْشَأُ غَلَطِهِمْ فَمَنْ ظَنَّ أَنَّ صَاحِبَ الذُّنُوبِ مَعَ التَّوْبَةِ النَّصُوحِ يَكُونُ نَاقِصاً فَهُوَ غالط غَلَطاً عَظِيماً؛ فَإِنَّ الذَّمَّ وَالْعِقَابَ الَّذِي يَلْحَقُ أَهْلَ الذُّنُوبِ لَا يَلْحَقُ التَّائِبَ مِنْهُ شَيْءٌ أَصْلاً؛ لَكِنْ إنْ قَدَّمَ التَّوْبَةَ لَمْ يَلْحَقْهُ شَيْءٌ وَإِنْ أَخَّرَ التَّوْبَةَ فَقَدْ يَلْحَقُهُ مَا بَيْنَ الذُّنُوبِ وَالتَّوْبَةِ مِنَ الذَّمِّ وَالْعِقَابِ مَا يُنَاسِبُ حَالَهُ.

وَالْأَنْبِيَاءُ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِمْ وَسَلَامُهُ كَانُوا لَا يُؤَخِّرُونَ التَّوْبَةَ؛ بَلْ يُسَارِعُونَ إلَيْهَا وَيُسَابِقُونَ إلَيْهَا، لَا يُؤَخِّرُونَ وَلَا يُصِرُّونَ عَلَى الذَّنْبِ بَلْ هُمْ مَعْصُومُونَ مِنْ ذَلِكَ، وَمَنْ أَخَّرَ ذَلِكَ زَمَناً قَلِيلاً كَفَّرَ اللهُ ذَلِكَ بِمَا يَبْتَلِيهِ بِهِ؛ كَمَا فَعَلَ بِذِي النُّونِ ﷺ هَذَا ـ عَلَى الْمَشْهُورِ ـ أَنَّ إلْقَاءَهُ كَانَ بَعْدَ النُّبُوَّةِ؛ وَأَمَّا مَنْ قَالَ: إنَّ إلْقَاءَهُ كَانَ قَبْلَ النُّبُوَّةِ فَلَا يَحْتَاجُ إلَى هَذَا.

وَالتَّائِبُ مِنَ الْكُفْرِ وَالذُّنُوبِ قَدْ يَكُونُ أَفْضَلَ مِمَّنْ لَمْ يَقَعْ فِي الْكُفْرِ وَالذُّنُوبِ، وَإِذَا كَانَ قَدْ يَكُونُ أَفْضَلَ فَالْأَفْضَلُ أَحَقُّ بِالنُّبُوَّةِ مِمَّنْ لَيْسَ مِثْلَهُ فِي الْفَضِيلَةِ.

وَقَدْ أَخْبَرَ اللهُ عَنْ إخْوَةِ يُوسُفَ بِمَا أَخْبَرَ مِنْ ذُنُوبِهِمْ وَهُمْ الْأَسْبَاطُ الَّذِينَ نَبَّأَهُمْ اللهُ تَعَالَى.

وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓۖ﴾ [العنكبوت: ٢٦]. فَآمَنَ لُوطٌ لِإِبْرَاهِيمَ عليه السلام ثُمَّ أَرْسَلَهُ اللهُ تَعَالَى إلَى قَوْمِ

لُوطٍ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى فِي قِصَّةِ شُعَيْبٍ عليه السلام: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [الأعراف: ٨٨ ـ ٨٩]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾ [إبراهيم: ١٣ ـ ١٤].

وَإِذَا عُرِفَ أَنَّ الاعْتِبَارَ بِكَمَالِ النِّهَايَةِ وَهَذَا الْكَمَالُ إِنَّمَا يَحْصُلُ بِالتَّوْبَةِ وَالاسْتِغْفَارِ فَلَا بُدَّ لِكُلِّ عَبْدٍ مِنَ التَّوْبَةِ وَهِيَ وَاجِبَةٌ عَلَى الْأَوَّلِينَ والآخرين، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًۢا ﴿٧٣﴾﴾ [الأحزاب: ٧٣].

وَقَدْ أَخْبَرَ اللهُ سُبْحَانَهُ بِتَوْبَةِ آدَمَ وَنُوحٍ وَمَنْ بَعْدَهُمَا إِلَى خَاتَمِ الْمُرْسَلِينَ مُحَمَّدٍ ﷺ وَآخِرُ مَا نَزَلَ عَلَيْهِ ـ أَوْ مِنْ آخِرِ مَا نَزَلَ عَلَيْهِ ـ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ﴿٣﴾﴾ [النّصر: ١ ـ ٣][(١)].

ثم ذكر نصوصاً كثيرة في استغفار النبي ﷺ.

(١) انظر: مجموع الفتاوى (١٠/٣٠٩ ـ ٣١٠).

ثم قال: (وَنُصُوصُ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ فِي هَذَا الْبَابِ كَثِيرَةٌ مُتَضَافِرَةٌ وَالْآثَارُ فِي ذَلِكَ عَنِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَعُلَمَاءِ الْمُسْلِمِينَ كَثِيرَةٌ.

ولَكِنِ الْمُنَازِعُونَ يَتَأَوَّلُونَ هَذِهِ النُّصُوصَ مِنْ جِنْسِ تَأْوِيلَاتِ الْجَهْمِيَّة وَالْبَاطِنِيَّةِ، كَمَا فَعَلَ ذَلِكَ مَنْ صَنَّفَ فِي هَذَا الْبَابِ، وَتَأْوِيلَاتُهُمْ تُبَيِّنُ لِمَنْ تَدَبَّرَهَا أَنَّهَا فَاسِدَةٌ مِنْ بَابِ تَحْرِيفِ الْكَلِم عَنْ مَوَاضِعِهِ؛ كَتَأْوِيلِهِمْ قَوْلَهُ: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفَتْح: ٢]: الْمُتَقَدِّمُ ذَنْبُ آدَمَ، وَالْمُتَأَخِّرُ ذَنْبُ أُمَّتِهِ وَهَذَا مَعْلُومُ الْبُطْلَانِ)(١).

وقال أيضاً: (وَالْجُمْهُورُ الَّذِينَ يَقُولُونَ بِجَوَازِ الصَّغَائِرِ عَلَيْهِمْ يَقُولُونَ: إِنَّهُمْ مَعْصُومُونَ مِنَ الْإِقْرَارِ عَلَيْهَا وَحِينَئِذٍ فَمَا وَصَفُوهُمْ إِلَّا بِمَا فِيهِ كَمَالُهُمْ، فَإِنَّ الْأَعْمَالَ بِالْخَوَاتِيمِ)(٢). وقول المخالف يلزم عليه كون النبي لا يتوب إلى الله.. انتهى المقصود.

ويمكن تلخيص هذا الموضوع فيما يلي:

عصمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام منها ما هو مجمع عليه بداءة ونهاية، ومنها ما هو مختلف فيه بداءة لا نهاية. وبيان ذلك:

١ ـ أجمعوا على عصمتهم فيما يخبرون عن الله تعالى وفي تبليغ رسالاته؛ لأن هذه العصمة هي التي يحصل بها مقصود الرسالة والنبوة.

(١) انظر: مجموع الفتاوى (١٠/ ٣٠٩ ـ ٣١١).
(٢) انظر: منهاج السُّنَّة النبوية (٢/ ٤٠٠).

٢ ـ واختلفوا في عصمتهم من المعاصي:

فقال بعضهم بعصمتهم منها مطلقاً: كبائرها وصغائرها؛ لأن منصب النبوة يجل عن مواقعتها ومخالفة الله تعالى عمداً، ولأننا أمرنا بالتأسي بهم، وذلك لا يجوز مع وقوع المعصية منهم؛ لأن الأمر بالاقتداء بهم يلزم منه أن تكون أفعالهم كلها طاعة، وتأولوا الآيات والأحاديث الواردة بإثبات شيء من ذلك.

وقال الجمهور بجواز وقوع الصغائر منهم؛ بدليل ما ورد في القرآن والأخبار، لكنهم لا يصرون عليها، فيتوبون منها ويرجعون عنها؛ كما مر تفصيله، فيكونون معصومين من الإصرار عليها، ويكون الاقتداء بهم في التوبة منها.

دين الأنبياء عليهم الصلاة والسلام واحد:

إن دين الأنبياء عليهم الصلاة والسلام دين واحد وإن تنوعت شرائعهم:

قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾﴾ [المؤمنون: ٥١ ـ ٥٢].

وقال النبي ﷺ: «**الْأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ لِعَلَّاتٍ**»[١].

(١) أخرجه البخاري (٣٤٤٣).

ودين الأنبياء هو دين الإسلام الذي لا يقبل الله غيره، وهو: الاستسلام لله بالتوحيد والانقياد له بالطاعة والخلوص من الشرك وأهله.

قال تعالى عن نوح عليه السلام: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [يُونس: ٧٢].

وقال عن إبراهيم عليه السلام: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾﴾ [البَقَرَة: ١٣١].

وقال عن موسى عليه السلام: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [يُونس: ٨٤].

وقال عن المسيح عليه السلام: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّۦنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾﴾ [المَائدة: ١١١].

وقد قال تعالى فيمن تقدم من الأنبياء وعن التوراة: ﴿يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ [المَائدة: ٤٤].

وقال تعالى عن ملكة سبأ: ﴿رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [النَّمل: ٤٤].

فالإسلام هو دين الأنبياء جميعاً، وهو الاستسلام لله وحده؛ فمن استسلم له ولغيره كان مشركاً، ومن لم يستسلم له كان مستكبراً، وكل من المشرك والمستكبر عن عبادة الله كافر.

والاستسلام لله يتضمن عبادته وحده وأن يطاع وحده، وذلك بأن يطاع في كل وقت بفعل ما أمر به في ذلك الوقت؛ فإذا أمر في أول الإسلام بأن يستقبل بيت المقدس، ثم أمر بعد ذلك باستقبال

الكعبة كان كلٌّ من الفعلين حين أمر به داخلاً في الإسلام؛ فالدين هو الطاعة، وكل من الفعلين عبادة لله، وإنما تنوع بعض صور الفعل، وهو توجه المصلي؛ فكذلك الرسل دينهم واحد، وإن تنوعت الشرعة والمنهاج والوجه والمنسك؛ فإن ذلك لا يمنع أن يكون الدين واحداً، كما لم يمنع ذلك في شريعة الرسول الواحد، كما مثلنا باستقبال بيت المقدس أولاً ثم استقبال الكعبة ثانياً في شريعة محمد ﷺ.

فدين الأنبياء واحد، وإن تنوعت شرائعهم؛ فقد يشرع الله في وقت أمراً لحكمة، ثم يشرع في وقت آخر أمراً لحكمة، فالعمل بالمنسوخ قبل نسخه طاعة لله، وبعد النسخ يجب العمل بالناسخ؛ فمن تمسك بالمنسوخ وترك الناسخ فليس هو على دين الإسلام، ولا هو متبع لأحد من الأنبياء، ولهذا كفر اليهود والنصارى؛ لأنهم تمسكوا بشرع مبدل منسوخ.

والله تعالى يشرع لكل أمة ما يناسب حالها ووقتها ويكون كفيلاً بإصلاحها متضمناً لمصالحها، ثم ينسخ الله ما يشاء من تلك الشرائع لانتهاء أجلها، إلى أن بعث نبيَّه محمداً خاتم النبيين إلى جميع الناس على وجه الأرض وعلى امتداد الزمن إلى يوم القيامة، وشرع له شريعة شاملة صالحة لكل زمان ومكان، لا تبدل ولا تنسخ، فلا يسع جميع أهل الأرض إلا اتباعه والإيمان به ﷺ، قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبإ:

٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وقال تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٖ مِّن رِّجَالِكُمۡ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَۗ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

والآيات التي أنزلها الله سبحانه على رسوله محمد ﷺ فيها خطاب لجميع الخلق: الجن والإنس وعلى اختلاف أجناسهم، ولم يخص العرب بحكم من الأحكام، بل علق الأحكام باسم كافر ومؤمن، ومسلم ومنافق، وبر وفاجر، ومحسن وظالم... وغير ذلك من الأسماء المذكورة في القرآن والحديث؛ فليس في القرآن والحديث تخصيص العرب بحكم من الأحكام الشرعية، إنما علق الأحكام بالصفات المؤثرة فيما يحبه الله وفيما يبغضه الله، واجتهد بعض العلماء فظن اختصاص العرب ببعض الأحكام وخالفه الجمهور.

ونزول القرآن بلسان العرب إنما هو لأجل التبليغ؛ لأنه بلغ قومه أولاً، ثم بواسطتهم بلغ سائر الأمم، وأمره الله بتبليغ قومه أولاً، ثم تبليغ الأقرب فالأقرب؛ كما أمر بجهاد الأقرب فالأقرب، وليس هذا تخصيصاً، وإنما هو تدرج بالتبليغ.

والمقصود: أن دين الأنبياء عليهم الصلاة والسلام واحد، وهو إخلاص العبادة لله والنهي عن الشرك والفساد، وإن تنوعت شرائعهم حسب الظروف والحاجات إلى أن ختموا بمحمد ﷺ، الذي عمت رسالته الخلق، وامتدت إلى آخر الدنيا؛ لا تبدل ولا تغير ولا تنسخ، وهي صالحة ومصلحة لكل زمان ومكان، ولا نبي بعده عليه

الصلاة والسلام إلى آخر الزمان، وهو يأمر بما أمر به المرسلون من قبله من الإيمان وإخلاص العبادة لله بما شرعه من الأحكام، وهو مصدق لإخوانه المرسلين، وإخوانه المرسلون قد بشروا به، ولا سيما أقرب الرسل إليه زماناً، وهو المسيح عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام، حين قال لقومه: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم مُّصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ﴾ [الصَّف: ٦].

وفي الكتب السابقة من بيان صفات هذا الرسول وخصائصه ما هو من أوضح الواضحات، وإن جحده من جحده من اليهود والنصارى حسداً وتكبراً؛ كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٤٦﴾ [البَقَرَة: ١٤٦].

اللَّهُمَّ أرنا الحق حقًّا وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه.

❁ ❁ ❁

ذكر خصائص الرسول محمد ﷺ إجمالاً

للرسول محمد ﷺ خصائص اختص بها عن غيره من الأنبياء، وخصائص اختص بها عن أمته.

والخصائص التي اختُصَّ بها عن غيره من الأنبياء كثيرة منها:

١ ـ **أنه خاتم النبيين:** قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، وقال ﷺ: «**أَنَا خَاتِمُ النَّبِيِّينَ**»[١]، وقال أيضاً: «**لَا نَبِيَّ بَعْدِي**»[٢].

٢ ـ **المقام المحمود:** وهو الشفاعة العظمى؛ كما في قوله تعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾﴾ [الإسراء: ٧٩]، وكما في حديث الشفاعة الطويل المتفق على صحته: أن الله يجمع الأولين والآخرين في صعيد واحد، فيقول بعض الناس لبعض: ألا ترون إلى ما أنتم فيه؟! ألا ترون إلى ما قد بلغكم؟! ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم؟! فيأتون آدم، ثم نوحاً، ثم إبراهيم، ثم موسى، ثم عيسى، ثم إلى محمد ـ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ـ فكلهم يقول: اذهبوا إلى غيري، إلا محمداً ﷺ؛ فإنه يقول: أنا لها، فيخر ساجداً إلى أن يؤذن له بالشفاعة[٣]، وبهذا يظهر فضله على جميع الخلق، واختصاصه بهذا المقام.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٥٣٥). (٢) أخرجه البخاري (٣٤٥٥).

(٣) انظر: صحيح البخاري (٧٥١٠)، وصحيح مسلم (١٩٣)، ومسند الإمام أحمد (٢٥٤٦).

٣ ـ عموم بعثته إلى الثقلين الجن والإنس: قال تعالى: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [سبإ: ٢٨]، ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾﴾ [الفرقان: ١]، ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الأحقاف: ٢٩]، وهذا مجمع عليه.

والآيات التي أنزلها الله على محمد ﷺ فيها خطاب لجميع الخلق: الجن والإنس؛ إذ كانت رسالته عامة للثقلين، وإن كان من أسباب النزول ما كان موجوداً في العرب فليس شيء من الآيات مختصًّا بالسبب المعين الذي نزل فيه من حيث الحكم باتفاق المسلمين؛ فلم يقل أحد من المسلمين: إن آيات الطلاق أو الظهار أو اللعان أو حد السرقة والمحاربين، وغير ذلك يختص بالشخص المعين الذي كان سبب نزول الآية.

والمقصود هنا: أن بعض آيات القرآن وإن كان سببه أموراً كانت في العرب فحكم الآيات عام يتناول ما تقتضيه الآيات لفظاً ومعنى في أي نوع كان، ومحمد ﷺ بعث إلى الإنس والجن؛ فدعوته ﷺ شاملة للثقلين الإنس والجن على اختلاف أجناسهم؛ فلا يظن أنه خص العرب بحكم من الأحكام أصلاً، بل إنما علق الأحكام باسم مسلم وكافر ومؤمن ومنافق وبر وفاجر ومحسن وظالم، وغير ذلك من الأسماء المذكورة في القرآن والحديث، وليس في القرآن ولا الحديث تخصيص العرب بحكم من أحكام

الشريعة، وإنما علق الأحكام بالصفات مما يحبه الله ومما يبغض؛ فأمر بما يحبه الله ودعا إليه بحسب الإمكان، ونهى عما يبغضه الله وحسم مادته بحسب الإمكان، لم يخص العرب بنوع من أنواع الأحكام الشرعية؛ إذ كانت دعوته لجميع البرية، لكن نزل القرآن بلسانهم ـ وأغلبه نزل بلسان قريش ـ لأجل التبليغ؛ لأنه بلغ قومه أولاً، ثم بواسطتهم بلغ سائر الأمم، وأمر بتبليغ قومه أولا، ثم بتبليغ الأقرب فالأقرب إليه؛ كما أُمر بجهاد الأقرب فالأقرب.

وكما كان ﷺ مبعوثاً إلى الإنس فهو مبعوث أيضاً إلى الجن؛ فقد استمع الجن لقراءته، وولوا إلى قومهم منذرين كما أخبر الله ﷻ، وهذا متفق عليه بين المسلمين.

وقد ذكر الله في القرآن من خطاب الثقلين ما يبين هذا الأصل؛ كقوله تعالى: ﴿يَـٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ﴾ [الأنعام: ١٣٠] الآية.

وقد أخبر الله عن الجن أنهم قالوا: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّـٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدٗا ١١﴾ [الجن: ١١]؛ أي: مذاهب شتى: مسلمون وكفار، وأهل سُنَّة وأهل بدعة، وقالوا: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلۡمُسۡلِمُونَ وَمِنَّا ٱلۡقَـٰسِطُونَۖ﴾ [الجن: ١٤] الآية، والقاسط: الجائر، يقال: قسط: إذا جار، وأقسط: إذا عدل.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (يَجِبُ عَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ اللهَ ﷻ أَرْسَلَ مُحَمَّداً ﷺ إِلَى جَمِيعِ الثَّقَلَيْنِ: الْإِنْسِ وَالْجِنِّ وَأَوْجَبَ عَلَيْهِمُ الْإِيمَانَ بِهِ وَبِمَا جَاءَ بِهِ وَطَاعَتَهُ، وَأَنْ يُحَلِّلُوا مَا

حَلَّلَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَيُحَرِّمُوا مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ، وَيُحِبُّوا مَا أَحَبَّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَيَكْرَهُوا مَا كَرِهَهُ اللهُ وَرَسُولُهُ، وَأَنَّ كُلَّ مَنْ قَامَتْ عَلَيْهِ الْحُجَّةُ بِرِسَالَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ مِنَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ فَلَمْ يُؤْمِنْ بِهِ اسْتَحَقَّ عِقَابَ اللهِ تَعَالَى كَمَا يَسْتَحِقُّهُ أَمْثَالُهُ مِنَ الْكَافِرِينَ الَّذِينَ بُعِثَ إِلَيْهِمُ الرَّسُولُ، وَهَذَا أَصْلٌ مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ بَيْنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ وَأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَسَائِرِ طَوَائِفِ الْمُسْلِمِينَ: أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ وَغَيْرِهِمْ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ)[١].

٤ ـ ومن خصائصه ﷺ: إنزال القرآن العظيم عليه: الذي أذعن لإعجازه الثقلان، وأحجم عن معارضته مصاقيع[٢] الإنس والجان، واعترف بالعجز عن الإتيان بأقصر سورة من مثله أهل الفصاحة والبلاغة من سائر الأديان، وقد سبق تفصيل ذلك.

٥ ـ ومن خصائصه ﷺ: الإسراء إلى بيت المقدس والمعراج إلى السماوات العلى، إلى سدرة المنتهى، إلى مستوى سمع فيه صريف الأقلام فكان قاب قوسين أو أدنى.

وأما الخصائص التي اختص بها دون أمته:

فقد قال القرطبي في «تفسيره»: «خصّ الله تعالى رسوله في أحكام الشريعة بمعان لم يشاركه فيها أحد، في باب الفرض والتحريم والتحليل؛ مزية على الأمة وهبت له، ومرتبة خصّ بها؛ ففرضت عليه أشياء ما فرضت على غيره، وحرمت عليه أفعال لم تحرم عليهم،

(١) انظر: مجموع الفتاوى (١٩/ ٩ ـ ١٠).

(٢) مصاقيع: بلغاء والمفرد مِصْقَع، بكسرٍ فسكون

وحللت له أشياء لم تحلل لهم؛ منها متفق عليه، ومنها مختلف فيه»[١].

ثم ذكر هذه الخصائص:

فمنها: التهجد بالليل؛ يقال: إن قيام الليل كان واجباً عليه إلى أن مات؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٢﴾ [المُزّمل: ١ ـ ٢]، **والراجح:** أنه كان واجباً عليه، ثم نسخ بقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ﴾ [الإسرَاء: ٧٩].

ومنها: أنه إذا عمل عملاً أثبته.

ومنها: تحريم الزكاة عليه وعلى آله.

ومنها: أنه أُحِل له الوصال في الصيام.

ومنها: أنه أُحِل له الزيادة على أربع نسوة.

ومنها: أنه أُحِل له القتال بمكة.

ومنها: أنه لا يورث.

ومنها: بقاء زَوجِيَّتِهِ لنسائه بعد الموت، فلا يحل أن يتزوج بهن أحد؛ لأنهن أمهات المؤمنين، وإذا طلق امرأته تبقى حرمته عليها فلا تنكح.

إلى غير ذلك من الخصائص النبوية.

ولنتكلم عن ثلاث من أعظم خصائص نبينا محمد ﷺ، وهي: الإسراء والمعراج، وعموم رسالته، وختم النبوة به ﷺ.

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن (١٤/ ٢١١).

أولاً: الإسراء والمعراج:

قال ﷻ: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾ [الإسراء: ١].

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية الكريمة: (يُمَجِّدُ الله تَعَالَى نَفْسَهُ، وَيُعَظِّمُ شَأْنَهُ، لِقُدْرَتِهِ عَلَى مَا لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ أَحَدٌ سِوَاهُ، فَلَا إِلَهَ غَيْرُهُ ولا رب سواه ﴿ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ يَعْنِي: مُحَمَّداً صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ ﴿لَيْلًا﴾ أَيْ: فِي جُنْحِ اللَّيْلِ ﴿مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ وَهُوَ: مَسْجِدُ مَكَّةَ ﴿إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ وَهُوَ: بَيْتُ الْمَقْدِسِ الَّذِي هُوَ إِيلِيَاءُ، مَعْدِنُ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ لَدُنْ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ عليه السلام؛ وَلِهَذَا جُمِعُوا لَهُ هُنَالِكَ كُلُّهُمْ، فَأمّهم فِي مَحِلّتهم وَدَارِهِمْ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ هُوَ الْإِمَامُ الْأَعْظَمُ، وَالرَّئِيسُ الْمُقَدَّمُ، صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ وَعَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ، وَقَوْلُهُ: ﴿ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾؛ أَيْ: فِي الزُّرُوعِ وَالثِّمَارِ ﴿لِنُرِيَهُۥ﴾؛ أَيْ: مُحَمَّداً ﴿مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾؛ أَي: الْعِظَامُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾ [النّجم: ١٨]، وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾؛ أَي: السميعُ لأقوال عباده: مؤمنهم وكافرهم، مصدقهم وَمُكَذِّبِهِمْ، الْبَصِيرُ بِهِمْ؛ فَيُعْطِي كُلًّا منهم مَا يَسْتَحِقُّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ)[(١)].

والمعراج: مفعال من العروج؛ أي: الآلة التي يعرج فيها؛ أي: يصعد، وهو بمنزلة السلم، لكن لا يعلم كيف هو إلا الله،

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٥/٥).

وحكمه كحكم غيره من المغيبات؛ نؤمن به ولا نشتغل بكيفيته.

والذي عليه أئمة النقل: أن الإسراء كان مرة واحدة بمكة بعد البعثة وقبل الهجرة بسنة، وقيل: بسنة وشهرين، ذكره ابن عبد البر رحمه الله تعالى(١).

صفة الإسراء والمعراج المستفادة من النصوص:

قال الحافظ ابن كثير في «تفسيره»: (وَالْحَقُّ أَنَّهُ عليه السلام أُسْرِيَ بِهِ يَقَظَةً لَا مَناماً مِنْ مَكَّةَ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ رَاكِباً الْبُرَاقَ، فَلَمَّا انْتَهَى إِلَى بَابِ الْمَسْجِدِ رَبَطَ الدَّابَّةَ عِنْدَ الْبَابِ وَدَخَلَهُ، فَصَلَّى فِي قبلته تحية المسجد ركعتين، ثم أُتِيَ بالمعراج وَهُوَ كَالسُّلَّمِ ذُو دَرَجٍ يُرْقَى فِيه، فَصَعِدَ فِيهِ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، ثُمَّ إِلَى بَقِيَّةِ السمٰوات السَّبْعِ، فَتَلَقَّاهُ مِنْ كُلِّ سَمَاءٍ مُقَرَّبُوهَا، وَسَلَّمَ على الأنبياء الذين في السمٰوات بِحَسْبِ مَنَازِلِهِمْ وَدَرَجَاتِهِمْ، حَتَّى مَرَّ بِمُوسَى الْكَلِيمِ فِي السَّادِسَةِ، وَإِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ فِي السَّابِعَةِ، ثُمَّ جاوز منزلتيهما صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ وَعَلَيْهِمَا وَعَلَى سَائِرِ الْأَنْبِيَاءِ، حَتَّى انْتَهَى إِلَى مُسْتَوًى يَسْمَعُ فِيهِ صَرِيفَ الْأَقْلَامِ، أَيْ: أَقْلَامَ الْقَدَرِ بِمَا هُوَ كَائِنٌ، وَرَأَى سِدْرَةَ الْمُنْتَهَى وَغَشِيَهَا مِنْ أَمْرِ اللهِ تَعَالَى عَظَمَةٌ عَظِيمَةٌ مِنْ فَرَاشٍ مِنْ ذهب وألوان متعددة وغشيتها الملائكة، ورأى هناك جِبْرِيلَ عَلَى صُورَتِهِ وَلَهُ سِتُّمِائَةِ جَنَاحٍ وَرَأَى رَفْرَفاً أَخْضَرَ قَدْ سَدَّ الْأُفُقَ، وَرَأَى الْبَيْتَ المعمور، وإبراهيم الخليل باني الكعبة الأرضية مسنداً ظَهْرَهُ إِلَيْهِ؛ لِأَنَّهُ الْكَعْبَةُ السَّمَاوِيَّةُ يَدْخُلُهُ كُلَّ

(١) انظر: زاد المعاد (٣/ ٤٢).

يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفاً مِنَ الْمَلَائِكَةِ ثم يَتَعَبَّدُونَ فِيهِ ثُمَّ لَا يَعُودُونَ إِلَيْهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، ورأى الجنة والنار وفرض الله عَلَيْهِ هُنَالِكَ الصَّلَوَاتِ خَمْسِينَ ثُمَّ خَفَّفَهَا إِلَى خَمْسٍ رَحْمَةً مِنْهُ وَلُطْفاً بِعِبَادِهِ، وَفِي هَذَا اعْتِنَاءٌ عَظِيمٌ بِشَرَفِ الصَّلَاةِ وَعَظَمَتِهَا، ثُمَّ هَبَطَ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ وَهَبَطَ مَعَهُ الْأَنْبِيَاءُ فَصَلَّى بِهِمْ فِيهِ لَمَّا حَانَتِ الصَّلَاةُ، وَيُحْتَمَلُ أَنَّهَا الصُّبْحُ مِنْ يَوْمِئِذٍ، وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَزْعُمُ أَنَّهُ أَمَّهُمْ فِي السَّمَاءِ، وَالَّذِي تَظَاهَرَتْ بِهِ الروايات أنه أمهم ببيت الْمَقْدِسِ، وَلَكِنْ فِي بَعْضِهَا أَنَّهُ كَانَ أَوَّلَ دُخُولِهِ إِلَيْهِ، وَالظَّاهِرُ أَنَّهُ بَعْدَ رُجُوعِهِ إِلَيْهِ؛ لِأَنَّهُ لَمَّا مَرَّ بِهِمْ فِي مَنَازِلِهِمْ جَعَلَ يَسْأَلُ عَنْهُمْ جِبْرِيلَ وَاحِداً وَاحِداً، وَهُوَ يُخْبِرُ بِهِمْ، وَهَذَا هُوَ اللَّائِقُ، لِأَنَّهُ كَانَ أَوَّلاً مَطْلُوباً إِلَى الْجَنَابِ الْعُلْوِيِّ لِيُفْرَضَ عَلَيْهِ وَعَلَى أُمَّتِهِ مَا يَشَاءُ اللهُ تَعَالَى، ثُمَّ لَمَّا فرغ من الذي أريد به، اجتمع فيه ـ أي: بيت المقدس ـ هو وإخوانه من النبيين ثُمَّ أُظْهِرَ شَرَفُهُ وَفَضْلُهُ عَلَيْهِمْ بِتَقْدِيمِهِ فِي الْإِمَامَةِ، وَذَلِكَ عَنْ إِشَارَةِ جِبْرِيلَ عليه السلام لَهُ فِي ذَلِكَ، ثُمَّ خَرَجَ مِنْ بَيْتِ الْمَقْدِسِ فَرَكِبَ الْبُرَاقَ وَعَادَ إِلَى مَكَّةَ بِغَلَسٍ)[(١)]. والله سبحانه وتعالى أعلم.

هل كان الإسراء ببدنه عليه السلام وروحه أو بروحه فقط؟:

اختلف الناس: هل كان الإسراء ببدنه عليه الصلاة والسلام وروحه أو بروحه فقط؟ على قولين:

فالأكثرون من العلماء على أنه أسري ببدنه وروحه يقظة لا مناماً، والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا

(١) انظر: تفسير ابن كثير.

﴿مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ [الإسراء: ١]؛ فالتسبيح إنما يكون عند الأمور العظام؛ فلو كان مناماً لم يكن فيه شيء كبير، ولم يكن مستعظماً، ولما بادرت كفار قريش إلى تكذيبه، ولما ارتدت جماعة ممن كان قد أسلم، وأيضاً فإن العبد عبارة عن مجموع الروح والبدن، وقد قال تعالى: ﴿أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾، وأيضا قال سبحانه: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَـٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ [الإسراء: ٦٠]؛ قال ابن عباس رضي الله عنهما: «هِيَ رُؤْيَا عَيْنٍ أُرِيهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِهِ»(١)، وأيضاً قال سبحانه: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝١٧﴾ [النّجم: ١٧]، والبصر من آلات الذات لا الروح، وأيضا فإنه حمل على البراق، وهو: دابة بيضاء براقة لها لمعان، وإنما يكون هذا للبدن لا للروح؛ لأنها لا تحتاج في حركتها إلى مركب تركب عليه.

وقال آخرون: بل أُسري برسول الله ﷺ بروحه لا بجسده، نقل هذا القول ابن إسحاق عن عائشة ومعاوية رضي الله عنهما، ونقل عن الحسن البصري نحوه، وليس المراد بهذا القول أن الإسراء كان مناماً، بل إن الروح ذاتها أسري بها، ففارقت الجسد، ثم عادت إليه، وهذا من خصائصه؛ فإن غيره لا تنال ذات روحه الصعود الكامل إلى السماء إلا بعد الموت.

والمراد بالمنام: أن ما يراه النائم قد يكون أمثالاً مضروبة للمعلوم في الصورة المحسوسة، فيرى كأنه قد عرج به إلى السماء وذهب به إلى مكة، وروحه لم تصعد ولم تذهب، وإنما ملك الرؤيا ضرب له المثال، والفرق بين الأمرين واضح.

---

(١) رواه البخاري (٣٨٨٨).

واستدل من قال: إن الإسراء كان بروحه لا بجسده بما جاء في رواية شريك بن أبي نمر، عن أنس ﷺ وفيه: «وَاسْتَيْقَظَ وَهُوَ فِي مَسْجِدِ الْحَرَامِ»[(١)].

وقد أجيب عنه بجوابين:

أحدهما: أن هذا معدود من غلطات شريك؛ فقد غلط الحفاظ شريكاً في ألفاظ من حديث الإسراء.

الثاني: أن الاستيقاظ محمول على الانتقال من حال إلى حال.

قال ابن كثير: «وَهَذَا الْحَمْلُ أَحْسَنُ مِنَ التَّغْلِيطِ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ»[(٢)].

إلى أن قال: «... وَنَحْنُ لَا نُنْكِرُ وُقُوعَ مَنَامٍ قَبْلَ الْإِسْرَاءِ، طِبْقَ مَا وَقَعَ بَعْدَ ذَلِكَ، فَإِنَّهُ ﷺ كَانَ لَا يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ، وَقَدْ تَقَدَّمَ مِثْلُ ذَلِكَ فِي حَدِيثِ بَدْءِ الْوَحْيِ، أَنَّهُ رَأَى مِثْلَ مَا وَقَعَ لَهُ يَقَظَةً، مَنَاماً قَبْلَهُ؛ لِيَكُونَ ذَلِكَ مِنْ بَابِ الْإِرْهَاصِ وَالتَّوْطِئَةِ وَالتَّثْبِيتِ وَالْإِينَاسِ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ»[(٣)].

هل تكرر المعراج؟

قال الحافظ ابن كثير بعد أن ساق الأحاديث الواردة في هذا الموضوع: (وَإِذَا حَصَلَ الْوُقُوفُ عَلَى مَجْمُوعِ هَذِهِ الْأَحَادِيثِ

---

(١) في صحيح البخاري (٧٥١٧).
(٢) البداية والنهاية (٤/ ٢٨٢).
(٣) المرجع السابق (٤/ ٢٨٤).

صَحِيحِهَا وحسنها وضعيفها يحصل مَضْمُونُ مَا اتَّفَقَتْ عَلَيْهِ مِنْ مِسْرَى رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنْ مَكَّةَ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ وَأَنَّهُ مَرَّةٌ وَاحِدَةٌ، وَإِنِ اخْتَلَفَتْ عِبَارَاتُ الرُّوَاةِ فِي أَدَائِهِ، أَوْ زَادَ بَعْضُهُمْ فِيهِ أَوْ نَقَصَ مِنْهُ، فَإِنَّ الْخَطَأَ جَائِزٌ عَلَى مَنْ عَدَا الْأَنْبِيَاءِ عليهم السلام.

وَمَنْ جَعَلَ مِنَ النَّاسِ كُلَّ رِوَايَةٍ خَالَفَتِ الْأُخْرَى مَرَّةً عَلَى حِدَةٍ، فَأَثْبَتَ إِسْرَاءَاتٍ مُتَعَدِّدَةً فَقَدْ أَبْعَدَ وَأَغْرَبَ، وَهَرَبَ إِلَى غَيْرِ مَهْرَبٍ، ولم يتحصل عَلَى مَطْلَبٍ.

وَقَدْ صَرَّحَ بَعْضُ الْمُتَأَخِّرِين بِأَنَّهُ عليه السلام أُسْرِيَ بِهِ مَرَّةً مِنْ مَكَّةَ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ فَقَطْ، وَمَرَّةً مِنْ مَكَّةَ إِلَى السَّمَاءِ فَقَطْ، وَمَرَّةً إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ وَمِنْهُ إِلَى السَّمَاءِ، وَفَرِحَ بِهَذَا الْمَسْلَكِ، وَأَنَّهُ قَدْ ظَفِرَ بِشَيْءٍ يَخْلُصُ بِهِ مِنَ الْإِشْكَالَاتِ، وَهَذَا بَعِيدٌ جِدًّا، وَلَمْ يُنْقَلْ هَذَا عَنْ أَحَدٍ مِنَ السَّلَفِ؛ وَلَوْ تَعَدَّدَ هَذَا التَّعَدُّدَ لَأَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ به أمته، ولنقله النَّاسُ عَلَى التَّعَدُّدِ وَالتَّكَرُّرِ)(١).

وزعم بعض الصوفية: (أَنَّ الْمِعْرَاجَ وَقَعَ لَهُ ﷺ ثَلَاثِينَ مَرَّةً، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: أَرْبَعَا وَثَلَاثِينَ مَرَّةً، وَاحِدَةٌ مِنْهَا بِجِسْمِهِ الشَّرِيفِ، وَالْبَاقِي بِرُوحِهِ!!)(٢).

وقيل: كان الإسراء مرتين؛ مرة يقظة، ومرة مناماً(٣). وأصحاب هذا القول كأنهم أرادوا الجمع بين حديث شريك وقوله:

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير.
(٢) انظر: لوامع الأنوار البهية للسفاريني (٢/ ٢٨٩).
(٣) انظر: زاد المعاد (٣/ ٤٢).

«**واستيقظ**» وبين سائر الروايات، وكذلك منهم من قال: بل كان مرتين؛ مرة قبل الوحي ومرة بعده!! ومنهم من قال: بل كان ثلاث مرات؛ مرة قبل الوحي ومرتين بعده!! وكلما اشتبه عليهم لفظة؛ زادوا مرة للتوفيق.

قال ابن القيم: (ويا عجباً لهؤلاء الذين زعموا أنه كان مراراً؛ كيف ساغ لهم أن يظنوا أنه في كل مرة تُفرض عليهم الصلوات خمسين، ثم يتردد بين ربه وبين موسى حتى تصير خمساً، فيقول: أمضيت فريضتي وخففت عن عبادي، ثم يعيدها في المرة الثانية إلى خمسين، ثم يحطها إلى خمس؟!)[١].

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَكَانَ بَعْضُ الرُّوَاةِ يَحْذِفُ بَعْضَ الْخَبَرِ لِلْعِلْمِ بِهِ، أَوْ يَنْسَاهُ أَوْ يَذْكُرُ مَا هُوَ الْأَهَمُّ عِنْدَهُ، أَوْ يَبْسُطُ تَارَةً فَيَسُوقُهُ كُلَّهُ، وَتَارَةً يُحَدِّثُ عن مُخَاطِبَه بِمَا هُوَ الْأَنْفَعُ لَهُ، وَمَنْ جَعَلَ كُلَّ رِوَايَةٍ إِسْرَاءً عَلَى حِدَةٍ ـ كَمَا تَقَدَّمَ عَنْ بَعْضِهِمْ ـ فَقَدْ أَبْعَدَ جِدًّا؛ وَذَلِكَ أَنَّ كُلَّ السِّيَاقَاتِ فِيهَا السَّلَامُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ، وَفِي كُلٍّ مِنْهَا يعرفه بِهِمْ، وَفِي كُلِّهَا يُفْرَضُ عَلَيْهِ الصَّلَوَاتُ، فَكَيْفَ يُمْكِنُ أَنْ يُدَّعَى تَعَدُّدُ ذَلِكَ؟ هَذَا فِي غَايَةِ الْبُعْدِ وَالِاسْتِحَالَةِ، وَاللهُ أَعْلَمُ)[٢].

ثانياً: عموم رسالة محمد ﷺ والرد على من أنكره:

يقول جماعة من اليهود والنصارى ومن قلدهم: إن محمداً ﷺ مرسل إلى العرب دون أهل الكتاب، ويلبسون بقولهم: إن كان دينه

(١) انظر: زاد المعاد (٣/ ٤٢).

(٢) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٢٩٠).

حقًّا فديننا أيضاً حق، والطرق إلى الله تعالى متنوعة، ويشبهون ذلك بمذاهب الأئمة؛ فإنه وإن كان أحد المذاهب راجحاً فأهل المذاهب الأخرى ليسوا كفاراً.

وهذا القول ظاهر البطلان؛ لأنهم لما صدقوا برسالته لزمهم تصديقه في كل ما يخبر به، وقد قال: إنه رسول الله إلى الناس عامة، والرسول لا يكذب، فلزم تصديقه حتماً.

وقد أرسل النبي ﷺ رسله وبعث كتبه في أقطار الأرض إلى كسرى وقيصر والنجاشي والمقوقس وسائر ملوك الأطراف يدعو إلى الإسلام، ثم مقاتلته لأهل الكتاب وسبي ذراريهم واستباحة دمائهم وضرب الجزية عليهم أمر معلوم بالتواتر والضرورة؛ فإنه دعا المشركين إلى الإيمان به، ودعا أهل الكتاب إلى الإيمان به، وجاهد أهل الكتاب كما جاهد المشركين؛ فجاهد بني قينقاع وبني النضير وبني قريظة وأهل خيبر ـ وهؤلاء كلهم يهود ـ، وسبى ذريتهم ونساءهم، وغنم أموالهم، وغزا النصارى عام تبوك بنفسه وبسراياه، حتى قتل في محاربتهم زيد بن حارثة مولاه وجعفر وغيرهما من أهله، وضرب الجزية على نصارى نجران.

وكذلك خلفاؤه الراشدون من بعده جاهدوا أهل الكتاب، وقاتلوا من قاتلهم، وضربوا الجزية على من أعطاها منهم عن يد وهم صاغرون.

وهذا القرآن الذي يعرف كل أحد أنه الكتاب الذي جاء به مملوء من دعوة أهل الكتاب إلى اتباعه وتكفير من لم يتبعه منهم ولعنه كما جاء بتكفير من لم يتبعه من المشركين وذمه.

فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم﴾ [النِّسَاء: ٤٧]، وفي القرآن من قوله: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾، ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ ما لا يحصى إلا بكلفة، وقال تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ﴾ [البيّنة: ١]، إلى قوله: ﴿هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ۝٧﴾ [البيّنة: ٧]، ومثل هذا في القرآن كثير جدًّا.

وقد قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٢٨﴾ [سَبَإ: ٢٨]، واستفاض عنه ﷺ قوله: «**أُعْطِيتُ خَمْساً لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي**»، وذكر منها أنه: «**كَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً**»(١)، بل تواتر عنه ﷺ أنه بعث إلى الجن والإنس.

فإذا علم بالاضطرار وبالنقل المتواتر ـ الذي تواتر كما تواتر ظهور دعوته ـ أنه دعا أهل الكتاب إلى الإيمان به، وأنه حكم بكفر من لم يؤمن منهم، وأنه أمر بقتالهم حتى يسلموا أو يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون، وأنه قاتلهم بنفسه وسراياه، وأنه ضرب الجزية عليهم وقتل مقاتلتهم وسبى ذراريهم وغنم أموالهم؛ فحاصر بني قينقاع ثم أجلاهم إلى أذرعات، وحاصر بني النضير ثم أجلاهم إلى خيبر، وفي ذلك أنزل الله سورة الحشر، ثم حاصر بني قريظة لما نقضوا العهد وقتل رجالهم وسبى حريمهم وأخذ أموالهم، وقد

(١) أخرجه البخاري (٣٣٥).

ذكره الله تعالى في سورة الأحزاب، وقاتل أهل خيبر حتى فتحها، وقتل من قتل من رجالهم، وسبى من سبى من حريمهم، وقسم أرضهم على المؤمنين، وقد ذكره الله تعالى في سورة الفتح، وضرب الجزية على النصارى، وفيهم أنزل الله سورة آل عمران، وغزا النصارى عام تبوك، وفيها أنزل الله سورة براءة، وفي عامة السور المدنية مثل البقرة وآل عمران والنساء والمائدة وغير ذلك من السور المدنية من دعوة أهل الكتاب وخطابهم ما لا يتسع المقام للإفاضة فيه.

ثم خلفاؤه من بعده أبو بكر وعمر ومن معهما من المهاجرين والأنصار الذين يعلم أنهم كانوا أتبع الناس له وأطوعهم لأمره وأحفظهم بعهده، وقد غزوا الروم كما غزوا فارس، وقاتلوا أهل الكتاب كما قاتلوا المجوس؛ فقاتلوا من قاتلهم، وضربوا الجزية على من أداها منهم عن يد وهم صاغرون.

ومن الأحاديث الصحيحة عنه قوله ﷺ: «**وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ يَهُودِي وَلَا نَصْرَانِي ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ**»(١). قال سعيد بن جبير رحمه الله تعالى: تصديق ذلك في كتاب الله تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾ [هود: ١٧]، ومعنى الحديث متواتر عنه معلوم بالاضطرار.

فإذا كان الأمر كذلك لزم أنه ﷺ رسولٌ إلى كل الطوائف،

(١) أخرجه مسلم (١٥٣).

فإنه يقرر بأنه رسول الله إلى أهل الكتاب وغيرهم، ورسول الله لا يكذب، ولا يقاتل الناس على طاعته بغير أمر الله، ولا يستحل دماءهم وأموالهم وديارهم بغير إذن الله؛ فمن قال: إن الله أمره بذلك، ولم يكن الله أمره كان كاذباً مفترياً ظالماً، ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ﴾ [الأنعام: ٩٣]، وكان مع كونه ظالماً مفترياً من أعظم المريدين علوًّا في الأرض وفساداً، وكان شرًّا من الملوك الجبابرة الظالمين، فإن الملوك الجبابرة يقاتلون الناس على طاعتهم، ولا يقولون: إنا رسل الله إليكم، ومن أطاعنا دخل الجنة، ومن عصانا دخل النار، بل فرعون وأمثاله لا يدخلون في مثل هذا، ولا يدخل في هذا إلا نبي صادق أو متنبئ كذاب؛ كمسيلمة والأسود وأمثالهما.

فإذا علم أنه نبي لزم أن يكون ما أخبر به عن الله حقًّا، وإذا كان رسول الله وجبت طاعته في كل ما يأمر به؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٦٤]، وإذا أخبر أنه رسول الله إلى أهل الكتاب وأنه تجب عليهم طاعته كان ذلك حقًّا.

ومن أقر بأنه رسول الله وأنكر أن يكون مرسلاً إلى أهل الكتاب فهو بمنزلة من يقول: إن موسى كان رسولاً، ولم يكن يجب أن يدخل أرض الشام، ولا يخرج بني إسرائيل من مصر، وأن الله لم يأمره بذلك، وأنه لم يأمره بالسبت، ولا أنزل عليه التوراة، ولا كلمه على الطور. وبمنزلة من يقول: إن عيسى كان رسول الله، ولم

يبعث إلى بني إسرائيل، ولا كان يجب على بني إسرائيل طاعته، وأنه ظلم اليهود، وأمثال ذلك من المقالات التي هي أكفر المقالات؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴿١٥١﴾﴾ [النِّسَاء: ١٥٠ ـ ١٥١].

ثالثاً: ختم الرسالات ببعثة محمد ﷺ:

لقد ختم الله ﷻ النبوة بنبوة محمد ﷺ:

قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٖ مِّن رِّجَالِكُمۡ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَۗ﴾ [الأحزَاب: ٤٠]، وقال ﷺ: «**أَنَا خَاتِمُ النَّبِيِّينَ**»(١)، وقال: «**لَا نَبِيَّ بَعْدِي**»(٢)، وذلك يستلزم ختم المرسلين؛ إذ ختم الأعم يستلزم ختم الأخص.

ومعنى ختم النبوة بنبوته عليه الصلاة والسلام: أنه لا تبدأ نبوة ولا تشرع شريعة بعد نبوته وشرعته.

وأما نزول عيسى عليه السلام في آخر الزمان: فلا ينافي ذلك؛ لأن عيسى عليه السلام إذا نزل إنما يتعبد بشريعة نبينا محمد ﷺ دون شريعته المتقدمة؛ لأنها منسوخة، فلا يتعبد إلا بهذه الشريعة أصولاً وفروعاً، فيكون خليفة لنبينا ﷺ، وحاكماً من حكام ملته بين أمته.

فهذا النبي الخاتم للأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين

(١) أخرجه البخاري (٣٥٣٥).
(٢) أخرجه البخاري (٣٤٥٥).

قد بعث بخير كتاب وأتم شريعة وأفضل ملة وأكمل دين، جاء بشريعة كافية لحاجة الخليقة في كل زمان ومكان إلى أن تقوم الساعة، وكمل به عقد النبيين؛ فلا نبي بعده.

وفي «الصحيحين» وغيرهما من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما عن النبي ﷺ: أنه قال: «**مَثَلِي وَمَثَلُ الْأَنْبِيَاءِ كَرَجُلٍ بَنَى دَاراً فَأَكْمَلَهَا وَأَحْسَنَهَا إِلَّا مَوْضِعَ لَبِنَةٍ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَدْخُلُونَهَا وَيَتَعَجَّبُونَ وَيَقُولُونَ: لَوْلَا مَوْضِعُ اللَّبِنَةِ!**»[(١)].

وفي «الصحيحين» أيضاً من حديث أبي هريرة رضي الله عنه بمعناه، وفيه: «**فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ بِهِ وَيَعْجَبُونَ لَهُ وَيَقُولُونَ هَلَّا وُضِعَتْ هَذِهِ اللَّبِنَةُ؟**» قَالَ: «**فَأَنَا اللَّبِنَةُ وَأَنَا خَاتِمُ النَّبِيِّينَ**»[(٢)].

وقال ﷺ: «**كَانَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ تَسُوسُهُمُ الْأَنْبِيَاءُ؛ كُلَّمَا هَلَكَ نَبِيٌّ خَلَفَهُ نَبِيٌّ، وَإِنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدِي وَسَيَكُونُ خُلَفَاءُ فَيَكْثُرُونَ**»[(٣)].

وعن جابر بن سمرة رضي الله عنه؛ قال: (رَأَيْتُ خَاتِماً فِي ظَهْرِ رَسُولِ اللهِ ﷺ كَأَنَّهُ بَيْضَةُ حَمَامٍ)[(٤)].

قال الحافظ رحمه الله **في «الفتح»**: (قَالَ الْقُرْطُبِيُّ: اتَّفَقَتِ الْأَحَادِيثُ الثَّابِتَةُ عَلَى أَنَّ خَاتَمَ النُّبُوَّةِ كَانَ شَيْئاً بَارِزاً أَحْمَرَ عِنْدَ كَتِفِهِ الْأَيْسَرِ قَدْرُهُ إِذَا قُلِّلَ قَدْرُ بَيْضَةِ الْحَمَامَةِ وَإِذَا كُبِّرَ جُمْعُ الْيَدِ)[(٥)] وَاللهُ أَعْلَمُ[(٦)].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٥٣٤)، ومسلم (٢٢٨٦). زاد مسلم: «**جِئْتُ فَخَتَمْتُ الْأَنْبِيَاءَ**» (٢٢٨٧).

(٢) أخرجه البخاري (٣٥٣٥)، ومسلم (٢٢٨٦).

(٣) رواه البخاري في صحيحه (٣٤٥٥).

(٤) رواه مسلم (٢٣٤٤).

(٥) يعني: مقدار جمع اليد.

(٦) فتح الباري (٦/ ٥٦٣).

قال العلماء: (السِّرُّ فِي ذَلِكَ أَنَّ الْقَلْبَ فِي تِلْكَ الْجِهَةِ)[(١)].

قال السهيلي: (وُضِعَ خَاتَمُ النُّبُوَّةِ عِنْدَ نُغْضِ كَتِفِهِ ﷺ لِأَنَّهُ مَعْصُومٌ مِنْ وَسْوَسَةِ الشَّيْطَان وَذَلِكَ الْموضع يدْخل مِنْهُ الشَّيْطَان)[(٢)].

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: (فَمِنْ رَحْمَةِ اللهِ تَعَالَى بِالْعِبَادِ إِرْسَالُ مُحَمَّدٍ ﷺ إِلَيْهِمْ، ثُمَّ مِنْ تَشْرِيفِهِ لَهُمْ خَتْمُ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ بِهِ وَإِكْمَالُ الدِّينِ الْحَنِيفِ لَهُ، وَقَدْ أخبر الله تبارك وتعالى في كتابه ورسوله ﷺ فِي السُّنَّةِ الْمُتَوَاتِرَةِ عَنْهُ أَنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدَهُ، لِيَعْلَمُوا أَنَّ كُلَّ مَنِ ادَّعَى هَذَا المقام بعده فهو كذاب وأفاك دجال ضال مضل، ولو تَخَرَّف وَشَعْبَذَ وَأَتَى بِأَنْوَاعِ السِّحْرِ وَالطَّلَاسِمِ وَالنَّيْرَنجِيَّاتِ فَكُلُّهَا مُحَالٌ وَضَلَالٌ عِنْدَ أُولِي الْأَلْبَابِ؛ كَمَا أَجْرَى اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَى يَدِ الْأَسْوَدِ الْعَنْسِيِّ بِالْيَمَنِ وَمُسَيْلِمَةَ الْكَذَّابِ بِالْيَمَامَةِ مِنَ الْأَحْوَالِ الْفَاسِدَةِ وَالْأَقْوَالِ الْبَارِدَةِ مَا عَلِمَ كُلُّ ذِي لُبٍّ وَفَهْمٍ وَحِجًى أَنَّهُمَا كَاذِبَانِ ضَالَّانِ لَعَنَهُمَا اللهُ، وَكَذَلِكَ كُلُّ مُدَّعٍ لِذَلِكَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُخْتَمُوا بِالْمَسِيحِ الدَّجَّالِ، فَكُلُّ وَاحِدٍ من هؤلاء الكذابين يخلق الله مَعَهُ مِنَ الْأُمُورِ مَا يَشْهَدُ الْعُلَمَاءُ وَالْمُؤْمِنُونَ بِكَذِبِ مَنْ جَاءَ بِهَا، وَهَذَا مِنْ تَمَامِ لُطْفِ اللهِ تَعَالَى بِخَلْقِهِ، فَإِنَّهُمْ بِضَرُورَةِ الْوَاقِعِ ـ أي: الكذابون ـ لَا يَأْمُرُونَ بِمَعْرُوفٍ وَلَا يَنْهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ؛ إِلَّا عَلَى سَبِيلِ الِاتِّفَاقِ أَوْ لِمَا لَهُمْ فِيهِ مِنَ الْمَقَاصِدِ إِلَى غَيْرِهِ، وَيَكُونُ فِي غَايَةِ الْإِفْكِ وَالْفُجُورِ فِي أَقْوَالِهِمْ وَأَفْعَالِهِمْ، كَمَا

(١) انظر: فتح الباري (٦/ ٥٦٣).
(٢) انظر: فتح الباري (٦/ ٥٦٣).

قَالَ تَعَالَى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾﴾ [الشعراء: ٢٢١ ـ ٢٢٢].

وهذا بخلاف حال الأنبياء عليهم الصلاة والسلام؛ فَإِنَّهُمْ فِي غَايَةِ وَالصِّدْقِ وَالرُّشْدِ وَالِاسْتِقَامَةِ وَالْعَدْلِ فِيمَا يَقُولُونَهُ وَيَفْعَلُونَهُ وَيَأْمُرُونَ بِهِ وَيَنْهَوْنَ عَنْهُ، مَعَ مَا يُؤَيِّدُونَ بِهِ مِنَ الْخَوَارِقِ لِلْعَادَاتِ وَالْأَدِلَّةِ الْوَاضِحَاتِ وَالْبَرَاهِينِ الْبَاهِرَاتِ، فَصَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ دَائِماً مُسْتَمِرًّا مَا دَامَتِ الْأَرْضُ والسمٰوات)[(١)].

وليس الناس بحاجة إلى بعثة نبي بعد محمد ﷺ؛ لكمال شريعته ووفائها بحاجة البشرية، وماذا عسى أن يقتضي بعثة نبي بعد محمد ﷺ؟!.

وإن قيل: (إن الأمة قد فسدت فالعمل على إصلاحها يحتاج إلى بعثة نبي جديد، قلنا: هل بعث نبي في الدنيا لمجرد الإصلاح حتى يبعث في هذا الزمان لمجرد هذا الغرض؟ إن النبي لا يبعث إلا ليوحى إليه، ولا تكون الحاجة إلى الوحي إلا لتبليغ رسالة جديدة، أو إكمال رسالة متقدمة أو لتطهيرها من شوائب التحريف والتبديل، فلما قضت كل هذه الحاجات إلى الوحي بحفظ القرآن وسُنَّة محمد ﷺ وإكمال الدين على يده ﷺ لم تبق الحاجة الآن إلى الأنبياء، وإنما هي إلى المصلحين)[(٢)] انتهى. بتصرف يسير من الرد على القاديانية.

---

(١) تفسير سورة الأحزاب، الآية (٤٠).

(٢) انظر: كشف القناع عن وجه القاديانية ومخططاتها لأبي الأعلى المودودي (ص٢٠٦).

وقد أعلن الله ختم النبوات والرسالات بنبوة محمد ﷺ في قوله: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ [الأحزاب: ٤٠].

ومن البديهي الذي لا يقبل الاعتراض أن استمرار بقاء القرآن الحاوي بشرائعه وأحكامه أسس مطالب البشر التشريعية كلها محفوظاً كما أنزل على محمد ﷺ، مع استمرار بقاء سيرة الرسول وسُنَّته المبينة لمعاني القرآن صحيحة ثابتة هو بمثابة استمرار وجود الرسول ﷺ فينا على قيد الحياة؛ قال تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النِّسَاء: ٥٩]، والرد إلى الله هو الرد إلى كتابه، والرد إلى الرسول ﷺ بعد وفاته هو الرد إلى سُنَّته، وبذلك فقد أصبح العالم بغنية عن بعث أنبياء، وإرسال رسل وتجديد شرائع للناس بعد محمد صلوات الله وسلامه عليه؛ لأنه لو بعث الله رسلاً وأنبياء فلن يحدثوا شيئاً ولن يزيدوا على ما جاء به الرسول محمد ﷺ من أسس في العقيدة أو في التشريع؛ فقد أكمل الله الدين وأتم الشريعة؛ حيث يقول: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ [المَائدة: ٣]. وإن كان الغرض من إرسال الرسل هو نشر هذه الرسالة ودعوة الناس إليها فهذه وظيفة علماء المسلمين؛ فعليهم أن يقوموا بتبليغ هذه الدعوة للناس.

فمن ادعى عدم ختم النبوة بعد محمد ﷺ، أو صدّق من يدّعي ذلك فهو مرتد عن دين الإسلام، ولهذا حكم الصحابة على من ادّعى النبوة بعد محمد ﷺ بالردة، وقاتلوه هو وأتباعه، وسمّوهم

بالمرتدين، وهذا ما أجمع عليه علماء المسلمين سلفاً وخلفاً.

الحكمة في ختم النبوة بمحمد ﷺ:

كانت نبوة محمد ﷺ خاتمة للنبوات؛ لأنه بعث إلى الناس كافة إلى أن تقوم الساعة؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٢٨﴾ [سَبَإ: ٢٨]، ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ١﴾ [الفُرقان: ١]، ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا﴾ [الأعرَاف: ١٥٨].

وإذا كانت رسالته عامة للناس فلا بد أن تكون شريعته كاملة شاملة لمصالح البشر، لا يحتاج معها إلى شريعة أخرى وبعثة نبي آخر؛ كما قال تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ [المَائدة: ٣]، وقال تعالى: ﴿وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ ٨٩﴾ [النّحل: ٨٩]، وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِۖ﴾ [المَائدة: ٤٨].

قال الشيخ أبو الأعلى المودودي في رده على القاديانية:

(ونحن إذا تتبعناه ـ أي: القرآن ـ بغية أن نعرف الأسباب التي لأجلها ظهرت الحاجة إلى إرسال نبي في أمة من أمم الأرض علمنا أن هذه الأسباب أربعة:

١ ـ كانت هذه الأمة ما جاءها من الله نبي من قبل، ولا كان لتعاليم نبي مبعوث في أمة غيرها أن تصل إليها.

٢ ـ كان قد أرسل إليها نبي من قبل، ولكن كان تعليمه قد انمحى أو لعبت به يد النسيان أو التحريف حتى لم يعد بإمكان الناس أن يتبعوه اتباعاً كاملاً صحيحاً.

٣ ـ كان قد أُرسِل إليها نبي من قبل، ولكن تعاليمه ما كانت شاملة لمن يأتي بعده وافية لمتطلبات عصرهم، فألحت الحاجة إلى المزيد من الأنبياء لإكمال الدين.

٤ ـ كان قد أُرسِل إليها نبي، ولكن كانت الحاجة تقتضي أن يُرْسَل معه نبي آخر لتصديقه وتأييده.

وكل سبب من هذه الأسباب الأربعة قد زال بعد النبي محمد ﷺ؛ فلا حاجة للأمة الإسلامية ولا لأية أمة أخرى في العالم إلى أن يرسل إليها نبي جديد بعد محمد ﷺ، وقد بيَّن الله في كتابه أن بعثة النبي محمد ﷺ إلى الناس كافة ولهداية الناس عامة؛ قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعرَاف: ١٥٨].

وأيضاً مما يدل عليه تاريخ الحضارة في الدنيا أن الظروف في العالم ما زالت منذ بعثته ﷺ ولا تزال مهيأة بحيث من الممكن أن تصل دعوته إلى كل صقع من أصقاع العالم، وإلى كل أمة من أممه؛ فلا حاجة بعد ذلك إلى نبي جديد إلى أمة من أمم الدنيا أو صقع من أصقاعها فبذلك قد زال السبب الأول.

ومما يشهد به القرآن كذلك وتؤيده عليه ذخيرة كتب الحديث والسيرة أن التعليم الذي جاء به النبي ﷺ لا يزال حيًّا محفوظاً على

صورته الحقيقية ولم تلعب به يد النسيان ولا التحريف والتبديل.

أما الكتاب الذي جاء به: فما وقع التحريف ولا النقص ولا الزيادة في أي حرف من أحرفه، ولا من الممكن أن يقع إلى يوم القيامة.

وأما الهداية التي أعطاها للناس بأقواله وأفعاله: فإننا نجد آثارها حتى اليوم حية مصونة كأننا أمام شخصه ﷺ وفي زمانه؛ فبذلك قد زال السبب الثاني.

ثم إن القرآن ليصرح كذلك بأن الله تعالى قد أكمل دينه بواسطة محمد ﷺ؛ فبذلك قد زال السبب الثالث أيضاً.

ثم إن الحاجة لو كانت تقتضي إرسال نبي مع النبي محمد ﷺ لتأييده وتصديقه لأرسل في زمانه ﷺ؛ فبذلك قد زال السبب الرابع أيضاً؛ فأي سبب خاص من بعد زوال هذه الأسباب الأربعة...»[١]. انتهى المقصود من كلامه.

❁ ❁ ❁

(١) انظر: كشف القناع عن وجه القاديانية ومخططاتها (ص٢٠٤ ـ ٢٠٦).

كرامات الأولياء

كنا قد تكلمنا عن آيات الأنبياء والفرق بينها وبين خوارق السحرة والكهان وعجائب المخترعات الحديثة وما لها من الآثار.

وسنتكلم ـ إن شاء الله ـ عن كرامات الأولياء؛ لأن لها ارتباطاً وثيقاً بآيات الأنبياء، ونبين الفرق بينها وبين خوارق السحرة والمشعوذين أيضاً، فنقول:

أولياء الله ﷻ هم المؤمنون المتقون؛ كما قال الله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [يُونس: ٦٢ ـ ٦٣].

فكل مؤمن تقي فهو ولي لله ﷻ بقدر إيمانه وتقواه، وقد يظهر الله على يديه من خوارق العادات، وهي ما يسمى بالكرامات.

فالكرامة: أمر خارق للعادة يجريه الله على يد بعض الصالحين من أتباع الرسل إكراماً من الله له ببركة اتباعه للرسل صلوات الله وسلامه عليهم، وليس كل ولي تحصل له كرامة، وإنما تحصل لبعضهم؛ إما لتقوية إيمانه، أو لحاجته، أو لإقامة حجة على خصمه المعارض في الحق.

والأولياء الذين لم تظهر لهم كرامة لا يدل ذلك على نقصهم،

كما أن الذين وقعت لهم الكرامة لا يدل ذلك على أنهم أفضل من غيرهم.

وكرامات الأولياء حق بإجماع أئمة الإسلام والسُّنَّة والجماعة، وقد دل عليها القرآن الكريم والسُّنَّة الصحيحة، وإنما ينكرها أهل البدع من المعتزلة والجهمية ومن تابعهم، وهذا إنكار لما هو ثابت في القرآن والسُّنَّة.

ففي القرآن الكريم: قصة أصحاب الكهف، وقصة مريم.

وفي السُّنَّة الصحيحة: مثل نزول الملائكة كهيئة الظلة فيها أمثال السرج لاستماع قراءة أسيد بن حضير رضي الله عنه[(١)]، وسلام الملائكة على عمران بن حصين رضي الله عنه[(٢)]، ولها أمثلة كثيرة.

ومن أراد الاطلاع على هذه المسألة فليراجع كتاب «الفرقان بين أولياء الرحمٰن وأولياء الشيطان» لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله.

وقد حصل في موضوع كرامات الأولياء التباس وخلط عظيم على بعض الناس:

فطائفة أنكروا وقوعها ونفوها بالكلية، وهم الجهمية والمعتزلة ومن تبعهم، فخالفوا النصوص وكابروا الواقع.

وطائفة غلت في إثباتها، وهم العوام المغرر بهم وعلماء الضلال، فأثبتوا الكرامات للفجرة والفساق ومن ليسوا من أولياء الله بل هم من أولياء الشيطان، واعتمدوا في إثبات ذلك على الحكايات

(١) البخاري (٥٠١٨).

(٢) صحيح مسلم (١٢٢٦).

المكذوبة والمنامات والخوارق الشيطانية، فادعوا الكرامات للسحرة والمشعوذين والدجالين من مشايخ الطرق الصوفية والمخرفين، حتى عبدوهم من دون الله أحياءً وأمواتاً، وبنوا الأضرحة على قبور من يزعمون لهم الولاية ممن حيكت لهم الدعايات العريضة، ونسب إليهم التصرف في الكون وقضاء حوائج من دعاهم وطلب منهم المدد واستغاث بهم، وسموهم الأقطاب والأغواث بسبب تلك الكرامات المزعومة والحكايات المكذوبة.

فقد اتخذت دعوى الكرامات ذريعة لعبادة من نسبت إليه، وربما سموا الشعوذة والتدجيل والسحر كرامة؛ لأنهم لا يفرقون بين الكرامة والأحوال الشيطانية، ولا يفرقون بين أولياء الرحمٰن وأولياء الشيطان، وإلا فمن المعلوم أنه حتى من ثبت أنه ولي لله بنص من القرآن أو السُّنَّة، وإن جرى على يده كرامة من الله فإنه لا يجوز أن يعبد من دون الله، ولا أن يتبرك به أو بقبره؛ لأن العبادة حق لله وحده.

وهناك فروق بين كرامات الأولياء وخوارق السحرة والمشعوذين والدجالين:

منها: أن كرامات الأولياء سببها التقوى والعمل الصالح، وأعمال المشعوذين سببها الكفر والفسوق والفجور.

ومنها: أن كرامات الأولياء يستعان بها على البر والتقوى أو على أمور مباحة، وأعمال المشعوذين والدجالين يستعان بها على أمور محرمة؛ من الشرك والكفر وقتل النفوس.

ومنها: أن كرامات الأولياء تقوى بذكر الله وتوحيده، وخوارق السحرة والمشعوذين تبطل أو تضعف عند ذكر الله وقراءة القرآن ممن كان على التوحيد.

فتبين بهذا أن بين كرامات الأولياء وتهريجات المشعوذين والدجالين فروقاً تميز الحق من الباطل.

وكما ذكرنا فإن أولياء الله حقًّا لا يستغلون ما يجريه الله على أيديهم من الكرامات للنصب والاحتيال ولفت أنظار الناس إلى تعظيمهم، وإنما تزيدهم تواضعاً ومحبة لله وإقبالاً على عبادته، بخلاف هؤلاء المشعوذين والدجالين؛ فإنهم يستغلون هذه الأحوال الشيطانية التي تجري على أيديهم لجلب الناس إلى تعظيمهم والتقرب إليهم وعبادتهم من دون الله ﷻ، حتى كوّن كل واحد منهم له طريقة خاصة وجماعة تسمى باسمه؛ كالشاذلية، والرفاعية، والنقشبندية... إلى غير ذلك من الطرق الصوفية.

والحاصل: أن الناس انقسموا في موضوع الكرامات إلى ثلاث أقسام:

قسم غلوا في نفيها حتى أنكروا ما هو ثابت في الكتاب والسُّنَّة من الكرامات الصحيحة التي تجري على وفق الحق لأولياء الله المتقين.

وقسم غلوا في إثبات الكرامات حتى اعتقدوا أن السحر والشعوذة والدجل من الكرامات، واستغلوها وسيلة للشرك والتعلق بأصحابها من الأحياء والأموات، حتى نشأ عن ذلك الشرك الأكبر

بعبادة القبور وتقديس الأشخاص والغلو فيهم؛ لما يزعمونه لهم من الكرامات والخرافات.

والقسم الثالث ـ وهم أهل السُّنَّة والجماعة ـ توسطوا في موضوع الكرامات بين الإفراط والتفريط، فأثبتوا ما أثبته الكتاب والسُّنَّة، ولم يغلوا في أصحابها، ولم يتعلقوا بهم من دون الله، ولا يعتقدون فيهم أنهم أفضل من غيرهم، بل هناك من أولياء الله من هو أفضل منهم، ولم تجر على يديه كرامة، ونفوا ما خالف الكتاب والسُّنَّة من الدجل والشعوذة والنصب والاحتيال، واعتقدوا أنه من عمل الشيطان، وليس هو من كرامات الأولياء.

فللَّه الحمد والمنة على وضوح الحق وافتضاح الباطل؛ ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾﴾ [الأنفَال: ٤٢].

❁ ❁ ❁

الأصل الخامس

الإيمان باليوم الآخر

المبحث الأول

الإيمان بأشراط الساعة

لمَّا كان الإيمان باليوم الآخر مسبوقاً بعلامات تدل على قرب وقوعه تسمى (أشراط الساعة) ناسب أن نذكر أهمها؛ لأن الإيمان بها واجب، وهو من صلب العقيدة، قال تعالى: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ۝١﴾ [القَمَر: ١]، وقال تعالى: ﴿فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأۡتِيَهُم بَغۡتَةٗۖ فَقَدۡ جَآءَ أَشۡرَاطُهَاۚ﴾ [محَمَّد: ١٨]؛ أي: علاماتها وأماراتها، واحدها (شرَط) بفتح الراء، وهو العلامة، أما الشرْط بالسكون: فهو في اللغة: الالتزام، وجمعه شروط.

قال الإمام البغوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وكانت بعثة النبي ﷺ من أشراط الساعة)[1].

وقال تعالى: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٞ ۝١٧﴾ [الشّورىٰ: ١٧]، وقال تعالى: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأۡتِيَهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا

(١) انظر: تفسير سورة محمد، الآية (١٨).

يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾﴾ [الزّخرُف: ٦٦]، ولقرب وقوع يوم القيامة وتحققه جعله سبحانه كغد، قال تعالى: ﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ [الحَشر: ١٨]، والغد: هو ما بعد يومك، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾﴾ [المعَارج: ٦ ـ ٧].

وروى الشيخان والترمذي وصححه من حديث أنس مرفوعاً: «**بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ**» وأشار بالسبابة والوسطى(١). وفي «صحيح البخاري» عن ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعاً: «**إِنَّمَا أَجَلُكُمْ فِي أَجَلِ مَنْ خَلَا مِنَ الْأُمَمِ مَا بَيْنَ صَلَاةِ الْعَصْرِ إِلَى مَغْرِبِ الشَّمْسِ**»(٢)، وفي لفظ: «**إِنَّمَا بَقَاؤُكُمْ فِيمَا سَلَفَ قَبْلَكُمْ مِنَ الْأُمَمِ كَمَا بَيْنَ صَلَاةِ الْعَصْرِ إِلَى غُرُوبِ الشَّمْسِ**»(٣)، ولما كان أمر الساعة شديداً كان الاهتمام بشأنها أكثر من غيرها، ولهذا أكثر النبي ﷺ من بيان أشراطها وأماراتها، وأخبر عما يأتي بين يديها من الفتن، ونبه أمته وحذرهم؛ ليتأهبوا لذلك.

أما وقت مجيئها: فهو مما انفرد الله تعالى بعلمه وأخفاه عن العباد لأجل مصلحتهم؛ ليكونوا على استعداد دائماً؛ كما أخفى سبحانه عن كل نفس وقت حلول أجلها؛ لتكون دائماً على أهبة الاستعداد والانتظار، ولا تتكاسل عن العمل.

قال العلامة السفاريني: (ثُمَّ اعْلَمْ أَنَّ أَشْرَاطَ السَّاعَةِ وَأَمَارَاتِهَا تَنْقَسِمُ إِلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ:

(١) أخرجه مسلم (٨٦٧)، والبخاري (٥٣٠١)، والترمذي (٢٢١٣).
(٢) البخاري (٣٤٥٩).
(٣) أخرجه البخاري (٥٥٧).

قِسْمٌ ظَهَرَ وَانْقَضَى وَهِيَ الْأَمَارَاتُ الْبَعِيدَةُ.

وَقِسْمٌ ظَهَرَ وَلَمْ يَنْقَضِ بَلْ لَا يَزَالُ فِي زِيَادَةٍ حَتَّى إِذَا بَلَغَ الْغَايَةَ ظَهَرَ.

والْقِسْمُ الثَّالِثُ: وَهِيَ الْأَمَارَاتُ الْقَرِيبَةُ الْكَبِيرَةُ الَّتِي تَعْقُبُهَا السَّاعَةُ، وَأَنَّهَا تَتَابَعُ كَنِظَام خَرَزَاتٍ انْقَطَعَ سِلْكُهَا.

فَالْأُولَى ـ أَعْنِي: الَّتِي ظَهَرَتْ وَمَضَتْ وَانْقَضَتْ ـ مِنْهَا: بَعْثَةُ النَّبِيِّ ﷺ وَمَوْتُهُ وَفَتْحُ بَيْتِ الْمَقْدِسِ.

وَمِنْهَا: قَتْلُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ رضي الله عنه، قَالَ حُذَيْفَةُ رضي الله عنه: أَوَّلُ الْفِتَنِ قَتْلُ عُثْمَانَ...)[1].

وذكر السفاريني منها أشهر الحروب التي وقعت بين المسلمين بعد ذلك، وظهور الفرق الضالة كالخوارج والرافضة.

ثم قال: (وَمِنْهَا: خُرُوجُ كَذَّابِينَ دَجَّالِينَ كُلٌّ مِنْهُمْ يَدَّعِي أَنَّهُ نَبِيٌّ.

وَمِنْهَا: زَوَالُ مُلْكِ الْعَرَبِ[2]. رواه الترمذي.

وَمِنْهَا: كَثْرَةُ الْمَالِ[3]. رَوَاهُ الشَّيْخَانِ وَغَيْرُهُمَا.

وَمِنْهَا: كَثْرَةُ الزَّلَازِلِ[4]، والخسف[5]، وَالْمَسْخُ وَالْقَذْفُ[6]، وَغَيْرُ ذَلِكَ مِمَّا أَخْبَرَ عَنْهُ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّهُ مِنْ أَمَارَاتِ السَّاعَةِ؛ فَظَهَرَ وَمَضَى وَانْقَضَى.

---

(١) انظر: لوامع الأنوار البهية (٢/٦٦).
(٢) رواه الترمذي (٣٩٢٩).
(٣) البخاري (١٠٣٦)، ومسلم (١٥٧).
(٤) أخرجه البخاري (١٠٣٦).
(٥) صحيح مسلم (٢٩٠١).
(٦) رواه الترمذي (١٢٨٥).

القسم الثاني: الْأَمَارَاتُ الْمُتَوَسِّطَةُ، وَهِيَ الَّتِي ظَهَرَتْ وَلَمْ تَنْقَضِ بَلْ تَتَزايَدُ وَتَكْثُرُ، وَهِيَ كَثِيرَةٌ جِدًّا.

مِنْهَا: قَوْلُهُ ﷺ: «**لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَكُونَ أَسْعَدَ النَّاسِ بِالدُّنْيَا لُكَعُ ابْنُ لُكَعٍ**»(١) رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالضِّيَاءُ الْمَقْدِسِيُّ مِنْ حَدِيثِ حُذَيْفَةَ رضي الله عنه، **وَاللُّكَعُ**: الْعَبْدُ وَالْأَحْمَقُ وَاللَّئِيمُ، وَالْمَعْنَى: لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَكُونَ اللِّئَامُ وَالْحَمْقَى وَنَحْوُهُمْ رُؤَسَاءَ النَّاسِ.

وَمِنَ الْأَمَارَاتِ: قَوْلُهُ ﷺ: «**يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ الصَّابِرُ فِيهِمْ عَلَى دِينِهِ كَالْقَابِضِ عَلَى الجَمْرِ**»(٢) رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه.

وَقَوْلُهُ ﷺ: «**لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَتَبَاهَى النَّاسُ فِي الْمَسَاجِدِ**» رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُدَ وَابْنُ مَاجَهْ وَابْنُ حِبَّانَ عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه(٣)، وَقَوْلُهُ ﷺ: «**يَكُونُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ عُبَّادٌ جُهَّالٌ وَقُرَّاءُ فَسَقَةٌ**» وَفِي لَفْظٍ «**فُسَّاقٌ**»(٤) رَوَاهُ أَبُو نُعَيْمٍ وَالْحَاكِمُ عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه.

وَمِنْهَا: أَنْ يُرَى الْهِلَالُ سَاعَةَ يَطْلُعُ فَيُقَالُ: لِلَيْلَتَيْنِ؛ لِانْتِفَاخِهِ وَكِبَرِهِ، رَوَى مَعْنَاهُ الطَّبَرَانِيُّ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه وَفِي لَفْظٍ: «**مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ انتفاخُ الْأَهِلَّةِ**»(٥) بِالْخَاءِ الْمُعْجَمَةِ؛ أَيْ: عِظَمُهَا وَرُوِيَ بِالْجِيمِ.

---

(١) مسند الإمام أحمد (٢٣٣٠٣)، والترمذي (٢٢٠٩).
(٢) الترمذي (٢٢٦٠).
(٣) مسند الإمام أحمد (١٢٣٧٩)، وأبو داود (٤٤٩)، وابن ماجه (٧٣٩)، وابن حبان (١٦١٤).
(٤) المستدرك (٤/ ٣٥١)، وحلية الأولياء (٢/ ٣٣١ ـ ٣٣٢).
(٥) في الأوسط (٧/ ٦٥)، والكبير (٩/ ٤٦).

وَمِنْهَا: (اتِّخَاذُ الْمَسَاجِدِ طُرُقاً...)[١].

إلى أن قال: (ومِنْهَا: مَا فِي «صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ» وَغَيْرِهِ مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ رضي الله عنه أَنَّهُ قَالَ: أَلَا أُحَدِّثُكُمْ بِحَدِيثٍ سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ لَا يُحَدِّثُكُمْ بِهِ أَحَدٌ غَيْرِي، سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**إِنَّ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ أَنْ يُرْفَعَ الْعِلْمُ وَيَكْثُرَ الْجَهْلُ وَيَكْثُرَ الزِّنَا وَيَكْثُرَ شُرْبُ الْخَمْرِ وَيَقِلَّ الرِّجَالُ وَيَكْثُرَ النِّسَاءُ حَتَّى يَكُونَ لِخَمْسِينَ امْرَأَةً الْقَيِّمُ الْوَاحِدُ**»)[٢].

وَفِي الصَّحِيحِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: (بَيْنَمَا النَّبِيُّ ﷺ فِي مَجْلِسٍ يُحَدِّثُ الْقَوْمَ جَاءَهُ أَعْرَابِيٌّ قَالَ: مَتَى السَّاعَةُ؟ فَمَضَى رَسُولُ اللهِ ﷺ يُحَدِّثُ، وَقَالَ بَعْضُ الْقَوْمِ: سَمِعَ مَا قَالَ فَكَرِهَ مَا قَالَ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: بَلْ لَمْ يَسْمَعْ. حَتَّى إِذَا قَضَى حَدِيثَهُ قَالَ: «**أَيْنَ أُرَاهُ السَّائِلُ عَنِ السَّاعَةِ؟**» فَقَالَ: هَا أَنَا يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «**فَإِذَا ضُيِّعَتِ الْأَمَانَةُ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ**» قَالَ: كَيْفَ إِضَاعَتُهَا؟ قَالَ: «**إِذَا وُسِّدَ الْأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ**»)[٣].

القسم الثالث من أمارات الساعة: الْعَلَامَاتُ الْعِظَامُ وَالْأَشْرَاطُ الْجِسَامُ الَّتِي تَعْقُبُهَا السَّاعَةُ[٤].

ومما ذكر منها: خروج المهدي، والمسيح الدجال، ونزول عيسى ابن مريم عليه السلام، وخروج يأجوج ومأجوج، وهدم الكعبة،

(١) الطبراني في الكبير (١/ ٣٦). انظر: لوامع الأنوار البهية (٢/ ٦٧ ـ ٦٨).
(٢) أخرجه البخاري (٥٢٣١).
(٣) أخرجه البخاري (٥٩).
(٤) انظر: لوامع الأنوار البهية (٢/ ٦٩ ـ ٧٠).

والدخان، ورفع القرآن، وطلوع الشمس من مغربها، وخروج الدابة، وخروج النار من قعر عدن، ثم النفخ في الصور نفخة الفزع، ثم نفخة الصعق وهلاك الخلق، ثم نفخة البعث والنشور.

وعلى كلٍّ فالأمر عظيم، ونحن في غفلة، وقد ظهر من هذه العلامات الشيء الكثير؛ فنسأل الله ﷻ أن يثبتنا على دينه، ويتوفانا على الإسلام، ويقينا شر الفتن ما ظهر منها وما بطن.

وهذا من علامات النبوة ومعجزات الرسول ﷺ؛ حيث أخبر عن أمور مستقبلة مما أطلعه الله ﷻ على علمه، فوقع كما أخبر، وهذا مما يقوي إيمان العبد.

وفي إخباره ﷺ بذلك رحمة بالعباد؛ ليحذروا، ويستعدوا، ويكونوا على بصيرة من أمرهم. فصلوات الله وسلامه على هذا النبي الكريم الذي بلَّغ البلاغ المبين وبيَّن غاية التبيين، ونحن على ذلك من الشاهدين.

وأول هذه العلامات: ظهور المهدي، ثم خروج الدجال، ثم نزول المسيح عليه السلام، ثم تتابع العلامات.

١ ـ ظهور المهدي:

كنا قد ذكرنا فيما سبق العلامات الكبار مجملة، والآن سنذكرها مفصلة، وأولها ظهور المهدي.

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لَا تَنْقَضِي الدُّنْيَا حَتَّى يَمْلِكَ الْعَرَبَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي يُوَاطِئُ اسْمُهُ اسْمِي**»(١)

(١) مسند الإمام أحمد (٣٥٧٣)، وسنن أبي داود (٤٢٨٤)، والترمذي (٢٢٣٠).

رواه الإمام أحمد وأبو داود والترمذي بأسانيد صحيحة، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، وفي الباب عن علي وأبي سعيد وأم سلمة وأبي هريرة ﷺ أجمعين.

قال العلامة السفاريني: (وَقَدْ تَكَاثَرَتِ الرِّوَايَاتُ وَالْآثَارُ بِأَمْرِ الْمَهْدِيِّ)[١].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (الْأَحَادِيثَ الَّتِي يُحْتَجُّ بِهَا عَلَى خُرُوجِ الْمَهْدِيِّ أَحَادِيثُ صَحِيحَةٌ رَوَاهَا أَبُو دَاوُدَ، وَالتِّرْمِذِيُّ، وَأَحْمَدُ، وَغَيْرُهُمْ)[٢] انتهى.

واسم المهدي: محمد بن عبد الله، من ولد الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، يخرج في آخر الزمان وقد امتلأت الأرض جوراً وظلماً فيملؤها عدلاً وقسطاً.

أقول: وقد انقسم الناس في أمر المهدي إلى طرفين ووسط:

فالطرف الأول: من ينكر خروج المهدي، مثل بعض الكُتَّاب المعاصرين الذين ليس لهم خبرة بالنصوص وأقوال أهل العلم وإنما يعتمدون على مجرد آرائهم وعقولهم.

والطرف الثاني: من يغالي في أمر المهدي من الطوائف الضالة، حتى ادعت كل طائفة لزعيمهم أنه المهدي المنتظر: **فالرافضة** تدعي أن المهدي هو إمامهم المنتظر الذي ينتظرون خروجه من السرداب، ويسمونه: محمد بن الحسن العسكري، دخل سرداب سامراء طفلاً صغيراً منذ أكثر من ألف سنة، وهم ينتظرون خروجه!.

(١) انظر: لوامع الأنوار البهية (٢/ ٨٢). (٢) انظر: منهاج السُّنَّة النبوية (٨/ ٢٥٤).

والفاطمية: يزعمون أن زعيمهم هو المهدي. وهكذا كل من أراد التسلط والتغلب على الناس وخداعهم ادعى أنه المهدي المنتظر؛ كما أن من أراد الدجل والاحتيال من الصوفية ادعى أنه من أهل البيت وأنه سيد!.

وأما الوسط في أمر المهدي: فهم أهل السُّنَّة والجماعة، الذين يثبتون خروج المهدي على ما تقضي به النصوص الصحيحة في اسمه واسم أبيه، ونسبه وصفاته ووقت خروجه، لا يتجاوزون ما جاء في الأحاديث في ذلك، **ولخروجه أمارات وعلامات تسبقه ذكرها أهل العلم:**

قال العلامة السفاريني: (قَدْ كَثُرَتِ الْأَقْوَالُ فِي الْمَهْدِيِّ حَتَّى قِيلَ: لَا مَهْدِيَّ إِلَّا عِيسَى، وَالصَّوَابُ الَّذِي عَلَيْهِ أَهْلُ الْحَقِّ: أَنَّ الْمَهْدِيَّ غَيْرُ عِيسَى وَأَنَّهُ يَخْرُجُ قَبْلَ نُزُولِ عِيسَى عليه السلام، وَقَدْ كَثُرَتْ بِخُرُوجِهِ الرِّوَايَاتُ حَتَّى بَلَغَتْ حَدَّ التَّوَاتُرِ الْمَعْنَوِيِّ، وَشَاعَ ذَلِكَ بَيْنَ عُلَمَاءِ السُّنَّةِ حَتَّى عُدَّ مِنْ مُعْتَقَدَاتِهِمْ).

إلى أن قال: (وَقَدْ رُوِيَ عَمَّنْ ذُكِرَ مِنَ الصَّحَابَةِ وَغَيْرِ مَنْ ذُكِرَ مِنْهُمْ رضي الله عنهم بِرِوَايَاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ، وَعَنِ التَّابِعِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مَا يُفِيدُ مَجْمُوعُهُ الْعِلْمَ الْقَطْعِيَّ؛ فَالْإِيمَانُ بِخُرُوجِ الْمَهْدِيِّ وَاجِبٌ كَمَا هُوَ مُقَرَّرٌ عِنْدَ أَهْلِ الْعِلْمِ وَمُدَوَّنٌ فِي عَقَائِدِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ)[(١)].

ثم قال السفاريني في بيان سيرة المهدي: (قَالَ أَهْلُ الْعِلْمِ: يَعْمَلُ بِسُنَّةِ النَّبِيِّ ﷺ لَا يُوقِظُ نَائِماً، وَيُقَاتِلُ عَلَى السُّنَّةِ لَا يَتْرُكُ سُنَّةً

---

(١) انظر: لوامع الأنوار البهية (٢/ ٨٤).

إِلَّا أَقَامَهَا، وَلَا بِدْعَةً إِلَّا رَفَعَهَا، يَقُومُ بِالدِّينِ آخِرَ الزَّمَانِ، كَمَا قَامَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ أَوَّلَهُ... يَكْسِرُ الصَّلِيبَ وَيَقْتُلُ الْخِنْزِيرَ وَيَرُدُّ إِلَى الْمُسْلِمِينَ إِلْفَتَهُمْ وَنِعْمَتَهُمْ، يَمْلَأُ الْأَرْضَ قِسْطاً وَعَدْلاً كَمَا مُلِئَتْ ظُلْماً وَجَوْراً)[(١)].

وقال في وصفه أيضاً عن أرطاة: (ثُمَّ يَخْرُجُ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ بَيْتِ النَّبِيِّ ﷺ مَهْدِيٌّ حَسَنُ السِّيرَةِ يَغْزُو مَدِينَةَ قَيْصَرَ وَهُوَ آخِرُ أَمِيرٍ مِنْ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ يَخْرُجُ فِي زَمَانِهِ الدَّجَّالُ وَيَنْزِلُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ)[(٢)].

قال: (وَنَقَلَ الْعَلَّامَةُ الشَّيْخُ مَرْعِيٌّ فِي كِتَابِهِ «فَوَائِدِ الْفِكَرِ» عَنْ أَبِي الْحَسَنِ مُحَمَّدِ بْنِ الْحُسَيْنِ أَنَّهُ قَالَ: قَدْ تَوَاتَرَتِ الْأَحَادِيثُ وَاسْتَفَاضَتْ بِكَثْرَةِ رُوَاتِهَا عَنِ الْمُصْطَفَى ﷺ بِمَجِيءِ الْمَهْدِيِّ، وَأَنَّهُ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ ﷺ وَأَنَّهُ يَمْلِكُ سَبْعَ سِنِينَ، وَأَنَّهُ يَمْلَأُ الْأَرْضَ عَدْلاً وَأَنَّهُ يَخْرُجُ مَعَ عِيسَى فيساعده على قتال الدجال بباب لد بأرض فلسطين، وأنه يؤم هذه الأمة وعيسى يُصَلِّي خَلْفَهُ؛ يَعْنِي: صَلَاةً وَاحِدَةً وَهِيَ الْفَجْرُ)[(٣)]. انتهى.

ذلكم هو المهدي الذي أخبر عنه رسول الله ﷺ وبيَّن صفاته الفارقة ووقت خروجه وسيرته، وقد ادعى المهدية جماعة من الضُّلَّال في وقت مبكر عن وقته، ولا تنطبق عليهم صفاته، وإنما

(١) انظر: لوامع الأنوار البهية (٢/ ٧٥).
(٢) انظر: لوامع الأنوار البهية (٢/ ٨٦).
(٣) انظر: لوامع الأنوار البهية (٢/ ٨٦ ـ ١٠١).

أرادوا بذلك التغرير بالسذج، واستغلال ادعاء هذه الشخصية لمطامعهم الخاصة، فأظهر الله كذبهم، وفضح باطلهم، ولا تعجب؛ فقد ادعى قوم النبوة، وافتروا على الله الكذب، ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ﴾ [الأنعام: ٩٣].

نسأل الله أن يرينا الحق حقًّا ويرزقنا اتباعه، ويرينا الباطل باطلاً ويرزقنا اجتنابه، ويكفينا شر الأئمة المضلين والمحتالين الدجالين، والحمد لله ربِّ العالمين.

٢ ـ خروج الدجال:

المسيح الدجال والفاتن الكذاب مسيح الضلالة، نعوذ بالله من فتنته؛ فقد أنذرت به الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أقوامها، وحذرت منه أممها، وبيَّنت أوصافه، وحذر منه نبينا محمد ﷺ أكثر وبيَّن أوصافه، ونعته لأمته نعوتاً لا تخفى على ذي بصيرة.

وفي «الترمذي»: أنه يخرج من خراسان[1]، وفي «صحيح مسلم» عن أنس رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: «**يَتْبَعُ الدَّجَّالَ مِنْ يَهُودِ أَصْبَهَانَ سَبْعُونَ أَلْفاً عَلَيْهِمُ الطَّيَالِسَةُ**»[2].

وسمي المسيح؛ لأن عينه ممسوحة، وقيل: لأنه يمسح الأرض؛ أي: يقطعها، وسمي الدجال: من الدجل، وهو الخلط، يقال: دجل: إذا خلط وَمَوَّه، ودجال على وزن (فَعَّال) من أبنية المبالغة؛ أي: يكثر منه الكذب والتلبيس، وهو يخرج في زمان المهدي.

(١) سنن الترمذي (٢٢٣٧).
(٢) صحيح مسلم (٢٩٤٤).

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: (ثُمَّ يُؤْذَنُ لَهُ ـ أي: الدجال ـ فِي الْخُرُوجِ فِي آخِرِ الزَّمَانِ، بَعْدَ فَتْحِ الْمُسْلِمِينَ مَدِينَةَ الرُّومِ الْمُسَمَّاةَ بِقُسْطَنْطِينِيَّةَ، فَيَكُونُ بُدُوُّ ظُهُورِهِ مِنْ أَصْبَهَانَ مِنْ حَارَةٍ بِهَا يُقَالُ لَهَا: الْيَهُودِيَّةُ... وَيَنْصُرُهُ سَبْعُونَ أَلْفاً مِنَ التَّتَارِ، وَخَلْقٌ مِنْ أَهْلِ خُرَاسَانَ، فَيَظْهَرُ أَوَّلاً فِي صُورَةِ مَلِكٍ مِنَ الْمُلُوكِ الْجَبَابِرَةِ، ثُمَّ يَدَّعِي النُّبُوَّةَ، ثُمَّ يَدَّعِي الرُّبُوبِيَّةَ، فَيَتْبَعُهُ عَلَى ذَلِكَ الْجَهَلَةُ مِنْ بنِي آدَمَ، وَالطَّغَامُ مِنَ الرَّعَاعِ وَالْعَوَامِّ، وَيُخَالِفُهُ وَيَرُدُّ عَلَيْهِ مَنْ هَدَاهُ اللهُ مِنْ عِبَادِهِ الصَّالِحِينَ، وَحِزْبِ اللهِ الْمُتَّقِينَ... فَيَأْخُذُ الْبِلَادَ بَلَداً بَلَداً، وَحِصْناً حِصْناً، وَإِقْلِيماً إِقْلِيماً، وَكُورَةً كُورَةً، وَلَا يَبْقَى بَلَدٌ مِنَ الْبِلَادِ إِلَّا وَطِئَهُ بِخَيْلِهِ وَرَجِلِهِ، غَيْرَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ.

وَمُدَّةُ مُقَامِهِ فِي الْأَرْضِ أَرْبَعُونَ يَوْماً: يَوْمٌ كَسَنَةٍ، وَيَوْمٌ كَشَهْرٍ، وَيَوْمٌ كَجُمُعَةٍ، وَسَائِرُ أَيَّامِهِ كَأَيَّامِ النَّاسِ هَذِهِ، وَمُعَدَّلُ ذَلِكَ سَنَةٌ وَشَهْرَانِ وَنِصْفُ شهر.

وَقَدْ خَلَقَ اللهُ عَلَى يَدَيْهِ خَوَارِقَ كَثِيرَةً، يُضِلُّ بِهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ خَلْقِهِ، وَيَثْبُتُ مَعَهَا الْمُؤْمِنُونَ، فَيَزْدَادُونَ إِيمَاناً مَعَ إِيمَانِهِمْ، وَهُدًى إِلَى هُدَاهُمْ.

وَيَكُونُ نُزُولُ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، مَسِيحِ الْهُدَى فِي أَيَّامِ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ مَسِيحِ الضَّلَالَةِ عَلَى الْمَنَارَةِ الشَّرْقِيَّةِ بِدِمَشْقَ، فَيَجْتَمِعُ عَلَيْهِ الْمُؤْمِنُونَ، وَيَلْتَف به عِبَادُ اللهِ الْمُتَّقُونَ، فَيَسِيرُ بِهِمُ المسيح عيسى ابن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ قَاصِداً نَحْوَ الدَّجَّالِ، وَقَدْ تَوَجَّهَ نَحْوَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ، فَيَنْهَزِمُ مِنْهُ الدَّجَّالُ، فَيَلْحَقُهُ عِنْدَ بَابِ مَدِينَةِ لُدٍّ

فَيَقْتُلُهُ بِحَرْبَتِهِ، وَهُوَ دَاخِلٌ إِلَيْهَا، وَيَقُولُ لَهُ: إِنَّ لِي فِيكَ ضَرْبَةً لَنْ تَفُوتَنِي. وَإِذَا وَاجَهَهُ الدَّجَّالُ يَنْمَاعَ كَمَا يذوب الْمِلْحُ فِي الْمَاءِ، فَيُتداركه فيقتله بالحربة بِبَابِ لُدٍّ، فَتَكُونُ وَفَاتُهُ هُنَالِكَ، لَعَنَهُ اللهُ، كَمَا دَلَّتْ عَلَى ذَلِكَ الْأَحَادِيثُ الصِّحَاحُ مِنْ غَيْرِ وَجْهٍ)[(١)]. انتهى كلام ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ في تلخيص قصة الدجال حسبما ورد في النصوص الصحيحة، وهو تلخيص جيد مفيد.

والذي تدل عليه النصوص من أمر الدجال أيضاً وفتنته: أن من استجاب له يأمر السماء فتمطر عليهم، والأرض فتنبت لهم زرعاً تأكل منه أنعامهم وأنفسهم، وترجع لهم مواشيهم سماناً ذات لبن، ومن لا يستجيب له ويرد عليه أمره تصيبهم السنة والجدب والقحط والقلة وموت الأنعام ونقص الأموال والأنفس والثمرات، وأنه تتبعه كنوز الأرض كيعاسيب النحل، وأنه يقتل شابًّا ثم يحييه؛ كل ذلك امتحان يمتحن الله به عباده في آخر الزمان، فيضل به كثيراً.

وهو مع هذا هين على الله، ناقص ظاهر النقص والفجور والظلم، وإن كان معه ما معه من الخوارق، مكتوب بين عينيه كافر، وما يجريه على يديه محنة من الله لعباده، وهي محنة خطيرة، لا ينجو منها إلا أهل الإيمان واليقين، ولخطورة محنته وشدة فتنته حذّرت منه الأنبياء أممها، وأشدهم تحذيراً لأمته محمد ﷺ.

عن أبي عبيدة بن الجراح رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ نَبِيٌّ بَعْدَ نُوحٍ إِلا وَقَدِ أَنْذَرَ الدَّجَّالَ قَوْمَهُ، وَإِنِّي**

(١) انظر: البداية والنهاية (١٩/ ٢٠٥ ـ ٢٠٦).

أُنْذِرُكُمُوهُ»(١) رواه أحمد وأبو داود والترمذي.

وقد أمر النبي ﷺ أمته بالاستعاذة من فتنته في آخر كل صلاة؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِذَا فَرَغَ أَحَدُكُمْ مِنَ التَّشَهُّدِ الْآخِرِ، فَلْيَتَعَوَّذْ بِاللهِ مِنْ أَرْبَعٍ: مِنْ عَذَابِ جَهَنَّمَ، وَمِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَمِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ، وَمِنْ شَرِّ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ**»(٢) رواه الإمام أحمد ومسلم.

وقد تواترت الأحاديث من وجوه متعددة في إثبات خروج الدجال وبيان فتنته والاستعاذة منه، وأجمع أهل السُّنَّة والجماعة على خروج الدجال في آخر الزمان، وذكروا ذلك ضمن مباحث العقيدة؛ فمن أنكر خروجه فقد خالف ما دلت عليه الأحاديث المتواترة، وخالف ما عليه أهل السُّنَّة والجماعة.

ولم ينكر خروجه إلا بعض المبتدعة كالخوارج والجهمية وبعض المعتزلة وبعض الكُتَّاب العصريين المنتسبين إلى العلم، ولم يعتمدوا على حجة يدفعون بها النصوص المتواترة سوى عقولهم وأهوائهم، ومثل هؤلاء لا عبرة بهم ولا بقولهم.

والواجب على المؤمن الإيمان بما صح عن الله ورسوله، واعتقاد ما يدل عليه، ولا يكون من الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾ [يونس: ٣٩]؛ لأن مقتضى الإيمان بالله ورسوله ﷺ هو التسليم لما جاء عنهما

(١) مسند الإمام أحمد (١٦٩٣)، وأبو داود (٤٧٥٨)، والترمذي (٢٢٣٤)، وبنحوه البخاري (٣٠٥٧)، (٦١٧٥).

(٢) مسند الإمام أحمد (٧٢٣٧)، ومسلم (٥٨٨).

والإيمان به، ومن لم يفعل؛ فإنه متبع لهواه بغير هدى من الله.

نسأل الله العافية والسلامة من الشك والشرك، والكفر والنفاق وسوء الأخلاق، وأن لا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا، والحمد لله ربِّ العالمين.

٣ ـ نزول عيسى ابن مريم عليه السلام:

أما نزول عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام كما دل عليه القرآن فقد أخبر به الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى نبينا محمد ﷺ، وتواتر النقل عنه بذلك، وأجمع عليه علماء الأمة سلفاً وخلفاً، واعتبروه مما يجب اعتقاده والإيمان به.

قال السفاريني: (وَنُزُولُهُ ـ يعني: عيسى عليه الصلاة والسلام ـ ثَابِتٌ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَإِجْمَاعِ الْأُمَّةِ:

أَمَّا الْكِتَابُ: فَقَوْلُهُ تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ [النِّسَاء: ١٥٩]؛ أَيْ: لَيُؤْمِنَنَّ بِعِيسَى قَبْلَ مَوْتِ عِيسَى، وَذَلِكَ عِنْدَ نُزُولِهِ مِنَ السَّمَاءِ آخِرَ الزَّمَانِ حَتَّى تَكُونَ الْمِلَّةُ وَاحِدَةً مِلَّةُ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً مُسْلِماً).

إلى أن قال: (**وَأَمَّا السُّنَّةُ**: فَفِي الصَّحِيحَيْنِ وَغَيْرِهِمَا عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَيُوشِكَنَّ أَنْ يَنْزِلَ فِيكُمُ ابْنُ مَرْيَمَ حَكَماً عَدْلاً فَيَكْسِرُ الصَّلِيبَ وَيَقْتُلُ الْخِنْزِيرَ وَيَضَعُ الْجِزْيَةَ**»(١) الْحَدِيثَ.

---

(١) البخاري (٣٤٤٨)، ومسلم (١٥٥).

وَفِي مُسْلِمٍ عَنْهُ: «**وَاللهِ لَيَنْزِلَنَّ ابْنُ مَرْيَمَ حَكَماً عَدْلاً فَلَيَكْسِرَنَّ الصَّلِيبَ**»[(١)] بِنَحْوِهِ.

وَأَخْرَجَ مُسْلِمٌ أَيْضاً عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ ﵄ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي يُقَاتِلُونَ عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَيَنْزِلُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ فَيَقُولُ أَمِيرُهُمْ: تَعَالَ صَلِّ لَنَا فَيَقُولُ: لَا إِنَّ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ أُمَرَاءُ تَكْرِمَةَ اللهِ هَذِهِ الْأُمَّةَ**»[(٢)].

وَأَمَّا الْإِجْمَاعُ: فَقَدْ أَجْمَعَتِ الْأُمَّةُ عَلَى نُزُولِهِ وَلَمْ يُخَالِفْ فِيهِ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الشَّرِيعَةِ، وَإِنَّمَا أَنْكَرَ ذَلِكَ الْفَلَاسِفَةُ وَالْمَلَاحِدَةُ مِمَّنْ لَا يُعْتَدُّ بِخِلَافِهِ.

وَقَدِ انْعَقَدَ إِجْمَاعُ الْأُمَّةِ عَلَى أَنَّهُ يَنْزِلُ وَيَحْكُمُ بِهَذِهِ الشَّرِيعَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ وَلَا يَنْزِلُ بِشَرِيعَةٍ مُسْتَقِلَّةٍ عِنْدَ نُزُولِهِ مِنَ السَّمَاءِ وَإِنْ كَانَتِ النُّبُوَّةُ قَائِمَةً بِهِ وَهُوَ مُتَّصِفٌ بِهَا، وَيَتَسَلَّمُ الْأَمْرَ مِنَ الْمَهْدِيِّ وَيَكُونُ الْمَهْدِيُّ مِنْ أَصْحَابِهِ وَأَتْبَاعِهِ كَسَائِرِ أَصْحَابِ الْمَهْدِيِّ)[(٣)]. انتهى كلام السفاريني ﵀.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية ﵀: (وَعِيسَى حَيٌّ فِي السَّمَاءِ لَمْ يَمُتْ بَعْدُ. وَإِذَا نَزَلَ مِنَ السَّمَاءِ لَمْ يَحْكُمْ إِلَّا بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ لَا بِشَيْءٍ يُخَالِفُ ذَلِكَ)[(٤)].

وقال أيضاً: (عِيسَى ﵇ حَيٌّ، وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنِ

---

(١) مسلم (١٥٥).
(٢) صحيح مسلم (١٥٦).
(٣) انظر: لوامع الأنوار البهية (٢/ ٩٤ ـ ٩٥).
(٤) انظر: مجموع الفتاوى (٤/ ٣١٦).

النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**يَنْزِلُ فِيكُمْ ابْنُ مَرْيَمَ حَكَماً عَدْلاً وَإِمَاماً مُقْسِطاً فَيَكْسِرُ الصَّلِيبَ وَيَقْتُلُ الْخِنْزِيرَ وَيَضَعُ الْجِزْيَةَ**» وَثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنْهُ «**أَنَّهُ يَنْزِلُ عَلَى الْمَنَارَةِ الْبَيْضَاءِ شَرْقِيِّ دِمَشْقَ وَأَنَّهُ يَقْتُلُ الدَّجَّالَ**»، وَمَنْ فَارَقَتْ رُوحُهُ جَسَدَهُ لَمْ يَنْزِلْ جَسَدُهُ مِنَ السَّمَاءِ وَإِذَا أُحْيِيَ فَإِنَّهُ يَقُومُ مِنْ قَبْرِهِ.

وَأَمَّا قَوْلُه تَعَالَى: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [آل عمران: ٥٥]، فَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَعْنِ بِذَلِكَ الْمَوْتَ؛ إِذْ لَوْ أَرَادَ بِذَلِكَ الْمَوْتَ لَكَانَ عِيسَى فِي ذَلِكَ كَسَائِرِ الْمُؤْمِنِينَ؛ فَإِنَّ اللهَ يَقْبِضُ أَرْوَاحَهُمْ وَيَعْرُجُ بِهَا إِلَى السَّمَاءِ، فَعُلِمَ أَنْ لَيْسَ فِي ذَلِكَ خَاصِّيَّةٌ، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ وَلَوْ كَانَ قَدْ فَارَقَتْ رُوحُهُ جَسَدَهُ لَكَانَ بَدَنُهُ فِي الْأَرْضِ كَبَدَنِ سَائِرِ الْأَنْبِيَاءِ أَوْ غَيْرِهِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ.

وَقَدْ قَالَ تَعَالَى فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينَۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِۚ﴾ [النساء: ١٥٧ ـ ١٥٨] فَقَوْلُهُ هُنَا: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِۚ﴾ يُبَيِّنُ أَنَّهُ رَفَعَ بَدَنَهُ وَرُوحَهُ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّهُ يَنْزِلُ بَدَنُهُ وَرُوحُهُ؛ إِذْ لَوْ أُرِيدَ مَوْتُهُ لَقَالَ: وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ؛ بَلْ مَاتَ.

وَلِهَذَا قَالَ مَنْ قَالَ مِنَ الْعُلَمَاءِ: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾؛ أَيْ: قَابِضُك ـ أَيْ: قَابِضُ رُوحِك وَبَدَنِك ـ يُقَالُ: تَوَفَّيْت الْحِسَابَ وَاسْتَوْفَيْته، وَلَفْظُ التَّوَفِّي لَا يَقْتَضِي تَوَفِّيَ الرُّوحِ دُونَ الْبَدَنِ، وَلَا تَوَفِّيَهُمَا جَمِيعاً

إِلَّا بِقَرِينَةٍ مُنْفَصِلَةٍ، وَقَدْ يُرَادُ بِهِ تَوَفِّي النَّوْمِ؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزُّمَر: ٤٢]، وَقَوْلِهِ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ﴾ [الأنعام: ٦٠])[1]. انتهى.

وقال القاضي عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (نُزُول عِيسَى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وَقَتْله الدَّجَّال حَقّ، وَصَحِيح عِنْد أَهْل السُّنَّة؛ لِلْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَة فِي ذَلِكَ، وَلَيْسَ فِي الْعَقْل وَلَا فِي الشَّرْع مَا يُبْطِلهُ، فَوَجَبَ إِثْبَاته.

وَأَنْكَرَ ذَلِكَ بَعْض الْمُعْتَزِلَة وَالْجَهْمِيَّة وَمَنْ وَافَقَهُمْ، وَزَعَمُوا أَنَّ هَذِهِ الْأَحَادِيث مَرْدُودَة بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزَاب: ٤٠]، وَبِقَوْلِهِ ﷺ: «**لَا نَبِيّ بَعْدِي**»، وَبِإِجْمَاعِ الْمُسْلِمِينَ أَنَّهُ لَا نَبِيّ بَعْد نَبِيّنَا ﷺ، وَأَنَّ شَرِيعَته مُؤَبَّدَة إِلَى يَوْم الْقِيَامَة لَا تُنْسَخ.

وَهَذَا اِسْتِدْلَال فَاسِد؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ الْمُرَاد بِنُزُولِ عِيسَى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أَنَّهُ يُنْزِل نَبِيًّا بِشَرْعٍ يَنْسَخ شَرْعنَا، وَلَا فِي هَذِهِ الْأَحَادِيث وَلَا فِي غَيْرهَا شَيْء مِنْ هَذَا، بَلْ صَحَّتْ هَذِهِ الْأَحَادِيث هُنَا وَمَا سَبَقَ فِي كِتَاب الْإِيمَان وَغَيْرهَا أَنَّهُ يَنْزِل حَكَماً مُقْسِطاً يَحْكُم بِشَرْعنَا، وَيُحْيِي مِنْ أُمُور شَرْعنَا مَا هَجَرَهُ النَّاس)[2]. انتهى.

أقول: وفي عصرنا هذا ينكر بعض الكُتَّاب الجهال وأنصاف العلماء نزول عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ؛ اعتماداً على عقولهم وأفكارهم، ويطعنون في الأحاديث الصحيحة، أو يؤولونها بتأويلات باطلة، والواجب

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٤/ ٣٢٢ ـ ٣٢٣).
(٢) انظر: شرح مسلم للنووي، الحديث رقم (٢٩٤٠)، وانظر: إكمال المعلم للقاضي عياض (٨/ ٢٤٨).

على المسلم التصديق بما أخبر به النبي ﷺ وصح عنه واعتقاده؛ لأن ذلك من الإيمان بالغيب الذي أطلع الله رسوله ﷺ عليه.

قال العلامة السفاريني رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَيَكُونُ مُقَرِّراً لِشَرِيعَةِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ؛ لَا أَنَّهُ رَسُولٌ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ كَمَا مَرَّ، وَيَكُونُ قَدْ عَلِمَ أَحْكَامَ هَذِهِ الشَّرِيعَةِ بِأَمْرِ اللهِ تَعَالَى وَهُوَ فِي السَّمَاءِ قَبْلَ أَنْ يَنْزِلَ)[(١)].

قال: (وَزَعَمَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ أَنَّه بِنُزُولِ سَيِّدِنَا عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ يُرْفَعُ التَّكْلِيفُ! وَهَذَا مَرْدُودٌ؛ لِلْأَخْبَارِ الْوَارِدَةِ أَنَّهُ يَكُونُ مُقَرِّراً لِأَحْكَامِ هَذِهِ الشَّرِيعَةِ وَمُجَدِّداً لَهَا؛ إِذْ هِيَ آخِرُ الشَّرَائِعِ وَنَبِيُّنَا مُحَمَّدٌ ﷺ آخِرُ الرُّسُلِ، وَالدُّنْيَا لَا تَبْقَى بِلَا تَكْلِيفٍ، فَإِنَّ بَقَاءَ الدُّنْيَا إِنَّمَا يَكُونُ بِمُقْتَضَى التَّكْلِيفِ، إِلَى أَنْ لَا يُقَالَ فِي الْأَرْضِ: اللهُ اللهُ، ذَكَرَهُ الْقُرْطُبِيُّ فِي تَذْكِرَتِهِ»)[(٢)].

قال: (أَمَّا مُدَّتُهُ وَوَفَاتُهُ: فَقَدْ وَرَدَ فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عِنْدَ الطَّبَرَانِيِّ وَابْنِ عَسَاكِرَ أَنَّهُ ﷺ قَالَ: «**يَنْزِلُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ فَيَمْكُثُ فِي النَّاسِ أَرْبَعِينَ سَنَةً**»[(٣)]، وَعِنْدَ الْإِمَامِ أَحْمَدَ وَابْنِ أَبِي شَيْبَةَ، وَأَبِي دَاوُدَ وَابْنِ جَرِيرٍ وَابْنِ حِبَّانَ عَنْهُ: (أَنَّهُ يَمْكُثُ أَرْبَعِينَ سَنَةً ثُمَّ يُتَوَفَّى وَيُصَلِّي عَلَيْهِ الْمُسْلِمُونَ وَيَدْفِنُونَهُ عِنْدَ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ)[(٤)].

---

(١) انظر: لوامع الأنوار البهية (٢/ ٩٥ ـ ٩٦).
(٢) انظر: لوامع الأنوار البهية (٢/ ٩٦)، والتذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة للقرطبي (٢/ ٣٥٥).
(٣) المعجم الأوسط (٥/ ٢٣١).
(٤) مسند الإمام أحمد (٦٥٥٥)، وسنن أبي داود (٤٣٢٦)، وابن أبي شيبة (٣٧٤٧٤)، وصحيح ابن حبان (٦٨٢١)، وانظر: ما قاله الإمام ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ عن مكان دفنه، مجموع فتاوى الشيخ (٢٦/ ٢١٩).

انتهى كلامه[١].

٤ ـ خروج يأجوج ومأجوج:

نتكلم عن خروج يأجوج ومأجوج على ضوء ما جاء في كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ من ذكر هذا الحدث العظيم؛ لأن الإيمان بذلك واعتقاده واجب على المسلم.

وخروج يأجوج ومأجوج ثابت بالكتاب والسُّنَّة وإجماع الأمة؛ ذكر ذلك السفاريني رحمه الله[٢].

أما الكتاب: ففي قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٖ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَٰوَيۡلَنَا قَدۡ كُنَّا فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا بَلۡ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٩٧﴾﴾ [الأنبياء: ٩٦ ـ ٩٧]

وقال تعالى في قصة ذي القرنين: ﴿ثُمَّ أَتۡبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطۡلِعَ ٱلشَّمۡسِ وَجَدَهَا تَطۡلُعُ عَلَىٰ قَوۡمٖ لَّمۡ نَجۡعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتۡرٗا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدۡ أَحَطۡنَا بِمَا لَدَيۡهِ خُبۡرٗا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتۡبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيۡنَ ٱلسَّدَّيۡنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوۡمٗا لَّا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ قَوۡلٗا ﴿٩٣﴾ قَالُواْ يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ إِنَّ يَأۡجُوجَ وَمَأۡجُوجَ مُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَهَلۡ نَجۡعَلُ لَكَ خَرۡجًا عَلَىٰٓ أَن تَجۡعَلَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَهُمۡ سَدّٗا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيۡرٞ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجۡعَلۡ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُمۡ رَدۡمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلۡحَدِيدِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيۡنَ ٱلصَّدَفَيۡنِ قَالَ ٱنفُخُواْۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارٗا قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفۡرِغۡ عَلَيۡهِ قِطۡرٗا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسۡطَٰعُوٓاْ أَن يَظۡهَرُوهُ وَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقۡبٗا ﴿٩٧﴾

(١) انظر: لوامع الأنوار البهية (٢/ ٩٨).
(٢) لوامع الأنوار البهية (٢/ ١١٤).

قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي ۖ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٩٨﴾ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ ۖ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾﴾ [الكهف: ٨٩ ـ ١٠٠].

وهذا سد من حديد بين جبلين بناه ذو القرنين فصار ردماً واحداً يحجز هؤلاء القوم المفسدين في الأرض عن أذية الناس والإفساد في الأرض؛ فإذا جاء الوقت الذي قدر انهدام السد فيه جعله الله مساوياً للأرض؛ وعداً لا بد منه فإذا انهدم يخرجون على الناس وهم ينسلون ـ أي: يسرعون المشي ـ من كل حدب، ثم يكون النفخ في الصور قريباً من ذلك.

وأما الدليل من السُّنَّة: ففي «صحيح مسلم» من حديث النواس بن سمعان رضي الله عنه، عن النبي ﷺ: أنه قال عن عيسى ابن مريم عليه السلام: «... **فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ أَوْحَى اللهُ إِلَى عِيسَى: إِنِّي قَدْ أَخْرَجْتُ عِبَاداً لِي لَا يَدَانِ لأَحَدٍ بِقِتَالِهِمْ فَحَرِّزْ عِبَادِي إِلَى الطُّورِ، وَيَبْعَثُ اللهُ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ فَيَمُرُّ أَوَائِلُهُمْ عَلَى بُحَيْرَةِ طَبَرِيَّةَ فَيَشْرَبُونَ مَا فِيهَا، وَيَمُرُّ آخِرُهُمْ فَيَقُولُونَ: لَقَدْ كَانَ بِهَذِهِ مَرَّةً مَاءٌ، وَيُحْصَرُ نَبِيُّ اللهُ عِيسَى** عليه السلام **وَأَصْحَابُهُ؛ حَتَّى يَكُونَ رَأْسُ الثَّوْرِ لأَحَدِهِمْ خَيْراً مِنْ مِائَةِ دِينَارٍ لأَحَدِكُمُ الْيَوْمَ...**»[(١)] الحديث.

وفي حديث حذيفة رضي الله عنه عند الطبراني: «**ويمنعهم الله من مكة والمدينة وبيت المقدس**».

---

(١) صحيح مسلم (٢٩٣٧).

قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: (وهُمْ مِنْ وَلَدِ آدَمَ وَحَوَّاءَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ عِنْدَ أَكْثَرِ الْعُلَمَاءِ).

وذكر الإمام ابن عبد البر رَحِمَهُ اللَّهُ: (الْإِجْمَاعَ عَلَى أَنَّهُمْ مِنْ وَلَدِ يَافِثَ بْنِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ)[(١)].

قال ابن كثير: (يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ طَائِفَتَانِ مِنَ التُّرْكِ وَهُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ عليه الصلاة والسلام)[(٢)].

ثم قال: (وَهُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، مِنْ سُلَالَةِ يَافِثَ بْنِ نُوحٍ، وَهُوَ أَبُو التُّرْكِ)[(٣)].

وقد أخبر النبي ﷺ عن قرب خروجهم وحذّر منهم، فقال عليه الصلاة والسلام ـ كما في «الصحيحين».

من حديث زينب بنت جحش رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: (اسْتَيْقَظَ النَّبِيُّ ﷺ مِنَ النَّوْمِ مُحْمَرًّا وَجْهُهُ يَقُولُ: «**لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَدِ اقْتَرَبَ فُتِحَ الْيَوْمَ مِنْ رَدْمِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِثْلُ هَذِهِ**»)[(٤)] وحلق بين أصبعيه.

وأما صفاتهم وأجسامهم: فقد قال الإمام ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَهُمْ يشبهون النَّاس كَأَبْنَاءِ جِنْسِهِمْ مِنَ التُّرْكِ الْغُتْمِ، الْمَغُولِ الْمُخَرْزَمَةِ عُيُونُهُمْ، الذُّلْفِ أُنُوفُهُمْ، الصُّهْبِ شُعُورُهُمْ عَلَى أَشْكَالِهِمْ وَأَلْوَانِهِمْ.

(١) انظر: لوامع الأنوار (٢/ ١١٥).
(٢) البداية والنهاية (١٩/ ٢٣٨ ـ ٢٣٩).
(٣) المرجع السابق (١٩/ ٢٣٩).
(٤) صحيح البخاري (٧٠٥٩ ـ ٧١٣٥)، ومسلم (٢٨٨٠).

وَمَنْ زَعَمَ أَنَّ مِنْهُمُ الطَّوِيلَ كَالنَّخْلَةِ السَّحُوقِ أَو أَطْوَلَ، وَمِنْهُمُ الْقَصِيرَ الذي هو كَالشَّيْءِ الْحَقِيرِ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَهُ أُذُنَانِ يَتَغَطَّى بِإِحْدَاهُمَا وَيَتَوَطَّأُ بِالْأُخْرَى، فَقَدْ تَكَلَّفَ مَا لَا عِلْمَ لَهُ بِهِ، وَقَالَ مَا لَا دَلِيلَ عَلَيْهِ)[(١)].

وأما ما يحصل منهم من الأذى والفساد في الأرض ونهايتهم: فقد دل على ذلك الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**يُفْتَحُ يَأْجُوجُ وَمأْجُوجُ، يَخْرُجُونَ عَلَى النَّاسِ، كَمَا قَالَ اللهُ** عز وجل: ﴿مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الأنبياء: ٩٦]، **فَيَغْشَوْنَ الْأَرْضَ، وَيَنْحَازُ الْمُسْلِمُونَ عَنْهُمْ إِلَى مَدَائِنِهِمْ وَحُصُونِهِمْ، وَيَضُمُّونَ إِلَيْهِمْ مَوَاشِيَهُمْ، وَيَشْرَبُونَ مِيَاهَ الْأَرْضِ، حَتَّى إِنَّ بَعْضَهُمْ لَيَمُرُّ بِالنَّهَرِ فَيَشْرَبُونَ مَا فِيهِ، حَتَّى يَتْرُكُوهُ يَبَساً، حَتَّى إِنَّ مَنْ بَعْدَهُمْ لَيَمُرُّ بِذَلِكَ النَّهَرِ فَيَقُولُ: قَدْ كَانَ هَاهُنَا مَاءٌ مَرَّةً، حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ مِنَ النَّاسِ إِلَّا أَحَدٌ فِي حِصْنٍ أَوْ مَدِينَةٍ قَالَ قَائِلُهُمْ: هَؤُلَاءِ أَهْلُ الْأَرْضِ، قَدْ فَرَغْنَا مِنْهُمْ، بَقِيَ أَهْلُ السَّمَاءِ**»، قَالَ: «**ثُمَّ يَهُزُّ أَحَدُهُمْ حَرْبَتَهُ ثُمَّ يَرْمِي بِهَا إِلَى السَّمَاءِ، فَتَرْجِعُ إِلَيْهِ مُخْتَضِبَةً دماً، لِلْبَلَاءِ وَالْفِتْنَةِ، فَبَيْنَا هُمْ عَلَى ذَلِكَ، بَعَثَ اللهُ دُوداً فِي أَعْنَاقِهِمْ، كَنَغَفِ الْجَرَادِ الَّذِي يَخْرُجُ فِي أَعْنَاقِهِمْ، فَيُصْبِحُونَ مَوْتَى لَا يُسْمَعُ لَهُمْ حِسًّا، فَيَقُولُ الْمُسْلِمُونَ: أَلَا رَجُلٌ يَشْرِي لَنَا نَفْسَهُ فَيَنْظُرَ مَا فَعَلَ هَذَا الْعَدُوُّ**» قَالَ: «**فَيَتَجَرَّدُ رَجُلٌ مِنْهُمْ لِذَلِكَ**

---
(١) البداية والنهاية (١٩/ ٢٣٩ ـ ٢٤٠).

مُحْتَسِباً لِنَفْسِهِ قَدْ أَطَّنَّهَا عَلَى أَنَّهُ مَقْتُولٌ، فَيَنْزِلُ، فَيَجِدُهُمْ مَوْتَى بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ، فَيُنَادِي: يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ، أَلَا أَبْشِرُوا، فَإِنَّ اللهَ تعالى قَدْ كَفَاكُمْ عَدُوَّكُمْ، فَيَخْرُجُونَ مِنْ مَدَائِنِهِمْ، وَحُصُونِهِمْ، وَيُسَرِّحُونَ مَوَاشِيَهُمْ، فَمَا يَكُونُ لَهَا رَعْيٌ إِلَّا لُحُومُهُمْ، فَتَشْكَرُ عَنْهُ ـ يعني: تمتلئ ضروعها باللبن ـ **كَأَحْسَنِ مَا تَشْكَرُ عَنْ شَيْءٍ مِنَ النَّبَاتِ أَصَابَتْهُ قَطُّ»)**[1].

قال الإمام ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: (وَهَكَذَا أَخْرَجَهُ ابْنُ مَاجَهْ، مِنْ حَدِيثِ يُونُسَ بْنِ بُكَيْرٍ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْحَاقَ بِهِ، وَهُوَ إِسْنَادٌ جَيِّدٌ)[2].

وقد أنكر بعض الكُتَّاب العصريين وجود يأجوج ومأجوج ووجود السد، وبعضهم يقول: إن يأجوج ومأجوج هم جميع دول الكفر المتفوقة في الصناعة، ولا شك أن هذا تكذيب لما جاء في القرآن، وتكذيب لما صح عن رسول الله ﷺ، أو تأويل له بما لا يحتمله، ولا شك أن من كذب بما جاء في القرآن أو صح عن رسول الله ﷺ مما علم بالضرورة فهو كافر، وكذلك من أوّله بما لا يحتمله، فإنه ضال ويخشى عليه من الكفر، وليس لهؤلاء شبهة يستندون إليها إلا قولهم: إن الأرض قد اكتشفت كلها فلم يوجد ليأجوج ومأجوج ولا للسد مكان فيها.

---

(١) مسند الإمام أحمد (١١٧٣١)، وابن ماجه (٤٠٧٩).
(٢) البداية والنهاية (١٩/ ٢٣٧).

والجواب عن ذلك: أن كون المكتشفين لم يعثروا على يأجوج ومأجوج وسدهم لا يدل ذلك على عدم وجودهم، بل يدل على عجز البشر عن الإحاطة بملكوت الله ﷻ، وقد يكون الله ﷻ صرف أبصارهم عن رؤيتهم، أو جعل أشياء تمنع من الوصول إليهم، والله قادر على كل شيء، وكل شيء له أجل؛ كما قال تعالى: ﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ۚ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ۚ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الأنعام: ٦٦ ـ ٦٧]، وما الذي أعمى أبصار الأوائل وأعجز قدراتهم عن كنوز الأرض التي اكتشفها المعاصرون كالنفط وغيره؟! إلا أن الله ﷻ جعل لذلك أجلاً ووقتاً، فالله المستعان.

٥ ـ خروج الدابة:

ذكر الله خروج الدابة في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [النَّمل: ٨٢].

قال الإمام ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ **في «النهاية»**: (قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَالْحَسَنُ، وَقَتَادَةُ: ﴿تُكَلِّمُهُمْ﴾، أَيْ: تُخَاطِبُهُمْ مُخَاطَبَةً، وَرَجَّحَ ابْنُ جَرِيرٍ: تُخَاطِبُهُمْ، فَتَقُولُ لَهُمْ: ﴿أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [النَّمل: ٨٢] وَحَكَاهُ عَنْ عَلِيٍّ، وَعَطَاءٍ). قال ابن كثير: (وَفِي هَذَا نَظَرٌ).

ثم قال: (وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: تَكْلِمُهُمْ: تَجْرَحُهُمْ، بمعنى: تَكْتُبُ عَلَى جَبِينِ الْكَافِرِ: كَافِر، وَعَلَى جَبِينِ الْمُؤْمِنِ: مُؤْمِنٌ، وَعَنْهُ: تُخَاطِبُهُمْ وَتَجْرَحُهُمْ، وَهَذَا الْقَوْلُ يَنْتَظِمُ الْمَذْهَبَيْنِ، وَهُوَ قَوِيٌّ حَسَنٌ

جَامِعٌ لَهُمَا، وَاللهُ أَعْلَمُ)(١).

وقال أيضا في «تفسيره»: (هَذِهِ الدَّابَّةُ تَخْرُجُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ عِنْدَ فَسَادِ النَّاسِ وتَرْكِهم أَوَامِرَ اللهِ وَتَبْدِيلِهِمُ الدِّينَ الْحَقَّ، يُخْرِجُ اللهُ لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ، قِيلَ: مِنْ مَكَّةَ، وَقِيلَ: مِنْ غَيْرِهَا، فَتُكَلِّم النَّاسَ)(٢).

وقال القرطبي في «تفسيره»: (قوله تعالى: ﴿وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾ [النَّمل: ٨٢]، اختلف في معنى ﴿وَقَعَ ٱلْقَوْلُ﴾ وفي: الدابة؛ فقيل: معنى: ﴿وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾: وجب الغضب عليهم، قاله قتادة، وقال مجاهد: أي: حق القول عليهم بأنهم لا يؤمنون، وقال ابن عمر وأبو سعيد الخدري رضي الله عنهما: إذا لم يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر؛ وجب السخط عليهم، وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: ﴿وَقَعَ ٱلْقَوْلُ﴾ يكون بموت العلماء، وذهاب العلم ورفع القرآن. قال عبد الله: (أكثروا تلاوة القرآن قبل أن يرفع) قالوا: هذه المصاحف ترفع؛ فكيف بما في صدور الرجال؟! قال: يُسْرَى عليه ليلاً فيصبحون منه قفراً وينسون لا إلٰه إلا الله، ويقعون في قول الجاهلية وأشعارهم، وذلك حين يقع القول عليهم)(٣).

ثم ذكر أقوالاً أخرى في معنى: ﴿وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾، ثم قال: (قلت: وجميع الأقوال عند التأمل ترجع إلى معنى واحد، والدليل

---

(١) البداية والنهاية (١٩/ ٢٤٧).
(٢) انظر: تفسير ابن كثير، سورة النمل، الآية (٨٢).
(٣) انظر: تفسير القرطبي، سورة النمل، الآية (٨٢).

عليه آخر الآية: (إن الناس كانوا بأياتنا لا يوقنون)، وقرئ: ﴿أَنَّ ٱلنَّاسَ﴾ [النَّمل: ٨٢]؛ بفتح الهمزة.

وفي «صحيح مسلم» عن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: **«ثَلَاثٌ إِذَا خَرَجْنَ لَا يَنْفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْراً: طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا وَالدَّجَّالُ وَدَابَّةُ الأَرْضِ»**(١).

واختلف في تعيين هذه الدابة وصفتها، ومن أين تخرج اختلافاً كثيراً قد ذكرناه في كتاب «التذكرة»، ونذكره هنا إن شاء الله تعالى مستوفى)(٢).

وعن حذيفة بن أسيد الغفاري ﵁؛ قال: اطَّلَعَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَيْنَا وَنَحْنُ نَتَذَاكَرُ السَّاعَةَ، فَقَالَ: **«مَا تَذْكُرُونَ؟»** قَالُوا: نَذْكُرُ السَّاعَةَ، فَقَالَ: **«إِنَّهَا لَنْ تَقُومَ حَتَّى تَرَوا عَشْرَ آيَاتٍ»**، وذكر منها «الدَّابَّةُ»(٣) رواه الإمام أحمد وأبو داود الطيالسي ومسلم وأهل السنن، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

ولمسلم من حديث العلاء عن أبيه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: **«بَادِرُوا بِالأَعْمَالِ سِتًّا: طُلُوعَ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا أَوِ الدُّخَانَ أَوِ الدَّجَّالَ أَوِ الدَّابَّةَ...»**(٤) الحديث.

---

(١) صحيح مسلم (١٥٨).
(٢) انظر: تفسير القرطبي، سورة النمل، الآية (٨٢).
(٣) صحيح مسلم (٢٩٠١)، وسنن أبي داود (٤٣١٣)، والترمذي (٢١٨٣).
(٤) أخرجه مسلم (٢٩٤٧).

ولمسلم أيضاً من حديث قتادة عن الحسن عن زياد بن رباح عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**بَادِرُوا بِالأَعْمَالِ سِتًّا: الدَّجَّالَ وَالدُّخَانَ وَدَابَّةَ الأَرْضِ...**»[(١)] الحديث.

وقال مسلم: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا محمد بن بشر، عن أبي حيان، عن أبي زرعة، عن عبد الله بن عمرو قال: حفظت من رسول الله ﷺ حديثاً لم أنسه بعد: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إِنَّ أَوَّلَ الآيَاتِ خُرُوجاً طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا وَخُرُوجُ الدَّابَّةِ عَلَى النَّاسِ ضُحًى، وَأَيُّهُمَا مَا كَانَتْ قَبْلَ صَاحِبَتِهَا فَالأُخْرَى عَلَى إِثْرِهَا قَرِيباً**»[(٢)].

قال ابن كثير رحمه الله تعالى: (أَيْ: أَوَّلُ الْآيَاتِ الَّتِي لَيْسَتْ مَأْلُوفَةً، وَإِنْ كَانَ الدَّجَّالُ، وَنُزُولُ عِيسَى، عَلَيْهِ الصلاة والسَّلَامُ، مِنَ السَّمَاءِ قَبْلَ ذَلِكَ، وَكَذَلِكَ خُرُوجُ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ، فَكُلُّ ذَلِكَ أُمُورٌ مَأْلُوفَةٌ؛ لِأَنَّهُمْ بَشَرٌ، مُشَاهَدَتُهُمْ وَأَمْثَالُهُمْ مَأْلُوفَةٌ، فَأَمَّا خُرُوجُ الدَّابَّةِ عَلَى شَكْلٍ غَيْرِ مَأْلُوفٍ، وَمُخَاطَبَتُهَا النَّاسَ، وَوَسْمُهَا إِيَّاهُمْ بِالْإِيمَانِ وَالْكُفْرِ، فَأَمْرٌ خَارِجٌ عَنْ مَجَارِي الْعَادَاتِ، وَذَلِكَ أَوَّلُ الْآيَاتِ الْأَرْضِيَّةِ، كَمَا أَنَّ طُلُوعَ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا على خلاف عادتها المألوفة أَوَّلُ الْآيَاتِ السَّمَاوِيَّةِ)[(٣)]. انتهى.

وعمل هذه الدابة كما جاءت به الأحاديث: أنها تَسِم الناس المؤمن والكافر؛ فأما المؤمن فيرى وجهه كأنه كوكب دري، ويكتب

---

(١) أخرجه مسلم (٢٩٤٧).
(٢) أخرجه مسلم (٢٩٤١).
(٣) انظر: البداية والنهاية (١٩/ ٢٥٤).

بين عينيه: مؤمن، وأما الكافر فتنكت بين عينيه نكتة سوداء، ويكتب بين عينيه: كافر.

وفي رواية: فتلقى المؤمن فَتَسِمُه في وجهه نكتة فيبيَّضُ لها وجهه، وتَسِمُ الكافر نكتة سوداء يَسْودُّ لها وجهه، ويشترك الناس في الأموال، ويصطحبون في الأمصار، يعرف المؤمن الكافر وبالعكس، حتى إن المؤمن يقول للكافر: يا كافر، اقضني حقي[(١)].

وأما صفتها: فقال الشيخ عبد الرحمٰن بن ناصر بن سعدي في «تفسيره»: (وهذه الدابة المشهورة التي تخرج في آخر الزمان، وتكون من أشراط الساعة، كما تكاثرت بذلك الأحاديث، ولم يذكر الله ورسوله ﷺ كيفية هذه الدابة، وإنما ذكر أثرها المقصود منها، وأنها من آيات الله، تكلم الناس كلاماً خارقاً للعادة حين يقع القول على الناس، وحين يمترون بآيات الله، فتكون حجة وبرهاناً للمؤمنين وحجة على المعاندين)[(٢)]. انتهى.

وقد أنكر بعض المعاصرين خروج هذه الدابة، واستبعدوا ذلك، وبعضهم يؤولونها بتأويلات فارغة، وليس لهم حجة في ذلك سوى أن عقولهم لا تتحمل ذلك.

والواجب على المؤمن التصديق والتسليم لما جاء عن الله ورسوله ﷺ؛ لأن هذا من الإيمان بالغيب الذي مدح الله به

(١) انظر: مسند الإمام أحمد (٧٩٣٧)، والترمذي (٣١٨٧)، ومصنف ابن أبي شيبة (٣٧٢٨٥)، والمستدرك (٤/ ٥٣٢)، ومسند الطيالسي (١٠٦٩)، والمعجم الكبير للطبراني (٣٠٣٥).

(٢) انظر: تفسيره، سورة النمل، الآية (٨٢).

المؤمنين، هذا ونسأل الله الهداية والتوفيق لمعرفة الحق والعمل به.

٦ ـ طلوع الشمس من مغربها:

قال الله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ [الأنعام: ١٥٨].

قال الحافظ ابن كثير في «النهاية»: (قَالَ الْبُخَارِيُّ عِنْدَ تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ: حَدَّثَنَا مُوسَى بْنُ إِسْمَاعِيلَ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الْوَاحِدِ، حَدَّثَنَا عُمَارَةُ، حَدَّثَنَا أَبُو زُرْعَةَ، حَدَّثَنَا أَبُو هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا، فَإِذَا رَآهَا النَّاسُ آمَنَ مَنْ عَلَيْهَا، فَذَاكَ حِينَ** ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ﴾»[(١)] وَقَدْ أَخْرَجَهُ بَقِيَّةُ الْجَمَاعَةِ إِلَّا التِّرْمِذِيَّ)[(٢)]. انتهى.

وقال السفاريني: (قَالَ الْعُلَمَاءُ رَحِمَهُمُ اللهُ تَعَالَى: طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا ثَابِتٌ بِالسُّنَّةِ الصَّحِيحَةِ، وَالْأَخْبَارِ الصَّرِيحَةِ؛ بَلْ وَبِالْكِتَابِ الْمُنَزَّلِ عَلَى النَّبِيِّ الْمُرْسَلِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ﴾ [الأنعام: ١٥٨] الْآيَةَ.

---

(١) صحيح البخاري (٤٦٣٥)، ومسلم (١٥٧)، وسنن أبي داود (٤٣١٤)، وسنن ابن ماجه (٤٠٦٨)، والسنن الكبرى للنسائي (١١١٧٧).
(٢) البداية والنهاية (١٩/٢٥٦).

أَجْمَعَ الْمُفَسِّرُونَ ـ أَوْ جُمْهُورُهُمْ ـ عَلَى أَنَّهَا طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا.. وَحَاصِلُ ذَلِكَ الْمَقْصُودِ مِنَ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ إِنْ لَمْ يَكُنْ إِيمَانُهُ مُتَحَقِّقاً إِذَا طَلَعَتِ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا لَمْ يَنْفَعْهُ تَجْدِيدُ الْإِيمَانِ وَلَمْ يَنْفَعْهُ فِعْلُ بِرٍّ مِنْ جَمِيعِ الْأَعْمَالِ؛ لِأَنَّهُ فَقَدَ الْإِيمَانَ الَّذِي هُوَ الْأَسَاسُ لِمَا عَدَاهُ مِنْ تِلْكَ الْأَعْمَالِ؛ فَلَا يَنْفَعُهُ إِيمَانُهُ الْحَادِثُ حِينَئِذٍ، وَلَا مَا صَدَرَ مِنْهُ قَبْلَ ذَلِكَ مِنَ الْإِحْسَانِ وَعَمَلِ الْبِرِّ، مِنْ صِلَةِ الْأَرْحَامِ، وَإِعْتَاقِ الرِّقَابِ، وَقِرَى الْأَضْيَافِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا هُوَ مِنْ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ لِأَنَّهَا عَلَى غَيْرِ أَسَاسٍ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ أَعْمَـٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ﴾ [إبراهيم: ١٨] الْآيَةَ، وَالْإِيمَانُ الْحَادِثُ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ لَيْسَ مَقْبُولاً... أَخْرَجَ الشَّيْخَانِ وَغَيْرُهُمَا مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا فَإِذَا طَلَعَتْ وَرَآهَا النَّاسُ آمَنُوا أَجْمَعُونَ فَذَلِكَ حين** ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَـٰنُهَا﴾ [الأنعام: ١٥٨]»(١).

وقال الإمام ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَفِي الْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ، وَالتِّرْمِذِيُّ وَصَحَّحَهُ وَالنَّسَائِيُّ، وَابْنُ مَاجَهْ، مِنْ طَرِيقِ عَاصِمِ بْنِ أَبِي النَّجُودِ، عَنْ زِرِّ بْنِ حُبَيْشٍ، عَنْ صَفْوَانَ بْنِ عَسَّالٍ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**إِنَّ اللهَ فَتَحَ بَاباً قِبَلَ الْمَغْرِبِ عَرْضُهُ سَبْعُونَ** ـ أَوْ قَالَ: **أَرْبَعُونَ ـ عَاماً لِلتَّوْبَةِ، ثم لَا يُغْلَقُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْهُ**»(٢).

(١) انظر: لوامع الأنوار (٢/ ١٣٣ ـ ١٣٤).
(٢) مسند الإمام أحمد (١٨٠٩٥)، والترمذي (٣٥٣٥ ـ ٣٥٣٦)، وسنن ابن ماجه (٤٠٧٠)، والنسائي في الكبرى (١١١٧٨).

فَهَذِهِ الْأَحَادِيثُ الْمُتَوَاتِرَةُ ـ مَعَ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ ـ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ مَنْ أَحْدَثَ إِيمَاناً وتَوْبَةً بَعْدَ طُلُوعِ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا لَا تُقْبَلُ مِنْهُ، وَإِنَّمَا كَانَ كَذَلِكَ، وَاللهُ أَعْلَمُ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ مِنْ أَكْبَرِ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ وَعَلَامَاتِهَا الدَّالَّةِ عَلَى اقْتِرَابِهَا وَدُنُوِّهَا، فَعُومِلَ ذَلِكَ الْوَقْتُ مُعَامَلَةَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ﴾ [الأنعام: ١٥٨]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [غافر: ٨٤ ـ ٨٥]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾﴾ [محمَّد: ١٨])[1]. انتهى.

وقال أيضاً في «تفسيره» لقوله تعالى: (﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ﴾ [الأنعام: ١٥٨]؛ أَيْ: إِذَا أَنْشَأَ الْكَافِرُ إِيمَاناً يَوْمَئِذٍ لَا يُقْبَلُ مِنْهُ، فَأَمَّا مَنْ كَانَ مُؤْمِناً قَبْلَ ذَلِكَ فَإِنْ كَانَ مُصْلِحاً فِي عمله فهو بخير عظيم، وإن كان مُخلِّطاً فَأَحْدَثَ تَوْبَةً حِينَئِذٍ لَمْ تُقْبَلْ مِنْهُ تَوْبَتُهُ، كَمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ الْأَحَادِيثُ الْمُتَقَدِّمَةُ وَعَلَيْهِ يُحْمَلُ قَوْلُهُ تعَالَى: ﴿أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ﴾ [الأنعام: ١٥٨]؛ أَيْ: وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا كَسْبُ عَمَلٍ صَالِحٍ إِذَا لَمْ يَكُنْ عَامِلاً بِهِ قَبْلَ ذَلِكَ)[2]. انتهى.

---

(١) انظر: البداية والنهاية (١٩/ ٢٦٣ ـ ٢٦٤).
(٢) انظر: تفسير سورة الأنعام، الآية (١٥٨).

وقال البغوي رحمه الله تعالى في: (﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ﴾ [الأنعام: ١٥٨]؛ أَيْ: لَا يَنْفَعُهُمُ الْإِيمَانُ عِنْدَ ظُهُورِ الْآيَةِ الَّتِي تَضْطَرُّهُمْ إِلَى الْإِيمَانِ، ﴿أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: ١٥٨] يُرِيدُ: لَا يُقْبَلُ إِيمَانُ كَافِرٍ وَلَا تَوْبَةُ فَاسِقٍ)[١]. انتهى.

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ **في «تفسيره»**: (قال العلماء: وإنما لا ينفع نفساً إيمانها عند طلوعها من مغربها؛ لأنه خلص إلى قلوبهم من الفزع ما تخمد معه كل شهوة من شهوات النفس، وتفتر كل قوة من قوى البدن، فيصير الناس كلهم ـ لإيقانهم بدنو القيامة ـ في حال من حضره الموت في انقطاع الدواعي إلى أنواع المعاصي عنهم، وبطلانها من أبدانهم، فمن تاب في مثل هذه الحال لم تقبل توبته، كما لا تقبل توبة من حضره الموت، قال ﷺ: «**إِنَّ اللهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ مَا لَمْ يُغَرْغِرْ**»[٢]؛ أي: تبلغ روحه رأس حلقه وذلك وقت المعاينة الذي يرى فيه مقعده من الجنة أو مقعده من النار، فالمشاهد لطلوع الشمس من مغربها مثله)[٣].

وعلى كلٍّ فهذا حدث عظيم وهول مفزع يؤذن بتغيير نظام الكون وقرب قيام الساعة، وفيه دليل على عظيم قدرة الله ﷻ، وأن هذه الشمس مدبرة مخلوقة يعتريها الخلل بإذن الله تعالى.

---

(١) انظر: تفسير سورة الأنعام، الآية (١٥٨).
(٢) مسند الإمام أحمد (٦١٦٠)، والترمذي (٣٥٣٧)، وابن ماجه (٤٢٥٣).
(٣) انظر: تفسير سورة الأنعام، الآية (١٥٨).

هذا ونسأل الله ﷻ أن يرزقنا الإيمان الصادق واليقين النافع الذي يدفع إلى العمل الصالح والاستعداد بالزاد النافع ليوم المعاد قبل فوات الفرصة ونهاية الأجل، والله المستعان، والحمد لله ربِّ العالمين.

٧ ـ حشر الناس إلى أرض الشام:

قال الإمام ابن كثير في «النهاية»: (ثَبَتَ فِي «الصَّحِيحَيْنِ» مِنْ حَدِيثِ وُهَيْبٍ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ طَاوُسٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَى ثَلَاثِ طَرَائِقَ: رَاغِبِينَ وَرَاهِبِينَ، وَاثْنَانِ عَلَى بَعِيرٍ، وَثَلَاثَةٌ عَلَى بَعِيرٍ، وَأَرْبَعَةٌ عَلَى بَعِيرٍ، وَعَشَرَةٌ عَلَى بَعِيرٍ، وَيحْشُرُ بَقِيَّتَهُمُ النَّارُ، تَقِيلُ مَعَهُمْ حَيْثُ قَالُوا، وَتَبِيتُ مَعَهُمْ حَيْثُ بَاتُوا، وَتُصْبِحُ مَعَهُمْ حَيْثُ أَصْبَحُوا، وَتُمْسِي مَعَهُمْ حَيْثُ أَمْسَوْا**»[(١)])[(٢)].

ثم ساق الأحاديث في هذا المعنى، ثم قال: (فَهَذِهِ السِّيَاقَاتُ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ هَذَا الْحَشْرَ هُوَ حَشْرُ الْمَوْجُودِينَ فِي آخِرِ الدُّنْيَا مِنْ أَقْطَارِ الْأَرْضِ إِلَى مَحَلَّةِ الْحَشْرِ، وَهِيَ أَرْضُ الشَّامِ، وَأَنَّهُمْ يَكُونُونَ عَلَى أَصْنَافٍ ثَلَاثَةٍ: فَصنف يحشرون طَاعِمِينَ كَاسِينَ رَاكِبِينَ، وَقِسْمٌ يَمْشُونَ تَارَةً وَيَرْكَبُونَ أُخْرَى، وَهُمْ يَعْتَقِبُونَ عَلَى الْبَعِيرِ الْوَاحِدِ، كَمَا تَقَدَّمَ فِي «الصَّحِيحَيْنِ»: «**اثْنَانِ عَلَى بَعِيرٍ، وَثَلَاثَةٌ عَلَى بَعِيرٍ...**» إِلَى أَنْ قَالَ: «**وَعَشَرَةٌ عَلَى بَعِيرٍ**»؛ يعني: يَعْتَقِبُونَهُ مِنْ قِلَّةِ الظَّهْرِ، كَمَا تَقَدَّمَ،

(١) البخاري (٦٥٢٢)، ومسلم (٢٨٦١).
(٢) انظر: البداية والنهاية (١٩/ ٣٢٨).

وَكَمَا جَاءَ مُفَسَّراً فِي الْحَدِيثِ الْآخَرِ: «**وَتَحْشُرُ بَقِيَّتَهُمُ النَّارُ**»، وَهِيَ الَّتِي تَخْرُجُ مِنْ قَعْرِ عَدَنَ، فَتُحِيطُ بِالنَّاسِ مِنْ وَرَائِهِمْ، تَسُوقُهُمْ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ إِلَى أَرْضِ الْمَحْشَرِ، وَمَنْ تَخَلَّفَ مِنْهُمْ أَكَلَتْهُ النار، وَهَذَا كُلُّهُ مِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ هَذَا فِي آخِرِ الزَّمَانِ، حَيْثُ الْأَكْلُ وَالشُّرْبُ وَالرُّكُوبُ على ظهر الْمُشْتَرَى وَغَيْرُهُ، وَحَيْثُ تُهْلِكُ الْمُتَخَلِّفِينَ مِنْهُمُ النَّارُ، وَلَوْ كَانَ هَذَا بَعْدَ نَفْخَةِ الْبَعْثِ لَمْ يَبْقَ مَوْتٌ، وَلَا ظَهْرٌ يُشْتَرَى، وَلَا أَكْلٌ وَلَا شُرْبٌ...)[(١)]. انتهى.

وقد جاءت أحاديث تدل على أنه في آخر الزمان تخرج نار من قعر عدن تسوق الناس إلى المحشر:

منها: الحديث الذي رواه أحمد ومسلم وأهل «السنن»: «.. **وَنَارٌ تَخْرُجُ مِنْ قَعْرِ عَدَنٍ تَسُوقُ ـ أَوْ تَحْشُرُ ـ النَّاسَ، تَبِيتُ مَعَهُمْ حَيْثُ بَاتُوا، وَتَقِيلُ مَعَهُمْ حَيْثُ قَالُوا**»[(٢)].

ومنها: حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**سَتَخْرُجُ نَارٌ مِنْ حَضْرَمَوْتَ أَوْ مِنْ بَحْرِ حَضْرَمَوْتَ، قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ تَحْشُرُ النَّاسَ**» قَالَ: قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ فَمَاذَا تَأْمُرُنَا؟ قَالَ: «**عَلَيْكُمْ بِالشَّامِ**»[(٣)] رواه أحمد والترمذي وابن حبان في «صحيحه»، وقال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح غريب».

قال السفاريني رحمه الله: (اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي حَشْرِ النَّاسِ مِنَ

(١) انظر: البداية والنهاية (١٩/ ٣٣٢).
(٢) مسند الإمام أحمد (١٦١٤٤)، ومسلم (٢٨٦١ ـ ٢٩٠١)، وابن ماجه (٤٠٥٥).
(٣) مسند الإمام أحمد (٥٣٧٦)، والترمذي (٢٢١٧)، وصحيح ابن حبان (٧٣٠٥).

الْمَشْرِقِ إِلَى الْمَغْرِبِ: هَلْ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَوْ قَبْلَهُ؟ فَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ وَالْخَطَّابِيُّ ـ وَصَوَّبَهُ الْقَاضِي عِيَاضٌ ـ: إِنَّ هَذَا الْحَشْرَ يَكُونُ قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

وَأَمَّا الْحَشْرُ مِنَ الْقُبُورِ فَهُوَ عَلَى مَا فِي حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما مَرْفُوعاً، كَمَا فِي الصَّحِيحَيْنِ وَغَيْرِهِمَا: «**إِنَّكُمْ تُحْشَرُونَ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلاً**»[(١)])[(٢)].

إلى أن قال: (وَانْتَصَرَ الْقَاضِي عِيَاضٌ لِقَوْلِ الْخَطَّابِيِّ وَالْقُرْطُبِيِّ بِأَنَّ حَدِيثَ أَبِي هُرَيْرَةَ: «**تُقِيلُ مَعَهُمْ، وَتَبِيتُ وَتُصْبِحُ وَتُمْسِي**»، يُؤَيد أن الْحَشْرَ فِي الدُّنْيَا إِلَى الشَّامِ؛ لِأَنَّ هَذِهِ الْأَوْصَافَ مُخْتَصَّةٌ بِالدُّنْيَا)[(٣)].

وقال أيضاً: (ذَكَرَ الْقُرْطُبِيُّ فِي «تَذْكِرَتِهِ»[(٤)]: أَنَّ الْحَشْرَ أَرْبَعة: حَشْرَانِ فِي الدُّنْيَا، وَحَشْرَانِ فِي الآخِرَةِ.

فَاللَّذَانِ فِي الدُّنْيَا: الْمَذْكُورُ فِي سُورَةِ الْحَشْرِ، وَهُوَ حَشْرُ الْيَهُودِ إِلَى الشَّامِ، قَالَ لَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ: «**اخْرُجُوا**» قَالُوا: إِلَى أَيْنَ؟ قَالَ: «**إِلَى أَرْضِ الْمَحْشَرِ**»[(٥)]، ثُمَّ أَجْلَى آخِرَهُمْ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رضي الله عنه مِنْ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ.

وَالْحَشْرُ الثَّانِي الْمَذْكُورُ فِي أَشْرَاطِ السَّاعَةِ: نَارٌ تَحْشُرُ النَّاسَ

---

(١) صحيح البخاري (٣٣٤٩)، ومسلم (٢٨٦٠).
(٢) انظر: لوامع الأنوار (٢/ ١٥٥).
(٣) انظر: لوامع الأنوار (٢/ ١٥٦).
(٤) انظر: التذكرة (١/ ٢٤٩).
(٥) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (١٨٨٥٠)، والدر المنثور.

مِنَ الْمَشْرِقِ إِلَى الْمَغْرِبِ، كَمَا فِي حَدِيثِ أَنَسٍ في قصة إسلام عَبْدِ اللهِ بْنِ سَلَامٍ رضي الله عنهما[(١)].

وَفِي حَدِيثِ ابْنِ عَمْرٍو رضي الله عنهما مَرْفُوعاً: «**تُبْعَثُ نَارٌ عَلَى أَهْلِ الْمَشْرِقِ فَتَحْشُرُهُمْ إِلَى الْمَغْرِبِ، تَبِيتُ مَعَهُمْ حَيْثُ بَاتُوا، وَتَقِيلُ مَعَهُمْ حَيْثُ قَالُوا، يَكُونُ لَهَا مَا سَقَطَ مِنْهُمْ وَتَخَلَّفَ، تَسُوقُهُمْ سَوْقَ الْجَمَلِ الْكَسِيرِ**»[(٢)].

قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ رحمه الله: (وكَوْنُهَا تَخْرُجُ مِنْ قَعْرِ عَدَنَ لَا يُنَافِي حَشْرَهَا النَّاسَ مِنَ الْمَشْرِقِ إِلَى الْمُغْرِبِ؛ وَذَلِكَ أَنَّ ابْتِدَاءَ خُرُوجِهَا مِنْ عَدَنَ، فَإِذَا خَرَجَتِ انْتَشَرَتْ فِي الْأَرْضِ كُلِّهَا، وَالْمُرَادُ بِقَوْلِهِ: «**تَحْشُرُ النَّاسَ مِنَ الْمَشْرِقِ إِلَى الْمَغْرِبِ**» إِرَادَةُ تَعْمِيمِ الْحَشْرِ، لَا خُصُوصِ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ، أَوْ أَنَّهَا بَعْدَ الِانْتِشَارِ أَوَّلَ مَا تَحْشُرُ أَهْلَ الْمَشْرِقِ)[(٣)].

قَالَ الْقُرْطُبِيُّ رحمه الله: (وَأَمَّا اللَّذَانِ فِي الْآخِرَةِ: فَحَشْرُ الْأَمْوَاتِ مِنْ قُبُورِهِمْ بَعْدَ الْبَعْثِ جَمِيعاً؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾﴾ [الكهف: ٤٧]، وَحَشْرُهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ وَالنَّارِ)[(٤)(٥)].

وقال السفاريني رحمه الله تعالى: (قوله في النظم:

وآخر الآيات حشر النار ... كما أتى في محكم الأخبار

قال: (وَآخِرُ الْآيَاتِ): الْعِظَامِ وَالْعَلَامَاتِ الْجِسَامِ، (حَشْرُ

---

(١) صحيح البخاري (٣٣٢٩).
(٢) المستدرك (٤/٥٤٨)، والطبراني في الأوسط (٨/٩٩) (٨٠٩٢).
(٣) انظر: فتح الباري (١١/٣٧٨).
(٤) انظر: التذكرة (١/٢٥٣).
(٥) انظر: لوامع الأنوار (٢/١٥٤ ـ ١٥٥).

النَّارِ): لِلنَّاسِ مِنَ الْمَشْرِقِ إِلَى الْمَغْرِبِ، وَمِنَ الْيَمَنِ إِلَى مُهَاجَرِ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام وَهُوَ أَرْضُ الشَّامِ، (كَمَا أَتَى): ذَلِكَ مُصَرَّحاً بِهِ فِي (مُحْكَمِ الْأَخْبَارِ): وَفِي صَحِيحِ الْآثَارِ[١].

ثم ذكر الأحاديث الواردة في خروجها من اليمن ومن قعر عدن (أبين)، وفي كونها تحشر الناس من المشرق إلى المغرب، وكونها تحشرهم إلى أرض الشام.

وقال في وجه الجمع بين ذلك: (بِأَنَّ النَّارَ نَارَانِ: إِحْدَاهُمَا: تَحْشُرُ النَّاسَ مِنَ الْمَشْرِقِ إِلَى الْمَغْرِبِ، وَالثَّانِيَةُ: تَخْرُجُ مِنَ الْيَمَنِ فَتَطْرُدُ النَّاسَ إِلَى الْمَحْشَرِ الَّذِي هُوَ أَرْضُ الشَّامِ...)[٢].

قال: (وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِي عِلْمِ اللهِ إِلَّا نَارٌ وَاحِدَةٌ؛ فَالْجَمْعُ بَيْنَ حَدِيثِ: «**نَارٌ تَخْرُجُ قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مِنْ حَضْرَمَوْتَ فَتَسُوقُ النَّاسَ**»، وَفِي لَفْظٍ: «**تَخْرُجُ مِنْ قَعْرِ عَدَنَ تَرْحَلُ النَّاسَ إِلَى الْمَحْشَرِ**»، وَحَدِيثُ: «**نَارٌ تَحْشُرُ النَّاسَ مِنَ الْمَشْرِقِ إِلَى الْمَغْرِبِ**»، فَبِأَنْ يُقَالَ: إِنَّ الشَّامَ الَّذِي هُوَ الْمَحْشَرُ مَغْرِبٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْمَشْرِقِ؛ فَيَكُونُ ابْتِدَاءُ خُرُوجِهَا قَعْرَ عَدَنَ مِنَ الْيَمَنِ، فَإِذَا خَرَجَتِ انْتَشَرَتْ إِلَى الْمَشْرِقِ فَتَحْشُرُ أَهْلَهُ إِلَى الْمَغْرِبِ الَّذِي هُوَ الشَّامُ، وَهُوَ الْمَحْشَرُ، وَلَفْظَةُ (أَبْيَنَ) بِوَزْنِ أَحْمَرَ: اسْمُ الْمَلِكِ الَّذِي بَنَاهَا، وَفِي نِهَايَةِ ابْنِ الْأَثِيرِ: (عَدَنُ أَبْيَنَ) مَدِينَةٌ مَعْرُوفَةٌ بِالْيَمَنِ أُضِيفَتْ إِلَى أَبْيَنَ بِوَزْنِ أَبْيَضَ، وَهُوَ رَجُلٌ مِنْ حِمْيَرَ عَدَّنَ بِهَا؛ أَيْ: أَقَامَ)[٣]. انتهى، والله أعلم.

---

(١) انظر: لوامع الأنوار (٢/ ١٤٩).
(٢) انظر: لوامع الأنوار (٢/ ١٥٠).
(٣) انظر: لوامع الأنوار (٢/ ١٥٠).

٨ ـ النفخ في الصور والصعق:

قد تكرر ذكر النفخ في الصور في القرآن العظيم وذكر ما يحدث عند ذلك.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: (وَالْقُرْآنُ قَدْ أَخْبَرَ بِثَلَاثِ نَفَخَاتٍ: نَفْخَةُ الْفَزَعِ ذَكَرَهَا فِي سُورَةِ النَّمْلِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [النمل: ٨٧]، وَنَفْخَةُ الصَّعْقِ وَالْقِيَامِ: ذَكَرَهُمَا فِي سورة الزمر في قَوْلِهِ تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ۝٦٨﴾ [الزُّمَر: ٦٨]، وَأَمَّا الِاسْتِثْنَاءُ فَهُوَ مُتَنَاوِلٌ لِمَنْ فِي الْجَنَّةِ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ؛ فَإِنَّ الْجَنَّةَ لَيْسَ فِيهَا مَوْتٌ وَمُتَنَاوِلٌ لِغَيْرِهِمْ، وَلَا يُمْكِنُ الْجَزْمُ بِكُلِّ مَنِ اسْتَثْنَاهُ اللهُ؛ فَإِنَّ اللهَ أَطْلَقَ فِي كِتَابِهِ، وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ النَّاسَ يُصْعَقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يُفِيقُ فَأَجِدُ مُوسَى آخِذاً بِسَاقِ الْعَرْشِ فَلَا أَدْرِي هَلْ أَفَاقَ قَبْلِي أَمْ كَانَ مِمَّن اسْتَثْنَاهُ اللهُ؟**»[(١)]، وَهَذِهِ الصَّعْقَةُ قِيلَ: إِنَّهَا رَابِعَةٌ، وَقِيلَ: إِنَّهَا مِنَ الْمَذْكُورَاتِ فِي الْقُرْآنِ...)[(٢)]. انتهى.

وقال السفاريني: (وَاعْلَمْ أَنَّ النَّفْخَ فِي الصُّورِ ثَلَاثُ نَفَخَاتٍ:

نَفْخَةُ الْفَزَعِ: وَهِيَ الَّتِي يَتَغَيَّرُ بِهَا هَذَا الْعَالَمُ، وَيَفْسُدُ نِظَامُهُ،

---

(١) صحيح البخاري (٣٣٩٨ ـ ٣٤٠٨).

(٢) انظر: مجموع الفتاوى (٤/ ٢٦٠ ـ ٢٦١).

وَهِيَ الْمُشَارُ إِلَيْهَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ۝١٥﴾ [صَ: ١٥]؛ أَيْ: مِنْ رُجُوعٍ وَمَرَدٍّ، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الزُّمَر: ٦٨].

فَسَّرَ الزَّمَخْشَرِيُّ فِي كَشَّافِهِ الْمُسْتَثْنَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ بِمَنْ ثَبَّتَ اللهُ قَلْبَهُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، وَهُمْ: جِبْرِيلُ، وَمِيكَائِيلُ، وَإِسْرَافِيلُ، وَمَلَكُ الْمَوْتِ[١]، وَقِيلَ غَيْرُ ذَلِكَ، وَإِنَّمَا يَحْصُلُ الْفَزَعُ لِشِدَّةِ مَا يَقَعُ مِنْ هَوْلِ تِلْكَ النَّفْخَةِ...)[٢].

إلى أن قال: (**النَّفْخَةُ الثَّانِيَةُ: نَفْخَةُ الصَّعْقِ:** وَفِيهَا هَلَاكُ كُلِّ شَيْءٍ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الزُّمَر: ٦٨]، وَقَدْ فُسِّرَ الصَّعْقُ بِالْمَوْتِ).

إلى أن قال: (وَالصُّورُ قَرْنٌ مِنْ نُورٍ يُجْعَلُ فِيهِ الأَرْوَاحُ... يقال: إن فيه من الثقب على عدد أرواح الخلائق[٣]، وَقَالَ مجاهد: كَالْبُوقِ، ذَكَرَهُ الْبُخَارِيُّ (معلقاً، باب نفخ الصور)، وَأَخْرَجَ التِّرْمِذِيُّ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ ﵄ قال: جَاءَ أَعْرَابِيٌّ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: مَا الصُّورُ؟، قَالَ: «**قَرْنٌ يُنْفَخُ فِيهِ**»، قَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَدِيثٌ حَسَنٌ)[٤].

---

(١) ذكر هذا الزمخشري عند الآية (٨٧) من سورة النمل، وليس عند الآية (٦٨) من سورة الزمر.
(٢) انظر: لوامع الأنوار (٢/ ١٦١).
(٣) انظر: التذكرة للقرطبي (١/ ٢٢٢).
(٤) الترمذي (٢٤٣٠ ـ ٣٢٤٣).
انظر: لوامع الأنوار (٢/ ١٦٣ ـ ١٦٤).

ثم قال: (**النَّفْخَةُ الثَّالِثَةُ**: نَفْخَةُ الْبَعْثِ وَالنُّشُورِ: وَقَدْ جَاءَ فِي الْكِتَابِ الْعَزِيزِ آيَاتٌ تَدُلُّ عَلَيْهَا، وَأَخْبَارٌ تُشِيرُ إِلَيْهَا؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾﴾ [يس: ٥١]، وَقَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [الزُّمَر: ٦٨]، وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ﴿٨﴾ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٠﴾﴾ [المدَّثِّر: ٨ ـ ١٠].

وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ﴾ [قَ: ٤١ ـ ٤٢] الآيَةَ.

قَالَ الْمُفَسِّرُونَ: الْمُنَادِي هُوَ: إِسْرَافِيلُ عليه السلام، يَنْفُخُ فِي الصُّورِ وَيُنَادِي: أَيَّتُهَا الْعِظَامُ الْبَالِيَةُ، وَالْأَوْصَالُ الْمُتَقَطِّعَةُ، وَاللُّحُومُ الْمُتَمَزِّقَةُ، وَالشُّعُورُ الْمُتَفَرِّقَةُ، إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُنَّ أَنْ تَجْتَمِعْنَ لِفَصْلِ الْقَضَاءِ. وَقِيلَ: يَنْفُخُ إِسْرَافِيلُ، وَيُنَادِي جِبْرِيلُ، وَالْمَكَانُ الْقَرِيبُ صَخْرَةُ بَيْتِ الْمَقْدِسِ، قَالَهُ جَمَاعَةٌ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ.

وَبَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ أَرْبَعُونَ عَاماً، قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: اتَّفَقَتِ الرِّوَايَاتُ عَلَى ذَلِكَ.

وَفِي البخاري ومُسْلِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه مَرْفُوعاً: «**مَا بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ أَرْبَعُونَ**»، قَالُوا: يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أَرْبَعُونَ يَوْماً؟ قَالَ: أَبَيْتُ، قَالُوا: أَرْبَعُونَ شَهْراً؟ قَالَ: أَبَيْتُ، قَالُوا: أَرْبَعُونَ سَنَةً؟ قَالَ: أَبَيْتُ... الْحَدِيثَ(١).

---

(١) صحيح البخاري (٤٨١٤)، ومسلم (٢٩٥٥).

وَقَوْلُ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه: (أَبَيْتُ) فِيهِ ثَلَاثُ تَأْوِيلَاتٍ:

أَوَّلُهَا: امْتَنَعْتُ مِنْ بَيَانِ ذَلِكَ لَكُمْ، وَقِيلَ: أَبَيْتُ أَسْأَلُ النَّبِيَّ ﷺ عَنْ ذَلِكَ، وَقِيلَ: نَسِيتُ، وَقِيلَ: إِنَّ سِرَّ ذَلِكَ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللهُ؛ لِأَنَّهُ مِنْ أَسْرَارِ الرُّبُوبِيَّةِ)[1].

وفي حديث أبي هريرة الطويل الذي رواه ابن جرير والطبراني وأبو يعلى في «مسنده»، والبيهقي في «البعث»، وأبو موسى المديني وغيرهم؛ قال: (حدثنا رسول الله ﷺ أن الله لما فرغ من خلق السماوات والأرض خلق الصور، فأعطاه إسرافيل، فهو واضعه على فيه، شاخصاً ببصره إلى العرش، ينتظر متى يؤمر، قلت: يا رسول الله وما الصور؟ قال: «**القرن**»، قلت: أي شيء هو؟ قال: «**عظيم، إن عظم دارة فيه كعرض السماء والأرض، فينفخ فيه ثلاث نفخات الأولى نفخة الفزع، والثانية نفخة الصعق، والثالثة نفخة القيام لرب العالمين، فيأمر الله إسرافيل بالنفخة الأولى، فيقول: انفخ الفزع! فينفخ، فيفزع أهل السماء والأرض إلا من شاء الله، فيأمره فيمدها ويطيلها ولا يفتر، وهي التي يقول الله تعالى** ﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ۝١٥﴾ [ص: ١٥] **فيسيِّر الله الجبال، فتمر مر السحاب، فتكون سراباً، وترتج الأرض بأهلها رجًّا، فتكون كالسفينة الموقرة في البحر تضربها الأمواج، وكالقنديل المعلق بالعرش ترجحه الأرواح، وهي التي يقول الله:** ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۝٦ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ۝٧﴾ [النَّازعَات: ٦ ـ ٧] **فتميل الأرض بالناس على ظهرها، فتذهل**

(١) انظر: لوامع الأنوار (٢/ ١٦٤ ـ ١٦٥).

المراضع، وتضع الحوامل، وتشيب الولدان، وتطير الشياطين هاربة من الفزع حتى تأتي الأقطار، فتتلقاها الملائكة فتضرب وجوهها فترجع، ويولي الناس مدبرين ينادي بعضهم بعضاً، وهو الذي يقول الله تعالى: ﴿يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ [غافر: ٣٢ ـ ٣٣] **فبينما هم على ذلك؛ إذ تصدعت الأرض، فانصدعت من قطر إلى قطر، فرأوا أمراً عظيماً، ثم نظروا إلى السماء؛ فإذا هي كالمهل، ثم انشقت فانتثرت نجومها وانخسفت شمسها وقمرها**»، قال رسول الله ﷺ: «**الأموات يومئذ لا يعلمون بشيء من ذلك**»، قلت: يا رسول الله، من استثنى الله تعالى في قوله: ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [النمل: ٨٧]؟ قال: «**أولئك الشهداء وإنما يتصل الفزع إلى الأحياء وهم أحياء عند ربهم يرزقون، وقاهم الله فزع ذلك اليوم وأمنهم منه، وهو عذاب يبعثه الله على شرار خلقه، يقول الله**: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾﴾ [الحج: ١ ـ ٢]، **فيمكثون في ذلك ما شاء الله**» الحديث)[1].

هذا ونسأل الله ﷻ أن يهدينا الصراط المستقيم، ويجعلنا من الذين ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٣].

(١) انظر: البعث والنشور للبيهقي (٥٩٣)، وتفسير ابن جرير أول سورة الحج، والآية (٥٠) سورة يس، وتفسير ابن أبي حاتم، الآية (٨٧) سورة النمل، والأحاديث الطوال للطبراني (٣٦)، ومسند إسحاق بن راهويه (١٠).

المبحث الثاني

الإيمان باليوم الآخر

وسُمي باليوم الآخر؛ لتأخُّره عن الدنيا.

وقد دلَّ عليه العقل والفطرة، كما صرحت به جميع الكتب السماوية، ونادى به الأنبياء والمرسلون.

وقد أخبر الله عنه في كتابه العزيز، وأقام الدليل عليه، ورد على المنكرين له في غالب سور القرآن.

والإقرار بالرب عام في بني آدم، وهو فطري، كلهم يقر بالرب إلا من عاند كفرعون؛ بخلاف الإيمان باليوم الآخر؛ فإن منكريه كثيرون.

ومحمد ﷺ لما كان خاتم الأنبياء، وكان قد بعث هو والساعة متقاربين بيَّن تفصيل الآخرة بياناً لا يوجد في شيء من كتب الأنبياء قبله.

وقد تنوعت أدلة البعث في القرآن الكريم:

فتارة: يخبر عمن أماتهم ثم أحياهم في الدنيا؛ كما أخبر عن قوم موسى الذين قالوا: ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [النِّسَاء: ١٥٣]؛ قال: ﴿فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ۝٥٥ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾ [البَقَرَة: ٥٥ ـ ٥٦]، وعن ﴿ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ

لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْۚ﴾ [البَقَرَة: ٢٤٣]، وعن إبراهيم إذ قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰۖ﴾ [البَقَرَة: ٢٦٠]... القصة، وكما أخبر عن المسيح أنه يحيي الموتى بإذن الله، وعن أصحاب الكهف أنهم بعثوا بعد ثلاث مائة سنة وتسع سنين.

وتارة: يستدل على ذلك بالنشأة الأولى؛ فإن الإعادة أهون من الابتداء؛ كما في قوله: ﴿إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ﴾ [الحَجّ: ٥] الآية، وقوله: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍۖ﴾ [يٓس: ٧٩]، ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ﴾ [الإسراء: ٥١]، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِۚ﴾ [الرُّوم: ٢٧].

وتارة: يستدل على ذلك بخلق السماوات والأرض؛ فإن خلقهما أعظم من إعادة الإنسان؛ كما في قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰۚ﴾ [الأحقاف: ٣٣].

وتارة: يستدل عليه بتنزيه الله عن العبث؛ كما قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾ [المؤمنون: ١١٥]، ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾﴾ [القِيَامَة: ٣٦] إلى قوله سبحانه: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ [القِيَامَة: ٤٠].

فالناس في هذه الدنيا منهم المحسن ومنهم المسيء، وقد يموتون ولا ينال أحدهم جزاء عمله؛ فلا بد من دار أخرى يقام فيها العدل بين الناس، وينال كل منهم جزاء عمله.

والإيمان باليوم الآخر أحد أركان الإيمان؛ كما يدل على ذلك القرآن في كثير من الآيات والسُّنَّة النبوية في كثير من الأحاديث؛

حيث يذكر الإيمان به تارة مع الإيمان بالأركان الستة؛ التي هي: الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر؛ كما في حديث عمر رضي الله عنه في سؤالات جبريل عليه السلام للنبي صلى الله عليه وسلم(١).

وتارة: يذكر الإيمان به مع الإيمان بالله؛ كما قال تعالى: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ [التوبة: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ [البقرة: ٢٦٤].

وقد سمّى الله هذا اليوم بعدة أسماء؛ تنويهاً بشأنه وتنبيهاً للعباد ليخافوا منه؛ فسماه: اليوم الآخر؛ لأنه بعد الدنيا وليس بعده يوم غيره، وسماه: يوم القيامة؛ لقيام الناس فيه لربهم، وسماه: الواقعة والحاقة والقارعة والراجفة والصاخة والآزفة والفزع الأكبر ويوم الحساب ويوم الدين والوعد الحق، وكلها أسماء تدل على عظم شأنه وشدة هوله، وما يلقاه الناس فيه من الشدائد والأهوال؛ فهو يوم تشخص فيه الأبصار، وتطير القلوب عن أماكنها حتى تبلغ الحناجر: ﴿يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ ٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ٣٥ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ٣٦ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ ٣٧﴾ [عبس: ٣٤ ـ ٣٧]، ﴿يَوۡمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلۡمُهۡلِ ٨ وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ ٩ وَلَا يَسۡـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمٗا ١٠ يُبَصَّرُونَهُمۡۚ يَوَدُّ ٱلۡمُجۡرِمُ لَوۡ يَفۡتَدِي مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِئِذِۭ بِبَنِيهِ ١١ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ١٢ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِي تُـٔۡوِيهِ ١٣ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا ثُمَّ يُنجِيهِ ١٤﴾ [المعارج: ٨ ـ ١٤].

والإيمان بهذا اليوم يحمل الإنسان على العمل والاستعداد له،

(١) تقدم تخريجه.

كما قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف: ١١٠]، وقال تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴿٤٥﴾ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [البقرة: ٤٥ ـ ٤٦]، وقال تعالى: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾﴾ [الإنسان: ٧ ـ ٩].

كما أن الإيمان بهذا اليوم يحمل على الثبات عند لقاء الأعداء والصبر على الشدائد؛ كما قال تعالى في قصة طالوت وجنوده حينما لقوا عدوهم الذي يفوقهم في الكثرة بعدما جاوزوا نهر الامتحان ولم ينجح منهم إلا القليل؛ قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ۚ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٢٤٩﴾﴾ [البقرة: ٢٤٩].

كما أن عدم الإيمان بهذا اليوم يحمل الإنسان على الكفر والمعاصي، وعلى الظلم والعدوان والبغي والفساد، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ﴿٧﴾ أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾﴾ [يونس: ٧ ـ ٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾ [ص: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾﴾ [النبأ: ٢٧ ـ ٢٨]، وقال تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿٣﴾﴾ [الماعون: ١ ـ ٣].

وقد أمر الله باتقاء ذلك اليوم بالاستعداد له بالأعمال الصالحة التي تنجي من أهواله، قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿٢٨١﴾﴾ [البَقَرَة: ٢٨١]، وقال سبحانه: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ [البَقَرَة: ١٢٣]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡ وَٱخۡشَوۡاْ يَوۡمٗا لَّا يَجۡزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوۡلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ﴿٣٣﴾﴾ [لقمان: ٣٣].

والإيمان باليوم الآخر متفق عليه بين المسلمين واليهود والنصارى، وإنما أنكره المشركون والدهريون والملاحدة الذين قالوا: ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [المؤمنون: ٣٧]، ﴿وَمَا نَحۡنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [الدّخان: ٣٥]، ﴿أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗاۖ ذَٰلِكَ رَجۡعُۢ بَعِيدٞ ﴿٣﴾﴾ [قٓ: ٣]، ﴿هَلۡ نَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ يُنَبِّئُكُمۡ إِذَا مُزِّقۡتُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمۡ لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ أَفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةُۢۗ﴾ [سَبَإ: ٧ ـ ٨]، وغير ذلك من مقالاتهم الضالة.

وقد أخبر سبحانه أن جميع الرسل أنذرت أممها باليوم الآخر، كما قال تعالى عن الكفار إذا دخلوا النار: ﴿كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ ﴿٨﴾ قَالُواْ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَنَا نَذِيرٞ فَكَذَّبۡنَا وَقُلۡنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ كَبِيرٖ ﴿٩﴾﴾ [المُلك: ٨ ـ ٩]. فأخبر أن الرسل أنذرتهم، وأنهم كذبوا بالرسالة.

وقال تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا

جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾﴾ [الزُّمَر: ٧١]، وقال تعالى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَاۚ قَالُواْ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَاۖ﴾ [الأنعَام: ١٣٠]، فأخبر عن جميع الجن والإنس أن الرسل بلغتهم رسالة الله وهي آياته، وأنذرتهم اليوم الآخر، ولم يكن لهؤلاء المنكرين حجة إلا استبعاد إعادة الأجسام بعد فنائها وتفتتها ومصير عظامها رميماً ورفاتاً، قاسوا قدرة الخالق التي لا يعجزها شيء على قدرتهم المحدودة.

والإيمان باليوم الآخر معناه: أن تصدق بكل ما بعد الموت من عذاب القبر ونعيمه، وبالبعث بعد ذلك والحساب والميزان والثواب والعقاب والجنة والنار، وبكل ما وصف الله به يوم القيامة.

وسمي باليوم الآخر؛ لتأخره عن الدنيا، وله أسماء كثيرة في القرآن منها:

١ ـ **يوم البعث**؛ لأن فيه البعث والحياة بعد الموت.

٢ ـ **يوم الخروج**؛ لأن فيه خروج الناس من قبورهم إلى الحياة الأخرى.

٣ ـ **يوم القيامة**؛ لأن فيه قيام الناس للحساب.

٤ ـ **يوم الدين**؛ لأن فيه إدانة الخلائق ومجازاتهم على أعمالهم.

٥ ـ **يوم الفصل**؛ لأن فيه الفصل بين الناس بالعدل.

٦ ـ **يوم الحشر**؛ لأن فيه جمع الخلائق وحشرهم في موقف الحساب.

٧ ـ **يوم الجمع**؛ لأن الله يجمع فيه الناس للجزاء.

٨ ـ **يوم الحساب**؛ لأن فيه محاسبة الناس على أعمالهم التي عملوها في الدنيا.

٩ ـ **يوم الوعيد**؛ لأن فيه تحقيق وعيد الله للكافرين.

١٠ ـ **يوم الحسرة**؛ لأن فيه حسرة الكافرين.

١١ ـ **يوم الخلود**؛ لأن الحياة في هذا اليوم حياة خالدة أبدية.

١٢ ـ **الدار الآخرة**؛ لأنها بعد دار الدنيا، وهي دار باقية، ليس بعدها انتقال إلى دار أخرى.

١٣ ـ **دار القرار**؛ لأنها الاستقرار الدائم بلا فناء ولا انتقال.

١٤ ـ **دار الخلد**؛ لأن الإقامة فيها إقامة أبدية.

١٥ ـ **الواقعة**؛ لتحقيق وقوعها.

١٦ ـ **الحاقة**؛ لأنها تحق كل مجادل ومخاصم بالباطل بمعنى تغلبه.

١٧ ـ **القارعة**؛ لأنها تقرع الأسماع والقلوب بأهوالها.

١٨ ـ **الغاشية**؛ لما يجري فيها من غشيان عام للثقلين.

١٩ ـ **الطامة**؛ لأنها تغلب وتفوق ما سواها من الدواهي.

٢٠ ـ **الآزفة**؛ أي: القريبة، سميت بذلك إشعاراً بقربها بالنسبة إلى عمر الدنيا.

٢١ ـ **يوم التغابن**؛ لأن أهل الجنة يغبنون أهل النار.

٢٢ ـ **يوم التناد**؛ لأنه يدعى فيه كل أناس بإمامهم، وينادي بعضهم بعضاً، وينادي أهل الجنة أهل النار، وأهل النار أهل الجنة، وينادي أصحاب الأعراف رجالاً يعرفونهم.

❁ ❁ ❁

المبحث الثالث

القيامة الكبرى والقيامة الصغرى

ومن مقدمات اليوم الآخر: الموت، وهو القيامة الصغرى.

والقيامة الصغرى: هي وفاة كل شخص عند انتهاء أجله، وبها ينتقل من الدنيا إلى الآخرة.

وقد ذكَّر الله العباد بالموت؛ ليستعدوا له بالأعمال الصالحة والتوبة من الأعمال السيئة؛ لأنه إذا جاء خُتِم عمل الإنسان، وهو لا يقبل التأخير، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ۝٩ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٠ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ۝١١﴾ [المنافقون: ٩ ـ ١١]، وقال تعالى: ﴿كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ﴾ [آل عِمرَان: ١٨٥]، والموت: هو القيامة الصغرى، وقيام الساعة: هو القيامة الكبرى.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَهُوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي السُّورَةِ الْوَاحِدَةِ يَذْكُرُ «الْقِيَامَةَ الْكُبْرَى» وَ «الصُّغْرَى»، كَمَا فِي سُورَةِ الْوَاقِعَةِ؛ فَإِنَّهُ ذَكَرَ فِي أَوَّلِهَا الْقِيَامَةَ الْكُبْرَى، وَأَنَّ النَّاسَ يَكُونُونَ أَزْوَاجاً ثَلَاثَةً، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلۡوَاقِعَةُ ۝١ لَيۡسَ لِوَقۡعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢ خَافِضَةٞ رَّافِعَةٌ ۝٣ إِذَا رُجَّتِ ٱلۡأَرۡضُ رَجّٗا ۝٤ وَبُسَّتِ ٱلۡجِبَالُ بَسّٗا ۝٥

فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ﴿٦﴾ وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ﴿٧﴾﴾ [الواقِعَة: ١ ـ ٧].

ثُمَّ إِنَّهُ فِي آخِرِهَا ذَكَرَ الْقِيَامَةَ الصُّغْرَى بِالْمَوْتِ، وَأَنَّهُمْ ثَلَاثَةُ أَصْنَافٍ بَعْدَ الْمَوْتِ فَقَالَ: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾﴾ [الواقِعَة: ٨٣ ـ ٩٤])[١].

وعند الموت تقبض روح الإنسان من جسده بأمر الله تعالى.

وقد أسند الله قبض الأنفس إليه سبحانه في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزُّمَر: ٤٢]، وأسنده إلى الملائكة في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الأنعام: ٦١]، وفي قوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾﴾ [الأنفال: ٥٠]، وأسنده إلى ملك الموت في قوله: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [السَّجدَة: ١١]، ولا تعارض بين الآيات، والإضافة في هذه الآيات إلى كلٍّ بحسبه؛ فالله هو الذي قضى بالموت وقدره، فهو بقضائه وقدره وأمره، فأضيف إليه التوفي لأجل ذلك، وملك الموت يتولى قبضها واستخراجها من البدن، ثم تأخذها منه ملائكة الرحمة أو ملائكة

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٤/ ٢٦٣ ـ ٢٦٤).

العذاب، ويتولونها بعده، فصحت إضافة التوفي إلى كلٍّ بحسبه.

التوفي بالنوم والتوفي بالموت:

الروح المدبرة للبدن التي تفارقه بالموت هي الروح المنفوخة فيه، وهي النفس التي تفارقه بالنوم.

قال النبي ﷺ لما نام عن الصلاة: «**إِنَّ اللهَ قَبَضَ أَرْوَاحَنَا وَلَوْ شَاءَ لَرَدَّهَا إِلَيْنَا فِي حِينٍ غَيْرِ هَذَا**»[١]، وقال له بلال رضي الله عنه: يا رسول الله، أخذ بنفسي الذي أخذ بنفسك[٢].

وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ﴾ [الزُّمَر: ٤٢].

قال ابن عباس وأكثر المفسرين: يقبضها قبضتين: قبض الموت وقبض النوم، ثم في النوم يقبض التي تموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى حتى يأتي أجلها وقت الموت، وقد ثبت في «الصحيحين» عن النبي ﷺ: «**إِذَا جَاءَ أَحَدُكُمْ إِلَى فِرَاشِهِ فَلْيَنْفُضْهُ بِصَنِفَةِ ثَوْبِهِ** - أي: داخله - **ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، وَلْيَقُلْ: بِاسْمِكَ رَبِّي وَضَعْتُ جَنْبِي وَبِكَ أَرْفَعُهُ، إِنْ أَمْسَكْتَ نَفْسِي فَاغْفِرْ لَهَا، وَإِنْ أَرْسَلْتَهَا فَاحْفَظْهَا بِمَا تَحْفَظُ بِهِ عِبَادَكَ الصَّالِحِينَ**»[٣].

---

(١) الموطأ (٢/ ٢٠)، وعند البخاري (٥٩٥) بلفظ: «**إِنَّ اللهَ قَبَضَ أَرْوَاحَكُم حِينَ شَاءَ وَرَدَّهَا حِينَ شَاء**».
(٢) مسلم (٦٨٠) في نفس سياق الحديث السابق.
(٣) البخاري (٧٣٩٣)، ومسلم (٢٧١٤).

وهذا أحد القولين في الآية، وهو: أن المُمْسَكة والمُرْسَلة كلاهما متوفى وفاة النوم، فمن استكملت أجلها أمسكها عنده فلا يردها إلى جسدها، ومن لم تستكمل أجلها ردها إلى جسدها لتستكمله.

والقول الثاني: أن المُمْسَكة من توفيت وفاة الموت أولاً، والمرسلة من توفيت وفاة النوم، والمعنى على هذا: أن الله يتوفى نفس الميت فيمسكها ولا يرسلها قبل يوم القيامة، ويتوفى نفس النائم ثم يرسلها إلى جسده إلى بقية أجلها فيتوفاها الوفاة الأخرى؛ قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ﴾ [الأنعام: ٦٠].

حقيقه الروح:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَمَذْهَبُ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ وَسَائِرِ سَلَفِ الْأُمَّةِ وَأَئِمَّةِ السُّنَّةِ: أَنَّ الرُّوحَ عَيْنٌ قَائِمَةٌ بِنَفْسِهَا تُفَارِقُ الْبَدَنَ، وَتُنَعَّمُ وَتُعَذَّبُ لَيْسَتْ هِيَ الْبَدَنَ وَلَا جُزْءاً مِنْ أَجْزَائِهِ كَالنَّفَسِ الْمَذْكُورِ، وَلَمَّا كَانَ الْإِمَامُ أَحْمَد رَحِمَهُ اللَّهُ مِمَّنْ نَصَّ عَلَى ذَلِكَ كَمَا نَصَّ عَلَيْهِ غَيْرُهُ مِنَ الْأَئِمَّةِ لَمْ يَخْتَلِفْ أَصْحَابُهُ فِي ذَلِكَ)(١).

وقال في موضع آخر: (وَالصَّوَابُ أَنَّهَا لَيْسَتْ مُرَكَّبَةً مِنَ الْجَوَاهِرِ الْمُفْرَدَةِ وَلَا مِنَ الْمَادَّةِ وَالصُّورَةِ وَلَيْسَتْ مِنْ جِنْسِ الْأَجْسَام الْمُتَحَيِّزَاتِ الْمَشْهُودَةِ الْمَعْهُودَةِ. وَأَمَّا الْإِشَارَةُ إلَيْهَا فَإِنَّهُ يُشَارُ إلَيْهَا

(١) انظر: مجموع الفتاوى (١٧/ ٣٤١).

وَتَصْعَدُ وَتَنْزِلُ وَتَخْرُجُ مِنَ الْبَدَنِ وَتُسَلُّ مِنْهُ كَمَا جَاءَتْ بِذَلِكَ النُّصُوصُ وَدَلَّتْ عَلَيْهِ الشَّوَاهِدُ الْعَقْلِيَّةُ).

ثم قال: (وَأَمَّا قَوْلُ الْقَائِلِ: أَيْنَ مَسْكَنُهَا مِنَ الْجَسَدِ؟ فَلَا اخْتِصَاصَ لِلرُّوحِ بِشَيْءٍ مِنَ الْجَسَدِ؛ بَلْ هِيَ سَارِيَةٌ فِي الْجَسَدِ كَمَا تَسْرِي الْحَيَاةُ الَّتِي هِيَ عَرَضٌ فِي جَمِيعِ الْجَسَدِ؛ فَإِنَّ الْحَيَاةَ مَشْرُوطَةٌ بِالرُّوحِ، فَإِذَا كَانَتَ الرُّوحُ فِي الْجَسَدِ كَانَ فِيهِ حَيَاةٌ، وَإِذَا فَارَقَتْهُ الرُّوحُ فَارَقَتْهُ الْحَيَاةُ)(١).

الروح مخلوقة:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: (رُوحُ الْآدَمِيِّ مَخْلُوقَةٌ مُبْدَعَةٌ بِاتِّفَاقِ سَلَفِ الْأُمَّةِ وَأَئِمَّتِهَا وَسَائِرِ أَهْلِ السُّنَّةِ، وَقَدْ حَكَى إِجْمَاعَ الْعُلَمَاءِ عَلَى أَنَّهَا مَخْلُوقَةٌ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ أَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ)(٢).

وقال تلميذه العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى: (والذي يدل على خلقها وجوه، وذكر اثني عشر وجهاً(٣):

منها: قول الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٍ﴾ [الرّعد: ١٦]؛ فهذا اللفظ عام، لا تخصيص فيه بوجه ما، ولا يدخل في ذلك صفاته؛ فإنها داخلة في مسمى اسمه؛ فالله سبحانه هو الإلـٰه الموصوف بصفات الكمال، وهو سبحانه بذاته وصفاته الخالق وما سواه مخلوق.

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٩/ ٣٠٢).
(٢) انظر: مجموع الفتاوى (٤/ ٢١٦).
(٣) انظر: كتاب الروح (١٤٦) وما بعدها.

ومنها: قوله تعالى: ﴿وَقَدۡ خَلَقۡتُكَ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ تَكُ شَيۡـٔٗا ٩﴾ [مَريَم: ٩]، وهذا الخطاب لروحه وبدنه، وليس لبدنه فقط؛ فإن البدن وحده لا يفهم ولا يخاطب ولا يعقل، وأما الذي يفهم ويعقل ويخاطب هو الروح.

ومنها: قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَٰكُمۡ ثُمَّ صَوَّرۡنَٰكُمۡ ثُمَّ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ﴾ [الأعرَاف: ١١]، وهذا الإخبار إما أن يتناول أرواحنا وأجسادنا كما يقوله الجمهور، وإما أن يكون واقعاً على الأرواح قبل خلق الأجساد، كما يقوله من يزعم ذلك، وعلى التقديرين فهو صريح في خلق الأرواح.

ومنها: النصوص الدالة على أن الإنسان عبد بجملته، وليست عبوديته واقعة على بدنه دون روحه، بل عبودية الروح أصل، وعبودية البدن تبع؛ كما أنه تبع لها في الأحكام، وهي التي تحركه وتستعمله، وهو تبع لها في العبودية.

ومنها: قوله تعالى: ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا ١﴾ [الإنسَان: ١]؛ فلو كانت روحه قديمة لكان الإنسان لم يزل شيئاً مذكوراً؛ فإنه إنما هو إنسان بروحه لا ببدنه.

ومنها: حديث أبي هريرة رضي الله عنه الذي في «صحيح البخاري» وغيره عن النبي صلى الله عليه وسلم: «**الْأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا ائْتَلَفَ وَمَا تَنَاكَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ**»(١) والجنود المجندة لا تكون إلا مخلوقة.

(١) البخاري (٣٣٣٦).

ومنها: أن الروح توصف بالوفاة والقبض والإمساك والإرسال، وهذا شأن المخلوق المحدث المربوب.

كيفية قبض روح المتوفى ومآلها بعد وفاته:

قد جاء بيان كيفية التوفي ومآل الروح بعده في حديث البراء بن عازب الطويل، وهذا نصه:

عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: كنا في جنازة في بقيع الغرقد، فأتانا النبي ﷺ، فقعد وقعدنا حوله كأن على رؤوسنا الطير وهو يلحد له، فقال: «**أعوذ بالله من عذاب القبر**» ثلاث مرات.

ثم قال: «**إِنَّ الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ مِنَ الْآخِرَةِ، نَزَلَ إِلَيْهِ مَلَائِكَةٌ مِنَ السَّمَاءِ بِيضُ الْوُجُوهِ، كَأَنَّ وُجُوهَهُمُ الشَّمْسُ، مَعَهُمْ كَفَنٌ مِنْ أَكْفَانِ الْجَنَّةِ، وَحَنُوطٌ مِنْ حَنُوطِ الْجَنَّةِ، حَتَّى يَجْلِسُوا مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ عليه السلام، حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَيَقُولُ: أَيَّتُهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ، اخْرُجِي إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٍ**».

قَالَ: «**فَتَخْرُجُ تَسِيلُ كَمَا تَسِيلُ الْقَطْرَةُ مِنْ فِيِّ السِّقَاءِ، فَيَأْخُذُهَا، فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدَعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ حَتَّى يَأْخُذُوهَا، فَيَجْعَلُوهَا فِي ذَلِكَ الْكَفَنِ، وَفِي ذَلِكَ الْحَنُوطِ، وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَطْيَبِ نَفْحَةِ مِسْكٍ وُجِدَتْ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ**».

قَالَ: «**فَيَصْعَدُونَ بِهَا، فَلَا يَمُرُّونَ** - يَعْنِي بِهَا - **عَلَى مَلَإٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، إِلَّا قَالُوا: مَا هَذَا الرُّوحُ الطَّيِّبُ؟ فَيَقُولُونَ: فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ،**

بِأَحْسَنِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانُوا يُسَمُّونَهُ بِهَا فِي الدُّنْيَا، حَتَّى يَنْتَهُوا بِهَا إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيَسْتَفْتِحُونَ لَهُ، فَيُفْتَحُ لَهُمْ فَيُشَيِّعُهُ مِنْ كُلِّ سَمَاءٍ مُقَرَّبُوهَا إِلَى السَّمَاءِ الَّتِي تَلِيهَا، حَتَّى يُنْتَهَى بِهِ إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، فَيَقُولُ اللهُ ﷻ: اكْتُبُوا كِتَابَ عَبْدِي فِي عِلِّيِّينَ، وَأَعِيدُوهُ إِلَى الْأَرْضِ، فَإِنِّي مِنْهَا خَلَقْتُهُمْ، وَفِيهَا أُعِيدُهُمْ، وَمِنْهَا أُخْرِجُهُمْ تَارَةً أُخْرَى».

قَالَ: «فَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ، فَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ، فَيُجْلِسَانِهِ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: رَبِّيَ اللهُ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: دِينِيَ الْإِسْلَامُ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ فَيَقُولُ: هُوَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَيَقُولَانِ لَهُ: وَمَا عِلْمُكَ؟ فَيَقُولُ: قَرَأْتُ كِتَابَ اللهِ، فَآمَنْتُ بِهِ وَصَدَّقْتُ، فَيُنَادِي مُنَادٍ فِي السَّمَاءِ: أَنْ صَدَقَ عَبْدِي، فَأَفْرِشُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَأَلْبِسُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَاباً إِلَى الْجَنَّةِ».

قَالَ: «فَيَأْتِيهِ مِنْ رَوْحِهَا، وَطِيبِهَا، وَيُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ مَدَّ بَصَرِهِ».

قَالَ: «وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ حَسَنُ الْوَجْهِ، حَسَنُ الثِّيَابِ، طَيِّبُ الرِّيحِ، فَيَقُولُ: أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُرُّكَ، هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ، فَيَقُولُ لَهُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَوَجْهُكَ الْوَجْهُ يَجِيءُ بِالْخَيْرِ، فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحُ، فَيَقُولُ: رَبِّ أَقِمِ السَّاعَةَ حَتَّى أَرْجِعَ إِلَى أَهْلِي، وَمَالِي».

قَالَ: «وَإِنَّ الْعَبْدَ الْكَافِرَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ مِنَ الْآخِرَةِ، نَزَلَ إِلَيْهِ مِنَ السَّمَاءِ مَلَائِكَةٌ سُودُ الْوُجُوهِ، مَعَهُمُ الْمُسُوحُ، فَيَجْلِسُونَ مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ، حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَيَقُولُ: أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْخَبِيثَةُ، اخْرُجِي إِلَى سَخَطٍ مِنَ اللهِ وَغَضَبٍ».

قَالَ: «فَتُفَرَّقُ فِي جَسَدِهِ، فَيَنْتَزِعُهَا كَمَا يُنْتَزَعُ السَّفُّودُ مِنَ الصُّوفِ الْمَبْلُولِ، فَيَأْخُذُهَا، فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدَعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ حَتَّى يَجْعَلُوهَا فِي تِلْكَ الْمُسُوحِ، وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَنْتَنِ رِيحِ جِيفَةٍ وُجِدَتْ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ، فَيَصْعَدُونَ بِهَا، فَلَا يَمُرُّونَ بِهَا عَلَى مَلأٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، إِلَّا قَالُوا: مَا هَذَا الرُّوحُ الْخَبِيثُ؟ فَيَقُولُونَ: فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ بِأَقْبَحِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانَ يُسَمَّى بِهَا فِي الدُّنْيَا، حَتَّى يُنْتَهَى بِهِ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيُسْتَفْتَحُ لَهُ، فَلَا يُفْتَحُ لَهُ».

ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٤٠] فَيَقُولُ اللهُ ﷻ: **اكْتُبُوا كِتَابَهُ فِي سِجِّينٍ فِي الْأَرْضِ السُّفْلَى، فَتُطْرَحُ رُوحُهُ طَرْحاً**».

ثُمَّ قَرَأَ: «﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾﴾ [الحج: ٣١] **فَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ، وَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ، فَيُجْلِسَانِهِ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: هَاهْ هَاهْ لَا أَدْرِي، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: هَاهْ هَاهْ لَا أَدْرِي، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ فَيَقُولُ: هَاهْ هَاهْ لَا أَدْرِي، فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ أَنْ كَذَبَ، فَافْرِشُوا لَهُ مِنَ النَّارِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَاباً إِلَى النَّارِ، فَيَأْتِيهِ مِنْ حَرِّهَا، وَسَمُومِهَا، وَيُضَيَّقُ عَلَيْهِ قَبْرُهُ حَتَّى تَخْتَلِفَ فِيهِ أَضْلَاعُهُ، وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ قَبِيحُ الْوَجْهِ، قَبِيحُ الثِّيَابِ، مُنْتِنُ الرِّيحِ، فَيَقُولُ: أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُوؤُكَ، هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ، فَيَقُولُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَوَجْهُكَ الْوَجْهُ يَجِيءُ بِالشَّرِّ، فَيَقُولُ:**

أَنَا عَمَلُكَ الْخَبِيثُ، فَيَقُولُ: رَبِّ لَا تُقِمِ السَّاعَةَ»[(١)] رواه الإمام أحمد وأبو داود، والحاكم وأبو عوانة وابن حبان في صحيحهما.

قال شارح الطحاوية: (وَذَهَبَ إِلَى مُوجَبِ هَذَا الْحَدِيثِ جَمِيعُ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْحَدِيثِ، وَلَهُ شَوَاهِدُ مِنَ الصَّحِيحِ)[(٢)].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: (أَمَّا الْحَدِيثُ الْمَذْكُورُ فِي قَبْضِ رُوحِ الْمُؤْمِنِ، وَأَنَّهُ يَصْعَدُ بِهَا إِلَى السَّمَاءِ الَّتِي فِيهَا اللهُ فَهَذَا حَدِيثٌ مَعْرُوفٌ جَيِّدُ الْإِسْنَادِ، وَقَوْلُهُ: «فِيهَا اللهُ» بِمَنْزِلَةِ قَوْله تَعَالَى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ۝١٦﴾ [المُلك: ١٦] ﴿أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗاۖ فَسَتَعۡلَمُونَ كَيۡفَ نَذِيرِ ۝١٧﴾ [المُلك: ١٧])[(٣)]. انتهى.

قال العلامة ابن القيم: (الأرواح متفاوتة في مستقرها في البرزخ أعظم تفاوت:

فمنها: أرواح في أعلى عليين في الملأ الأعلى، وهي أرواح الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، وهم متفاوتون في منازلهم؛ كما رآهم النبي ﷺ ليلة الإسراء.

ومنها: أرواح في حواصل طير خضر تسرح في الجنة حيث شاءت، وهي أرواح بعض الشهداء، لا جميعهم، بل من الشهداء من تحبس روحه عن دخول الجنة لدين عليه أو غيره.

---

(١) أخرجه أحمد (١٨٥٣٤)، والحاكم في المستدرك (١/ ٩٣)، وابن أبي شيبة (١٢٠٥٩).

(٢) شرح العقيدة الطحاوية (٢/ ٥٧٦).

(٣) انظر: مجموع الفتاوى (٤/ ٢٧١).

ومنهم: من يكون محبوساً على باب الجنة.

ومنهم: من يكون محبوساً في قبره؛ كحديث صاحب الشملة التي غلها، ثم استشهد فقال الناس: هنيئاً له الجنة، فقال النبي ﷺ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّ الشَّمْلَةَ الَّتِي أَخَذَهَا لَتَشْتَعِلُ عَلَيْهِ نَاراً**»(١).

ومنهم: من يكون مقره باب الجنة؛ كما في حديث ابن عباس: «**الشُّهَدَاءُ عَلَى بَارِقٍ** ـ نَهْرٍ بِبَابِ الْجَنَّةِ ـ **فِي قُبَّةٍ خَضْرَاءَ، يَخْرُجُ عَلَيْهِمْ رِزْقُهُمْ مِنَ الجَنَّةِ بُكْرَةً وَعَشِيًّا**»(٢).

ومنها: ما يكون محبوساً في الأرض لم تَعْلُ إلى الملأ الأعلى؛ فإنها كانت روحاً سفلية أرضية؛ فإن الأنفس الأرضية لا تجامع الأنفس السماوية، كما لا تجامعها في الدنيا، والنفس التي لم تكتسب في الدنيا معرفة ربها ومحبته وذكره والأنس به والتقرب إليه، بل هي أرضية سفلية لا تكون بعد المفارقة لبدنها إلا هناك؛ كما أن النفس العلوية التي كانت في الدنيا عاكفة على محبة الله وذكره والتقرب إليه والأنس به تكون بعد المفارقة مع الأرواح العلوية المناسبة لها؛ فالمرء مع من أحب في البرزخ ويوم القيامة، والله تعالى يُزَوِّج النفوس بعضها ببعض في البرزخ ويوم المعاد؛ كما تقدم في الحديث، ويجعل روحه ـ يعني: المؤمن ـ مع النسيم الطيب؛ أي: الأرواح الطيبة المشاكلة؛ فالروح بعد المفارقة تلحق بأشكالها وأخواتها وأصحاب عملها، فتكون معهم هناك.

ومنها: أرواح تكون في تنور الزناة والزواني، وأرواح في نهر

---

(١) صحيح البخاري (٦٧٠٧).

(٢) مسند الإمام أحمد (٢٣٩٠).

الدم تسبح فيه وتلقم الحجارة، فليس للأرواح سعيدها وشقيها مستقر واحد، بل روح في أعلى عليين، وروح أرضية سفلية لا تصعد عن الأرض)[(١)].

قال: (وأنت إذا تأملت السنن والآثار، وكان لك بها فضل اعتناء عرفت حجة ذلك، ولا تظن أن بين الآثار الصحيحة في هذا الباب تعارضاً؛ فإنها كلها حق يصدق بعضها بعضاً، لكن الشأن في فهمها ومعرفة النفس وأحكامها، وأنها لها شأناً غير شأن البدن).

إلى أن قال: (وأنها تنقسم إلى مرسلة ومحبوسة، وعلوية وسفلية، ولها بعد المفارقة صحة ومرض، ولذة ونعيم، وألم أعظم مما كان لها حال اتصالها بالبدن بكثير؛ فهنالك الحبس والألم والعذاب والمرض والحسرة، وهنالك اللذة والراحة والنعيم والإطلاق)[(٢)].

هل الروح والنفس شيء واحد أو شيئان متغايران؟

اختلف الناس في ذلك:

فمن قائل: إن مسماهما واحد، وهم الجمهور. ومن قائل: إنهما متغايران.

والتحقيق: أن لفظ الروح والنفس يعبر بهما عن عدة معان، فيتحد مدلولها تارة، ويختلف تارة، **فالنفس تطلق على أمور**:

---

(١) انظر: الروح (ص١١٥ ـ ١١٦).

(٢) انظر: الروح (ص١١٦).

منها: الروح؛ يقال: خرجت نفسه؛ أي: روحه، ومنه قوله تعالى: ﴿أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُۖ﴾ [الأنعام: ٩٣].

ومنها: الذات؛ يقال: رأيت زيداً نفسه وعينه، ومنه قوله تعالى: ﴿فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ﴾ [النُّور: ٦١].

ومنها: الدم؛ يقال: سالت نفسه، ومنه قول الفقهاء: (ما له نفس سائلة، وما ليس له نفس سائلة) ومنه يقال: نفست المرأة إذا حاضت، ونفست: إذا نفسها ولدها، ومنه النفساء.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (وَيُقَالُ: النُّفُوسُ ثَلاثَةُ أَنْوَاعٍ: وَهِيَ:

النَّفْسُ الْأَمَّارَةُ بِالسُّوءِ: الَّتِي يَغْلِبُ عَلَيْهَا اتِّبَاعُ هَوَاهَا بِفِعْلِ الذُّنُوبِ وَالْمَعَاصِي.

وَالنَّفْسُ اللَّوَّامَةُ: وَهِيَ الَّتِي تُذْنِبُ وَتَتُوبُ فَفِيهَا خَيْرٌ وَشَرٌّ؛ لَكِنْ إذَا فَعَلَتْ الشَّرَّ تَابَتْ وَأَنَابَتْ فَتُسَمَّى لَوَّامَةً؛ لِأَنَّهَا تَلُومُ صَاحِبَهَا عَلَى الذُّنُوبِ وَلِأَنَّهَا تَتَلَوَّمُ؛ أَيْ: تَتَرَدَّدُ بَيْنَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ.

وَالنَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ: وَهِيَ الَّتِي تُحِبُّ الْخَيْرَ وَالْحَسَنَاتِ وَتُبْغِضُ الشَّرَّ وَالسَّيِّئَاتِ، وَقَدْ صَارَ ذَلِكَ لَهَا خُلُقاً وَعَادَةً؛ فَهَذِهِ صِفَاتٌ وَأَحْوَالٌ لِذَاتٍ وَاحِدَةٍ؛ لأن النَّفْس الَّتِي لِكُلِّ إنْسَانٍ هِيَ نَفْسٌ وَاحِدَةٌ)[1].

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٩/ ٢٩٤).

والروح أيضاً تطلق على معان:

منها: القرآن الذي أوحاه الله تعالى إلى رسوله ﷺ؛ قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشّورىٰ: ٥٢].

ومنها: جبريل عليه السلام، قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ١٩٣﴾ [الشُّعَرَاء: ١٩٣].

ومنها: الوحي الذي يوحيه الله تعالى إلى أنبيائه ورسله؛ قال تعالى: ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ [غافر: ١٥]، سمي روحاً لما يحصل به من الحياة النافعة؛ فإن الحياة بدونه لا تنفع صاحبها البتة، وسميت الروح روحاً؛ لأن بها حياة البدن.

وتطلق الروح أيضاً على الهواء الخارج من البدن والهواء الداخل فيه.

وتطلق الروح على ما سبق بيانه، وهو: ما يحصل بفراقه الموت، وهي بهذا الاعتبار ترادف النفس ويتحد مدلولهما، ويفترقان في أن النفس تطلق على البدن وعلى الدم، والروح لا تطلق عليهما... والله أعلم.

❁ ❁ ❁

فتنة القبر وعذابه ونعيمه

الإيمان باليوم الآخر يعني: الإيمان بكل ما أخبر به النبي ﷺ مما يكون بعد الموت، ومن ذلك الإيمان بفتنة القبر وبعذاب القبر ونعيمه، وذلك أن بين الموت الذي تنتهي به الحياة الأولى وبين البعث الذي تبتدئ به الحياة الثانية ـ وبعبارة أخرى: بين القيامة الصغرى والقيامة الكبرى ـ فترة جاءت تسميتها في القرآن الكريم برزخاً؛ كما في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [المؤمنون: ٩٩ ـ ١٠٠].

والبرزخ لغة: الحاجز بين الشيئين.

وفي هذا البرزخ مثال من الجزاء الأخروي؛ فهو أول منزل من منازل الآخرة؛ ففيه سؤال الملكين ثم العذاب أو النعيم.

أولاً: سؤال الملكين:

ويسمى بفتنة القبر، وهي الامتحان والاختبار للميت حين يسأله الملكان.

وقد تواترت الأحاديث عن النبي ﷺ في هذه الفتنة من حديث البراء بن عازب وأنس بن مالك وأبي هريرة وغيرهم رضي الله عنهم.

وهي عامة للمكلفين إلا النبيين فقد اختلف فيهم، وكذلك

اختلف في غير المكلفين؛ كالصبيان والمجانين، فقيل: لا يفتنون؛ لأن المحنة إنما تكون للمكلفين، وقيل: يفتنون(١).

وحجة من قال: إنهم يسألون: أنه يشرع الصلاة عليهم والدعاء لهم، وسؤال الله أن يقيهم عذاب القبر وفتنة القبر.

كما ذكر مالك في «موطئه» عن أبي هريرة رضي الله عنه: أنه ﷺ صلَّى على جنازة صبي، فسمع من دعائه: «**اللَّهُمَّ أعذه من عذاب القبر**»(٢).

واحتجوا بما رواه علي بن معبد عن عائشة رضي الله عنها: أنه مُرَّ عليها بجنازة صبي صغير فبكت، فقيل لها: ما يبكيك يا أم المؤمنين؟ فقالت: هذا الصبي بكيت له شفقة عليه من ضمة القبر.

قالوا: والله سبحانه يكمل لهم عقولهم؛ ليعرفوا بذلك منزلتهم، ويلهمون الجواب عما يسألون عنه.

قالوا: وقد دل على ذلك الأحاديث الكثيرة التي فيها أنهم يمتحنون في الآخرة، وحكاه الأشعري عن أهل السُّنَّة والحديث؛ فإذا امتحنوا في الآخرة لم يمتنع امتحانهم في القبور.

واحتج من قال: إنهم لا يسألون: بأن السؤال إنما يكون لمن عقل الرسول والمُرسِل، فيسأل: هل آمن بالرسول وأطاعه أم لا؟ فأما الطفل الذي لا تمييز له بوجه ما فكيف يقال له ما كنت تقول

---

(١) انظر: الروح لابن القيم (٨٧) وما بعدها، وانظر: مجموع الفتاوى لابن تيمية (٤/ ٢٧٧).

(٢) انظر: الموطأ (٢/ ٣٢٠)، والسنن الكبرى للبيهقي (٦٥٨٤).

في هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ ولو رد إليه عقله في القبر فإنه لا يسأل عما لم يتمكن من معرفته والعلم به، ولا فائدة في هذا السؤال، وهذا بخلاف امتحانهم في الآخرة؛ فإن الله سبحانه يرسل إليهم رسولاً، ويأمرهم بطاعته وعقولهم معهم؛ فمن أطاعه منهم نجا، ومن عصاه أدخله النار؛ فذلك امتحان بأمر يأمرهم به يفعلونه ذلك الوقت، لا أنه سؤال عن أمر مضى لهم في الدنيا من طاعة أو عصيان؛ كسؤال الملكين في القبر.

وأجابوا عن أدلة الأولين بقولهم:

أما حديث أبي هريرة: فليس المراد بعذاب القبر فيه عقوبة الطفل على ترك طاعة أو فعل معصية قطعاً؛ فإن الله لا يعذب أحداً بلا ذنب عمله، بل عذاب القبر قد يراد به الألم الذي يحصل للميت بسبب غيره، وإن لم يكن عقوبة على عمله، ومنه قوله ﷺ: «**إِنَّ الْمَيِّتَ لَيُعَذَّبُ بِبُكَاءِ أَهْلِهِ عَلَيْهِ**»(١)؛ أي: يتألم بذلك ويتوجع منه؛ لا أنه يعاقب بذنب الحي، لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [فاطر: ١٨]، وهذا كقول النبي ﷺ: «**السَّفَرُ قِطْعَةٌ مِنَ الْعَذَابِ**»(٢)، فالعذاب أعم من العقوبة، ولا ريب أن في القبر من الآلام والهموم والحسرات ما قد يسري أثره إلى الطفل فيتألم، فيشرع للمصلي عليه أن يسأل الله تعالى له أن يقيه ذلك العذاب. والله أعلم.

وأما أثر عائشة رضي الله عنها: فمع أنه ليس مرفوعاً هو صريح في ضمة

(١) أخرجه البخاري (١٢٨٦).
(٢) أخرجه البخاري (١٨٠٤).

القبر، وقد جاءت الأحاديث الكثيرة بأنها عامة لكل أحد، وهذا بخلاف فتنة القبر، فلا يصح قياسها عليها للفارق؛ بل ولأن أمور الغيب لا مجال فيها للقياس.

واختلفوا: هل السؤال في القبر عام في حق المسلمين والمنافقين والكفار أو يختص بالمسلم والمنافق؟.

فقيل: يختص ذلك بالمسلم والمنافق دون الكافر الجاحد المبطل، وقيل: السؤال في القبر عام للكافر والمسلم، وهذا هو الذي يدل عليه الكتاب والسُّنَّة، واستثناء الكافر من هذا لا وجه له.

واختلفوا: هل السؤال في القبر مختص بهذه الأمة، أو يكون لها ولغيرها على ثلاثة مذاهب[(١)]:

المذهب الأول: أنه خاص بهذه الأمة؛ لأن الأمم قبلنا كانت الرسل تأتيهم بالرسالة فإذا أبوا كَفَّتِ الرسل، واعتزلوهم، وعُوجلوا بالعذاب، فلما بعث الله محمداً ﷺ بالرحمة إماماً للخلق؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبيَاء: ١٠٧]؛ أُمْسِكَ عنهم العذاب، وأعطي السيف حتى يدخل في دين الإسلام من دخل لمهابة السيف، ثم يرسخ الإيمان في قلبه، فَأُمهِلوا فمن ثم ظَهَرَ أمر النفاق، فكانوا يُسِرُّون الكفر ويعلنون الإيمان، فكانوا بين المسلمين في ستر، فلما ماتوا قيض الله لهم فتَّاني القبر ليستخرجا سِرَّهم بالسؤال.

واحتج أهل هذا القول بقوله ﷺ: «**إِنَّ هَذِهِ الأُمَّةَ تُبْتَلَى فِي**

---

(١) انظر: الروح لابن القيم (ص٨٦).

قُبُورِهَا»(١)، وبقوله: «**أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّكُمْ تُفْتَنُونَ فِي قُبُورِكُمْ**»(٢) وهذا ظاهر في الاختصاص بهذه الأمة، ويدل عليه قول الملكين: «**ما كنت تقول في هذا الرجل الذي بعث فيكم؟**»(٣).

المذهب الثاني: أن السؤال في القبر لهذه الأمة ولغيرها، وأجاب أصحاب هذا القول عن أدلة القول الأول بأنها لا تدل على الاختصاص بالسؤال لهذه الأمة دون سائر الأمم.

وقوله: «**هَذِهِ الأُمَّةَ**»: إما أن يراد به: أمة الناس؛ أي: بني آدم؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ [الأنعام: ٣٨]، وكل جنس من أجناس الحيوان يسمى أمة، وإن كان المراد أمته ﷺ لم يكن فيه ما ينفي سؤال غيرهم من الأمم؛ لأنه إخبار لهم بأنهم يسألون في قبورهم. وكذلك حديث: «**أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّكُمْ تُفْتَنُونَ فِي قُبُورِكُمْ**» مجرد إخبار لا ينفي سؤال غيرهم.

المذهب الثالث: التوقف في هذه المسألة؛ لأن الأدلة في ذلك محتملة وليست قاطعة في الاختصاص، والله أعلم.

صفة سؤال الملكين للميت على ما وردت به الأحاديث:

جاء في حديث البراء بن عازب رضي الله عنه قوله ﷺ: «**فَتُعَادُ رُوحُهُ ـ يعني: الميت ـ فِي جَسَدِهِ، فَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ**»(٤).

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٦٧).
(٢) أخرجه البخاري (٨٦).
(٣) انظر: صحيح البخاري (١٣٣٨)، وسنن أبي داود (٤٧٥٥).
(٤) تقدم تخريجه.

وفي «الصحيحين» من حديث قتادة عن أنس: أن النبي ﷺ قال: «الْعَبْدُ إِذَا وُضِعَ فِي قَبْرِهِ، وَتُوُلِّيَ وَذَهَبَ أَصْحَابُهُ حَتَّى إِنَّهُ لَيَسْمَعُ قَرْعَ نِعَالِهِمْ أَتَاهُ مَلَكَانِ فَأَقْعَدَاهُ فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ مُحَمَّدٍ ﷺ؟ فَيَقُولُ: أَشْهَدُ أَنَّهُ عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ، فَيُقَالُ: انْظُرْ إِلَى مَقْعَدِكَ مِنَ النَّارِ أَبْدَلَكَ اللهُ بِهِ مَقْعَداً مِنَ الْجَنَّةِ»، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «فَيَرَاهُمَا جَمِيعاً»، قال: «وَأَمَّا الْكَافِرُ أَوِ الْمُنَافِقُ فَيَقُولُ: لَا أَدْرِي كُنْتُ أَقُولُ مَا يَقُولُ النَّاسُ، فَيُقَالُ: لَا دَرَيْتَ وَلَا تَلَيْتَ، ثُمَّ يُضْرَبُ بِمِطْرَقَةٍ مِنْ حَدِيدٍ ضَرْبَةً بَيْنَ أُذُنَيْهِ فَيَصِيحُ صَيْحَةً يَسْمَعُهَا مَنْ يَلِيهِ إِلَّا الثَّقَلَيْنِ»(١).

وفي حديث آخر في «صحيح أبي حاتم»: «أَتَاهُ مَلَكَانِ أَسْوَدَانِ أَزْرَقَانِ، يُقَالُ لأَحَدِهِمَا: الْمُنْكَرُ، وَلِلآخَرِ: النَّكِيرُ»(٢).

وفي حديث آخر في «المسند» و«صحيح أبي حاتم»عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: «إِنَّ الْمَيِّتَ إِذَا وُضِعَ فِي قَبْرِهِ إِنَّهُ يَسْمَعُ خَفْقَ نِعَالِهِمْ حِينَ يُوَلُّونَ عَنْهُ؛ فَإِنْ كَانَ مُؤْمِناً كَانَتِ الصَّلَاةُ عِنْدَ رَأْسِهِ وَكَانَ الصِّيَامُ عَنْ يَمِينِهِ وَكَانَتِ الزَّكَاةُ عَنْ شِمَالِهِ وَكَانَ فِعْلُ الْخَيْرَاتِ مِنَ الصَّدَقَةِ وَالصِّلَةِ وَالْمَعْرُوفِ وَالْإِحْسَانِ إِلَى النَّاسِ عِنْدَ رِجْلَيْهِ؛ فَيُؤْتَى مِنْ قِبَلِ رَأْسِهِ فَتَقُولُ الصَّلَاةُ: مَا قِبَلِي مَدْخَلٌ، ثُمَّ يُؤْتَى عَنْ يَمِينِهِ فَيَقُولُ الصِّيَامُ: مَا قِبَلِي مَدْخَلٌ، ثُمَّ يُؤْتَى عَنْ يَسَارِهِ فَتَقُولُ الزَّكَاةُ: مَا قِبَلِي مَدْخَلٌ، ثُمَّ يُؤْتَى مِنْ قِبَلِ

(١) أخرجه البخاري (١٣٣٨ ـ ١٣٧٤)، ومسلم (٢٨٧٠).
(٢) سنن الترمذي (١٠٧١).

رِجْلَيْهِ، فَتَقُولُ فعل الخيرات مِنَ الصَّدَقَةِ، وَالصِّلَةِ، وَالْمَعْرُوفِ وَالْإِحْسَانِ إِلَى النَّاسِ: مَا قِبَلِي مَدْخَلٌ، فَيُقَالُ لَهُ: اجْلِسْ فَيَجْلِسُ وَقَدْ مُثِّلَتْ لَهُ الشَّمْسُ وَقَدْ أُدْنِيَتْ لِلْغُرُوبِ، فَيُقَالُ لَهُ: أَرَأَيْتَكَ هَذَا الرَّجُلَ الَّذِي كَانَ فِيكُمْ مَا تَقُولُ فِيهِ وَمَاذَا تَشَهَّدُ بِهِ عَلَيْهِ؟ فَيَقُولُ: دَعُونِي حَتَّى أُصَلِّيَ فَيَقُولُونَ: إِنَّكَ سَتَفْعَلُ أَخْبَرَنِي عَمَّا نَسْأَلُكَ عَنْهُ»[(١)] الحديث.

فهذه الأحاديث وما جاء بمعناها تدل على مسائل:

١ ـ أن السؤال يحصل حين يوضع الميت في قبره، وفي هذا رد على أهل البدع؛ كأبي الهذيل والمريسي القائلين: إن السؤال يقع بين النفختين.

٢ ـ تسمية الملكين: منكر ونكير، وفي هذا رد على من زعم من المعتزلة أنه لا يجوز تسميتهما بذلك، وأوَّلوا ما ورد في الحديث بأن المراد بالمنكر تلجلجه إذا سئل، والنكير تقريع الملائكة له.

٣ ـ أنها ترد روح الميت إليه في قبره حين السؤال ويجلس ويستنطق، وفي هذا رد على أبي محمد ابن حزم ـ رحمه الله تعالى ـ حيث نفى ذلك، إلا إن كان يريد نفي الحياة المعهودة في الدنيا؛ فهذا صحيح؛ فإن عودة الروح إلى بدن الميت ليست مثل عودتها إليه في هذه الحياة الدنيا، وإن كان ذاك قد يكون أكمل من بعض

(١) رواه ابن حبان (٣١١٣) واللفظ له، والإمام أحمد في المسند (١٣٤٤٦)، والحاكم في المستدرك (١/ ٥٣٥).

الوجوه؛ كما أن النشأة الأخرى ليست مثل هذه النشأة، وإن كانت أكمل منها، بل كل موطن في هذه الدار وفي البرزخ والقيامة له حكم يخصه، ولهذا أخبر النبي ﷺ أن الميت يوسع له في قبره ويسأل ونحو ذلك، وإن كان التراب قد لا يتغير فالأرواح تعاد إلى بدن الميت وتفارقه.

تعلقات الروح بالبدن:

للروح بالبدن خمسة أنواع من التعلق متغايرة الأحكام[(١)]:

أحدهما: تعلقها به في بطن الأم جنيناً.

الثاني: تعلقها به بعد خروجه إلى وجه الأرض.

الثالث: تعلقها به في حال النوم؛ فلها به تعلق من وجه، ومفارقة من وجه.

الرابع: تعلقها به في البرزخ؛ فإنها وإن فارقته وتجردت عنه فإنها لم تفارقه فراقاً كليًّا بحيث لا يبقى لها التفات؛ فقد دلت الأحاديث على ردها إليه عند سؤال الملكين وعند سلام المسلم، وهذا الرد إعادة خاصة لا توجب حياة البدن قبل يوم القيامة.

الخامس: تعلقها به يوم يبعث الأجساد، وهو أكمل تعلقاتها بالبدن، ولا نسبة لما قبله من أنواع التعلق إليه؛ إذ هو تعلق لا يقبل البدن معه موتاً ولا نوماً ولا فساداً.

---

(١) انظر: الروح لابن القيم (ص٤٣).

ثانياً: عذاب القبر ونعيمه:

مذهب سلف الأمة وأئمتها أن الميت إذا مات يكون في نعيم أو عذاب، وأن ذلك يحصل لروحه وبدنه، وأن الروح تبقى بعد مفارقة البدن منعمة أو معذبة، وأنها تتصل بالبدن أحياناً، ويحصل له معها النعيم أو العذاب.

فأهل السُّنَّة والجماعة يتفقون على أن النفس تنعم وتعذب منفردة عن البدن، وتنعم وتعذب متصلة بالبدن والبدن متصل بها، فيكون النعيم والعذاب عليهما في هذه الحال مجتمعين؛ كما يكون ذلك على الروح منفردة عن البدن.

وهل يكون النعيم والعذاب على البدن بدون الروح؟

هذا فيه قولان مشهوران لأهل الحديث والسُّنَّة وأهل الكلام[(١)].

أدلة عذاب القبر ونعيمه من القرآن الكريم:

١ ـ قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [الأنعَام: ٩٣].

وهذا خطاب لهم عند الموت، وقد أخبرت الملائكة ـ وهم الصادقون ـ أنهم حينئذ يجزون عذاب الهون، ولو تأخر عنهم ذلك

(١) انظر: الروح لابن القيم (ص٥١).

إلى انقضاء الدنيا لما صح أن يقال لهم: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ﴾، فدل على أن المراد به عذاب القبر.

٢ ـ وقال الله تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الطُّور: ٤٥ ـ ٤٧].

وهذا يحتمل عذابهم بالقتل وغيره في الدنيا، وأن يراد به عذابهم في البرزخ ـ وهو أظهر ـ لأن كثيراً منهم مات ولم يعذب في الدنيا، وقد يقال ـ وهو أظهر ـ: إن من مات منهم عُذب في البرزخ، ومن بقي منهم عُذب في الدنيا بالقتل وغيره، فهو وعيد بعذابهم في الدنيا وفي البرزخ.

٣ ـ وقال تعالى: ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ [غافر: ٤٥ ـ ٤٦].

فذكر عذاب الدارين ذكراً صريحاً لا يحتمل غيره، فدل على ثبوت عذاب القبر.

٤ ـ وقال تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾﴾ [الواقعة: ٨٣ ـ ٩٤].

فذكر هاهنا أحكام الأرواح عند الموت، وذكر في أول السورة أحكامها يوم المعاد الأكبر، وقدم ذلك على هذا تقديم الغاية للعناية؛ إذ هي أهم وأولى بالذكر، وجعلهم عند الموت ثلاثة أقسام؛ كما جعلهم في الآخرة ثلاثة أقسام.

أدلة عذاب القبر ونعيمه من السُّنَّة النبوية:

إذا تأملت أحاديث عذاب القبر ونعيمه وجدتها تفصيلاً وتفسيراً لما دل عليه القرآن، وأحاديث عذاب القبر كثيرة متواترة عن النبي ﷺ، ومنها:

١ ـ ما في «الصحيحين» عن ابن عباس: «**إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ: أَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَانَ لَا يَسْتَتِرُ مِنَ الْبَوْلِ، وَأَمَّا الْآخَرُ فَكَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ**» ثم دعا بجريدة، فشقها نصفين، فقال: «**لَعَلَّهُ يُخَفَّفُ عَنْهُمَا مَا لَمْ يَيْبَسَا**»(١).

٢ ـ وفي «صحيح مسلم» عن زيد بن ثابت قال: بَيْنَمَا النَّبِيُّ ﷺ فِي حَائِطٍ لِبَنِى النَّجَّارِ عَلَى بَغْلَةٍ لَهُ وَنَحْنُ مَعَهُ إِذْ حَادَتْ بِهِ فَكَادَتْ تُلْقِيهِ، وَإِذَا أَقْبُرٌ سِتَّةٌ أَوْ خَمْسَةٌ أَوْ أَرْبَعَةٌ، فَقَالَ: «**مَنْ يَعْرِفُ أَصْحَابَ هَذِهِ الأَقْبُرِ؟**». فَقَالَ رَجُلٌ: أَنَا، قَالَ: «**فَمَتَى مَاتَ هَؤُلَاءِ؟**» قَالَ: مَاتُوا فِى الإِشْرَاكِ، فَقَالَ: «**إِنَّ هَذِهِ الأُمَّةَ تُبْتَلَى فِي قُبُورِهَا فَلَوْلَا أَنْ لَا تَدَافَنُوا لَدَعَوْتُ اللهَ أَنْ يُسْمِعَكُمْ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ الَّذِى أَسْمَعُ مِنْهُ**»(٢) الحديث.

---

(١) البخاري (٢١٨)، ومسلم (٢٩٢).
(٢) صحيح مسلم (٢٨٦٧).

٣ ـ وفي «صحيح مسلم» والسنن الأربعة عن أبي هريرة: أن النبي ﷺ قال: «**إِذَا فَرَغَ أَحَدُكُمْ مِنَ التَّشَهُّدِ الْآخِرِ، فَلْيَتَعَوَّذْ بِاللهِ مِنْ أَرْبَعٍ: مِنْ عَذَابِ جَهَنَّمَ، وَمِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَمِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ، وَمِنْ شَرِّ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ**»(١) رواه الإمام أحمد ومسلم.

٤ ـ وفي «الصحيحين» عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه قال: خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ وَقَدْ وَجَبَتِ الشَّمْسُ فَسَمِعَ صَوْتاً فَقَالَ: «**يَهُودُ تُعَذَّبُ فِي قُبُورِهَا**»(٢).

٥ ـ وفي «الصحيحين» عن عائشة رضي الله عنها قالت: دَخَلَتْ عَلَيَّ عَجُوزَانِ مِنْ عُجُزِ يَهُودِ الْمَدِينَةِ فَقَالَتَا لِي: إِنَّ أَهْلَ الْقُبُورِ يُعَذَّبُونَ فِي قُبُورِهِمْ، فَكَذَّبْتُهُمَا وَلَمْ أُنْعِمْ أَنْ أُصَدِّقَهُمَا، فَخَرَجَتَا وَدَخَلَ عَلَيَّ النَّبِيُّ ﷺ فَقُلْتُ لَهُ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ عَجُوزَيْنِ.... وَذَكَرْتُ لَهُ، فَقَالَ: «**صَدَقَتَا إِنَّهُمْ يُعَذَّبُونَ عَذَاباً تَسْمَعُهُ الْبَهَائِمُ كُلُّهَا**»(٣). فَمَا رَأَيْتُهُ بَعْدُ فِي صَلَاةٍ إِلَّا تَعَوَّذَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ.

تنبيه هام:

وعذاب القبر وسؤال الملكين ينالان كل من مات، ولو لم يدفن؛ فهو اسم لعذاب البرزخ ونعيمه، وهو ما بين الدنيا والآخرة،

---

(١) صحيح مسلم (١/ ٤١٢) (٥٨٨)، وأبو داود (٩٨٣) (١/ ٢٥٨)، والنسائي (١٣١٠) (٣/ ٥٨)، وابن ماجه (٩٩) (١/ ٢٩٤).
(٢) البخاري (١٣٧٥)، ومسلم (٢٨٦٩).
(٣) البخاري (٦٣٦٦)، ومسلم (٥٨٦).

قال تعالى: ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝١٠٠﴾ [المؤمنون: ١٠٠]، وسمي عذاب القبر ـ باعتبار الغالب ـ؛ فالمصلوب والمحروق والمغرق وأكيل السباع والطيور له من عذاب البرزخ ونعيمه قسطه الذي تقتضيه أعماله، وإن تنوعت أسباب النعيم والعذاب وكيفياتهما.

فقد ظن رجل ممن كان قبلنا أنه إذا حُرِّقَ جسده بالنار وصار رماداً وذري بعضه في البحر وبعضه في البر في يوم شديد الريح أنه ينجو من ذلك، فأوصى بنيه أن يفعلوا به ذلك، فأمر الله البحر فجمع ما فيه، وأمر البر فجمع ما فيه، ثم قال: قم؛ فإذا هو قائم بين يدي الله، فسأله: ما حملك على ما فعلت؟ فقال: خشيتك يا رب وأنت أعلم؛ فغفر الله له[1]؛ فلم يفت عذاب البرزخ ونعيمه لهذه الأجزاء التي صارت في هذه الحال.

حتى لو علق الميت على رؤوس الأشجار في مهاب الرياح لأصاب جسده من عذاب البرزخ حظه ونصيبه، ولو دفن الرجل الصالح في أتون من النار لأصاب جسده من نعيم البرزخ وروحه نصيبه وحظه، فيجعل الله النار على هذا برداً وسلاماً، والهواء على ذلك ناراً أو سموماً.

فعناصر العالم ومواده منقادة لربها وفاطرها وخالقها يصرفها كيف يشاء، ولا يستعصي منها شيء أراده، بل هي طوع أمره ومشيئته منقادة لقدرته؛ فغير ممتنع أن ترد الروح إلى المصلوب

(١) البخاري (٣٤٧٨).

والغريق والمحرق ونحن لا نشعر بها؛ لأن ذلك الرد نوع آخر غير المعهود؛ فهذا المغمى عليه والمسكور والمبهوت أحياء وأرواحهم معهم ولا تشعر بحياتهم، ومن تفرقت أجزاؤه لا يمتنع على من هو على كل شيء قدير أن يجعل للروح اتصالاً بتلك الأجزاء على تباعد ما بينها وقربه، ويكون في تلك الأجزاء شعور بنوع من الألم واللذة.

وإذا كان الله تعالى قد جعل في الجمادات شعوراً وإدراكاً تسبح ربها به، وتسقط الحجارة من خشيته، وتسجد له الجبال والشجر، وتسبحه الحصى والمياه والنبات؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤].

فإذا كانت هذه الأجسام فيها الإحساس والشعور فالأجسام التي كانت فيها الأرواح والحياة أولى بذلك.

وقد أشهد الله سبحانه عباده في هذه الدار إعادة حياة كاملة إلى بدن قد فارقته الروح، فتكلم ومشى وأكل وشرب وتزوج وولد له وفعل ما يفعله الأحياء، قال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾ [البقرة: ٢٤٣]، وقال سبحانه: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ [البقرة: ٢٥٩].

وكقبيل بني إسرائيل الذين قالوا لموسى: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥] فأماتهم الله ثم بعثهم من بعد موتهم،

وكأصحاب الكهف، وكقصة إبراهيم في الطيور الأربعة، فإذا أعاد الحياة التامة إلى هذه الأجساد بعد ما بردت بالموت فكيف يمتنع على قدرته الباهرة أن يعيد إليها بعد موتها حياة ما غير مستقرة يقضي بها أمره فيها ويستنطقها بها ويعذبها أو ينعمها بأعمالها؟! وهل إنكار ذلك إلا مجرد تكذيب وعناد وجحود؟!.

المنكرون لعذاب القبر ونعيمه وشبهتهم والرد عليهم(١):

أنكرت الملاحدة والزنادقة عذاب القبر ونعيمه، وقالوا: إنا نكشف القبر فلا نجد فيه ملائكة يضربون الموتى، ولا حيات، ولا ثعابين، ولا نيران تأجج، وكيف يفسح له مد بصره أو يضيق عليه ونحن نجده بحاله ونجد مساحته على حد ما حفرناه له لم يزد ولم ينقص؟! وكيف يصير القبر روضة من رياض الجنة، أو حفرة من حفر النار؟!.

وجوابنا على ذلك من وجوه:

أولاً: أن حال البرزخ من الغيوب التي أخبرت بها الأنبياء، ولا يكون خبرهم محالاً في العقول أصلاً؛ فلا بد من تصديق خبرهم.

ثانياً: أن النار التي في القبر والخضرة ليست من نار الدنيا ولا من زروع الدنيا، فيشاهد ذلك من شاهد نار الدنيا وخضرتها، وإنما هي من نار الآخرة وخضرتها، وهي أشد من نار الدنيا، فلا يحس بها أهل الدنيا؛ فإن الله سبحانه يحمي عليه ذلك التراب والحجارة

(١) انظر: الروح لابن القيم (ص٦١).

التي عليه وتحته، حتى يكون أعظم حَرًّا من جمر الدنيا، ولو مسها أهل الدنيا لم يحسوا بذلك، وقدرة الرب أوسع من ذلك وأعجب وأعظم.

وإذا شاء الله أن يطلع بعض العباد على عذاب القبر أطلعه وغيبه عن غيره؛ إذ لو اطلع العباد على أمور الغيب كلها لزالت حكمة التكليف والإيمان بالغيب، ولما تدافن الناس؛ كما في صحيح مسلم في الحديث الذي مر من قوله ﷺ: «**لَوْلَا أَنْ لَا تَدَافَنُوا لَدَعَوْتُ اللهَ أَنْ يُسْمِعَكُمْ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ الَّذِى أَسْمَعُ مِنْهُ**»[(١)].

ولما كانت هذه الحكمة منتفية في حق البهائم سمعت ذلك وأدركته؛ كما حادت برسول الله ﷺ بغلته، وكادت تلقيه لما مر بمن يعذب في قبره، فرؤية هذه النار في القبر كرؤية الملائكة والجن تقع أحياناً لمن شاء الله أن يريه ذلك.

وكيف يستنكر من يعرف الله سبحانه ويقر بقدرته أن يحدث حوادث يصرف عنها أبصار بعض خلقه؛ حكمة منه ورحمة بهم؛ لأنهم لا يطيقون رؤيتها وسماعها؟ والعبد أضعف بصراً وسمعاً أن يثبت لمشاهدة عذاب القبر.

وسر المسألة أن هذه السعة والضيق والإضاءة والخضرة والنار ليست من جنس المعهود في هذا العالم، والله سبحانه إنما أشهد بني آدم في هذه الدار ما كان فيها ومنها، فأما ما كان من أمر الآخرة

(١) تقدم قريباً.

فقد أسبل عليه الغطاء؛ ليكون الإقرار به والإيمان به سبباً لسعادتهم؛ فإذا كشف عنهم الغطاء صار عياناً مشاهداً؛ فلو كان الميت بين الناس موضوعاً لم يمتنع أن يأتيه الملكان ويسألاه من غير أن يشعر الحاضرون بذلك، ويجيبهما من غير أن يسمعوا كلامه، ويضربانه من غير أن يشاهد الحاضرون ضربه.

وهذا الواحد منا ينام إلى جنب صاحبه المستيقظ، فيعذب في النوم ويضرب ويتألم وليس عند المستيقظ خبر من ذلك ألبتة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (فَأَمَّا أَحَادِيثُ عَذَابِ الْقَبْرِ وَمَسْأَلَةُ مُنْكَرٍ وَنَكِيرٍ فَكَثِيرَةٌ مُتَوَاتِرَةٌ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ مِثْلُ مَا فِي «الصَّحِيحَيْنِ» عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﵄: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ مَرَّ بِقَبْرَيْنِ فَقَالَ: **«إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ: أَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ، وَأَمَّا الْآخَرُ فَكَانَ لَا يَسْتَتِرُ مِنْ بَوْلِهِ»** ثُمَّ دَعَا بِجَرِيدَةٍ رَطْبَةٍ فَشَقَّهَا نِصْفَيْنِ، ثُمَّ غَرَزَ فِي كُلِّ قَبْرٍ وَاحِدَةً، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ لَمْ فَعَلْت هَذَا؟ قَالَ: **«لَعَلَّهُ يُخَفِّفُ عَنْهُمَا مَا لَمْ يَيْبَسَا»**.

وَفِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ» وَسَائِرِ السُّنَنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﵁ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: **«إذَا فَرَغَ أَحَدُكُمْ مِنَ التَّشَهُّدِ الْأَخِيرِ فَلْيَقُلْ: أَعُوذُ بِاللهِ مِنْ أَرْبَعٍ: مِنْ عَذَابِ جَهَنَّمَ وَمِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ وَمِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ وَمِنْ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ»**[(١)].

وقد تواترت الأخبار عن رسول الله ﷺ في ثبوت عذاب القبر

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٤/ ٢٨٥ ـ ٢٨٦).

ونعيمه لمن كان لذلك أهلاً وسؤال الملكين فيجب اعتقاد ذلك والإيمان به، ولا نتكلم عن كيفيته؛ إذ ليس للعقل وقوف على كيفيته؛ لكونه لا عهد له في هذه الدار، والشرع لا يأتي بما تحيله العقول، ولكنه قد يأتي بما تحار فيه العقول؛ فإن عود الروح إلى الجسد ليس على الوجه المعهود في الدنيا، بل تعاد الروح إليه إعادة غير الإعادة المألوفة في الدنيا[(١)].

قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (واعلم أن عذاب القبر هو عذاب البرزخ؛ فكل من مات وهو مستحق للعذاب ناله نصيبه منه؛ قُبِرَ أو لم يُقْبَر، أكلته السباع أو احترق حتى صار رماداً ونسف في الهواء، أو صلب أو غرق في البحر؛ وصل إلى روحه وبدنه من العذاب ما يصل إلى المقبور.

وما ورد من إجلاسه واختلاف أضلاعه ونحو ذلك فيجب أن يفهم عن الرسول ﷺ مراده من غير غلو ولا تقصير؛ فلا يحمل كلامه ما لا يحتمله، ولا يقصر به عن مراده وما قصد من الهدى والبيان؛ فكم حصل من إهمال ذلك والعدول عنه من الضلال والعدول عن الصواب ما لا يعلمه إلا الله..)[(٢)].

إلى أن قال: (فالحاصل أن الدور ثلاث:

دار الدنيا، ودار البرزخ، ودار القرار، وقد جعل الله لكل دار

---

(١) انظر: شرح الطحاوية لابن أبي العز (٢/ ٥٧٨).
(٢) انظر: الروح (ص٥٨ ـ ٦٣).

أحكاماً تخصها، وركب هذا الإنسان من بدن ونفس، وجعل أحكام الدنيا على الأبدان، والأرواح تبع لها، وجعل أحكام البرزخ على الأرواح، والأبدان تبع لها؛ فإذا جاء يوم حشر الأجساد وقيام الناس من قبورهم صار الحكم والنعيم والعذاب على الأرواح والأجساد جميعاً، فإذا تأملت هذا المعنى حق التأمل ظهر لك أن كون القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار مطابق للعقل، وأنه حق لا مرية فيه، وبذلك يتميز المؤمنون بالغيب من غيرهم.

ويجب أن يعلم أن النار التي في القبر والنعيم ليس من جنس نار الدنيا ولا نعيمها، وإن كان الله تعالى يحمي عليه التراب والحجارة التي فوقه والتي تحته، حتى يكون أعظم حرًّا من جمر الدنيا، ولو مسها أهل الدنيا، لم يحسوا بها، بل أعجب من هذا أن الرجلين يدفن أحدهما إلى جنب صاحبه، وهذا في حفرة من النار، وهذا في روضة من رياض الجنة، لا يصل من هذا إلى جاره شيء من حر ناره، ولا من هذا إلى جاره شيء من نعيمه، وقدرة الله أوسع من ذلك وأعجب، ولكن النفوس مولعة بالتكذيب بما لم تحط به علماً.

وقد أرانا الله في هذه الدار من عجائب قدرته ما هو أبلغ من هذا بكثير، وإذا شاء الله أن يطلع على ذلك بعض عباده أطلعه، وغيبه عن غيره، ولو أطلع الله على ذلك العباد كلهم لزالت حكمة التكليف والإيمان بالغيب، ولما تدافن الناس؛ كما في الصحيح

عنه ﷺ: «لَوْلَا أَنْ لَا تَدَافَنُوا لَدَعَوْتُ اللهَ أَنْ يُسْمِعَكُمْ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ الَّذِي أَسْمَعُ مِنْهُ»[(١)][(٢)].

ثالثاً: أسباب عذاب القبر:

قال العلامة السفاريني رَحِمَهُ اللهُ: (الْأَسْبَابُ الَّتِي يُعَذَّبُ بِهَا أَصْحَابُ الْقُبُورِ عَلَى قِسْمَيْنِ: مُجْمَلٍ وَمُفَصَّلٍ:

أَمَّا الْمُجْمَلُ: فَإِنَّهُمْ يُعَذَّبُونَ عَلَى جَهْلِهِمْ بِاللهِ، وَإِضَاعَتِهِمْ لِأَمْرِهِ وَارْتِكَابِهِمْ مَعَاصِيَهِ؛ فَلَا يُعَذِّبُ اللهُ رُوحاً عَرَفَتْهُ وَأَحَبَّتْهُ وَامْتَثَلَتْ أَمْرَهُ وَاجْتَنَبَتْ نَهْيَهُ، وَلَا بَدَناً كَانَتْ فِيهِ أَبَداً؛ فَإِنَّ عَذَابَ الْقَبْرِ، بَلْ وَعَذَابَ الْآخِرَةِ أَثَرُ غَضَبِ اللهِ وَسُخْطِهِ عَلَى عَبْدِهِ؛ فَمَنْ أَغْضَبَ اللهَ وَأَسْخَطَهُ فِي هَذِهِ الدَّارِ بِارْتِكَابِ مَنَاهِيهِ، وَلَمْ يَتُبْ وَمَاتَ عَلَى ذَلِكَ كَانَ لَهُ عَذَابُ الْبَرْزَخِ بِقَدْرِ غَضَبِ اللهِ، وَسُخْطِهِ عَلَيْهِ؛ فَمُسْتَقِلٌّ وَمُسْتَكْثِرٌ وَمُصَدِّقٌ وَمُكَذِّبٌ.

وَأَمَّا الْمُفَصَّلُ: فَقَدْ أَخْبَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنِ الرَّجُلَيْنِ اللَّذَيْنِ رَآهُمَا أُعلِمَ بأنهما يُعَذَّبَانِ فِي قُبُورِهِمَا: أَنَّ أَحَدَهُمَا كَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ بَيْنَ النَّاسِ، وَالْآخَرَ كَانَ لَا يَسْتَتِرُ مِنَ الْبَوْلِ)[(٣)].

وقد أنكر الملاحدة والزنادقة عذاب القبر ونعيمه اعتماداً على عقولهم وحواسهم؛ لأنهم لا يشاهدون شيئاً من ذلك.

ونرد عليهم: بأن عذاب القبر من علم الغيب الذي يعتمد فيه

---

(١) تقدم قريباً.
(٢) انظر: الروح (ص٦٣ ـ ٦٦).
(٣) انظر: لوامع الأنوار (٢/ ١٧ ـ ١٩)، وانظر: الروح لابن القيم (٧٧) وما بعدها.

على النصوص الصحيحة، وليس للعقل ولا الفكر دخل فيه، وأحوال الآخرة لا تقاس بأحوال الدنيا، وعدم إدراك الإنسان للشيء لا يدل على عدم وجوده. والله أعلم.

البعث والنشور:

اعلم أن وقوع البعث من القبور قد دل عليه الكتاب والسُّنَّة والعقل والفطرة السليمة؛ أخبر الله عنه في كتابه العزيز، وأقام عليه الدليل، ورد على منكريه في آيات كثيرة من القرآن العظيم، وقد أخبرت عنه جميع الأنبياء أممها، وطالبت المنكرين بالإيمان به، ولما كان نبينا محمد ﷺ خاتم الأنبياء، وكان قد بعث هو والساعة كهاتين بيّن تفصيل الآخرة تفصيلاً لا يوجد في شيء من كتب الأنبياء قبله.

والقيامة الكبرى معروفة عند جميع الأنبياء من آدم إلى نوح إلى إبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم عليهم الصلاة والسلام.

وقد أخبر الله من حين أهبط آدم بالقيامة: فقال تعالى: ﴿وَقُلْنَا ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾﴾ [البَقَرَة: ٣٦]، وقال: ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [الأعرَاف: ٢٥]، ولما قال إبليس اللعين: ﴿رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾﴾ [الحِجر: ٣٦ ـ ٣٨].

وقال نوح عليه السلام لقومه: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾﴾ [نُوح: ١٧ ـ ١٨].

وقال إبراهيم عليه السلام: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾ [الشُّعَرَاء: ٨٢].

وموسى عليه السلام قال الله له: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾﴾ [طه: ١٥ ـ ١٦]، وقال موسى في دعائه: ﴿وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾ [الأعرَاف: ١٥٦].

وقد أخبر الله أن الكفار إذا أدخلوا النار يقرون أن رسلهم أنذرتهم هذا اليوم؛ كما في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾﴾ [الزُّمَر: ٧١]؛ فجميع الرسل أنذروا بما أنذر به خاتمهم عليهم جميعاً صلوات الله وسلامه.

وقد أخبر الله تعالى أن الموتى يقومون من قبورهم إذا نفخ في الصور النفخة الثالثة؛ قال تعالى: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [الزُّمَر: ٦٨]، وقال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾﴾ [يس: ٥١].

قال السفاريني: (وَفِي تَفْسِيرِ الثَّعْلَبِيِّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه فِي تَفْسِيرِ سُورَةِ الزُّمَرِ مَرْفُوعاً: «**إِنَّ اللهَ يُرْسِلُ مَطَراً عَلَى الْأَرْضِ، فَيَنْزِلُ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِين يَوْماً، حَتَّى يَكُونَ فَوْقَهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ ذِرَاعاً، فَيَأْمُرُ اللهُ تَعَالَى الْأَجْسَادَ أَنْ تَنْبُتَ كَنَبَاتِ الْبَقْلِ، حَتَّى إِذَا تَكَامَلَتْ أَجْسَادُهُمْ كَمَا كَانَتْ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: لِيَحْيَا حَمَلَةُ الْعَرْشِ، لِيَحْيَا جِبْرِيلُ وَمِيكَائِيلُ وَإِسْرَافِيلُ وَعِزْرَائِيلُ، ثُمَّ يَأْمُرُ اللهُ تَعَالَى إِسْرَافِيلَ فَيَأْخُذُ الصُّورَ فَيَضَعُهُ**

عَلَى فِيهِ، ثُمَّ يَدْعُوا الْأَرْوَاحَ فَيُؤْتَى بِهَا تَتَوَهَّجُ أَرْوَاحُ الْمُؤْمِنِينَ نُوراً وَالْأُخْرَى ظُلْمَةً، فَيَقْبِضُهَا جَمِيعاً، ثُمَّ يُلْقِيهَا فِي الصُّورِ، ثُمَّ يَأْمُرُهُ أَنْ يَنْفُخَ نَفْخَةَ الْبَعْثِ فَتَخْرُجَ الْأَرْوَاحُ كُلُّهَا كَأَنَّهَا النَّحْلُ قَدْ مَلأَتْ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، ثُمَّ يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: وَعِزَّتِي وَجَلَالِي لَتَرْجِعَنَّ كُلُّ رُوحٍ إِلَى جَسَدِهَا، فَتَدْخُلُ الْأَرْوَاحُ مِنَ الْخَيَاشِيمِ ثُمَّ تَمْشِي مَشْيَ السُّمِّ فِي اللَّدِيغِ، ثُمَّ تُنشَقُّ الْأَرْضُ عَنْهُا سِرَاعاً، فَأَنَا أَوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ عَنْهُ الْأَرْضُ، فَتَخْرُجُونَ مِنْهَا إِلَى رَبِّكُمْ تَنْسِلُونَ»)[١].

وَأَخْرَجَ الشَّيْخَانِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «... ثُمَّ يُنْزِلُ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً، فَيَنْبُتُونَ كَمَا يَنْبُتُ الْبَقْلُ، لَيْسَ مِنَ الْإِنْسَانِ شَيْءٌ إِلَّا يَبْلَى، إِلَّا عَظْماً وَاحِداً، وَهُوَ عَجْبُ الذَّنَبِ، وَمِنْهُ يُرَكَّبُ الْخَلْقُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[٢].

وَفِي رِوَايَةٍ لِمُسْلِمٍ: «إِنَّ فِي الْإِنْسَانِ عَظْماً لَا تَأْكُلُهُ الْأَرْضُ أَبَداً فِيهِ يُرَكَّبُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ». قَالُوا: أَيُّ عَظْمٍ هُوَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «عَجْبُ الذَّنَبِ»[٣].

قال العلماء: وعجب الذنب هو: العظم الحديد الذي يكون في أسفل الصلب[٤]، وقد جاء في الحديث: أنه مثل حبة الخردل؛ منه ينبت جسم الإنسان[٥].

---

(١) أخرجه إسحاق بن راهويه في مسنده (١/ ٨٤ ح١٠)، والبيهقي في البعث والنشور (١/ ٣٣٦) (٦٠٩). وانظر: تفسير الثعلبي، تفسير النمل، الآية (٨٣)، وانظر: تفسير ابن أبي حاتم (١٧٣٨٦).

(٢) البخاري (٤٩٣٥)، ومسلم (٢٩٥٥).

(٣) صحيح مسلم (٢٩٥٥).

(٤) انظر: لوامع الأنوار (ص١٦٥ ـ ١٦٦).

(٥) مسند الإمام أحمد (١١٢٣٠).

وقد استبعد المشركون إعادة الناس في حياة أخرى بعد الموت، فأنكروا البعث والنشور، فأمر الله نبيه أن يقسم به على وقوعه، وأنه كائن لا محالة في ثلاثة مواضع من كتابه، فقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ﴾ [سَبَإ: ٣]، وقال تعالى: ﴿وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [يُونس: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾﴾ [التّغَابُن: ٧].

وأخبر عن اقتراب ذلك، فقال: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴿١﴾﴾ [القَمَر: ١]، ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾﴾ [الأنبيَاء: ١].

وذم المكذبين بالبعث، فقال: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [يُونس: ٤٥]، ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾﴾ [الشّورىٰ: ١٨]، ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ ۞ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾﴾ [الإسرَاء: ٩٧ ـ ٩٩]، وقال: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الإسرَاء: ٤٩]، فرد الله عليهم بقوله: ﴿۞ قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى

فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾﴾ [الإسراء: ٥٠ ـ ٥٢].

قال شارح «الطحاوية» على هذه الآيات الكريمة: (فَتَأَمَّلْ مَا أُجِيبُوا بِهِ عَنْ كُلِّ سُؤَالٍ عَلَى التَّفْصِيلِ؛ فَإِنَّهُمْ قَالُوا أَوَّلاً: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾﴾ [الإسراء: ٩٨].

فَقِيلَ لَهُمْ فِي جَوَابِ هَذَا السُّؤَالِ: إِنْ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ أَنَّهُ لَا خَالِقَ لَكُمْ وَلَا رَبَّ لَكُمْ، فَهَلَّا كُنْتُمْ خَلْقاً لَا يُفْنِيهِ الْمَوْتُ؛ كَالْحِجَارَةِ وَالْحَدِيدِ وَمَا هُوَ أَكْبَرُ فِي صُدُورِكُمْ مِنْ ذَلِكَ؟! فَإِنْ قُلْتُمْ: كُنَّا خَلْقاً عَلَى هَذِهِ الصِّفَةِ الَّتِي لَا تَقْبَلُ الْبَقَاءَ، فَمَا الَّذِي يَحُولُ بَيْنَ خَالِقِكُمْ وَمُنْشِئِكُمْ وَبَيْنَ إِعَادَتِكُمْ خَلْقاً جَدِيداً؟!

وَلِلْحُجَّةِ تَقْدِيرٌ آخَرُ، وَهُوَ: لَوْ كُنْتُمْ مِنْ حِجَارَةٍ أَوْ حَدِيدٍ أَوْ خَلْقٍ أَكْبَرَ مِنْهُمَا، فَإِنَّهُ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُفْنِيَكُمْ وَيُحِيلَ ذَوَاتَكُمْ، وَيَنْقُلَهَا مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ، وَمَنْ يَقْدِرُ عَلَى التَّصَرُّفِ فِي هَذِهِ الْأَجْسَامِ، مَعَ شِدَّتِهَا وَصَلَابَتِهَا، بِالْإِفْنَاءِ وَالْإِحَالَةِ فَمَا الَّذِي يُعْجِزُهُ فِيمَا دُونَهَا؟!

ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّهُمْ يَسْأَلُونَ سُؤَالاً آخَرَ بِقَوْلِهِمْ: ﴿مَن يُعِيدُنَا﴾ إذا استحالت جسومنا وفنيت فأجابهم بقوله: ﴿قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾، فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الْحُجَّةُ، وَلَزِمَهُمْ حُكْمُهَا انْتَقَلُوا إِلَى سُؤَالٍ آخَرَ يَتَعَلَّلُونَ بِهِ تعلل الْمُنْقَطِعِ، وَهُوَ قَوْلُهُمْ: ﴿مَتَىٰ هُوَ﴾ فَأَجابهم

بِقَوْلِهِ: ﴿قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ۝٥١﴾)(١).

الإيمان بما يكون يوم القيامة:

قال الإمام السفاريني: (وَاعْلَمْ أَنَّ لِيَوْمِ الْوُقُوفِ أَهْوَالاً عَظِيمَةً، وَشَدَائِدَ جَسِيمَةً تُذِيبُ الْأَكْبَادَ، وَتُذْهِلُ الْمَرَاضِعَ، وَتُشَيِّبُ الْأَوْلَادَ، وَهُوَ حَقٌّ ثَابِتٌ وَرَدَ بِهِ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ، وَانْعَقَدَ عَلَيْهِ الْإِجْمَاعُ، وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ.

وَقَدِ اخْتُلِفَ فِي تَسْمِيَةِ ذَلِكَ الْيَوْمِ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ:

قِيلَ: لِكَوْنِ النَّاسِ يَقُومُونَ مِنْ قُبُورِهِمْ، قَالَ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا﴾ [المعارج: ٤٣].

وَقِيلَ: لِوُجُودِ أُمُورِ الْمَحْشَرِ وَالْوُقُوفِ وَنَحْوِهِمَا فِيهِ.

وَقِيلَ: لِقِيَامِ النَّاسِ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ، كَمَا رَوَى مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ عَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما مَرْفُوعاً: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦﴾ [المطففين: ٦] قَالَ: «**يَقُومُ أَحَدُهُمْ فِي رَشْحِهِ إِلَى أَنْصَافِ أُذُنَيْهِ**»(٢))(٣).

إلى أن قال: (وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ، وَأَبُو يَعْلَى، وَابْنُ حِبَّانَ فِي صَحِيحِهِ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: قِيلَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ: يَوْماً كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، مَا أَطْوَلَ هَذَا الْيَوْمَ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّهُ لَيُخَفَّفُ عَلَى**

(١) انظر: شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز (٢/ ٥٩٣ ـ ٥٩٤).
(٢) صحيح مسلم (٢٨٦٢).
(٣) انظر: لوامع الأنوار (٢/ ١٦٨).

الْمُؤْمِنِ، حَتَّى يَكُونَ أَخَفَّ عَلَيْهِ مِنْ صَلَاةٍ مَكْتُوبَةٍ يُصَلِّيهَا فِي الدُّنْيَا»[(١)].

وَقِيلَ: إِنَّمَا سُمِّيَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِقِيَامِ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحِ فِيهِ صَفًّا، قَالَ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا﴾ [النَّبَإِ: ٣٨])[(٢)].

إلى أن قال: (وَأَخْرَجَ الشَّيْخَانِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه مَرْفُوعاً: **«يَعْرَقُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يَذْهَبَ عَرَقُهُمْ فِي الْأَرْضِ سَبْعِينَ ذِرَاعاً وَيُلْجِمُهُمْ حَتَّى يَبْلُغَ آذَانَهُمْ»**[(٣)].

وَفِي بَعْضِ أَلْفَاظِ الصَّحِيحِ: **«سَبْعِينَ بَاعاً»**[(٤)]، وَأَخْرَجَ مُسْلِمٌ عَنِ الْمِقْدَادِ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: **«إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ أُدْنِيَتِ الشَّمْسُ مِنَ الْعِبَادِ حَتَّى تَكُونَ قِيدَ مِيلٍ أَوْ مِيلَيْنِ»** قَالَ: **«فَتَصْهَرُهُمُ الشَّمْسُ فَيَكُونُونَ فِي الْعَرَقِ كَقَدْرِ أَعْمَالِهِمْ، مِنْهُمْ مَنْ يَأْخُذُهُ إِلَى عَقِبَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَأْخُذُهُ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَأْخُذُهُ إِلَى حَقْوَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُلْجِمُهُ إِلْجَاماً»**[(٥)])[(٦)].

ويواجه الناس في هذا الموقف أموراً عظيمة منها:

١ ـ الحساب:

الحساب هو: تعريف الله سبحانه الخلائق مقادير الجزاء على أعمالهم، وتذكيره إياهم بما قد نسوه، قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ

(١) مسند الإمام أحمد (١١٧١٧)، وصحيح ابن حبان (٧٣٣٤)، ومسند أبي يعلى (١٣٩٠).
(٢) انظر: لوامع الأنوار (٢/ ١٦٩).
(٣) البخاري (٦٥٣٢)، ومسلم (٢٨٦٤).
(٤) صحيح مسلم (٢٨٦٣).
(٥) مسند الإمام أحمد (٢٣٨١٣) واللفظ له، وبنحوه في مسلم (٢٨٦٤).
(٦) انظر: لوامع الأنوار (٢/ ١٧٠).

جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ [المجادلة: ٦]، وقال سبحانه: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف: ٤٩]، وقال سبحانه: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة: ٧ ـ ٨].

ومن الحساب إجراء القصاص بين العباد، فيقتص للمظلوم من الظالم؛ كما في «صحيح مسلم» و«سنن الترمذي» من حديث أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «**لَتُؤَدُّنَّ الْحُقُوقَ إِلَى أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُقَادَ لِلشَّاةِ الْجَلْحَاءِ مِنَ الشَّاةِ الْقَرْنَاءِ**»(١).

والحساب متفاوت: فمنه الحساب العسير، ومنه الحساب اليسير.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: (يُحَاسِبُ اللهُ تعالى الْخَلَائِقَ وَيَخْلُو بِعَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ ويُقَرِّرُهُ بِذُنُوبِهِ، كَمَا وُصِفَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَأَمَّا الْكُفَّارُ فَلَا يُحَاسَبُونَ مُحَاسَبَةَ مَنْ تُوزَنُ حَسَنَاتُهُ وَسَيِّئَاتُهُ؛ فَإِنَّهُ لَا حَسَنَاتِ لَهُمْ، وَلَكِنْ تُعَدُّ أَعْمَالُهُمْ وَتُحْصَى، فَيُوقَفُونَ عَلَيْهَا، وَيُقَرَّرُونَ بِهَا، وَيُجْزَوْنَ بِهَا)(٢). انتهى.

وأول ما يقضى بين الناس في الدماء، وأول ما يحاسب عنه العبد صلاته؛ كما في الحديث الذي رواه الترمذي وحسنه، وأبو

---

(١) صحيح مسلم (٢٥٨٢)، والترمذي (٢٤٢٠).
(٢) انظر: مجموع الفتاوى (٣/١٤٦).

داود والحاكم وصححه عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ: أنه قال: «**إِنَّ أَوَّلَ مَا يُحَاسَبُ النَّاسُ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ أَعْمَالِهِمُ الصَّلَاةُ، يَقُولُ رَبُّنَا جَلَّ وَعَزَّ لِمَلَائِكَتِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ: انْظُرُوا فِي صَلَاةِ عَبْدِي أَتَمَّهَا أَمْ نَقَصَهَا؛ فَإِنْ كَانَتْ تَامَّةً كُتِبَتْ لَهُ تَامَّةً، وَإِنْ كَانَ انْتَقَصَ مِنْهَا شَيْئاً قَالَ: انْظُرُوا هَلْ لِعَبْدِي مِنْ تَطَوُّعٍ، فَإِنْ كَانَ لَهُ تَطَوُّعٌ قَالَ: أَتِمُّوا لِعَبْدِي فَرِيضَتَهُ مِنْ تَطَوُّعِهِ، ثُمَّ تُؤْخَذُ الأَعْمَالُ عَلَى ذَاكُمْ**»(١).

وأخرج النسائي عن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «**أَوَّلُ مَا يُحَاسَبُ بِهِ الْعَبْدُ الصَّلَاةُ وَأَوَّلُ مَا يُقْضَى بَيْنَ النَّاسِ فِي الدِّمَاءِ**»(٢).

٢ ـ إعطاء الصحائف:

الصحائف: هي الكتب التي كتبتها الملائكة وأحصوا فيها ما فعله كل إنسان في الحياة الدنيا من الأعمال القولية والفعلية، قال تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾ [الإسراء: ١٣ ـ ١٤]؛ قال العلماء: طائره: عمله.

ومنهم من يعطى كتابه بيمينه، ومنهم من يعطى كتابه بشماله، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾﴾ إلى قوله: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾ [الحاقة: ١٩ ـ ٢٤]، ثم قال سبحانه: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ

---

(١) سنن أبي داود (٨٦٤)، والترمذي (٤١٣)، والحاكم (١/ ٣٩٤).
(٢) السنن الكبرى (٣٤٣٩).

يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾﴾ إلى قوله: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾﴾ [الحاقَّة: ٢٥ ـ ٣١].

٣ ـ وزن الأعمال:

مما يكون في هذا اليوم وزن الأعمال، قال تعالى: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾﴾ [الأعراف: ٨ ـ ٩]، وقال تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنبياء: ٤٧]، فالأعمال توزن بميزان حقيقي له لسان وكفتان.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (الْمِيزَانُ هُوَ: مَا يُوزَنُ بِهِ الْأَعْمَالُ، وَهُوَ غَيْرُ الْعَدْلِ، كَمَا دَلَّ عَلَى ذَلِكَ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ مِثْلُ قَوْله تَعَالَى: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ [المؤمنون: ١٠٢]، وَقَوْلِهِ: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الأنبياء: ٤٧]).

ثم ساق بعض الأحاديث التي فيها وزن الأعمال، ثم قال: (وَهَذَا وَأَمْثَالُهُ مِمَّا يُبَيِّنُ أَنَّ الْأَعْمَالَ تُوزَنُ بِمَوَازِينَ يبين بِهَا رُجْحَانُ الْحَسَنَاتِ عَلَى السَّيِّئَاتِ وَبِالْعَكْسِ، فَهُوَ مما يتبين به الْعَدْلُ.

وَالْمَقْصُودُ بِالْوَزْنِ: الْعَدْلُ؛ كَمَوَازِينِ الدُّنْيَا، وَأَمَّا كَيْفِيَّةُ تِلْكَ الْمَوَازِينِ فَهُوَ بِمَنْزِلَةِ كَيْفِيَّةِ سَائِرِ مَا أُخْبِرْنَا بِهِ مِنَ الْغَيْبِ)[(١)]. انتهى.

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٤/ ٣٠٢).

٤ ـ الصراط والمرور عليه:

ومما يكون في يوم القيامة المرور على الصراط، وهو جسر ممدود على متن جهنم، يرده الأولون والآخرون، يمر الناس عليه على قدر أعمالهم، وهو أدق من الشعر، وأحدُّ من السيف، وأشد حرارة من الجمر، عليه كلاليب تخطف من أمرت بخطفه، يمر الناس عليه على قدر أعمالهم: فمنهم من يمر كالبرق، ومنهم من يمر كالريح، ومنهم من يمر كالفرس الجواد، ومنهم من يمر كهرولة الراجل، ومنهم من يمشي مشياً، ومنهم من يزحف زحفاً، ومنهم من يخطف فيلقى في جهنم. نسأل الله السلامة والعافية.

قال السفاريني رحمه الله تعالى: (اتَّفَقَتِ الْكَلِمَةُ عَلَى إِثْبَاتِ الصِّرَاطِ فِي الْجُمْلَةِ، لَكِنَّ أَهْلَ الْحَقِّ يُثْبِتُونَهُ عَلَى ظَاهِرِهِ: مِنْ كَوْنِهِ جِسْراً مَمْدُوداً عَلَى مَتْنِ جَهَنَّمَ أَحَدَّ مِنَ السَّيْفِ وَأَدَقَّ مِنَ الشَّعْرِ، وَأَنْكَرَ هَذَا الْقَاضِي عَبْدُ الْجَبَّارِ الْمُعْتَزِلِيُّ، وَكَثِيرٌ مِنْ أَتْبَاعِهِ؛ زَعْماً مِنْهُمْ أَنَّهُ لَا يُمْكِنُ عُبُورُهُ، وَإِنْ أَمْكَنَ فَفِيهِ تَعْذِيبٌ، وَلَا عَذَابَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالصُّلَحَاءِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَإِنَّمَا الْمُرَادُ طَرِيقُ الْجَنَّةِ الْمُشَارُ إِلَيْهِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ۝٥﴾ [محمَّد: ٥]، وَطَرِيقُ النَّارِ الْمُشَارُ إِلَيْهِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ۝٢٣﴾ [الصَّافات: ٢٣]، وَمِنْهُمْ مَنْ حَمَلَهُ عَلَى الْأَدِلَّةِ الْوَاضِحَةِ وَالْمُبَاحَاتِ وَالْأَعْمَالِ الرَّدِيئَةِ لِيُسْأَلَ عَنْهَا وَيُؤَاخَذَ بِهَا.

وَكُلُّ هَذَا بَاطِلٌ وَخُرَافَاتٌ؛ لِوُجُوب رَدِّ النُّصُوصِ إلى حَقَائِقِهَا، وَلَيْسَ الْعُبُورُ عَلَى الصِّرَاطِ بِأَعْجَبَ مِنَ الْمَشْيِ عَلَى الْمَاءِ أَوِ الطَّيَرَانِ

فِي الْهَوَاءِ، وَالْوُقُوفِ فِيهِ، وَقَدْ أَجَابَ ﷺ عَنْ سُؤَالِ حَشْرِ الْكَافِرِ عَلَى وَجْهِهِ بِأَنَّ الْقُدْرَةَ صَالِحَةٌ لِذَلِكَ(١))(٢). انتهى.

٥ ـ الحوض:

قال الحافظ السيوطي رحمه الله تعالى: (ورد ذكر الحوض من رواية بضعة وخمسين صحابيًّا، منهم الخلفاء الأربعة الراشدون، وحفاظ الصحابة المكثرون، وغيرهم رضوان الله عليهم أجمعين)(٣). انتهى.

وأخرج الشيخان وغيرهما من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «**حَوْضِي مَسِيرَةُ شَهْرٍ، مَاؤُهُ أَبْيَضُ مِنَ اللَّبَنِ، وَرِيحُهُ أَطْيَبُ مِنَ الْمِسْكِ، وَكِيزَانُهُ كَنُجُومِ السَّمَاءِ مَنْ شَرِبَ مِنْهَا فَلَا يَظْمَأُ أَبداً**»(٤).

وروى مسلم في «صحيحه» عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: أَغْفَى رسول الله ﷺ إِغْفَاءَةً، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ مُتَبَسِّماً، فَقُلْنَا: مَا أَضْحَكَكَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**أُنْزِلَتْ عَلَيَّ آنِفاً سُورَةٌ**» فَقَرَأَ: «**بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ** ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾ [الكوثر: ١ ـ ٣]» ثُمَّ قَالَ: «**أَتَدْرُونَ مَا الْكَوْثَرُ؟**» فَقُلْنَا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «**فَإِنَّهُ نَهْرٌ وَعَدَنِيهِ رَبِّي** عز وجل ـ وفي رواية: **في الجنة** ـ **عَلَيْهِ خَيْرٌ كَثِيرٌ، هُوَ**

(١) رواه البخاري (٤٧٦٠)، ومسلم (٢٨٠٦). (٢) انظر: لوامع الأنوار (٢/ ١٩٢ ـ ١٩٣).
(٣) انظر: البدور السافرة (ص٢٤١). (٤) البخاري (٦٥٧٩)، ومسلم (٢٢٩٢).

حَوْضٌ تَرِدُ عَلَيْهِ أُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، آنِيَتُهُ عَدَدُ النُّجُوم، فَيُخْتَلَجُ الْعَبْدُ مِنْهُمْ فَأَقُولُ: رَبِّ إِنَّهُ مِنْ أُمَّتِي، فَيَقُولُ: مَا تَدْرِي مَا أَحْدَثَتْ بَعْدَكَ»(١).

ومعنى **يختلج**: يطرد عن ورود الحوض.

قال القرطبي رحمه الله تعالى: (قال علماؤنا رحمة الله عليهم أجمعين: فكل من ارتد عن دين الله أو أحدث فيه ما لا يرضاه الله ولم يأذن به الله، فهو من المطرودين عن الحوض المبعدين عنه، وأشدهم طرداً من خالف جماعة المسلمين وفارق سبيلهم كالخوارج على اختلاف فرقها، والروافض على تباين ضلالها، والمعتزلة على أصناف أهوائها فهؤلاء كلهم مبدلون، وكذا الظلمة المسرفون في الجور والظلم وتطميس الحق، وقتل أهله وإذلالهم، والمعلنون بالكبائر المستحفون بالمعاصي، وجماعة أهل الزيغ والأهواء والبدع؛ ثم البعد قد يكون في حال ويقربون بعد المغفرة إن كان التبديل في الأعمال ولم يكن في العقائد)(٢). انتهى.

وقد خالفت المعتزلة، فلم تقل بإثبات الحوض مع ثبوته بالسُّنَّة الصحيحة الصريحة، فكل من خالف في إثباته فهو مبتدع وأحرى أن يطرد عنه.

٦ ـ الشفاعة:

الشفاعة لغة: الوسيلة والطلب، وعرفاً: سؤال الخير للغير.

وقيل: هي من الشفع الذي هو ضد الوتر، فكأن الشافع ضم سؤاله إلى سؤال المشفوع له.

---

(١) مسلم (٤٠٠).

(٢) انظر: التذكرة (١/ ٣٩٩).

والشفاعة الخاصة لبعض الناس حق إذا تحققت شروطها، وهي: أن تكون بإذن الله تعالى، ورضاه عن المشفوع له، قال الله تعالى: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾ [النّجم: ٢٦]، ففي هذه الآية الكريمة أن الشفاعة لا تنفع إلا بشرطين:

الأول: إذن الله للشافع أن يشفع؛ لأن الشفاعة ملكه سبحانه؛ ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزُّمَر: ٤٤].

الثاني: رضاه عن المشفوع فيه بأن يكون من أهل التوحيد؛ لأن المشرك لا تنفعه الشفاعة؛ كما قال تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [المدَّثِّر: ٤٨].

فتبين بهذا بطلان ما عليه القبوريون اليوم الذين يطلبون الشفاعة من الأموات ويتقربون إليهم بأنواع القربات، كما قال الله في سلفهم: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يُونس: ١٨]، وقال تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُواْ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الزُّمَر: ٤٣ ـ ٤٤].

وقد أعطي نبينا ﷺ الشفاعة، فيشفع لمن أذن الله له فيه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَلَهُ ﷺ ـ فِي الْقِيَامَةِ ـ ثَلَاثُ شَفَاعَاتٍ:

أَمَّا الشَّفَاعَةُ الْأُولَى: فَيُشَفَّعُ فِي أَهْلِ الْمَوْقِفِ حَتَّى يُقْضَى بَيْنَهُمْ

بَعْدَ أَنْ تَتَرَاجَعَ الْأَنْبِيَاءُ: آدَمُ وَنُوحٌ وَإِبْرَاهِيمُ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ عَنِ الشَّفَاعَةِ حَتَّى تَنْتَهِيَ إِلَيْهِ.

وَأَمَّا الشَّفَاعَةُ الثَّانِيَةُ: فَيُشَفَّعُ فِي أَهْلِ الْجَنَّةِ أَنْ يَدْخُلُوا الْجَنَّةَ؛ وَهَاتَانِ الشَّفَاعَتَانِ خَاصَّتَانِ لَهُ.

وَأَمَّا الشَّفَاعَةُ الثَّالِثَةُ: فَيُشَفَّعُ فِيمَنِ اسْتَحَقَّ النَّارَ، وَهَذِهِ الشَّفَاعَةُ لَهُ وَلِسَائِرِ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَغَيْرِهِمْ، فَيُشَفَّعُ فِيمَنِ اسْتَحَقَّ النَّارَ أَنْ لَا يَدْخُلَهَا، وَيُشَفَّعُ فِيمَنْ دَخَلَهَا أَنْ يَخْرُجَ مِنْهَا)[(١)].

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَأَمَّا شَفَاعَتُهُ لِأَهْلِ الذُّنُوبِ مِنْ أُمَّتِهِ فَمُتَّفَقٌ عَلَيْهَا بَيْنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ وَسَائِرِ أَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ الْأَرْبَعَةِ وَغَيْرِهِمْ، وَأَنْكَرَهَا كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْبِدَعِ مِنَ الْخَوَارِجِ وَالْمُعْتَزِلَةِ وَالزَّيْدِيَّةِ، وَقَالَ هَؤُلَاءِ: مَنْ يَدْخُلُ النَّارَ لَا يَخْرُجُ مِنْهَا لَا بِشَفَاعَةٍ وَلَا غَيْرِهَا، وَعِنْدَ هَؤُلَاءِ مَا ثَمَّ إِلَّا مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ فَلَا يَدْخُلُ النَّارَ، وَمَنْ يَدْخُلُ النَّارَ فَلَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ، وَلَا يَجْتَمِعُ عِنْدَهُمْ فِي الشَّخْصِ الْوَاحِدِ ثَوَابٌ وَعِقَابٌ)[(٢)].

إلى أن قال: (وَاحْتَجَّ هَؤُلَاءِ الْمُنْكِرُونَ لِلشَّفَاعَةِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ [البَقَرَة: ٤٨]، وَبِقَوْلِهِ: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ﴾ [البَقَرَة: ٢٥٤]، وَبِقَوْلِهِ: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٣/ ١٤٧).
(٢) انظر: مجموع الفتاوى (٣/ ١٤٨ ـ ١٤٩).

يُطَاعُ ﴿١٨﴾﴾ [غافر: ١٨]، وبقوله: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [المدَّثِّر: ٤٨].

وَجَوَابُ أَهْلِ السُّنَّةِ: أَنَّ هَذَا يُرَادُ بِهِ شَيْئَانِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّهَا لَا تَنْفَعُ الْمُشْرِكِينَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي نَعْتِهِمْ: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [المدَّثِّر: ٤٢ ـ ٤٨]، فَهَؤُلَاءِ نُفِيَ عَنْهُمْ نَفْعُ شَفَاعَةِ الشَّافِعِينَ؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا كُفَّاراً.

وَالثَّانِي: أَنَّهُ يُرَادُ بِذَلِكَ الشَّفَاعَةِ الَّتِي يُثْبِتُهَا أَهْلُ الشِّرْكِ وَمَنْ شَابَهَهُمْ مِنْ أَهْلِ الْبِدَعِ: مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّ لِلْخَلْقِ عِنْدَ اللهِ مِنَ الْقَدْرِ أَنْ يَشْفَعُوا عِنْدَهُ بِغَيْرِ إِذْنِهِ؛ كَمَا يَشْفَعُ النَّاسُ فِي بَعْضُهُمْ عِنْدَ بَعْضٍ)(١).

٧ ـ الجنة والنار:

وفي يوم القيامة الداران العظيمتان اللتان لا تفنيان: الجنة والنار؛ فالجنة دار المتقين، والنار دار الكافرين، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾﴾ [الانفطار: ١٣ ـ ١٤].

وهما مخلوقتان موجودتان الآن؛ كما قال تعالى في الجنة: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ [آل عِمرَان: ١٣٣].

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٣/ ١٤٩).

وقال في النار: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [البَقَرَة: ٢٤]، وغير ذلك من النصوص التي تدل على وجودهما الآن.

وهما باقيتان لا تفنيان، كما هو مذهب أهل السُّنَّة والجماعة.

قال شارح «الطحاوية»: (مِمَّا يَجِبُ أَنْ يُعْلَمَ أَنَّ اللهَ تَعَالَى لَا يَمْنَعُ الثَّوَابَ إِلَّا إِذَا مَنَعَ سَبَبَهُ، وَهُوَ الْعَمَلُ الصَّالِحُ، فَإِنَّهُ: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾﴾ [طه: ١١٢].

وَكَذَلِكَ لَا يُعَاقِبُ أَحداً إِلَّا بَعْدَ حُصُولِ سَبَبِ الْعِقَابِ؛ فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الشّورىٰ: ٣٠]، وَهُوَ سُبْحَانُهُ الْمُعْطِي الْمَانِعُ، لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَى، وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعَ)[١]. انتهى.

والأعمال الصالحة سبب لدخول الجنة، والأعمال السيئة سبب لدخول النار.

نسأل الله الجنة، ونعوذ به من النار؛ إنه سميع مجيب الدعاء.

❁ ❁ ❁

(١) انظر: شرح الطحاوية لابن أبي العز (٢/ ٦٣١ ـ ٦٣٢).

الأصل السادس

الإيمان بالقضاء والقدر

لا شك أن إثبات القضاء والقدر ووجوب الإيمان بهما وبما تضمناه من أعظم أركان الإيمان؛ كما قال النبي ﷺ: «**الإيمان: أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ**»[(١)]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ [القَمَر: ٤٩].

والقدر: مصدر: قدرت الشيء: إذا أحطت بمقداره، **والمراد هنا**: تعلق علم الله بالكائنات وإرادته لها أزلاً قبل وجودها؛ فلا يحدث شيء إلا وقد علمه الله وقدره وأراده.

ومذهب أهل السُّنَّة والجماعة: هو الإيمان بالقدر خيره وشره.

والإيمان بالقدر يتضمن أربع درجات:

الأولى: الإيمان بعلم الله الأزلي بكل شيء قبل وجوده، ومن ذلك علمه بأعمال العباد قبل أن يعملوها.

الثانية: الإيمان بأن الله كتب ذلك في اللوح المحفوظ.

الثالثة: الإيمان بمشيئة الله الشاملة لكل حادث وقدرته التامة عليه.

---

(١) أخرجه مسلم (٨).

الرابعة: الإيمان بإيجاد الله لكل المخلوقات، وأنه الخالق وحده، وما سواه مخلوق.

ومن أدلة المرتبة الأولى والثانية: قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾ [الحَجّ: ٧٠].

ومن أدلة المرتبة الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [التّكوير: ٢٩]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾﴾ [الحَجّ: ١٤].

ومن أدلة المرتبة الرابعة: قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الزُّمَر: ٦٢]، وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾﴾ [يس: ٨١].

والتقدير نوعان:

١ ـ تقدير عام شامل لكل كائن، وهو المكتوب في اللوح المحفوظ؛ فقد كتب الله فيه مقادير كل شيء إلى أن تقوم الساعة، كما في الحديث الذي رواه أبو داود في «سننه» عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ الْقَلَمُ، فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ، قَالَ: رَبِّ وَمَاذَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبْ مَقَادِيرَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ**»[1]. وهذا التقدير يعم جميع المخلوقات.

٢ ـ وتقدير مفصل للتقدير العام، وهو أنواع:

---

(١) سنن أبي داود (٤٧٠٢).

النوع الأول: التقدير العمري؛ كما في حديث ابن مسعود رضي الله عنه في شأن ما يكتب على الجنين وهو في بطن أمه من كتابة أجله ورزقه وعمله وشقاوته أو سعادته[(١)].

النوع الثاني: التقدير الحولي، وهو ما يقدر في ليلة القدر من وقائع العام؛ كما قال تعالى: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [الدّخان: ٤].

النوع الثالث: التقدير اليومي، وهو ما يقدر من حوادث اليوم؛ من حياة وموت وعز وذل إلى غير ذلك؛ كما في قوله تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾﴾ [الرَّحمٰن: ٢٩].

ولا بد للمسلم من الإيمان بالقدر العام وتفاصيله؛ فمن جحد شيئاً منهما لم يكن مؤمناً بالقدر، ومن لم يؤمن بالقدر فقد جحد ركناً من أركان الإيمان؛ **كما عليه الفرقة القدرية الضالة التي تنكر القدر.**

وهم في هذا الإنكار على قسمين[(٢)]:

القسم الأول: القدرية الغلاة الذين ينكرون علم الله بالأشياء قبل كونها، وينكرون كتابته لها في اللوح المحفوظ، ويقولون: إن الله أمر ونهى، وهو لا يعلم من يطيعه ممن يعصيه، فالأمر أنف؛ أي: مستأنف، لم يسبق في علم الله وتقديره، وهذه الفرقة قد انقرضت أو كادت.

القسم الثاني: القدرية التي تقر بالعلم، ولكنها تنفي دخول

(١) أخرجه البخاري (٣٢٠٨).
(٢) انظر: لوامع الأنوار (١/ ٣٠٠ ـ ٣٠١).

أفعال العباد تحت قدره وخلقه، وتزعم أنها مخلوقة لهم استقلالاً، لم يخلقها الله ولم يردها، وهذا مذهب المعتزلة.

وقابلتهم طائفة غلت في إثبات القدر، حتى سلبوا العبد قدرته واختياره، وقالوا: إن العبد مجبر على فعله، ولذلك سموا بالجبرية.

وكلا المذهبين باطل لأدلة كثيرة؛ منها: قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [التّكوير: ٢٩]؛ لأن قوله تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾﴾ [التّكوير: ٢٨] يرد على الجبرية؛ لأن الله تعالى أثبت للعباد مشيئة، وهم يقولون: إنهم مجبورون لا مشيئة لهم، وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ فيه الرد على القدرية القائلين بأن مشيئة العبد مستقلة بإيجاد الفعل من غير توقف على مشيئة الله، وهذا قول باطل؛ لأن الله علق مشيئة العبد على مشيئته سبحانه وربطها بها.

وهذا هو مذهب أهل السُّنَّة والجماعة في هذه القضية، فلم يُفَرِّطوا تفريط القدرية النفاة، ولم يُفْرِطوا إفراط الجبرية الغلاة.

فمذهب سلف الأمة وأئمتها: أن جميع أنواع الطاعات والمعاصي والكفر والفساد واقع بقضاء الله وقدره، لا خالق سواه؛ فأفعال العباد كلها مخلوقة لله؛ خيرها وشرها، حسنها وقبيحها، والعبد غير مجبور على أفعاله، بل هو قادر عليها وقاصد لها وفاعل لها.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: (الأعمال والأقوال،

والطاعات والمعاصي هي من العبد، بمعنى: أنها قائمة بالعبد وحاصلة بمشيئته وقدرته، وهو المتصف بها والمتحرك بها الذي يعود حكمها عليه، وهي من الله، بمعنى: أنه خلقها قائمة بالعبد، وجعلها عملاً له وكسباً؛ كما يخلق المسببات بأسبابها؛ فهي من الله مخلوقة له، ومن العبد صفة قائمة به، واقعة بقدرته وكسبه؛ كما إذا قلنا: هذه الثمرة من الشجرة، وهذا الزرع من الأرض؛ بمعنى: أنه حدث منها ومن الله، بمعنى: أنه خلقه منها، لم يكن بينهما تناقض)(١). انتهى.

وقال السفاريني رحمه الله تعالى: (وَالْحَاصِلُ: أَنَّ مَذْهَبَ السَّلَفِ وَمُحَقِّقِي أَهْلِ السُّنَّةِ: أَنَّ اللهَ تَعَالَى خَلَقَ قُدْرَةَ الْعَبْدِ وَإِرَادَتَهُ وَفِعْلَهُ، وَأَنَّ الْعَبْدَ فَاعِلٌ لِفِعْلِهِ حَقِيقَةً وَمُحْدِثٌ لِفِعْلِهِ، وَاللهُ سُبْحَانَهُ جَعَلَهُ فَاعِلاً لَهُ مُحْدِثاً لَهُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ [الإنسان: ٣٠]، فَأَثْبَتَ مَشِيئَةَ الْعَبْدِ، وَأَخْبَرَ أَنَّهَا لَا تَكُونُ إِلَّا بِمَشِيئَةِ اللهِ تَعَالَى، وَهَذَا صَرِيحُ قَوْلِ أَهْلِ السُّنَّةِ فِي إِثْبَاتِ مَشِيئَةِ الْعَبْدِ، وَأَنَّهَا لَا تَكُونُ إِلَّا بِمَشِيئَةِ الرَّبِّ)(٢). انتهى.

وأقول: إن مما يؤيد هذا: أن الله أعطى الإنسان عقلاً وقدرة واختياراً، ولا يحتسب فعله له أو عليه إلا إذا توفرت فيه هذه القوى.

فالمجنون والمعتوه أو المكره لا اعتبار لما يصدر منهم من

(١) انظر: منهاج السُّنَّة النبوية (٣/ ١٤٥ ـ ١٤٦).
(٢) انظر: لوامع الأنوار (١/ ٣١٣ ـ ٣١٤).

الأقوال والأفعال، ولا يؤاخذون عليها، مما يدل على أنه ليس بمجبر ولا مستقل بنفسه، والله المستعان.

ثمرات الإيمان بالقضاء والقدر:

١ ـ إن من أعظم ثمرات الإيمان بالقضاء والقدر: صحة إيمان الشخص بتكامل أركانه؛ لأن الإيمان بذلك من أركان الإيمان الستة التي لا يتحقق إلا بها؛ كما دل على ذلك الكتاب والسُّنَّة.

٢ ـ ومن ثمرات الإيمان بالقضاء والقدر: طمأنينة القلب وارتياحه وعدم القلق في هذه الحياة عندما يتعرض الإنسان لمشاق الحياة؛ لأن العبد إذا علم أن ما يصيبه فهو مقدر لا بد منه ولا راد له، واستشعر قول الرسول ﷺ: «**مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ وَمَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ**»[١]؛ فإنه عند ذلك تسكن نفسه ويطمئن باله، بخلاف من لا يؤمن بالقضاء والقدر؛ فإنه تأخذه الهموم والأحزان، ويزعجه القلق، حتى يتبرم بالحياة ويحاول الخلاص منها ولو بالانتحار؛ كما هو مشاهد من كثرة الذين ينتحرون فراراً من واقعهم وتشاؤماً من مستقبلهم؛ لأنهم لا يؤمنون بالقضاء والقدر، فكان تصرفهم ذلك نتيجة حتمية لسوء اعتقادهم.

وقد قال الله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ

(١) أخرجه أبو داود (٤٧٠٢).

﴿مُخْتَالٍ فَخُورٍ ۝٢٣﴾ [الحَديد: ٢٢ ـ ٢٣]، فأخبرنا سبحانه أنه قدر ما يجري من المصائب في الأرض وفي الأنفس؛ فهو مقدر ومكتوب، لا بد من وقوعه مهما حاولنا دفعه، ثم بيَّن أن الحكمة من إخباره لنا بذلك لأجل أن نطمئن؛ فلا نجزع ولا نأسف عند المصائب، ولا نفرح عند حصول النعم فرحاً ينسينا العواقب، بل الواجب علينا الصبر عند المصائب، وعدم اليأس من روح الله، والشكر عند الرخاء، وعدم الأمن من مكر الله، ونكون متوكلين على الله في الحالتين.

قال عكرمة رَحِمَهُ اللهُ: (ليس أحد إلا وهو يفرح ويحزن، ولكن اجعلوا الفرح شكراً والحزن صبراً).

وليس معنى هذا أن العبد لا يتخذ الأسباب الواقية من الشر، والجالبة للخير، وإنما يتكل على القضاء والقدر، كما يظن بعض الجهال، هذا من أكبر الغلط والجهل؛ فإن الله أمرنا باتخاذ الأسباب، ونهانا عن التكاسل والإهمال، ولكن إذا اتخذنا السبب وحصل لنا عكس المطلوب فعلينا أن لا نجزع؛ لأن هذا هو القضاء المقدر، ولو قدر غيره لكان، ولهذا يقول النبي ﷺ: «**احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ وَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَلَا تَعْجِزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيءٌ فَلَا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَرُ اللهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ؛ فَإِنَّ (لَوْ) تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ**»(١).

وعلى العبد مع هذا أن يحاسب نفسه ويصحح أخطاءه؛ فإنه لا

(١) رواه مسلم (٢٦٦٤).

يصيبه شيء إلا بسبب ذنوبه؛ قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ [الشّورىٰ: ٣٠].

٣ ـ ومن ثمرات الإيمان بالقضاء والقدر: الثبات عند مواجهة الأزمات، واستقبال مشاق الحياة بقلب ثابت ويقين صادق لا تزلزله الأحداث ولا تهزه الأعاصير؛ لأنه يعلم أن هذه الحياة دار ابتلاء وامتحان وتقلب؛ كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ﴾ [المُلك: ٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ حَتَّىٰ نَعۡلَمَ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبۡلُوَاْ أَخۡبَارَكُمۡ ٣١﴾ [محمَّد: ٣١].

كم جرى على رسول الله ﷺ وعلى صحابته من المحن والشدائد، لكنهم واجهوها بالإيمان الصادق والعزم الثابت والعمل الجاد، حتى اجتازوها بنجاح باهر، وما ذاك إلا لإيمانهم بقضاء الله وقدره، واستشعارهم لقوله تعالى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوۡلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٥١﴾ [التّوبَة: ٥١].

٤ ـ ومن ثمرات الإيمان بالقضاء والقدر: تحويل المحن إلى منح، والمصائب إلى أجر؛ كما قال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ١١﴾ [التّغَابُن: ١١].

قال علقمة رحمه الله تعالى: (هو الرجل تصيبه المصيبة، فيعلم أنها من عند الله، فيرضى ويسلم).

ومعنى الآية الكريمة: من أصابته مصيبة، فعلم أنها من قدر الله، فصبر واحتسب واستسلم لقضاء الله هدى الله قلبه، وعوضه

عما فاته من الدنيا هدًى في قلبه ويقيناً صادقاً، وقد يخلف الله عليه ما كان أخذ منه أو خيراً منه.

وهذا في نزول المصائب التي هي من قضاء الله وقدره، ولا دخل للعبد في إيجادها إلا من ناحية أنه تسبب في نزولها به، حيث قصر في حق الله عليه بفعل أمره أو ترك نهيه؛ فعليه أن يؤمن بقضاء الله وقدره، ويصحح خطأه الذي أصيب بسببه.

وبعض الناس يخطئون خطأً فاحشاً عندما يحتجون بالقضاء والقدر على فعلهم للمعاصي وتركهم للواجبات، ويقولون: هذا مقدر علينا ولا يتوبون من ذنوبهم؛ كما قال المشركون: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَاۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾﴾ [الأنعام: ١٤٨]، وهذا فهم سيئ للقضاء والقدر؛ لأنه لا يحتج بهما على فعل المعاصي، وإنما يحتج بهما عند نزول المصائب؛ فالاحتجاج بهما على فعل المعاصي قبيح؛ لأنه ترك للتوبة وترك للعمل الصالح المأمور بهما، والاحتجاج بهما على المصائب حسن؛ لأنه يحمل على الصبر والاحتساب.

٥ ـ ومن ثمرات الإيمان بالقضاء والقدر: أنه يدفع الإنسان إلى العمل والإنتاج والقوة والشهامة؛ فالمجاهد في سبيل الله يمضي في جهاده ولا يهاب الموت؛ لأنه يعلم أنه لا بد منه، وأنه إذا جاء لا يؤخر، ولا يمنع منه حصون ولا جنود؛ ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ

ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النِّسَاء: ٧٨]، ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ [آل عِمرَان: ١٥٤]، وهكذا حينما يستشعر المجاهد هذه الدفعات القوية من الإيمان بالقدر يمضي في جهاده حتى يتحقق النصر على الأعداء وتتوفر القوة للإسلام والمسلمين.

٦ ـ وكذلك بالإيمان بالقضاء والقدر يتوفر الإنتاج والثراء؛ لأن المؤمن إذا علم أن الناس لا يضرونه إلا بشيء قد كتبه الله عليه، ولا ينفعونه إلا بشيء قد كتبه الله له فإنه لن يتواكل، ولا يهاب المخلوقين، ولا يعتمد عليهم، وإنما يتوكل على الله، ويمضي في طريق الكسب، وإذا أصيب بنكسة، ولم يتوفر له مطلوبه فإن ذلك لا يثنيه عن مواصلة الجهود، ولا يقطع منه باب الأمل، ولا يقول: (لو أنني فعلت كذا؛ كان كذا وكذا) ولكنه يقول: قدر الله وما شاء فعل، ويمضي في طريقه متوكلاً على الله، مع تصحيح خطئه، ومحاسبته لنفسه، وبهذا يقوم كيان المجتمع، وتنتظم مصالحه، وصدق الله حيث يقول: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾﴾ [الطَّلَاق: ٣].

والحمد لله ربِ العالمين.

❁ ❁ ❁

الولاء والبراء

هذا وبعد انتهائنا من هذا البيان المختصر لأصول العقيدة الإسلامية نشير إلى أنه يجب على كل مسلم يدين بهذه العقيدة أن يوالي أهلها ويعادي أعداءها؛ فيحب أهل التوحيد والإخلاص ويواليهم، ويبغض أهل الإشراك ويعاديهم.

وذلك من ملة إبراهيم والذين معه، الذين أُمِرنا بالاقتداء بهم؛ حيث يقول ﷻ: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [المُمتَحنَة: ٤].

وهو من دين محمد عليه الصلاة والسلام، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ [المَائدة: ٥١]، وهذه في تحريم موالاة أهل الكتاب خصوصاً.

وقال في تحريم موالاة الكفار عموماً: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ [المُمتَحنَة: ١].

بل لقد حرَّم الله على المؤمن موالاة الكفار، ولو كانوا من أقرب الناس نسباً؛ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن

﴿يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [التّوبَة: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجَادلة: ٢٢].

وقد جَهِلَ كثير من الناس هذا الأصل العظيم، حتى لقد سمعت بعض المنتسبين إلى العلم والدعوة في إذاعة عربية يقول عن النصارى: إنهم إخواننا! ويا لها من كلمة خطيرة!

ومن القواعد المقررة في الاعتقاد: أن من لم يكفِّر المشركين أو شك في كفرهم أو صحح مذهبهم فقد كفر، كما في رسالة نواقض الإسلام للإمام المجدد رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وكما أن الله سبحانه حرّم موالاة الكفار أعداء العقيدة الإسلامية فقد أوجب سبحانه موالاة المؤمنين ومحبتهم؛ قال تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المَائدة: ٥٥ ـ ٥٦]، وقال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفَتْح: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحُجرَات: ١٠].

فالمؤمنون إخوة في الدين والعقيدة، وإن تباعدت أنسابهم وأوطانهم وأزمانهم؛ قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [الحَشر: ١٠].

فالمؤمنون من أول الخليقة إلى آخرها مهما تباعدت أوطانهم وامتدت أزمانهم إخوة متحابون؛ يقتدي آخرهم بأولهم، ويدعو بعضهم لبعض، ويستغفر بعضهم لبعض.

مظاهر الولاء والبراء:

أولاً: مظاهر موالاة الكفار:

مظاهر موالاة الكفار قد بيَّنها الكتاب والسُّنَّة، ومنها:

١ ـ التشبُّه بهم في الملبس والكلام وغيرهما؛ لأن التشبه بهم في الملبس والكلام وغيرهما يدل على محبة المتشبِّه للمتشبَّه به، ولهذا قال النبي ﷺ: «**مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ**»[1]؛ فيحرم التشبه بالكفار فيما هو من خصائصهم ومن عاداتهم وعباداتهم وسمتهم وأخلاقهم؛ كحلق اللحى، وإطالة الشوارب، والرطانة بلغتهم إلا عند الحاجة، وفي هيئة اللباس والأكل والشرب وغير ذلك.

٢ ـ الإقامة في بلادهم وعدم الانتقال منها إلى بلد المسلمين لأجل الفرار بالدين؛ لأن الهجرة بهذا المعنى ولهذا الغرض واجبة على المسلم؛ لأن إقامته في بلاد الكفر قد يكون فيها موالاة الكافرين، وكثيراً ما تكون سبباً في ردة الشخص وفتنته عن الإسلام، والعياذ بالله.

لهذا حرَّم الله إقامة المسلم بين الكفار إذا كان يقدر على الهجرة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ

(١) أخرجه أبو داود (٤٠٣٣).

كُنتُمْ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾﴾ [النِّسَاء: ٩٧ ـ ٩٩].

فلم يعذر الله في الإقامة في بلاد الكفار إلا المستضعفين الذين لا يستطيعون الهجرة، وكذلك من كان في إقامته مصلحة دينية؛ كالدعوة إلى الله ونشر الإسلام في بلادهم.

٣ ـ ومن مظاهر موالاة الكفار: السفر إلى بلادهم لغرض النزهة ومتعة النفس، والسفر إلى بلاد الكفار محرم إلا عند الضرورة؛ كالعلاج والتجارة والتعلم للتخصصات النافعة التي لا يمكن الحصول عليها إلا بالسفر إليهم، فيجوز بقدر الحاجة، وإذا انتهت الحاجة وجب الرجوع إلى بلاد المسلمين.

ويشترط كذلك لجواز هذا السفر أن يكون مُظهِراً لدينه، معتزًّا بإسلامه، مبتعداً عن مواطن الشر، حذراً من دسائس الأعداء ومكائدهم، وكذلك يجوز السفر أو يجب إلى بلادهم إذا كان لأجل نشر الدعوة إلى الله ونشر الإسلام.

٤ ـ ومن مظاهر موالاة الكفار: إعانتهم ومناصرتهم على المسلمين، ومدحهم والذب عنهم، وهذا من نواقض الإسلام وأسباب الردة؛ نعوذ بالله من ذلك.

٥ ـ ومن مظاهر موالاة الكفار: الاستعانة بهم(١) والثقة بهم

(١) في غير حالة ضرورة.

وتوليتهم المناصب التي فيها أسرار المسلمين، واتخاذهم بطانة ومستشارين: قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمۡ لَا يَأۡلُونَكُمۡ خَبَالٗا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمۡ قَدۡ بَدَتِ ٱلۡبَغۡضَآءُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَمَا تُخۡفِي صُدُورُهُمۡ أَكۡبَرُۚ قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَٰٓأَنتُمۡ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمۡ وَلَا يُحِبُّونَكُمۡ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ عَضُّواْ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَنَامِلَ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۚ قُلۡ مُوتُواْ بِغَيۡظِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمۡسَسۡكُمۡ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡ وَإِن تُصِبۡكُمۡ سَيِّئَةٞ يَفۡرَحُواْ بِهَاۖ﴾ [آل عِمرَان: ١١٨ ـ ١٢٠].

فهذه الآيات الكريمات تشرح دخائل الكفار، وما يكنونه نحو المسلمين من بغض، وما يدبرونه ضدهم من مكر وخيانة، وما يحبونه من مضرة المسلمين وإيصال الأذى إليهم بكل وسيلة، وأنهم يستغلون ثقة المسلمين بهم فيخططون للإضرار بهم والنيل منهم.

روى الإمام أحمد عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قلت لعمر رضي الله عنه: لي كاتب نصراني، قال: ما لك قاتلك الله؟! أما سمعت الله يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ﴾ [المَائدة: ٥١] ألَا اتخذت حنيفاً؟ قال: قلت: يا أمير المؤمنين، لي كتابته، وله دينه. قال: لا أُكرمهم إذ أهانهم الله، ولا أُعزهم إذ أذلهم الله، ولا أدنيهم إذ أقصاهم الله(١).

وروى الإمام أحمد ومسلم: أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج إلى بدر، فتبعه رجل من المشركين، فلحقه عند الحرة، فقال: إني أردت أن أتبعك

(١) انظر: السنن الكبرى للبيهقي (٢٠١٩٦)، وتفسير ابن أبي حاتم (٦٥١٠).

وأصيب معك: قال: «**تُؤْمِنُ بِاللهِ وَرَسُولِهِ؟**» قال: لا، قال: «**فَارْجِعْ فَلَنْ أَسْتَعِينَ بِمُشْرِكٍ**»[(١)][(٢)].

ومن هذه النصوص يتبين لنا تحريم تولية الكفار أعمال المسلمين التي يتمكنون بواسطتها من الاطلاع على أحوال المسلمين وأسرارهم، ويكيدون لهم بإلحاق الضرر بهم.

ومن هذا ما وقع في هذا الزمان من استقدام الكفار إلى بلاد المسلمين ـ بلاد الحرمين الشريفين ـ وجعلهم عمالاً وسائقين ومستخدمين ومربين في البيوت، وخلطهم مع العوائل، أو خلطهم مع المسلمين في بلادهم.

٦ ـ ومن مظاهر موالاة الكفار: التأريخ بتأريخهم، خصوصاً التاريخ الذي يعبر عن طقوسهم وأعيادهم؛ كالتاريخ الميلادي، والذي هو عبارة عن ذكرى مولد المسيح عليه السلام، والذي ابتدعوه من أنفسهم، وليس هو من دين المسيح عليه السلام؛ فاستعمال هذا التاريخ فيه مشاركة في إحياء شعارهم وعيدهم.

ولتجنب هذا لما أراد الصحابة رضي الله عنهم وضع تاريخ للمسلمين في عهد عمر رضي الله عنه عدلوا عن تواريخ الكفار، وأرخوا بهجرة الرسول صلى الله عليه وسلم، مما يدل على وجوب مخالفة الكفار في هذا وفي غيره مما هو من خصائصهم، والله المستعان.

---

(١) مسلم (١٨١٧)، ومسند الإمام أحمد (٢٥١٥٨).

(٢) هذا محمول على غير حالة الضرورة، وقيل: إنه منسوخ، والله أعلم؛ لما ثبت من استعانته صلى الله عليه وسلم ببعض الكفار بعد ذلك.

٧ ـ ومن مظاهر موالاة الكفار: مشاركتهم في أعيادهم، أو مساعدتهم في إقامتها، أو تهنئتهم بمناسبتها، أو حضور إقامتها، وقد فسر قوله ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾ [الفُرقان: ٧٢]؛ أي: ومن صفات عباد الرحمٰن أنهم لا يحضرون أعياد الكفار.

٨ ـ ومن مظاهر موالاة الكفار: مدحهم والإشادة بما هم عليه من المدنية والحضارة المادية والإعجاب بأخلاقهم ومهاراتهم دون نظر إلى عقائدهم الباطلة ودينهم الفاسد؛ قال تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ زَهۡرَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا لِنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ وَرِزۡقُ رَبِّكَ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ ١٣١﴾ [طه: ١٣١].

وليس معنى ذلك أن المسلمين لا يتخذون أسباب القوة من تعلم الصناعات ومقومات الاقتصاد المباح والأساليب العسكرية، بل ذلك مطلوب؛ قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ﴾ [الأنفَال: ٦٠].

وهذه المنافع والأسرار الكونية هي في الأصل للمسلمين؛ قال تعالى: ﴿قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾ [الأعرَاف: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُۚ﴾ [الجَاثيَة: ١٣]، وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا﴾ [البَقَرَة: ٢٩].

فالواجب: أن يكون المسلمون سباقين إلى استغلال هذه المنافع وهذه الطاقات، ولا يستجدون الكفار في الحصول عليها، يجب أن تكون لهم مصانع وتقنيات.

٩ ـ ومن مظاهر موالاة الكفار: التسمي بأسمائهم؛ بحيث إن

بعض المسلمين يسمون أبناءهم وبناتهم بأسماء أجنبية، ويتركون أسماء آبائهم وأمهاتهم وأجدادهم وجداتهم والأسماء المعروفة في مجتمعهم، فضلاً عن تركهم لأسماء سلفهم الصالح من الأنبياء والصحابة، وقد قال النبي ﷺ: «**أَحَبُّ الأَسْمَاءِ إِلَى اللهِ تَعَالَى عَبْدُ اللهِ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ**»(١).

وبسبب تغيير الأسماء فقد وجد جيل يحمل أسماء غريبة، مما يسبب الانفصال بين هذا الجيل والأجيال السابقة، ويقطع التعارف بين الأسر التي كانت تعرف بأسمائها الخاصة.

١٠ ـ ومن مظاهر موالاة الكفار: الاستغفار لهم والترحم عليهم، وقد حرم الله ذلك بقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ الْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾﴾ [التوبة: ١١٣]؛ لأن هذا يتضمن حبهم وتصحيح ما هم عليه.

ثانياً: ومظاهر موالاة المؤمنين:

مظاهر موالاة المؤمنين قد بيَّنها الكتاب والسُّنَّة، ومنها:

١ ـ الهجرة إلى بلاد المسلمين وهجر بلاد الكافرين. والهجرة هي: الانتقال من بلاد الكفار إلى بلاد المسلمين لأجل الفرار بالدين.

والهجرة بهذا المعنى ولأجل هذا الغرض واجبة وباقية إلى

(١) أخرجه مسلم (٢١٣٢).

طلوع الشمس من مغربها عند قيام الساعة، وقد تبرأ النبي ﷺ من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين[(١)]، فتحرم على المسلم الإقامة في بلاد الكفار إلا إذا كان لا يستطيع الهجرة منها، أو كان في إقامته مصلحة دينية؛ كالدعوة إلى الله ونشر الإسلام، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾﴾ [النِّسَاء: ٩٧ ـ ٩٩].

٢ ـ مناصرة المسلمين ومعاونتهم بالنفس والمال واللسان فيما يحتاجون إليه في دينهم ودنياهم؛ قال تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ﴾ [التّوبَة: ٧١]، وقال تعالى: ﴿وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ ۗ﴾ [الأنفَال: ٧٢].

٣ ـ التألم لألمهم والسرور بسرورهم؛ قال النبي ﷺ: «**مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى**»[(٢)]، وقال أيضاً عليه الصلاة والسلام: «**الْمُؤْمِنَ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضاً**»[(٣)].

(١) أخرجه أبو داود (٢٦٤٧).
(٢) أخرجه البخاري (٦٠١١)، ومسلم (٢٥٨٦).
(٣) أخرجه البخاري (٤٨١)، ومسلم (٢٥٨٥).

٤ ـ النصح لهم، ومحبة الخير لهم، وعدم غشهم وخديعتهم؛ قال ﷺ: «**لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ**»(١)، وقال: «**الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يَخْذُلُهُ وَلَا يَحْقِرُهُ.. بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ، كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ دَمُهُ وَمَالُهُ وَعِرْضُهُ**»(٢)، وقال عليه الصلاة والسلام: «**لَا تَحَاسَدُوا، وَلَا تَنَاجَشُوا، وَلَا تَبَاغَضُوا، وَلَا تَدَابَرُوا، وَلَا يَبِعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ، وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَاناً**»(٣).

٥ ـ احترامهم وتوقيرهم وعدم تنقصهم وعيبهم؛ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ [الحُجرَات: ١١ ـ ١٢].

٦ ـ أن يكون معهم في حال العسر واليسر، والشدة والرخاء، بخلاف أهل النفاق، الذين يكونون مع المؤمنين في حالة اليسر والرخاء، ويتخلون عنهم في حال الشدة؛ قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ﴾ [النِّسَاء: ١٤١].

(١) أخرجه البخاري (١٣)، ومسلم (٤٥). (٢) أخرجه مسلم (٢٥٦٤).
(٣) أخرجه مسلم (٢٥٦٤).

٧ ـ زيارتهم ومحبة الالتقاء بهم والاجتماع معهم، وفي الحديث القدسي: «**وجبت محبتي للمتزاورين فيَّ**»[(١)]، وفي حديث آخر: «**أَنَّ رَجُلاً زَارَ أَخاً لَهُ** ـ في الله ـ **فِي قَرْيَةٍ أُخْرَى** ـ فأراد الله سبحانه أن يمتحنه ـ **فَأَرْصَدَ اللهُ لَهُ عَلَى مَدْرَجَتِهِ** ـ يعني: على طريقه ـ **مَلَكاً، فَلَمَّا أَتَى عَلَيْهِ قَالَ: أَيْنَ تُرِيدُ؟ قَالَ: أُرِيدُ أَخاً لي في هَذِهِ الْقَرْيَةِ. قَالَ: هَلْ لَكَ عَلَيْهِ مِنْ نِعْمَةٍ تَرُبُّهَا؟ قَالَ: لَا، غَيْرَ أَنِّي أَحْبَبْتُهُ فِي اللهِ** ﷻ. **قَالَ: فَإِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكَ بِأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَبَّكَ كَمَا أَحْبَبْتَهُ فِيهِ**»[(٢)].

٨ ـ احترام حقوقهم؛ فلا يبيع على بيعهم، ولا يسوم على سومهم، ولا يخطب على خطبتهم، ولا يتعرض لما سبقوا إليه من المباحات؛ قال ﷺ: «**لَا يَبِع الرَّجُلُ عَلَى بَيْعِ أَخِيهِ، وَلَا يَخْطُبْ عَلَى خِطْبَةِ أَخِيهِ إِلَّا أَنْ يَأْذَنَ لَهُ**»[(٣)]، وفي رواية: «**لَا يَسُمِ الْمُسْلِمُ عَلَى سَوْمِ أَخِيهِ**»[(٤)].

٩ ـ الرفق بضعفائهم؛ كما قال النبي ﷺ: «**لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَرْحَمْ صَغِيرَنَا وَيُوَقِّرْ كَبِيرَنَا**»[(٥)]، وقال عليه الصلاة والسلام: «**هَلْ تُنْصَرُونَ وَتُرْزَقُونَ إِلَّا بِضُعَفَائِكُمْ؟!**»[(٦)]، وقال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ

(١) أخرجه الإمام أحمد (٢٢٠٣٠ ـ ٢٢٠٠٢).
(٢) أخرجه مسلم (٢٥٦٧).
(٣) أخرجه البخاري (٢١٤٠)، ومسلم (١٤١٢) واللفظ له.
(٤) أخرجه البخاري (٢٧٢٧)، ومسلم (١٥١٥) واللفظ له.
(٥) أخرجه الترمذي (١٩١٩).
(٦) أخرجه البخاري (٢٨٩٦).

مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٢٨].

١٠ ـ الدعاء لهم والاستغفار لهم؛ قال تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [محمد: ١٩]، ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [الحشر: ١٠].

تنبيه:

وأما قوله تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٨﴾ [الممتحنة: ٨]، فمعناه: أن من كف أذاه من الكفار، فلم يقاتل المسلمين، ولم يخرجهم من ديارهم فإن المسلمين يقابلون ذلك بمكافأته بالإحسان، والعدل معه في التعامل الدنيوي، ولا يحبونه بقلوبهم؛ لأن الله قال: ﴿تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ﴾، ولم يقل: توالونهم وتحبونهم، ونظير هذا قوله تعالى في الوالدين الكافرين: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ﴾ [لقمان: ١٥].

وقد جاءت أم أسماء إليها تطلب صلتها وهي كافرة، فاستأذنت أسماء رسول الله ﷺ في ذلك، فقال لها: «**صِلِي أُمَّكِ**»(١)، وقد قال الله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ

(١) أخرجه البخاري (٢٦٢٠).

وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [المجَادلة: ٢٢]، فالصلة والمكافأة الدنيوية شيء، والمودة شيء آخر؛ لأن في الصلة وحسن المعاملة ترغيباً للكافر في الإسلام، فهما من وسائل الدعوة، بخلاف المودة والموالاة؛ فهما يدلان على إقرار الكافر على ما هو عليه والرضى عنه، وذلك يسبب عدم دعوته إلى الإسلام.

وكذلك تحريم موالاة الكفار لا يعني تحريم التعامل معهم بالتجارة المباحة، واستيراد البضائع والمصنوعات النافعة، والاستفادة من خبراتهم ومخترعاتهم؛ فالنبي ﷺ استأجر ابن أريقط الليثي؛ ليدله على الطريق وهو كافر(١)، واستدان من بعض اليهود(٢)، وما زال المسلمون يستوردون البضائع والمصنوعات من الكفار من غير إنكار أحد من علماء المسلمين، وهذا من باب الشراء منهم بالثمن، وليس لهم علينا فيه فضل ولا مِنَّة، وليس هو من أسباب محبتهم وموالاتهم؛ فإن الله أوجب محبة المؤمنين وموالاتهم وبغض الكافرين ومعاداتهم، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمِۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾﴾ [الأنفال: ٧٢ ـ ٧٣].

(١) أخرجه البخاري (٢٢٦٣).
(٢) أخرجه مسلم (١٦٠٣).

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى: (وَمَعْنَى قَوْله: ﴿إِلَّا تَفۡعَلُوهُ تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٞ كَبِيرٞ ٧٣﴾؛ أَيْ: إِنْ لَمْ تُجَانِبُوا الْمُشْرِكِينَ وَتُوَالُوا الْمُؤْمِنِينَ وَإِلَّا وَقَعَتْ فِتْنَة فِي النَّاس، وَهُوَ اِلْتِبَاس الْأَمْر، وَاخْتِلَاط الْمُؤْمِنِينَ بِالْكَافِرِين فَيَقَع بَيْن النَّاس فَسَاد مُنْتَشِر عَرِيض طَوِيل)[1]. انتهى.

قلت: وهذا ما حصل في هذا الزمان، والله المستعان.

أقسام الناس فيما يجب في حقهم من الولاء والبراء:

الناس في الولاء والبراء على ثلاثة أقسام:

القسم الأول: من يُحَب محبة خالصة لا معاداة معها، وهم المؤمنون الخلَّص من الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين، وفي مقدمتهم رسول الله ﷺ؛ فإنه تجب محبته أعظم من محبة النفس والولد والوالد والناس أجمعين، وصحابته الكرام، خصوصاً الخلفاء الراشدين وبقية العشرة، ثم زوجاته أمهات المؤمنين، وأهل بيته الطيبين والمهاجرين والأنصار وأهل بدر، وأهل بيعة الرضوان، ثم بقية الصحابة رضي الله عنهم أجمعين، ثم التابعون والقرون المفضلة وسلف هذه الأمة وأئمتها؛ كالأئمة الأربعة وغيرهم، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ١٠﴾ [الحَشر: ١٠].

(١) انظر: تفسيره (٤/ ٩٨).

ولا يبغض الصحابة وسلف هذه الأمة من في قلبه إيمان، وإنما يبغضهم أهل الزيغ والنفاق وأعداء الإسلام؛ كالرافضة والخوارج، نسأل الله العافية.

القسم الثاني: من يُبغَض ويعادى بغضاً ومعاداة خالصين لا محبة ولا موالاة معهما، وهم الكفار الخلص من الكفار والمشركين والمنافقين والمرتدين والملحدين على اختلاف أجناسهم؛ كما قال تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجَادلة: ٢٢]، وقال تعالى عائباً على بني إسرائيل: ﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨١﴾﴾ [المَائدة: ٨٠ ـ ٨١].

القسم الثالث: من يُحَبُّ من وجه ويبغض من وجه، فيجتمع فيه المحبة والعداوة، وهم عصاة المؤمنين؛ يُحَبُّونَ لما فيهم من الإيمان، ويبغضون لما فيهم من المعصية أو البدعة التي هي دون الكفر والشرك.

ومحبتهم تقتضي مناصحتهم والإنكار عليهم؛ فلا يجوز السكوت على معاصيهم، بل ينكر عليهم، ويؤمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، وتقام عليهم الحدود والتعزيرات حتى يكفوا عن معاصيهم أو بدعهم، ويتوبوا من سيئاتهم، لكن لا يُبْغَضون بغضاً

خالصاً ويتبرأ منهم؛ كما تقوله الخوارج في مرتكب الكبيرة التي هي دون الشرك، ولا يُحَبُّون ويوالون حبًّا وموالاة خالصين كما تقوله المرجئة، بل يعتدل في شأنهم على ما ذكرنا؛ كما هو مذهب أهل السُّنَّة والجماعة.

والحب في الله والبغض في الله أوثق عرى الإيمان[١]، والمرء مع من أحب يوم القيامة[٢]؛ كما في الحديث.

وقد تغير الوضع وصار غالب موالاة الناس ومعاداتهم لأجل الدنيا؛ فمن كان عنده مطمع من مطامع الدنيا وَالَوْهُ، وإن كان عدوًّا لله ولرسوله ﷺ ولدين المسلمين، ومن لم يكن عنده مطمع من مطامع الدنيا عادوه، ولو كان وليًّا لله ولرسوله عند أدنى سبب، وضايقوه واحتقروه.

وقد قال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: (أَحِب في الله، وأَبْغِض في الله، ووالِ في الله، وعادِ في الله؛ فإنما تنال ولاية الله بذلك، وقد صارت عامة مؤاخاة الناس على أمر الدنيا، وذلك لا يجدي على أهله شيئاً) رواه ابن جرير[٣].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ**»[٤] الحديث.

---

(١) مسند الإمام أحمد (١٨٥٢٤).
(٢) أخرجه البخاري (٦١٦٨).
(٣) الطبراني في الكبير (١٢/٤١٧) (١٣٥٣٧)، وانظر: تعظيم قدر الصلاة للمروزي (٣٩٦)، وشرح أصول اعتقاد أهل السُّنَّة للإمام اللالكائي (١٦٩١)، والزهد لابن المبارك (٣٥٣).
(٤) رواه البخاري (٦٥٠٢).

وأشد الناس محاربة لله من عادى أصحاب رسول الله ﷺ وسبهم وتنقصهم، وقد قال ﷺ: «**اللهَ اللهَ فِي أَصْحَابِي، لَا تَتَّخِذُوهُمْ غَرَضاً بَعْدِي، فَمَنْ أَحَبَّهُمْ فَبِحُبِّي أَحَبَّهُمْ، وَمَنْ أَبْغَضَهُمْ فَبِبُغْضِي أَبْغَضَهُمْ، وَمَنْ آذَاهُمْ فَقَدْ آذَانِي، وَمَنْ آذَانِي فَقَدْ آذَى اللهَ، وَمَنْ آذَى اللهَ فَيُوشِكُ أَنْ يَأْخُذَهُ**»[١] أخرجه الترمذي وغيره.

وقد صارت معاداة الصحابة وسبهم ديناً وعقيدة عند بعض الطوائف الضالة؛ كالرافضة من الشيعة. نعوذ بالله من غضبه وأليم عقابه، ونسأله العفو والعافية.

❁ ❁ ❁

(١) الترمذي (٣٨٦٢)، ومسند الإمام أحمد (٢٠٥٤٩).

خاتمة في التحذير من البدع

الفصل الأول: تعريف البدعة، وبيان أنواعها وأحكامها.

الفصل الثاني: ظهور البدع في حياة المسلمين.

الفصل الثالث: الأسباب التي أدت إلى ظهور البدع.

الفصل الرابع: موقف الأمة الإسلامية من المبتدعة.

الفصل الخامس: منهج أهل السُّنَّة والجماعة في الرد على أهل البدع.

الفصل السادس: بيان أمثلة من البدع المعاصرة.

الفصل السابع: ما يعامل به المبتدعة.

الفصل الأول

تعريف البدعة وبيان أنواعها وأحكامها

وفيه ثلاث مباحث:

أولاً: تعريف البدعة:

البدعة في اللغة: مأخوذة من البَدْع، وهو: الاختراع على غير مثال سابق، ومنه قوله تعالى: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البَقَرَة: ١١٧]؛ أي: مخترعهما على غير مثال سابق، وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٩]؛ أي: ما كنت أول من جاء بالرسالة من الله إلى العباد، بل تقدمني كثير من الرسل، ويقال: ابتدع فلان بدعة؛ يعني: ابتدأ طريقة لم يسبق إليها.

والابتداع قسمان:

١ ـ ابتداع في العادات؛ كابتداع المخترعات الحديثة، ويدخل في ذلك الاكتشافات العلمية بأنواعها المختلفة، وهذا مباح؛ لأن الأصل في العادات الإباحة.

٢ ـ وابتداع في الدين وهذا محرم؛ لأن الأصل فيه التوقيف؛ قال ﷺ: «**مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ**»(١)، وفي

(١) أخرجه البخاري (٢٦٩٧).

رواية: «مَنْ عَمِلَ عَمَلاً لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»[(١)].

ثانياً: أنواع البدع:

البدعة في الدين نوعان:

النوع الأول: بدعة قولية اعتقادية؛ كمقالات الجهمية والمعتزلة والرافضة وسائر الفرق الضالة واعتقاداتهم.

النوع الثاني: بدعة في العبادات؛ كالتعبد لله بعبادة لم يشرعها، وهي أنواع:

١ ـ ما يكون في أصل العبادة؛ بأن يُحدِث عبادة ليس لها أصل في الشرع، كأن يحدث صلاة غير مشروعة، أو صياماً غير مشروع أو أعياداً غير مشروعة كأعياد الموالد وغيرها.

٢ ـ ما يكون في الزيادة على العبادة المشروعة؛ كما لو زاد ركعة خامسة في صلاة الظهر أو العصر مثلاً؛ تعبُّداً لا سهواً.

٣ ـ ما يكون في صفة أداء العبادة؛ بأن يؤديها على صفة غير مشروعة، وذلك كأداء الأذكار المشروعة بأصوات جماعية مطربة، وكالتشديد على النفس في العبادات إلى حد يُخرج عن سُنَّة الرسول ﷺ.

٤ ـ ما يكون بتخصيص وقت للعبادة المشروعة لم يخصصه الشرع؛ كتخصيص يوم النصف من شعبان وليلته بصيام وقيام؛ فإن

---

(١) أخرجه مسلم (١٧١٨).

أصل الصيام والقيام مشروع، ولكن تخصيصه بوقت من الأوقات يحتاج إلى دليل.

ثالثاً: حكم البدعة في الدين بجميع أنواعها:

كل بدعة في الدين فهي محرمة وضلالة؛ لقوله ﷺ: **«وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ؛ فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ»**[(١)]، وقوله ﷺ: **«مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ»**[(٢)]، وفي رواية: **«مَنْ عَمِلَ عَمَلاً لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»**[(٣)]، فدلت هذه الأحاديث على أن كل مُحدثٍ في الدين فهو بدعة، وكل بدعة ضلالة مردودة، ومعنى ذلك: أن البدع في العبادات والاعتقادات محرمة، ولكن التحريم يتفاوت بحسب نوعية البدعة:

فمنها: ما هو كفر صراح؛ كالطواف بالقبور تقرباً إلى أصحابها، وتقديم الذبائح والنذور لها، ودعاء أصحابها والاستغاثة بهم، وكمقالات غلاة الجهمية والمعتزلة.

ومنها: ما هو من وسائل الشرك؛ كالبناء على القبور، والصلاة والدعاء عندها.

ومنها: ما هو فسق اعتقادي؛ كبدعة الخوارج والقدرية والمرجئة في أقوالهم واعتقاداتهم المخالفة للأدلة الشرعية.

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٦٠٩).
(٢) انظر السابقة.
(٣) انظر السابقة.

ومنها: ما هو معصية؛ كبدعة التبتل، والصيام قائماً في الشمس، والخصاء بقصد قطع شهوة الجماع(١).

تنبيـه:

من قسّم البدعة إلى بدعة حسنة وبدعة سيئة فهو غالط ومخطئ ومخالف لقوله ﷺ: «**كُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ**»؛ لأن الرسول ﷺ حكم على البدع كلها بأنها ضلالة، وهذا يقول: ليس كل بدعة ضلالة، بل هناك بدعة حسنة.

قال الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ **في «شرح الأربعين»**: (فَقَوْلُهُ ﷺ: «**كُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ**» مِنْ جَوَامِعِ الْكَلِمِ لَا يَخْرُجُ عَنْهُ شَيْءٌ، وَهُوَ أَصْلٌ عَظِيمٌ مِنْ أُصُولِ الدِّينِ، وَهُوَ شَبِيهٌ بِقَوْلِهِ: «**مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ**»، فَكُلُّ مَنْ أَحْدَثَ شَيْئاً، وَنَسَبَهُ إِلَى الدِّينِ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ أَصْلٌ مِنَ الدِّينِ يَرْجِعُ إِلَيْهِ فَهُوَ ضَلَالَةٌ، وَالدِّيْنُ بَرِيءٌ مِنْهُ، وَسَوَاءٌ فِي ذَلِكَ مَسَائِلُ الِاعْتِقَادَاتِ، أَوِ الْأَعْمَالُ، أَوِ الْأَقْوَالُ الظَّاهِرَةُ وَالْبَاطِنَةُ)(٢). انتهى.

وليس لهؤلاء حجة على أن هناك بدعة حسنة إلا قول عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في صلاة التراويح: (نعمت البدعة هذه)(٣).

وقالوا أيضاً: إنها أُحْدِثَتْ أشياء لم يستنكرها السلف؛ مثل: جمع القرآن في كتاب واحد، وكتابة الحديث وتدوينه.

(١) انظر: الاعتصام للشاطبي (٢/ ٣٥٥).
(٢) جامع العلوم والحكم الحديث رقم (٢٨).
(٣) البخاري (٢٠١٠).

والجواب عن ذلك: أن هذه الأمور لها أصل في الشرع فليست محدثة.

وقول عمر: (نعمت البدعة) يريد: البدعة اللغوية لا الشرعية؛ فما كان له أصل في الشرع يرجع إليه كصلاة التراويح إذا قيل: إنه بدعة فهو بدعة لغة لا شرعاً؛ لأن البدعة شرعاً: ما ليس له أصل في الشرع يرجع إليه.

وجمع القرآن في كتاب واحد له أصل في الشرع؛ لأن النبي ﷺ كان يأمر بكتابة القرآن، لكن كان مكتوباً متفرقاً، فجمعه الصحابة رضي الله عنهم في كتاب واحد حفظاً له.

والتراويح قد صلَّاها النبي ﷺ بأصحابه لياليَ وتخلف عنهم في الأخير خشية أن تفرض عليهم[١]، واستمر الصحابة رضي الله عنهم يصلونها أوزاعاً متفرقين في حياة النبي ﷺ وبعد وفاته، إلى أن جمعهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه خلف إمام واحد[٢]، كما كانوا خلف النبي ﷺ، وليس هذا بدعة في الدين.

وكتابة الحديث أيضاً لها أصل في الشرع؛ فقد أمر النبي ﷺ بكتابة بعض الأحاديث لبعض أصحابه لما طلب منه ذلك[٣]، وكان المحذور من كتابته بصفة عامة في عهده ﷺ خشية أن يختلط بالقرآن ما ليس منه على بعض الناس، فلما توفي ﷺ انتفى هذا المحذور؛

(١) أخرجه البخاري (٩٢٤).
(٢) أخرجه البخاري (٢٠١٠).
(٣) أخرجه البخاري (٢٤٣٤).

لأن القرآن قد تكامل وضبط قبل وفاته ﷺ، فدون المسلمون السُّنَّة بعد ذلك حفظاً لها من الضياع، فجزاهم الله عن الإسلام والمسلمين خيراً؛ حيث حفظوا كتاب ربهم، وسُنَّة نبيهم ﷺ من الضياع وعبث العابثين.

❁ ❁ ❁

الفصل الثاني

ظهور البدع في حياة المسلمين

وتحته مسألتان:

المسألة الأولى: وقت ظهور البدع:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَاعْلَمْ أَنَّ عَامَّةَ الْبِدَعِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِالْعُلُومِ وَالْعِبَادَاتِ فِي هَذَا الْقَدَرِ وَغَيْرِهِ إِنَّمَا وَقَعَ فِي الْأُمَّةِ فِي أَوَاخِرِ خِلَافَةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ، كَمَا أَخْبَرَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ حَيْثُ قَالَ: «**مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ بَعْدِي فَسَيَرَى اخْتِلَافاً كَثِيراً فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِي**»)[(١)][(٢)].

وأول بدعة ظهرت بدعة القدر وبدعة الإرجاء وبدعه التشيع والخوارج، هذه البدع ظهرت في القرن الثاني، والصحابة موجودون، وقد أنكروا على أهلها، ثم ظهرت بدعة الاعتزال، وحدثت الفتن بين المسلمين، وظهر اختلاف الآراء في الاعتقاد والميل إلى البدع والأهواء، وظهرت بدعة التصوف وبدعة البناء على القبور بعد القرون المفضلة، وهكذا كلما تأخر الوقت زادت البدع وتنوعت.

(١) أخرجه أبو داود (٤٦٠٩).

(٢) انظر: مجموع الفتاوى (١٠/ ٣٥٤).

المسألة الثانية: مكان ظهور البدع:

تختلف البلدان الإسلامية في ظهور البدع فيها.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فَإِنَّ الْأَمْصَارَ الْكِبَارَ الَّتِي سَكَنَهَا أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَخَرَجَ مِنْهَا الْعِلْمُ وَالْإِيمَانُ خَمْسَةٌ: الْحَرَمَانِ وَالْعِرَاقَانِ وَالشَّامُ؛ مِنْهَا خَرَجَ الْقُرْآنُ وَالْحَدِيثُ وَالْفِقْهُ وَالْعِبَادَةُ وَمَا يَتْبَعُ ذَلِكَ مِنْ أُمُورِ الْإِسْلَامِ.

وَخَرَجَ مِنْ هَذِهِ الْأَمْصَارِ بِدَعٌ أُصُولِيَّةٌ غَيْرُ الْمَدِينَةِ النَّبَوِيَّةِ، فَالْكُوفَةُ خَرَجَ مِنْهَا التَّشَيُّعُ وَالْإِرْجَاءُ، وَانْتَشَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فِي غَيْرِهَا، وَالْبَصْرَةُ خَرَجَ مِنْهَا الْقَدَرُ وَالِاعْتِزَالُ وَالنُّسُكُ الْفَاسِدُ، وَانْتَشَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فِي غَيْرِهَا، وَالشَّامُ كَانَ بِهَا النُّصْبُ وَالْقَدَرُ، وَأَمَّا التَّجَهُّمُ فَإِنَّمَا ظَهَرَ فِي نَاحِيَةِ خُرَاسَانَ، وَهُوَ شَرُّ الْبِدَعِ، وَكَانَ ظُهُورُ الْبِدَعِ بِحَسَبِ الْبُعْدِ عَنِ الدَّارِ النَّبَوِيَّةِ، فَلَمَّا حَدَثَتْ الْفُرْقَةُ بَعْدَ مَقْتَلِ عُثْمَانَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ظَهَرَتْ بِدْعَةُ الحرورية)[1].

إلى أن قال: (وَأَمَّا الْمَدِينَةُ النَّبَوِيَّةُ فَكَانَتْ سَلِيمَةً مِنْ ظُهُورِ هَذِهِ الْبِدَعِ وَإِنْ كَانَ بِهَا مَنْ هُوَ مُضْمِرٌ لِذَلِكَ، فَكَانَ عِنْدَهُمْ مُهَاناً مَذْمُوماً؛ إِذْ كَانَ بِهَا قَوْمٌ مِنَ الْقَدَرِيَّةِ وَغَيْرِهِمْ، وَلَكِنْ كَانُوا مَذْمُومِينَ مَقْهُورِينَ، بِخِلَافِ التَّشَيُّعِ وَالْإِرْجَاءِ بِالْكُوفَةِ، وَالِاعْتِزَالِ وَبِدَعِ النُّسَّاكِ بِالْبَصْرَةِ، وَالنصب بِالشَّامِ؛ فَإِنَّهُ كَانَ ظَاهِراً، وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ الدَّجَّالَ لَا يَدْخُلُهَا)[2].

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٢٠/ ٣٠٠ ـ ٣٠١).

(٢) صحيح البخاري (١٨٨٢). انظر: مجموع الفتاوى (١٠/ ٣٠٢ ـ ٣٠٣).

ولم يزل العلم والإيمان بها ظاهراً إلى زمن أصحاب مالك وهم من أهل القرن الرابع.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (فَأَمَّا الْأَعْصَارُ الثَّلَاثَةُ الْمُفَضَّلَةُ فَلَمْ يَكُنْ فِيهَا بِالْمَدِينَةِ النَّبَوِيَّةِ بِدْعَةٌ ظَاهِرَةٌ أَلْبَتَّةَ، وَلَا خَرَجَ مِنْهَا بِدْعَةٌ فِي أُصُولِ الدِّينِ أَلْبَتَّةَ، كَمَا خَرَجَ مِنْ سَائِرِ الْأَمْصَارِ)[1].

❁ ❁ ❁

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٢٠/ ٣٠٠).

الفصل الثالث

الأسباب التي أدت إلى ظهور البدع

مما لا شك فيه أن الاعتصام بالكتاب والسُّنَّة فيه منجاة من الوقوع في البدع والضلال، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

وقد وضح ذلك النبي ﷺ فيما رواه ابن مسعود رضي الله عنه؛ قال: (خَطَّ لَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ خَطًّا، ثُمَّ قَالَ: «**هَذَا سَبِيلُ اللهِ**»، ثُمَّ خَطَّ خُطُوطاً عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ، ثُمَّ قَالَ: «**هَذِهِ سُبُلٌ عَلَى كُلِّ سَبِيلٍ مِنْهَا شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ**»، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ * فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ﴾ [الأنعام: ١٥٣])[١].

فمن أعرض عن الكتاب والسُّنَّة تنازعته الطرق المضللة والبدع المحدثة.

فالأسباب التي أدت إلى ظهور البدع تتلخص في الأمور التالية:

الجهل بأحكام الدين، اتباع الهوى، التعصب للآراء والأشخاص، التشبه بالكفار وتقليدهم.

ونتناول هذه الأسباب بشيء من التفصيل:

---

(١) مسند الإمام أحمد (٤١٤٢).

١ ـ الجهل بأحكام الدين:

كلما امتد الزمن وبعد الناس عن آثار الرسالة قل العلم وفشا الجهل؛ كما أخبر بذلك النبي ﷺ بقوله: «**مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ بَعْدِي فَسَيَرَى اخْتِلَافاً كَثِيراً**»(١)، وقوله: «**إِنَّ اللهَ لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعاً يَنْتَزِعُهُ مِنَ الْعِبَادِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ حَتَّى إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِماً اتَّخَذَ النَّاسُ رُؤُوساً جُهَّالاً فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا**»(٢).

فلا يقاوم البدع إلا العلم والعلماء فإذا فقد العلم والعلماء أتيحت الفرصة للبدع أن تظهر وتنتشر ولأهلها أن ينشطوا.

٢ ـ اتباع الهوى:

من أعرض عن الكتاب والسُّنَّة اتبع هواه؛ كما قال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ﴾ [القَصَص: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَـٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [الجَاثِيَة: ٢٣]، والبدع إنما هي نسيج الهوى المتبع.

٣ ـ التعصب للآراء والرجال:

التعصب للآراء والرجال يحول بين المرء واتباع الدليل ومعرفة الحق، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ

---

(١) سبق قريباً.

(٢) أخرجه البخاري (١٠٠).

أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ [البَقَرَة: ١٧٠]، وهذا هو شأن المتعصبين اليوم من بعض مقلدي المذاهب والصوفية والقبوريين، إذا دعوا إلى اتباع الكتاب والسُّنَّة ونبذ ما هم عليه مما يخالفهما احتجوا بمذاهبهم ومشايخهم وآبائهم وأجدادهم.

٤ ـ التشبه بالكفار:

وهو من أشد ما يوقع في البدع، كما في حديث أبي واقد الليثي قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حنين ونحن حدثاء عهد بكفر، وللمشركين سدرة يعكفون عندها وينوطون بها أسلحتهم، يقال لها: ذات أنواط، فمررنا بسدرة، فقلنا: يا رسول الله، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط، فقال رسول الله ﷺ: «**قُلْتُمْ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ كَمَا قَالَ قَوْمُ مُوسَى:** ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ۝١٣٨﴾ [الأعرَاف: ١٣٨]، **إِنَّهَا السُّنَنُ، لَتَرْكَبُنَّ سُنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ**»[١].

ففي هذا الحديث أن التشبه بالكفار هو الذي حمل بني إسرائيل وبعض أصحاب محمد عليه الصلاة والسلام أن طلبوا هذا الطلب القبيح، وهو أن يجعل لهم آلهة يعبدونها ويتبركون بها من دون الله.

وهذا هو نفس الواقع اليوم؛ فإن غالب الناس من المسلمين قلدوا الكفار في عمل البدع والشركيات؛ كأعياد الموالد، وإقامة

(١) أخرجه الإمام أحمد (٢١٨٩٧)، والترمذي (٢١٨٠).

الأيام والأسابيع لأعمال مخصصة، والاحتفال بالمناسبات الدينية والذكريات، وإقامة التماثيل والنصب التذكارية، وإقامة المآتم وبدع الجنائز والبناء على القبور وغير ذلك.

الفصل الرابع

موقف الأمة الإسلامية من المبتدعة

ما زال أهل السُّنَّة والجماعة يردون على المبتدعة وينكرون عليهم بدعهم ويمنعونهم من مزاولتها، وإليك نماذج من ذلك:

١ ـ عن أم الدرداء، قالت: (دخل علي أبو الدرداء مغضباً، فقلت له: ما لك؟! فقال: والله ما أعرف فيهم شيئاً من أمر محمد إلا أنهم يصلون جميعاً)[١].

٢ ـ عن عمرو بن يحيى قال: سمعت أبي يحدث عن أبيه، قال: (كُنَّا نَجلِسُ عَلَى بَابِ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ ﷺ قَبْلَ صَلَاةِ الْغَدَاةِ، فَإِذَا خَرَجَ مَشَيْنَا مَعَهُ إِلَى الْمَسْجِدِ، فَجَاءَنَا أَبُو مُوسَى الأَشْعَرِيُّ ﷺ فَقَالَ: أَخَرَجَ إِلَيْكُمْ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ بَعْدُ؟ قُلْنَا: لَا، فَجَلَسَ مَعَنَا حَتَّى خَرَجَ، فَلَمَّا خَرَجَ قُمْنَا إِلَيْهِ جَمِيعاً، فَقَالَ لَهُ أَبُو مُوسَى: يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ إِنِّي رَأَيْتُ فِي الْمَسْجِدِ آنِفاً أَمْراً أَنْكَرْتُهُ، وَلَمْ أَرَ وَالْحَمْدُ للهِ إِلَّا خَيْراً. قَالَ: فَمَا هُوَ؟ فَقَالَ: إِنْ عِشْتَ فَسَتَرَاهُ، قَالَ: رَأَيْتُ فِي الْمَسْجِدِ قَوْماً حِلَقاً جُلُوساً يَنْتَظِرُونَ الصَّلَاةَ، فِي كُلِّ حَلْقَةٍ رَجُلٌ، وَفِي أَيْدِيهِمْ حَصىً، فَيَقُولُ: كَبِّرُوا مِئَةً فَيُكَبِّرُونَ مِئَةً، فَيَقُولُ: هَلِّلُوا مِئَةً فَيُهَلِّلُونَ مِئَةً، وَيَقُولُ: سَبِّحُوا مِئَةً فَيُسَبِّحُونَ

(١) أخرجه البخاري (٦٥٠).

مِئَةً، قَالَ: فَمَاذَا قُلْتَ لَهُمْ؟ قَالَ: مَا قُلْتُ لَهُمْ شَيْئاً، انْتِظَارَ رَأْيِكَ ـ أَوِ انْتِظَارَ أَمْرِكَ ـ قَالَ: أَفَلَا أَمَرْتَهُمْ أَنْ يَعُدُّوا سَيِّئَاتِهِمْ، وَضَمِنْتَ لَهُمْ أَنْ لَا يَضِيعَ مِنْ حَسَنَاتِهِمْ، ثُمَّ مَضَى وَمَضَيْنَا مَعَهُ، حَتَّى أَتَى حَلَقَةً مِنْ تِلْكَ الْحِلَقِ فَوَقَفَ عَلَيْهِمْ، فَقَالَ: مَا هَذَا الَّذِي أَرَاكُمْ تَصْنَعُونَ؟ قَالُوا: يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ حَصىً نَعُدُّ بِهِ التَّكْبِيرَ وَالتَّهْلِيلَ وَالتَّسْبِيحَ، قَالَ: فَعُدُّوا سَيِّئَاتِكُمْ فَأَنَا ضَامِنٌ أَنْ لَا يَضِيعَ مِنْ حَسَنَاتِكُمْ شَيْءٌ، وَيْحَكُمْ يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ! مَا أَسْرَعَ هَلَكَتَكُمْ! هَؤُلَاءِ صَحَابَةُ نَبِيِّكُمْ ﷺ مُتَوَافِرُونَ وَهَذِهِ ثِيَابُهُ لَمْ تَبْلَ وَآنِيَتُهُ لَمْ تُكْسَرْ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّكُمْ لَعَلَى مِلَّةٍ هِيَ أَهْدَى مِنْ مِلَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، أَوْ مُفْتَتِحُوا بَابِ ضَلَالَةٍ، قَالُوا: وَاللهِ يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ مَا أَرَدْنَا إِلَّا الْخَيْرَ، قَالَ: وَكَمْ مِنْ مُرِيدٍ لِلْخَيْرِ لَنْ يُصِيبَهُ، إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ حَدَّثَنَا: أَنَّ قَوْماً يَقْرَؤُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ، وَايْمُ اللهِ مَا أَدْرِي لَعَلَّ أَكْثَرَهُمْ مِنْكُمْ، ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ فَقَالَ عَمْرُو بْنُ سَلِمَةَ: رَأَيْنَا عَامَّةَ أُولَئِكَ الْحِلَقِ يُطَاعِنُونَا يَوْمَ النَّهْرَوَانِ مَعَ الْخَوَارِجِ)[(١)].

٣ ـ جاء رجل إلى الإمام مالك بن أنس رَحِمَهُ اللهُ، فقال: من أين أحرم؟ فقال: من الميقات الذي وقّت رسول الله ﷺ وأحرم منه، فقال الرجل: فإن أحرمت من أبعد منه؟ فقال مالك: لا أرى ذلك، فقال: ما تكره من ذلك؟ قال: أكره عليك الفتنة، قال: وأي فتنة في ازدياد الخير، فقال مالك: فإن الله تعالى يقول: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ

(١) سنن الدارمي (٢١٠).

﴿يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [النُّور: ٦٣]، وأيُّ فتنة أعظم من أنك خُصِصْتَ بفضل لم يختص به رسول الله ﷺ؟!)[١].

وهذه مجرد أمثلة وهي غيض من فيض، ولا زال العلماء ينكرون على المبتدعة في كل عصر، والحمد لله.

❁ ❁ ❁

(١) انظر: حلية الأولياء (٦/ ٣٢٦)، وشرح أصول اعتقاد أهل السُّنَّة للإمام اللالكائي (٢٩٤)، والإبانة الكبرى (٩٨)، والاعتصام للشاطبي (١/ ١٧٤).

الفصل الخامس

منهج أهل السُّنَّة والجماعة في الرد على أهل البدع

منهج أهل السُّنَّة والجماعة في الرد على أهل البدع مبني على الكتاب والسُّنَّة، وهو المنهج المقنع المفحم؛ حيث يوردون شبه المبتدعة وينقضونها، ويستدلون بالكتاب والسُّنَّة على وجوب التمسك بالسنن والنهي عن البدع والمحدثات.

وقد ألَّفوا المؤلفات الكثيرة في ذلك، وردوا في كتب العقائد على الشيعة والخوارج والجهمية والمعتزلة والأشاعرة في مقالاتهم المبتدعة في أصول الإيمان والعقيدة، وألَّفوا كتباً خاصة في ذلك؛ كما ألَّف الإمام أحمد كتاب «الرد على الجهمية»، وألَّف غيره من الأئمة في ذلك؛ كعثمان بن سعيد الدارمي، وكما في كتب شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم، والشيخ محمد بن عبد الوهاب وغيرهم من الرد على تلك الفرق وعلى القبورية والصوفية.

وأما الكتب الخاصة في الرد على أهل البدع فهي كثيرة، منها على سبيل المثال من الكتب القديمة:

١ ـ كتاب «الاعتصام» للإمام الشاطبي.

٢ ـ كتاب «اقتضاء الصراط المستقيم» لشيخ الإسلام ابن تيمية (ت٧٢٨هـ)؛ فقد استغرق الرد على المبتدعة جزءاً كبيراً منه.

٣ ـ كتاب «إنكار الحوادث والبدع» لمحمد بن وضاح الأندلسي (ت٢٨٦هـ).

٤ ـ كتاب «الحوادث والبدع» للطرطوشي.

٥ ـ كتاب «الباعث على إنكار البدع والحوادث» لأبي شامة.

ومن الكتب العصرية:

١ ـ كتاب «الإبداع في مضار الابتداع» للشيخ علي محفوظ (ت١٣٦١هـ).

٢ ـ كتاب «السنن والمبتدعات المتعلقة بالأذكار والصلوات» للشيخ محمد بن أحمد الشقيري الحوامدي.

٣ ـ رسالة «التحذير من البدع» للشيخ عبد العزيز بن باز (ت١٤٢٠هـ) رحمه الله تعالى.

ولا يزال علماء المسلمين ـ والحمد لله ـ ينكرون البدع، ويردون على المبتدعة من خلال الصحف والمجلات والإذاعات وخطب الجمع والندوات والمحاضرات، مما له كبير الأثر في توعية المسلمين، والقضاء على البدع، وقمع المبتدعين.

❁ ❁ ❁

الفصل السادس

في بيان نماذج من البدع المعاصرة

والنماذج هي:

١ ـ الاحتفال بالمولد النبوي.

٢ ـ التبرك بالأماكن والآثار والأموات ونحو ذلك.

٣ ـ البدع في مجال العبادات والتقرب إلى الله.

والبدع المعاصرة كثيرة؛ بحكم تأخر الزمن، وقلة العلم، وكثرة الدعاة إلى البدع والمخالفات، وسريان التشبه بالكفار في عاداتهم وطقوسهم؛ مصداقاً لقوله ﷺ: «**لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ قَبْلَكُمْ**»(١).

أولاً: الاحتفال بمناسبة المولد النبوي في ربيع الأول:

ومن هذا التشبُّه: التشبه بالنصارى في عمل ما يسمى بالاحتفال بالمولد النبوي.

يحتفل جهلة المسلمين أو العلماء المضلين في ربيع الأول من كل سنة بمناسبة مولد الرسول ﷺ؛ فمنهم من يقيم هذا الاحتفال في المساجد، ومنهم من يقيمه في البيوت أو الأمكنة المعدة لذلك، ويحضره جموع كثيرة من دهماء الناس وعوامهم؛ يعملون ذلك تشبهاً بالنصارى في ابتداعهم الاحتفال بمولد المسيح عليه السلام.

(١) أخرجه البخاري (٣٤٥٦).

والغالب أن هذا الاحتفال ـ علاوة على كونه بدعة وتشبهاً بالنصارى ـ لا يخلو من وجود الشركيات والمنكرات؛ كإنشاد القصائد التي فيها الغلو في حق الرسول ﷺ إلى درجة دعائه من دون الله والاستغاثة به، وقد نهى النبي ﷺ عن الغلو في مدحه، فقال: «**لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ فَإِنَّمَا؛ أَنَا عَبْدُهُ فَقُولُوا: عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ**»(١).

والإطراء معناه: الغلو في المدح، وربما يعتقدون أن الرسول ﷺ يحضر احتفالاتهم.

ومن المنكرات التي تصاحب هذه الاحتفالات الأناشيد الجماعية المنغمة وضرب الطبول وغير ذلك من عمل الأذكار الصوفية المبتدعة، وقد يكون فيها اختلاط بين الرجال والنساء، مما يسبب الفتنة ويجر إلى الوقوع في الفواحش.

وحتى لو خلا هذا الاحتفال من هذه المحاذير، واقتصر على الاجتماع وتناول الطعام وإظهار الفرح كما يقولون؛ فإنه بدعة محدثة و«**كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ**»(٢)، وأيضاً هو وسيلة إلى أن يتطور ويحصل فيه ما يحصل في الاحتفالات الأخرى من المنكرات.

وقلنا: إنه بدعة؛ لأنه لا أصل له في الكتاب والسُّنَّة وعمل السلف الصالح والقرون المفضلة، وإنما حدث متأخراً بعد القرن الرابع الهجري، أحدثه الفاطميون الشيعة.

(١) أخرجه البخاري (٣٤٤٥).
(٢) سبق قريباً.

قال الإمام أبو حفص تاج الدين الفاكهاني رَحِمَهُ اللَّهُ: (أما بعد؛ فقد تكرر سؤال جماعة من المباركين عن الاجتماع الذي يعمله بعض الناس في شهر ربيع الأول، ويسمونه المولد؛ هل له أصل في الشرع؟ أو هو بدعة وحدث في الدين؟.

وقصدوا الجواب عن ذلك مُبَيَّناً والإيضاح عنه معيناً.

فقلت وبالله التوفيق: لا أعلم لهذا المولد أصلاً في كتاب ولا سُنَّة، ولا ينقل عمله عن أحد من علماء الأمة، الذين هم القدوة في الدين، المتمسكون بآثار المتقدمين، بل هو بدعة أحدثها البطالون، وشهوة نفس اغتنى بها الأكَّالون)[(١)].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: (وكذلك ما يحدثه بعض الناس إما مضاهاة للنصارى في ميلاد عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وإما محبة للنبي ﷺ وتعظيماً... من اتخاذ مولد النبي ﷺ عيداً، مع اختلاف الناس في مولده؛ فإن هذا لم يفعله السلف، ولو كان هذا خيراً محضاً أو راجحاً؛ لكان السلف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أحق به منا؛ فإنهم كانوا أشد محبة للنبي ﷺ وتعظيماً له منا، وهم على الخير أحرص، وإنما كان محبته وتعظيمه في متابعته وطاعته، واتباع أمره وإحياء سُنَّته باطناً وظاهراً، ونشر ما بعث به والجهاد على ذلك بالقلب واليد واللسان؛ فإن هذه طريقة السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان)[(٢)]. انتهى.

(١) المورد في عمل المولد النبوي (ص٨ ـ ٩).
(٢) انظر: اقتضاء الصراط المستقيم (١/ ١٢٣ ـ ١٢٤).

وقد أُلِّفَت في إنكار هذه البدعة كتب ورسائل قديمة وحديثة، وهو علاوة على كونه بدعة وتشبهاً فإنه يجر إلى إقامة موالد أخرى؛ كموالد الأولياء والمشايخ والزعماء، فيفتح أبواب شر كثيرة.

ثانياً: التبرك بالأماكن والآثار والأشخاص أحياءً وأمواتاً:

التبرك: طلب البركة، والبركة ثبات الخير في الشيء وزيادته، وطلب ثبوت الخير وزيادته إنما يكون ممن يملك لك ويقدر عليه، وهو الله سبحانه؛ فهو الذي ينزل البركة ويثبتها، أما المخلوق: فإنه لا يقدر على منح البركة وإيجادها، ولا على إبقائها وتثبيتها.

فالتبرك بالأماكن والآثار والأشخاص أحياءً وأمواتاً لا يجوز؛ لأنه إما شرك إن اعتقد أن ذلك الشيء يمنح البركة، أو وسيلة إلى الشرك إن اعتقد أن زيارته وملامسته والتمسح به سبب لحصولها من الله.

وأما ما كان الصحابة يفعلونه من التبرك بشعر النبي ﷺ وريقه وما انفصل من جسمه ﷺ فذلك خاص به ﷺ وفي حال حياته؛ بدليل أن الصحابة لم يكونوا يتبركون بحجرته وقبره بعد موته، ولا كانوا يقصدون الأماكن التي صلى فيها أو جلس فيها؛ ليتبركوا بها، وكذلك مقامات الأولياء من باب أولى، ولم يكونوا يتبركون بالأشخاص الصالحين؛ كأبي بكر وعمر وغيرهما من أفاضل الصحابة؛ لا في الحياة ولا بعد الموت، ولم يكونوا يذهبون إلى غار حراء، ليصلوا فيه أو يدعوا، ومن باب أولى أنهم لم يكونوا يذهبون إلى الطور الذي كلم الله عليه موسى؛ ليصلوا فيه ويدعوا،

أو إلى غير هذه الأمكنة من الجبال التي يقال: إن فيها مقامات الأنبياء أو غيرهم، ولا إلى مشهد مبني على أثر نبي من الأنبياء.

وأيضاً فإن المكان الذي كان النبي ﷺ يصلي فيه بالمدينة النبوية دائماً لم يكن أحد من السلف يستلمه ولا يقبله، ولا الموضع الذي صلى فيه بمكة وغيرها؛ فإذا كان الموضع الذي كان يطؤه بقدميه الكريمتين ويصلي عليه لم يشرع لأمته التمسح به ولا تقبيله؛ فكيف بما يقال: إن غيره صلى فيه أو نام عليه؟! فتقبيل شيء من ذلك والتمسح به قد علم العلماء بالاضطرار من دين الإسلام أن هذا ليس من شريعته ﷺ.

ثالثاً: البدع في مجال العبادات والتقرب إلى الله:

البدع التي أحدثت في مجال العبادات في هذا الزمان كثيرة؛ لأن الأصل في العبادات التوقيف؛ فلا يشرع شيء منها إلا بدليل، وما لم يدل عليه دليل فهو بدعة؛ لقوله ﷺ: «**مَنْ عَمِلَ عَمَلاً لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ**»(١).

والعبادات التي تمارس الآن ولا دليل عليها كثيرة جدًّا:

منها: الجهر بالنية للصلاة؛ بأن يقول: نويت أصلي لله كذا وكذا، وهذا بدعة؛ لأنه ليس من سُنَّة النبي ﷺ، ولأن الله تعالى يقول: ﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾﴾ [الحجرات: ١٦]، والنية محلها القلب؛ فهي عمل قلبي لا عمل لساني.

(١) سبق قريباً.

ومنها: الذكر الجماعي بعد الصلاة؛ لأن المشروع أن كل شخص يقول الذكر الوارد منفرداً.

ومنها: طلب قراءة الفاتحة في المناسبات وبعد الدعاء للأموات.

ومنها: إقامة المآتم على الأموات وصناعة الأطعمة واستئجار المقرئين؛ يزعمون أن ذلك من باب العزاء، أو أن ذلك ينفع الميت، وكل ذلك بدعة لا أصل له، وآصار وأغلال ما أنزل الله بها من سلطان.

ومنها: الاحتفال بالمناسبات الدينية؛ كمناسبة الإسراء والمعراج، ومناسبة الهجرة النبوية، وهذا الاحتفال بتلك المناسبات لا أصل له من الشرع.

ومن ذلك: ما يفعل في شهر رجب؛ كالعمرة الرجبية، وما يفعل فيه من العبادات الخاصة به؛ كالتطوع بالصلاة والصيام فيه؛ فإنه لا ميزة له على غيره من الشهور؛ لا في العمرة والصيام والصلاة والذبح للنسك فيه ولا في غير ذلك.

ومن ذلك: الأذكار الصوفية بأنواعها كلها بدع ومحدثات؛ لأنها مخالفة للأذكار المشروعة في صيغتها وهيئاتها وأوقاتها.

ومن ذلك: تخصيص ليلة النصف من شعبان بقيام، ويوم النصف من شعبان بصيام؛ فإنه لم يثبت عن النبي ﷺ في ذلك شيء خاص به.

ومن ذلك: البناء على القبور، واتخاذها مساجد، وزيارتها

لأجل التبرك بها، والتوسل بالموتى، وغير ذلك من الأغراض الشركية، وزيارة النساء لها؛ مع أن الرسول ﷺ لعن زوارات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج.

وختاماً نقول: إن البدع بريد الكفر، وهي زيادة دين لم يشرعه الله ولا رسوله، والبدعة شر من المعصية الكبيرة، والشيطان يفرح بها أكثر مما يفرح بالمعاصي الكبيرة؛ لأن العاصي يفعل المعصية وهو يعلم أنها معصية فيتوب منها، والمبتدع يفعل البدعة يعتقدها ديناً يتقرب به إلى الله فلا يتوب منها.

والبدع تقضي على السنن، وتكره إلى أصحابها فعل السنن وأهل السُّنَّة.

والبدعة تباعد عن الله وتوجب غضبه وعقابه وتسبب زيغ القلوب وفسادها.

❁ ❁ ❁

الفصل السابع

ما يعامل به المبتدعة

تحرم زيارة المبتدع ومجالسته، إلا على وجه النصيحة له والإنكار عليه؛ لأن مخالطته تؤثر على مخالطه شرًّا، وتنشر عدواه إلى غيره.

ويجب التحذير منهم ومن شرهم إذا لم يمكن الأخذ على أيديهم ومنعهم من مزاولة البدع، وإلا فإنه يجب على علماء المسلمين وولاة أمورهم منع البدع والأخذ على أيدي المبتدعة وردعهم عن شرهم؛ لأن خطرهم على الإسلام شديد.

ثم إنه يجب أن يعلم أن دول الكفر تشجع المبتدعة على نشر بدعتهم، وتساعدهم على ذلك بشتى الطرق؛ لأن في ذلك القضاء على الإسلام وتشويه صورته، والله أعلم.

نسأل الله ﷻ أن ينصر دينه، ويعلي كلمته، ويخذل أعداءه.

وصلَّى الله على نبينا محمد وآله وصحبه.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع — الصفحة